تاريخ غزوات العرب

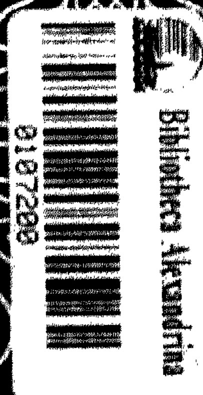
في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط

تأليف

الأمير شكيب ارسلان

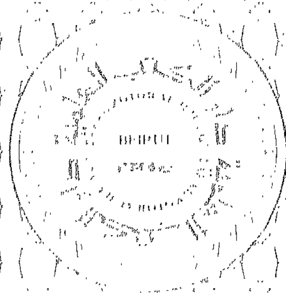
من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

وفقه الله لما يرضاه



دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان





تاريخ غزوات العرب

في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

تأليف

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

وفقه الله لما يرضاه

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



عطوفة الامير شكيب أرسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا إليك نفزع من مداحض القدم ؛ وبك نستعصم فى ما يجرى به القلم . ونشهد أن لا إله الا أنت وحدك لا شريك لك بارئ النسم ومفيض النعم ، وباسط الوجود على العدم ، شهادة نعدها للنجاة اذا اشتدت الغمم ، ونتقى بها النار ذات الضرم . ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك سيد من دعا الى توحيدك من بين الأمم ، وسلطان من طهر الأرض من عبادة الصنم ، المنزل عليه كلامك الموصوف بالقدم ، المبعوث بالآيات الباهرة والحكم . اللهم صل عليه وعلى آله لهاميم العرب ومعادن الكرم ، وأصحابه حملة الكتاب وليوث الكتائب فى المزدحم ، الذين أشرقت شموسهم فى الشرق والغرب فأماطت الظلم وأنارت الظلم ، وسلم يارب كثيراً

وبعد فانه مما يجب أن يخلد فى الصدور قبل السطور ، وأن يكتب على الحدق قبل الورق ، ان حفظ التاريخ هو الشرط الأول لحفظ الأمم ونموّها ، ورقىّ الأقوام وسموّها ، وانه لا يتصور على وجه الكرة وجود أمة تشعر بذاتها وتعرف نفسها قائمة بنفسها الا اذا كانت حافظةً لتاريخها واعيةً لماضيها ، متذكرة لأوليّاتها ومبادئها ، مقيدة لوقائعها مسلسلة لانسابها حاشدة لاحسابها خازنة لآدابها ، مما لا يقوم به الا علم التاريخ الذى هو الواصل بين الماضى والمستقبل ، والرابط بين الآنف والمستأنف . وانه لا جدال فى كون الأمة العربية التى تتحفز لتنباع وتستوفز لتمدَّ طائل الباع ، لم تكن لتحدث نفسها بالنهوض الذى جعلته نصب نواظرها والاتحاد الذى سيّرته شغل خواطرها لو لم تكن رقت من رئاسة الممالك فيما غبر هاتيك الدرجات العالية ، وطالعت من تاريخها تلك الصفحات المتلالية فجعلت الحاضر منها يخجل أن يقصر عن شأو الغابر ويستطار أن يعلم أباه سيداً فى الأوائل وهو عبد فى الأواخر ، فكان اذاً تاريخ العرب هو عمدة العرب فيما يطمحون اليه من معال ، ووسيلتهم فيما يندفعون الى تحقيقه

من آمال. ولعمرى ان هذا التاريخ المجيد وان سقته سيول المحابر واخضرّت له أعواد المنابر، وسبقت فيــه تآليف استولى أصحابها على الأمد إخراجا، ولمعت فيه كتب لو لاحت لـكانت بروجاً ولو نضدت لـكانت أبراجا، لاتزال فيه نواقص بادية العوار ومعالم طامسة الآثار. ومظانّ متوارية غامضة، ومعلومات قاعدة غير ناهضة، تحتاج إلى همم بعيــدة من الأفواج الآتية ليثيروا من دفائنها، والى معارف واسعة عند السلائل المقبلة لينثلوا من كنائنها. وان من أخص ما أهمل العرب فيه التأليف مع أنه من أمجد ماضيهم وألمع ما لمعت فيه مواضيهم هو الدور الذى كان لهم فى القارة الأوربية خارجا عن الأندلس، وذلك كفتوحاتهم فى ديار فرنسة وايطالية وسويسرة وما كانوا يقولون له الأرض الـكبيرة ، وكفتوحاتهم لجزائر البحر المتوسط التى رفعوا فوقهــا أعلامهم حقبا طويلة، وأثّـروا فيها آثاراً كثيرة أثيرة . فان هذا الدور من أدوارهم يكاد يكون عند أبنائهم مجهولا ، بل ان كثيراً من ناشئتهم لا يعرفون عنه كثيراً ولا قليــلا . والحال انه من أقعس فتوحاتهم مجداً وأوعر مغازيهم غوراً ونجداً، وأدلّ أعمالهم على ما أوتوه من علو الهمم ومضاء العزائم. وما كان غالبا على أخلاقهم يومئــذ من احتقار الطوائح واستصغار العظائم . فلهذا خصصت بهــذا الموضوع كتابا مستقلاً أسميته « الحبيئة المنسية فى مقام العرب بجبال الالب والبلاد الافرنسية » وجعلت هــذا الـكتاب أشــبه بجزء من أجزاء كتابى الذى أنا مباشر تأليفه عن الأندلس باسم « الحلة السندسية فى الرحلة الاندلسية » وسيكون فيما أحزر أربعــة أو خمسة أجزاء ان لم يكن أكثر

هذا وقد رأيت أن أتوج هــذا الـكتاب باسم الملك العربى الصميم منزعاً ونسباً ، ذؤابة بيت الرسول الـكريم وحسبك بذلك شرفاً وطهراً وأماً وأباً، الذى وقف نفسه الأبية على خدمة أمته العربية عاملاً لنهضتها بعد ربضتها، ومجاهداً فى ربوتها بعد كبوتها فيصل بن الحسين ملك العراق والرافدين ، أطال الله أيامه ونصر أعــلامه وسدد آراءه وأحكامه، وأبلغه من مجــد العرب مرامه . وذلك بالاتفاق مع أخويه الامامين الهمامين

العاهلين العادلين ملكي الجزيرة العربية في هذا العصر، المكتوب لهما فيه باذن الله التمكين والنصر، الامام يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب مملكة اليمن السعيدة ، والملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود صاحب الدولة العربية السعودية، أيدهم الله جميعاً لتأييد هذه الأمة وصيانة ذمارها، وألهمهم دوام الائتلاف والاتحاد لما به تجديد مجدها وإقالة عثارها، حتى يعود أمرها كما بدا وترجع أيام عزها جُددا، وما ذلك على الله بعزيز

جنيف ١٩ ربيع الأول ١٣٥٢ — شكيب أرسلان

ملحق

قد كنت حررت هذه المقدمة منذ أشهر قلائل والملك فيصل في الحياة والأمة العربية تستمد حياتها السياسية من حياته، وتبني معظم آمالها على أصيل آرائه ومنصور راياته، وقبل أن يوشر طبع هذا الكتاب اختار الله هذا العربي الكبير لجواره، وكانت بموته الفادحة التي لم يرزأ العرب بمثلها، وقامت نوادبهم وسالت مدامعهم في كل غور ونجد من أجلها، فلم نشأ أن نغير شيئاً من مقدمة هذا الكتاب بل أبقيناه متوجاً باسمه كما لو كان في الحياة اذ أننا لا نزال نعد فيصلا حيا في القلوب والخواطر وان غاب بوجهه الكريم عن النواظر لا سيما ان المرحوم كان قد سمع بخبر هذا التأليف وسألني ، واحسرتاه عليه اذ كان مؤخراً في برن ، عنه وعن مباحثه وعما أمكنني الاطلاع عليه من آثار العرب في القرى السويسرية التي كان انتهى الى سمعه أنني ذهبت إليها ونقبت فيها. وكان مهتما بهذا الموضوع مرتاحا الى نشر هذا الكتاب كما كان مرتاحا الى نشر كل أثر عربي . وما كان فيصل رحمه الله الا رمزاً للقضية العربية والرمز لا يموت عند قومه . فاذا كان فيصل قد مات فلن يموت تذكاره ولا تمحى آثاره. ولنا نعم العزاء في جلالة ولده المعظم الملك غازي الأول الذي نرتقب من هلاله بدراً نامياً ، ونرجو من كرم الحق تعالى أن يجعله فيصلاً ثانياً . آمين

جنيف ١٤ جمادى الثانية ١٣٥٢ — شكيب أرسلان

كلمة بين يدى رحلتى

لتتبع الآثار العربية فى الأقطار الغربيــة

ليس بعجيب أن يكون مثلى مغرما بالأندلس وآثار العرب فيهـا وفيما جاورها من الأصقاع الأوربيــة ، فإن كل عربى صميم حقيق بأن يبحث عن آثار قومه ويتعلم مناقب أجداده ويتدارس معالى هممهم مع إخوانه ويترك من ذلك تراثاً خالداً لأعقابه . ولعمرى ان آثار العرب فى الأندلس هى غرة شادخة وهمة شامخة فى تاريخ الأمة العربية . بل نقول ولا نخشى مغالطاً انها من أنفس ما أثّره العرب ، بل من أنفس ما أثره البشر فى الأرض . فلا غرو أن يعجب بها العربى وينقب عنها ويشد الرحال اليهـا ويأخذ العبرة اللازمة منها ، فليست هى الآية الناطقة والبينة القاطعة على مجدنا الماضى وعلى ما قدرنا أن نعمله فى سالف الحقب فحسب ، بل هى الحجة الملزمة والآية المعجزة المفحمة على جدارتنا بالاستقلال التام ، وكفايتنا اذا ملكنا الاستقلال أن نحسن الاضطلاع بالأحكام . وهى أيضاً الدلالة على أننا نقدر أن نعمل فى الأعصر المستأنفة ما عملناه فى الأعصر السالفة اذا تركنا الأجانب وشأننا

كنت اذاً منذ ريعان شبابى وغضاضة اهابى مولعاً بحضارة الأندلس العربية وآثارها، مشغوفاً بتاريخها وأخبارها حتى أنى منذ أربع وثلاثين سنة وهى مدة يصح أن تسمى دهراً نقلت من الافرنسية الى العربية رواية الكاتب الأشهر شاتوبريان المسماة بآخر بنى سراج ، وذيلت تلك الرواية المترجمة بتاريخ للأندلس استخلصته من الكتب العربية والأوربية ، وأجلت معظم قداح البحث فيه عن سقوط مملـــكة غرناطة وجلاء العرب الأخير عن تلك الجزيرة لأن هذه الحقبة من ذلك التاريخ كادت تكون فى عصرنا مجهولة، وقد صادف ظهور هذا الكتاب مبدأ النهضة العربية فكان

له فى النواحى رنة نواح،وسال له من المآقى مدمع سفّاح،وتجدّدت تذكارات أشج
وبلغ التأثير من قلوب جميع الذين قرأوه انهم كانوا يتلونه المرة بعد المرة شفاء لما
صدورهم،أشبه بالثكلى التى لا يشفى ما بها سوى ذرف دموعها ولطم خدودها وتله
آثار مفقودها، وكانت بازدياد النهضة العربية تزداد الرغبة فى هذا المقام وتشرئب
الأندلس الأعناق وتتحلّب على ذكراها الشفاه، فأعدت من سنين قلائل طبع الر
المذكورة «آخر بنى سراج» مع ذيلها،وأضفت اليهما تاريخاً قديماً عن سقوط غرن
عثرت عليـه فى مدينة مونيخ عاصمة بافاريا يسمى « أخبار العصر فى انقضاء د
بنى نصر » لمؤلف لم يذكر اسمه فيه، لكنه يترجح كثيراً مما لحظنا من كلامه أنه
ممن حضر الوقائع بنفسه أو ممن عاصر أهلها ، لأنه يسرد أخبارها سرد من شاه
بالعيان ، أو من روى عمن شاهدها ، وأظن المقرى عنـد ما كتب نفح الطيب
مطلعاً على ذلك الكتاب،لأنى رأيت فى كتاب«أخبار العصر» هذا جملا كثيرة رأ
فى النفح بحروفها. نعم أعدت طبع كتابى ذاك عن الأندلس مضموماً اليه هذا الكت
الذى عثرت عليه فى مونيخ غُفْلاً من اسم مؤلفه ومعه أربعة مراسيم سلطانية
السلطان أبى الحسن علي بن الأحمر والد أبى عبد الله آخر ملوك العرب بالأندلس ال
سلم غرناطة الى الملك فرديناند والملكة ايزابلا ، وكان طبعى لهذه الكتب منذ ثم
سنوات بمطبعة المنار الشهيرة بمصر

ولكن كل هذا لم ينقع غلتى ولم يشف مابى من أمر الأندلس، وبقيت بعد معرف
بالقلم متشوقاً الى مشاهدتها بالعيان والتجوال فيها بالقدم ، استزادة من معرفة أخبار
واقتصاص آثارها ووفاء بواجب ازديارها . وما زلت أحدث نفسى برحلة أقوم بها
تلك الديار التى ترك لنا عنها آباؤنا أجمل تذكار وتعوقنى العوائق عنها وتعترضنى الأشغ
من دونها وأنا أخشى أن توافينى المنية قبل تحقيق هـذه الأمنية الى أن يسر الله ه
الرحلة منـذ ثلاث سنوات والأمور مثل النفوس مرهونة بالآجال . وكنت مو

النفس على السفر الى الأندلس فى ربيع سنة ١٣٤٨ وفق سنة ١٩٣٠ لجدت شؤون وطرأت طوارئ اقتضت أن نراجع جمعية الأمم فى جنيف مراجعات مستمرة قضت علىّ بأن لا أفارق جنيف فى تلك الآونة بحيث انه أقبل الصيف يسحب من ذيله، وجاء الحر هاجما برجله وخيله ، فأخذ بعض الإخوان يشيرون علىّ بتأخير الرحلة الى الشتاء التالى أو الى الربيع الذى وراءه ذهابا الى أن السياحة فى أسبانيـة لا تلائم فى أيام القيظ لا سيما القطعة الأندلسية التى أنا قاصدها . فلم يكن ذلك ليغير من نيتى ولا ليرخى من مشدود طيتى ، لأنى لم أبرح فى هذه المسألة منذ ثلاثين سنة أمنى بها النفس، وكلما حدا سائق بدا عائق ، ونحن نعتمد على التأخير والتسويف ونعلل النفس بشتاء وصيف وربيع وخريف، وقد عرفنا أكثر البلاد الأوروبية ولم تبق مدينة فيها الا دخلناها وربما بدل المرة الواحدة مراراً ، وقتلنا أحوالها درساً واختباراً ، ولم يبق من أوربة ما لم نعرفه سوى الاصقاع الإسكندنافية فى الشمال والبلاد الأسبانية فى الجنوب . فأما الأولى فانه يجوز لمثلنا أن يعرفها كما أنه يجوز له أن لا يعرفها إذا عاقته العوائق عن معرفتها ، ولكن الأندلس التى نحنّ اليها منذ نعومة الأظفار ونقرأ عنها بل نؤلف الأسفار ، فانه لا يجوز لمثلنا أن يتأخر عن السفر اليها ونحن لا نزال انضاء أسفار بين الأقطار. وعليه انتهزنا هذه الفرصة واغتنمنا من وقتنا هذه الخلسة قاصدين الى الأندلس عن طريق فرنسة التى حصلنا على رخصة المرور بها أياما معدودات. وذلك أنه لما كان الغرض الأصلي من الرحلة اقتراء آثار العرب كيف حلّوا وأنى ارتحلوا من هذه الديار الغربيـة كان لا بد لنا أولاً من زيارة فرنسة التى كانت للعرب فيها جولة، بل كانت لهم فى جنوبيها دولة وصولة،وطالما عصفت ريحهم ببلاد الإفرنجة بعد أن عصفت ببلاد القوط والجلالقة والباشكنس وغـيرهم من أمم الغرب التى خفضوا دعائمها ونقضوا مرائرها ، وكادوا يلحقون بأولها آخرها . وها أنا ذا أحدث عن سياحتى :

فى ١٨ يونيو قبل الظهر من سـنة ١٩٣٠ فصلت من لوزان قاصداً الى باريس فوصلت الى تلك العاصمة ليلا . وكان قد عرف بقدومى شابان من نخبـة أدباء المغاربة السيد احمد بلافريج من ذوائب بيوتات الأندلسيين فى رباط الفتح، والسيد محمد الفاسى من آل الجد الفهريين الأندلسيين من أعيان فاس . فمـا نزلت من القطار حتى وجدتهما أمامى فى المحطة وركبنا معاً الى فندق أورليانـ پالاس فى شارع برون « Boulevard Brune » وتحدثت اليهما فى موضوع رحلتى وكان ذلك قبل ميعاد عطلة الدروس التى كانا يريدان بعدها السفر الى وطنهما فاتفقنا على أن يوافيـانى الى مجريط ليرافقانى فى بعض هذه السياحة، وبعد ذلك بأيام قلائل مرّا علىّ بالفعل إذ أنا فى فنـدق رومة فى عاصمة الأسبانيول . وكان فى اليوم التالى من وصولى الى باريس أقبـل علينا أولادنا الطلبـة السوريون وأنسنا بلقائهم واجتمعنا مع فئة من نخبتهم فى المطعم العربى الذى بقرب الجامع . وبعدها ذهبت أنا والسيدان محمد الفاسى وأحمد بلافريج الى مكتبة غوتنر المتخصصة بالكتب الشرقية حيث اشتريت بعض كتب عربية أكثرها يتعلق بالأندلس . وصادف أنى لدى نزولى فى أورليان پالاس وجدت صديقى الحميم حسين رؤوف بك بطل الدارعـة حميدية الشهير ورئيس نظار أنقرة سابقاً وناظر البحرية العثمانية من قبل، فسررت بلقائه كثيراً لأن آخر العهد بيننا كان فى الاستانة سنة ١٩٢٤ وكذلك جاء لزيارتى هناك رحمى بك الذى كان والياً لأزمير أيام الحرب الكبرى وكان من أركان جمعية الاتحاد والترقى فى تركيا وهو من أعز إخوانى واخوان ابن عمى الأمير أمين مصطفى أرسلان، فكانت لى بغير ميعاد فرحة عظيمة بالاجتماع بهذين الخليلين اللذين طال عهـدى بلقائهما وذهبنا الى المطعم العربى فأوصينا على مطاعم مغربية ، وسمعنا من شجى ألحان الموسيقى العربية ولا سيما الألحان الأندلسـية ، وسمرنا أجمل سمر وكانت ليلة كلها سحر . وبعد إقامة خمسة أيام بباريز

ركبت القطار الحديدى الى تولوز « طلوزة » وجاء لوداعى الى المحطة جمهور من شبان العرب بباريز وهتفوا فى المحطة : فليحى العرب

ووصلت الى طلوزة بعد مسيرة ثمانى ساعات بالقطار ونزلت فى فندق قريب من محطتها اسمه « ترمينوس [١] » وفى اليوم التالى قصدت قرقشونة [٢] التى فيها الآثار الشهيرة فزرت البلدة والقلعة وصعدت الى الأسوار وجولت فى تلك الحصون نحواً من ساعتين، ورجعت فى المساء الى طلوزة، والمسافةبالقطار بين هاتين البلدتين لا تزيد على ساعتين

﴿ الكلام على طلوزة وقرقشونة ﴾

رأيت مناسباً ابتداء الكلام على فرنسة العربية قبل الانتقال الى اسبانية العربية وذلك بناء على كونى بدأت رحلتى من فرنسة . ولما كان غرضى من هذه الرحلة هو استقصاء آثار العرب وأخبارهم أينما كانوا وحلوا من القارة الأوربية توخيت أن لا أخرج عن هذا الصدد الا نادراً مما يقتضيه سياق البحث . فلو كنت زرت الأندلس مبتدئاً من المكان الذى دخل منه العرب أى من الجنوب لكان الترتيب يقضى على بأن أبدأ بجبل طارق فالجزيرة الخضراء فشريش فاشبيلية فقرطبة فطليطلة وهلم جراً نحو الشمال، وأن أنتهى بأربونة فقرقشونة ونيم وأفينيون الى جبال الألب بين ايطالية وفرنسة وسويسرة . وهكذا كان ينبغى أن أفعل لو كنت حراً أن أسكن فى هذه الأيام وطنى سورية فكان السفر منها الى الأندلس على الطريق الذى سلكه أجدادنا عند فتحهم تلك الديار وهى طريق المغرب . ولكن الغربة التى تطوحنا بها بسبب نضالنا عن استقلال وطننا قضت علينا بأن نسكن أوربة وأن نقصد الأندلس

---

(1) Terminus

(2) Carcassonne

من شماليها لا من جنوبيها أى من حيث نحن مقيمون الآن ومن حيث انتهى العرب في فتوحاتهم الأوربية لا من حيث ابتدأوا بها . ولما كان القصود هو كما قلنا من استقراء آثار السلف وتأثر خطواتهم حيث دل عليها التاريخ وأثبتها الأثر من قارة أوروبة بدون تقيد بمكان معين وبدون التزام ما شاهدناه من هذه الأماكن بالعين بل باطراد الكلام على ما شاهدناه الى ما لم نشاهده مما جاوره ودخل تحت حكمه ، أى جميع ما قيل ان أقدام العرب وطئته من هذه البلدان فى حملتهم الأولى على الغرب ، لم يكن لنا بد من أن نتناول طلوزة وقرقشونة وأربونة ونيم وأفينيون وليون . وليست هذه فقط بل جميع البلاد التى احتلوها من جنوبى فرنسة وما صاقب ذلك من شمالى ايطالية، وما ناوح ذلك من جبال الالب العالية الواقعة اليوم بين هذه الممالك الثلاث: فرنسة وايطالية وسويسرة ، الى حدود بحيرة كونستانزة من ألمانية

فكان هذا الكتاب وإن استقل باسم «تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط » هو فى الحقيقة جزءاً من رحلتى الأندلسية التى نحن بسبيلها لأنها هى خاتمة مطاف العرب فى أوروبة وفاتحة ما أفاضوا اليه من الممالك بعد فتحهم للأندلس . واذا لحظت أنى قد بدأت بالرحلة وبتاريخ حملة العرب على أوروبة من هذه الجهة كان لك أن تقول انى جعلت أولاً ما كان ينبغى أن يكون آخراً،فان هذا الجزء هو الآخر باعتبار فتوحات العرب ولكن قضت الأقدار بأن يكون هو الأول باعتبار ترتيب سياحتى التى بدأت فيها من الشمال الى الجنوب فرأيت أنا أولاً ما فتحوه هم أخيراً ورأيت آخراً ما احتلوه هم أولاً .

وبالجملة فموضوع هذا الكتاب هو أيام العرب، فى فرنسة وفى شمالى ايطالية وقلب سويسرة.وهو أول تأليف عربى مستقل فى هذا الموضوع

طلوزة TOULOUSE

كانت طلوزة فى قديم الدهر حارات متفرقة ولم تأخذ شكل مدينة الا فى أيام الرومانيين ، ومن ثم صارت قاعدة مملكة التكتوزاجيين (١) ومركز علم وصناعة ودخلت فيها النصرانية بواسطة القديس سيرنيه . وبعد أن سقطت سلطنة رومة صارت طلوزة عاصمة ملوك القوط ، وبقيت دار مملكتهم من سنة ٤١٩ للمسيح الى سنة ٥٠٨ وكانت حينئذ قاعدة بلاد أكيتانية المنضمة الى أسبانية . وسنة ٧٧٨ صارت كونتية مستقلة واشتهر من أمرائها الكونت ريموند الرابع ولم تنضم الى مملكة فرنسة إلا سنة ١٢٧١ للمسيح (٢) . ففى القرن الخامس كانت دار ملك القوط وفى القرن السابع والثامن كانت مركز دوقية أكيتانية ، وفى القرن الحادي عشر والثانى عشر صارت قاعدة كونتية طلوزة . ولما شن العرب الغارة على فرنسة كانت طلوزة من المدن التى قصدوها لكنهم لم يتمكنوا منها كما تمكنوا من أربونة وقرقشونة وغيرها .

وقد كانت غارة العرب على طلوزة فى أيام امارة السمح بن مالك الخولانى على الأندلس وذلك لمضى إحدى عشرة سنة على دخول العرب الى اسبانية كما سيأتى عند الكلام على غارات العرب فى جنوب فرنسة

---

(١) وهم جيل من الغولوا ولا نعلم Volces Tectosages هل هم الذين أشار اليهم صاحب نفح الطيب فى أوائل الجزء الأول عند ذكر الأمم التى عمرت الأندلس وسماهم البشتولقات أم لا ؟ وقد تكون اللفظة مصحفة عن تشتولقات . وفى صبح الأعشى يذكر الشبونقات ويقول إنهم ملكوا الاندلس وبلاد الافرنجة معاً وإن القوط خرجوا عليهم .

(٢) Guide pratique illustré de Toulouse

قرقشونة CARCASSONNE

مدينة على نهر الأود Aude وقناة الجنوب وهى قسمان: الأول الذى فيه القلعة وهو مبنى على متن رابية مشرفة على القسم الثانى وفيه بعض بيوت وشوارع ضيقة وكنيسة معروفة بكنيسة سان نازير Saint-Nazaire من بناء القرن الحادى عشر . وجميع أبنية هذا القسم العالى لا تزال كما كانت فى القرون الوسطى ، وليس مثلها فى كل فرنسة فى هذا الباب ، ولهذا هى مقصد السياح من كل فج . والقسم الثانى هو الذى على شاطئ النهر ويسمى قرقشونة الجديدة، وهى جديدة بالنسبة الى قرقشونة القديمة التى على الرابية . ولكن هى فى الحقيقة من زمن لويس التاسع ملك فرنسة ، أي القديس لويس الذى عاش فى أواسط القرن الثالث عشر (١) . وأما تاريخ العرب فيها فالمشهور أنهم افتتحوها فى سنة ٧١٣ للمسيح وأنها بقيت فى أيديهم الى سنة ٧٥٩ على ما ستقرأه عند الكلام على غارات العرب فى جنوبى فرنسة

مبدأ غارات العرب على فرنسة

وما اعتمدنا عليه من الروايات عنها

أهم كتاب وضع فى هذا الموضوع هو كتاب المستشرق الافرنسى الشهير المسيو « رينو (٢) » الذى عاش فى الثلثين الأولين من القرن الماضى . وكتابه يسمى

---

(١) هو الذى قام بالحرب الصليبية وغزا مصر ، ووقع فى الأسر واعتقل فى دار ابن لقمان وقيل فيه :

وقل لهم ان أزمعوا عودةً   لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشى صبيح

(٢) Reinaud واسمه جوزيف رينو ولد سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٦٧

« غارات العرب على فرنسة ومن فرنسة على سافواى وبيمونت وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين » (١)

فان جميع المؤرخين الاوروبيين ذكروا غارات العرب على فرنسة بعد استيلائهم على اسبانية وأجمعوا على أن شارل مارتيل الذى يسميه العرب قارله هو الذى أنقذ أوروبة فى وقعة « پواتييه » الشهيرة من الوقوع تحت سلطة العرب ، وأنه لولا انهزام العرب فى تلك المعركة لكانوا استولوا على أوروبة كلها وربما كانت بأجمعها قد دخلت فى الاسلام . ولا نقدر أن نحصى ما جاء فى كتب الاوروبيين من فرنسيس وألمان وانكليز واسبانيول وطليان فى هذا الموضوع ، ولا نجدلزوما لهذا الاستقصاء بعد أن قرّروه فى الجملة وأجمع عليه مؤرخوهم وأيدت ذلك تواريخنا العربية . وانما

(١) Invasion Des Sarrazins En France et De France en Savoie , en Piémont et dans La Suisse
Pendant les huitième, neuvième et dixième siécles de notre ère .
D'aprés Les auteurs Chrétiens et Mahométans .

Par M . Reinaud

Membre de L'institut (Académie royale des inscriptions et belles - lettres) , conservateur - adjaint des manuscrits orientaux de la bibliothèque Royale , etc

وهو يعبر عن المسلمين بلفظة « سارازين » التى قيل انها أطلقت على العرب لكونهم غالباً سمر الألوان أشبه بالحنطة السمراء التى يقال لها « سارازين » وقيل بل هى محرفة عن « سرا كنو » التى هى المسلمون بلغة الروم وهذه محرفة عن Scharaka أى شرقى أو « شراقة » أى شرقيين بالجمع . وقد ذكر ابن بطوطة فى رحلته أن ملك القسطنطينية سأل عنه هل هو سرا كنو ؟ أى مسلم

كان غرضنا فى هذا الكتاب استقصاء جزئيات هذه الغارات العربية الى قلب أورو والإحاطة بما يتسنى لنا من تفاصيلها . ولم نجد فى هذا الباب كتاباً أوعى من كتاب المسيو رينو المذكور لأنه وضع خاصاً بتاريخ هذه الغارات ولأن واضعه هو من أشد المحققين فى المسائل التاريخيــة والمطلعين حق الاطلاع على اللغة العربية بحيث يمكن عند كل رواية أن يقابل ما جاء عنها فى الكتب اللاتينية القديمة بما جاء فى الكتب العربية . وإنك لتجده لايروى رواية ولا خبراً إلا ذكر فى الحاشية مأخذ تلك الروا أو ذلك الخبر مع تعيين المؤلف والمؤلَّف والجزء والصفحة وأحياناً خزانة الكتب التى فيها ذلك المؤلف . وقد يورد النصوص بعينها لا سيما إذا كانت من التواريخ التى وضعت فى عصر تلك الفتوحات . وكما أنه يستعمل هذه الدقة فى الاستشهاد من كتب الافرنجة فانه يستعمل الدقة نفسها فى الاستشهاد من كتب العرب ومن أجل ذلك كان أكثر اعتمادنا فى تاريخ هــذه الوقائع على المستشرق المشار إليه ، كما أنا اعتمدنا فى تاريخ استيلاء العرب على قسم من شمالى إيطالية ومن أهالى سويسرة عليه أيضاً وعلى مؤلف آخر من أهالى سويسرة الألمانية اسمه فرديناند كيللر (١) سنأتى بتلخيص تأليفه بعد الانتهاء من تلخيص كتاب المسيو رينو وسنقابل جميع رواياتهم بما لدينا من التواريخ العربية الشهيرة

قال المسيو رينو فى مقدمة كتابه :

جاء وقت كانت فيــه فرنسة عرضة لغارات شعب أجنبى كان قد استولى على أسبانية وبلدان أخرى مجاورة لها ، وجاء بدين جديد ولسان جديد وأوضاع جديد

(١) Der Einfall der Sarazenen in der Schaweiz um die mitte des x . Yahrhenderts , Von Dr

Ferdinand Keller

Mitheilungen der antiquarischen Gesellschaft in Zürich

غارة العرب على سويسرة فى أواسط القرن العاشر تأليف الدكتور فرديناند كيللر من مطبوعات جمعية الآثار القديمة فى زوريخ

فأصبحت المسألة مسألة هل فرنسة وسائر ممالك أوربة التى لما تخضع لهذا الشعب الجديد تقدر أن تحتفظ بأعز ما يحتفظ به الانسان من دين ووطن وأوضاع أم لا ؟

وكان الناس يتساءلون عن كنه هذه الوقائع التى ترتب عليها احتلال ذلك الشعب لقسم من بلادنا ومن أية جهة وتمت ، وأية أحوال أحاطت بها ، وهل كان المغيرون كلهم من العرب أم كانوا من أمم شتى ؟ وما كانت نتائج هذه الغارات المتكررة كثيراً ؟ وهل بقى فى البلاد منها آثار أم لا ؟

ولقد جرى البحث أكثر من مرة عن هذه القضية ولكن لم يعن أحد فيما يظهر لنا بأن يضع لهذا الموضوع تأليفاً خاصاً يحيط بجميع الوقائع التى نحن بصددها ويستنبط منها نتائج عامة [1] ولا شك فى أن تأليفاً وافياً بهذا الغرض ينبغى له الجمع بين الروايات الأوربية المسيحية والروايات العربية الاسلامية ليعرف قول الغالب وقول المغلوب معاً .

ومن مدة طويلة كان الناس فى أوربة قد لحظوا أن روايات مؤرخى أوربة المسيحية عن هذه الوقائع لم تكن كافية ، وان الزمن الذى قد حصلت فيه هذه الحوادث وأغار فيه العرب على فرنسة هو أشد الأزمنة على هذه البلاد وأحلكها سواداً . ففى سنة ٧١٢ عندما بدأت هذه الحملات على فرنسة كانت هذه البلاد مقسمة بين افرنج الشمال الذين كانوا يملكون « نوستريا » [2] و « اوسترازيا » [3]

---

(١) على أن رينو يستدرك هنا بقوله انه سبقه فيه مؤرخان أحدهما صاحب « خلاصة تاريخية لحروب المسلمين فى بلاد الغال » والآخر صاحب « التاريخ العام للقرون الوسطى » قال :

Nous devons cependant faire mention du « précis historique des Guerres des Sarrazins dans les Gaules » par M . B . . . N. C . F. Paris 1810; et de "l' histoire générale du moyen - âge ,, Par M .Desmichels, Paris 1831, T . II

(٢) Neustrie بلاد واقعة بين نهر اللوار وبريتانيا الافرنسية وبحر المانش ونهر الموز

(٣) Austrasie فى شرق فرنسة قاعدتها متز

و « بورغونيا » [١] وبين افرنج الجنوب الذين كانوا يملكون « اكيتانية » [٢] من نهر اللوار الى جبال البيرانه ، وبين بقايا القوط الغربيين [٣] الذين كان بقي في أيديهم قسم من مقاطعة « لانغدوق » [٤] وقسم من مقاطعة « بروفانس » [٥] وكانت الفوضى قد وقعت في الحكومة والمجتمع فلذلك لم تأتنا إلا معلومات ضئيلة عن ذلك العهد. ولم تبدأ الأخبار التاريخية تنجلي الا في أيام « بيبن » ابن « شارل مارتل » وفي أيام شارلمان بن بيبن . ولكن في ذلك الوقت كان المسلمون قد نكصوا الى الوراء . ثم عاد جوّ فرنسة فاربد ثانية في زمان أولاد لويس الحليم « Le Débonnaire »وجدد العرب غاراتهم على فرنسة أيام كان النورمنديون من جهة والمجار من جهة أخرى يشنّون مثلها ويعيثون في الأرض مفسدين

ولا نقدر أن نقول ان تواريخ العرب عن تلك الحوادث كانت مستوفية الشروط ، فان المؤلفين الذين كتبوا عنها جاءوا بعدها بزمن فلم يعاصروها ، إلا أن يكون ثمة مؤرخون لم تصل إلينا كتبهم . فقد ذكر العرب أن لموسى بن نصير تاريخاً ألّفه حفيده ، وان لأحد الشعراء قصيدة في تاريخ طارق بن زياد نظمها بعد عهده بقرنين . ولكن هذه الكتب التي كتبت بعد الحوادث بمدة غير قصيرة لم تكن مستوفية شروط التحقيق . وأكثر الأحيان يروى أصحابها روايات شفهية

---

(١) Bourgogne مقاطعة ذات شأن في شرقي فرنسة قاعدتها ديجون كانت مملكة مستقلة ثم صارت دوقية كبيرة وكانت تجاذب ملك فرنسة الحبل ولم تخضع تماماً للتاج الا سنة ١٤٧٧

(٢) Aquitaine مقاطعة من بلاد الغال القديمة تقع على ضفاف الغارون اليوم

(٣) Visigoths القوط الغربيون سنة ٤١٢ مسيحية زحفوا على بلاد الغال واستولوا عليها وسنة ٤١٨ جعلوا طلوزة قاعدة ملكهم

(٤) Languedoc ولاية من جنوبي فرنسة قاعدتها طلوزة أوتولوز

(٥) Provence كانت مملكة مستقلة لها ملوك ثم أكناد . ثم استلحقها الفرنسيس في زمان كارلس الثامن وهي الآن تشتمل على بلاد الالب السفلى ومصاب الرون ومقاطعة الفار وفوكلوز

عن أفواه الرواة (١) وغير خاف أن العرب كانوا فى ذلك الدور، دور الحماسة والمجد، لا يفكرون إلا فى اعلاء شأن دينهم . فكان لا يهمهم شئ بقدر الشعر والضرب فى أودية الخيال

اذاً حكاية العرب لوقائع غارات العرب على فرنسة كانت متأخرة عن زمن حدوثها فى القرن التاسع المسيحى، كما ان منها مالم يتعرض العرب للبحث عنه أصلا

ولقد كان فى أيدى العرب وسائل لمعرفة أحوال فرنسة الداخلية وما جاورها، لأنهم عدا احتلالهم مدة مديدة جانباً منها كانت صلاتهم مع هذه البلاد مستمرة، وكانت السفراء تختلف بين الفريقين الفينة بعد الفينة، فقد ذكر المسعودى انه فى نواحى سنة ٩٣٩ مسيحية توجه إلى قرطبة مطران جيرون من كتالونية وكان اسمه « غودمار » Godmar وذلك فى أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، وألف لولده الحكم المشهور بحبه للعلم تاريخاً لبلاد فرنسة من زمن كلوفيس الى ذلك العهد (٢) وكانت

---

(١) يقول رينو فى حاشية هذه الجملة مايلى : ولانقول شيئاً عن تاريخ « فتح العرب لاسبانية مرتين » لأبى القاسم طريف بن طارق أحد الذين حضروا الوقائع، فان هذا التاريخ مفتعل وضعه فى القرن السادس عشر للمسيح ميكال دولونا Miguel de Luna ترجمان الملك فيليب الثانى

(٢) قال رينو فى الحاشية على هذه الجملة : « ان اسم غودمار واسم جيرون وجميع هذا المبحث قد تناورها الحذف والتبديل فى أكثر نسخ مروج الذهب للمسعودى التى فى الخزانة الملوكية (فى باريز) وانما اعتمدنا على نسخة كانت تخص المسيو شواز » اه

قلت : وجدنا فى مروج الذهب للمسعودى طبعة مصر التى طبعت بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هجرية سرد هذه الرواية كما يلى : وجدت فى كتاب وقع الى الفسطاط بمصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أهداه غومار الأسقف بمدينة زهرة من مدن الافرنجة فى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة الى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، ولى عهد أبيه عبدالرحمن صاحب الأندلس فى هذا الوقت، فى عهده : يأأمير المؤمنين إن أول ملوك الفرنجة « قلوزيه » وكان مجوسياً فتنصر هو وابنه لذريق وابنه دفشرت . ثم ولى بعده ابنه لذريق . ثم ولى بعده قركان بن دفشرت . ثم ولى بعده ابنه تنين . ثم ولى بعده نازلة بن تنين وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة . وكان فى أيام الحكم صاحب الأندلس . وقد تواقع أولاده ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الافرنجة بسببهم،

كتالونية أيام شارلمان خاضعة لمملكة فرنسة وكان مطران جيرون يعترف بسيادة لويس دوترمير Louis - d'Outremer وعليه نعتقد أن تاريخ فرنسة هذا الذى قال المسعودى انه عثر على نسخة منه فى مصر تاريخ صحيح . ولكن مع الأسف لم نعلم عن هذا التاريخ شيئاً الا هذا القليل الذى رواه منه المسعودى (١)

ومما كان يشق جداً على العرب كثرة الأسماء الأعجمية من أسماء الرجال والبقاع التى كانت تعرض لهم وكانت مجهولة عندهم . ولم يكن من المألوف عندهم وضع

وصار لذريق بن نازلة صاحب ملكهم فلك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر . وهو الذى أقبل الى طرطوشة فحاصرها . ثم ولى بعده ابنه نازلة وهو الذى تهادى مع محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان. وكان محمد يخاطب بالإمام . وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر . ثم ولى بعده ابنه لذريق ستة أعوام . ثم وثب عليه قائد الافرنجة المسمى برشة وملك افرنجة فأقام فى ملكهم ثمانى سنين ، وهو الذى صالح المجوس عن بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الافرنج اليهم . ثم ولى بعده نازلة بن بغربرت أربع سنين . ثم ملك بعد نازلة أخوه ومكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر . ثم ولى بعده لذريق بن نازلة وهو ملك افرنجة الى هـذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . واستوت مملكته عشر سنين الى هذا التاريخ على حسب مانمى الينا من خبره اه

قلت : فى الأسماء تحريف كثير عن الأصل، فأما « قلوزيه » فهو كلوفيس، هذا ظاهر.واما أن له ولداً اسمه « لذريق » فهـذا الاسم بدون شك هو هنا خطأ من النساخ ، اذ أنه لم يكن لـكلوفيس أو قلوزيه ولد يقال له لذريق Rodrigue وانما كان له ولد اسمه « كلودومير » Clodomir ولعل العرب لفظوها « قلذمير » فجاء النساخ للكتاب وقلبوها الى لذريق . وأما « دفشرت » بن كلوفيس فهو تحريف أيضاً وأصله بدون شك « شيلدبرت » Childebert لأنه اسم أحد أولاد كلوفيس . وأما « تنين » فهو تحريف أيضاً وأصله « تييرى » Thierry اسم أحـد أبناء كلوفيس الذى كان له أربعة أولاد ، هؤلاء الثلاثة ، والرابع هو (كلوتير) Clotaire فأما نازلة فنظنه مجرد خطأ من النساخ وربما كان أصل اللفظة « كلوتره »أو« كلاتره» ولم يحسنوا قراءتها وقلبوا راءها زاياً فابتعدت جداً عن أصلها . وأما قول المسعودى عن مؤلف هذا الـكتاب انه غومار مطران زهرة من مدن الافرنجة ، فقد تحققنا أن أصل اسمه غودمار وانه من جيرون ، وانه كان أسقفاً على « سيريه » Ceret من مدن « روسيون » Roussillon التى هى اليوم من مدن ولاية البيرانه الشرقية من فرنسة . فزهرة تحريف عن «سيريه» أو «سره»

(١) غير موجود هذا التاريخ بالافرنسية ولا بالاسبانية

الحركات . ثم كان نساخهم كثيرى السقط فى التنقيط فتبعد اللفظة عن أصلها بعداً يجعلها مجهولة تماماً [1]

وقد كان مما يفيد فى هذا الباب المسكوكات التى كان يضربها الفاتحون . الا أن العرب فى اسبانية وفرنسة لم يكونوا الى القرن العاشر يعرفون سوى مسكوكات قرطبة . فأما مسكوكات ما قبل هذا التاريخ فلم يكن فيها شئ سوى آيات قرآنية ولم يكن فيها ذكر ملك ولا أمير

فمن أجل هذا كان من الصعب جداً معرفة أخبار العرب فى الأدوار الأولى من استيلائهم على اسبانية . وأصعب منه معرفة أخبار استيلائهم على ما استولوا عليه من فرنسة

ومن الكتب النفيسة فى هذا الموضوع تاريخ « استيلاء العرب على اسبانية » الذى ظهر بالاسبانيولية فى السنوات الأخيرة لمؤلفه « كوند » Conde الذي كان لديه كتب عربيـة كثيرة فى مكتبة الاسكوريال وغيرها فاستقى بدون شك من منابع غزيرة الا أنه لم ينتدح له أن ينقح كتابه كما يجب وربما كان هو نفسه غـير ماهر فى التمحيص [2] . وهناك تأليف آخر لم يطلع عليه كوند وهو مجموعة رسائل مفيدة فى ايضاح

---

(١) هذا شأن الفريقين سواء العرب أوالافرنج عند ما يخوض كل فريق فى لغة الفريق الآخر . فليس تحريف « شيلدبرت » الى « دفشرت » الا من قبيل تحريف ابن رشد الى « افرويس »

(٢) اسم الكتاب Historia de la dominacion de los Arabes en Espana

ذكر رينو أنه ظهر ترجمتان لهذا الكتاب بالافرنسية إحداهما ترجمة ملخصة بقلم المسيو أوديفره Audiffret فى كتابه عن تحقيق تواريخ السنين، والثانية بقلم المسيو «دومارليس» De Marlés

قلت : ونحن عندنا ترجمة دومارليس مع حواشيها وسننقل فى بعض الأماكن عنها . ولـكن كتاب كوند هذا — والاسبانيول يقولونله «كوندى» — موصوف بعدم الضبط وكثرة الخطأ . وأكثر من أنحى عليه بالتخطئة المستشرق دوزى الهولاندى الذى يعـده الأوربيون أفضل مؤلف عن الأندلس قرا ودرى . وقال قديره Kodeira المستشرق الاسبانيولى الذى يقال انه من أصل عربى : انه لم يكن أشأم على تاريخ الأندلس من كتاب كوندى هذا

تاريخ اسبانيــة أيام العرب بقلم « فوستينو بوربون » الذى اطلع على المخطوطات العربية التى فى خزانة الاسكوريال وكان معظم همه تخطئة « تاريخ اسبانية » تأليف « ماسدو » Masdeu

وفى كتاب فوستينو بوربون هذا شواهد عربية محرفة الا أنه عنده بصر بالنقد وانك لتجد فى كلامه على جيوش العرب الفاتحين واختلاف أصولها الذى أدى الى تنازعها تدقيقات لا يعرفها كوند .

اننا نحن لم نكن فى هذا التأليف لنجهل المشكلات التى ستعترضنا فى طريقنا لـكننا برغم ذلك وجدنا فى استطاعتنا اضافة معلومات جيدة الى ما تقرر فى هذا الباب الى حد الآن . وفى الغزوات العربية التى لم نجد لها أثر رواية الا فى كتب الاوربيين أمكننا أن نصل الى أبعــد مما وصل اليــه « موراتورى » [1] والدون « بوكه » [2]

ولقد اتبعنا فى عملنا هذا الطريقة الآتية وهى أن نحص عن الوقائع شهادات المعاصرين أوالذين كانوا فى العهد أقرب من غيرهم اليها . ومهما قيــل عن النقصان الذى فى روايات المؤرخين المسيحيين الذين كانوا فى ذلك العهد فاننا قد وجدنا فيهــا ما يستحق كثيراً من الاعتبار بحيث اذا تطابقت مع روايات العرب جزمنا بأن الحقيقة هى هناك . وأما ان لم تطابق روايات هؤلاء روايات أولئك فاننا ننقل حينئذ ما قاله كل من الفريقين ونبدى رأينا فى ترجيح الأقرب الى العقل . وأما المنابع التى لم نقدر أن نصل اليها فقد نبهنا عليها وأشرنا الى أماكنها وذلك كبعض وقائع رواها كوندى نقلا عن كتب العرب فقد كان الأحسن أن ننقل تلك النصوص بعينها ولـكننا لم نظفر بها

---

(١) Muratori واسمه لودوفيكو انتونيو مؤرخ آثارى طليانى توفى سنة ١٧٥٠

(٢) Don Bouquet اسمه مارتين : راهب بنديكتينى مؤرخ بحاثة مشهور ولد فى (آميين) Amiens. بفرنسة وتوفى سنة ١٧٥٤

وفى آخر كتابنا هذا نذكر الشعوب التى انضمت الى العرب وأوشكت بالاتحاد مع العرب أن تخضع أوربة كلها لشريعة القرآن . فنحن نطلق على الجميع اسم « سارازين » وهى لفظة لم يجزم الى الآن فى وجه اشتقاقها ، أو لفظ « المور » أى المغاربة . وذلك لأن العرب جاءوا أولا الى المغرب ومنه دخلوا الى اسبانية فسموا من أجل هـــذا مغاربة . وليعلم أنه فى أثناء ما كان المسلمون يكتسحون أراضى فرنسة ويجتاحون شمالى ايطالية وبلاد سويسرة كانت منهم عصائب حاكمة فى صقلية وجنوبى ايطالية . ولم يكن لغارات هؤلاء صلة بغارات أولئك ولـكن كان لها تأثير بعضها فى بعض مما لم تفتنا الاشارة اليه

ثم انه فى جميع البلاد التى احتلها العرب طويلا أو قصيراً كانت بقيت لهم آثار وسرت عنهم أخبار ، فهنا كنت ترى قلعة كانوا يعتصمون بها عندما يجتاحون تلك الأرض ، وهنالك كانت مخاضة نهر أو قنطرة كانوا يأخذون عندها رسماً على المارين ، وهنالك كهف فى واد كانوا يضعون فيه الغنائم ، وعلى تلك الجبال أبراج متناوحة كانوا يتبادلون منها الإشارات النارية لأجل توحيد حركاتهم ، وهلم جراً . فالآثار والأخبار التى لا ترتكز على دليل وثيق من ذلك العصر نفسه لم نتعرض لها .

ومثل ذلك فعلنا بالقصص التى قصها الرواة الذين لم يعاصروا تلك الحوادث والتى هى أقرب الى أن تكون من عمل خيالات القصاص المولعين بأخبار الحماسة والمغرمين بأحاديث المجد والرئاسة

فى القصص التى ترويها الرواة عندنا أغلاط كثيرة منها ما وقع فيه بعض مؤرخى ذلك الوقت مثـل تلقيبهم المسلمين « السارازين » بلفظة « بايين » Payens أى وثنيين . وذلك ان المسيحيين كان من عادتهم أن يسموا جميع الأمم السالفة للنصرانية « وثنيين » وجميع الأمم التى حاربها الافرنسيس وثنيين . ومن جملة هؤلاء حسبوا المسلمين ! ولهـذا فقد عزوا الى هؤلاء آثاراً ومبانى وهيا كل كانت فى الحقيقة هى

من عمل غيرهم وليسوا منها فى قبيل ولا دبير

وكذلك لما كانت شهرة شارلمان قد غلبت شهرة الجميع فان القصاص نسبوا الى أيامه حوادث وقعت من قبله وحوادث أخرى وقعت من بعده . فالوقائع التى جرت فى زمان شارل مارتل جعلوها فى زمان شارلمان وما زالوا ينسبون الى أيام شارلمان غزوات جميع الافرنج فى بلاد المسلمين الى القرن العاشر بل الى آخر القرن الحادى عشر أى الزمن الذى استصرخ فيه مسلمو الأندلس يوسف بن تاشفين ملك المرابطين . فتأمل

ومن هـذا النمط تعمد بعض القصاص والزجالين أن ينحلوا أجـداد ممدوحيهم فضـل تحرير البـلاد وطرد الاعدآء . وذلك مثـل قصيدة غيليوم ذى الانف الاصلم الذى ينسب اليه الشاعر اجلاء العرب عن تولوز ونيم واورانج وغيرها من مدن فرنسة

ثم انه كان المجار قد جاءوا من شرقى أوربة وعاثوا فى نواحى فرنسة ، فاختلط على الناس ما عاثه المجار بما عاثه العرب ، بحيث كثيراً ما كان أولئك القصاص يسمون المجـار « سارازين » ويسمون الفاندال « سارازين » وممن قال بذلك الأب « لوكوانت » P. Lecointe مؤلف التاريخ الاكليريكى فى فرنسة والدون « مابيون » Mabillon والأب « باجى » Pagi والدون « فاسيت » Vaissette والدون « بوكه » Bouquet والحقيقة انه لم يوجد دليـل واحد من رواية مرجعها الى القرن الثامن يدل على كون الفاندال اجتاحوا فرنسة فى ذلك العصر . وقد يقال ان هذه الأقاويل وردت فى تواريخ القديس « دنيس » Saint - Denis الشهيرة التى هى الحجة الـكبرى عند آبائنا . ولكن تواريخ القديس كتبت فى أواسط القرن الثانى عشر وقد حشر فيها كاتبوها كل الأساطير التى كانت تدور فى ذلك الوقت . ولم يزل التاريخ لم يمحص ولم ينفصل عن الاقاصيص الى القرن السابع عشر

ولنعد الى موضوع كتابنا هذا فنقول: ليست المسئلة مسئلة إجتياح بعض مقاطعات محدودة بل قد بقى جانب كبير من فرنسة ميداناً لجيوش العرب مدة طويلة . ثم تجاوزوا منها الى « سافواى » و « بييمونت » و « سويسرة » واحتلوا أمنع الحصون من قلب أوربة، وذلك من خليج « سان تروبيس » الى بحيرة « كونستانزة » ومن نهر الرون وجبل « جورا » الى سهول جبل « فرّات » و « لومبارديه » ومما لا جدال فيه أن تذكار الغزوات العربية فى هذه الديار لم يكن بدون تأثير فى الحملات الصليبية وفى هذه الحركة العامة التى اندرأت بها أوربة على آسية وافريقية ووضعت أصحاب الانجيل فى وجه أصحاب القرآن مدة قرون مستطيلة

لقد فسحنا بهذا الكتاب مجالاً للباحثين فى هذا الموضوع بحيث يمكن من يأتى بعدنا أن يأتوا بمعلومات جديدة عنه . ولما كانت الشقة بعيدة بين زمن هذه الوقائع والزمان الحاضر فقد بقيت فى كتابنا مواضع كثيرة مفتقرة الى الجلاء . ومع هذا فانّ كنا قد قدرنا أن ناتى بعض الشعاع على هذا القسم الذى هو أغمض قسم من تاريخ فرنسة فلا يكون ذهب عناؤنا سدى

ولقد قسمنا كتابنا هذا الى أربعة أقسام : الأول ما يتعلق بحملات العرب الزاحفين من الأندلس مخترقين جبال البيرانه (١) الى أن طردهم « بيبن » القصير من « ناربون » وكل « اللانغدوق » سنة ٧٥٩ مسيحية . الثانى ما يتعلق بغارات العرب براً وبحراً على « پروفانس » فى نواحى ٨٨٩ . الثالث ذكر توغل المسلمين من پروفانس الى « دوفينى » و « سافواى » و « بييمونت » وسويسرة . الرابع شكل هذه الغزوات والنتائج التى ترتبت عليها .

انتهى ملخصاً كلام المستشرق الافرنسى رينو فى مقدمة كتابه

ثم شرع رينو فى سرد الوقائع فقال تحت عنوان « القسم الأول فى حملات

(١) العرب يقولون جبال البرانس

العرب الأولى على فرنسة الى عهد اخراجهم من أربونة واللانغدوق سنة ٧٥٩ مسيحية :

لما وصف أحد مؤرخى العرب كيفية فتح أبناء ملته لاسبانية روى عن محمد (ص) الكلمات الآتية : « زُوِيَتْ لِي مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » (١)

وقد كاد يكون هذا هو الواقع . وجاء زمن ظن الناس فيه أن جميع الربع العامر سيعنو لراية النبي . فانه مامضت سنوات قلائل حتى ضرب الاسلام بجرانه على العراق وفارس والشام ومصر وافريقية الى سيف الاوقيانوس الاطلنتيكي . ثم من افريقية اغار العرب على اسبانية وما زالوا يجوسون خلال البلاد الى أن بلغوا فرنسة وصارت جميع قارة أوربة تحت خطر استيلائهم . ثم من الجهة الاخرى تجاوزوا سيحون وجيحون وما زالوا يفتحون البلدان حتى ظن أنه لن يقف فى وجههم شيء إلا ان

(١) ذكر رينو في الحاشية أن هذا الحديث ورد فى تاريخ اسبانية للمقرى وقال ان منه مخطوطاً فى الخزانة الملوكية وانه عبارة عن مجموع فى عدة أجزاء قد ألفه صاحبه فى أوائل القرن السابع عشر ونقل عن كتب لم تصل الينا . وقد ظهر أن المؤرخ كوندى الأسبانيولى لم يطلع على هذا الكتاب . اه

قلت : هذا الكتاب هو « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » للعلامة احمد بن محمد بن احمد المقرى المغربى التلمسانى المالكى الأشعرى رحمه الله . وهو من أشهر كتب الأدب والتاريخ في العربية . ألفه صاحبه فى سنة ١٠٣٧ هـ ، وذلك فى الشام حيث كان قد ألقى عصا التسيار بعد أن حج البيت الحرام وزار المسجد الأقصى . وقد ذكر فى مقدمة الكتاب أن له بالشام تعلقاً من وجوه عديدة : أولها أن الداعى لتأليفه أهل الشام . ثانيها ان الفاتحين للاندلس هم أهل الشام . ثالثها ان غالب أهل الأندلس هم من عرب الشام الذين اتخذوا بالاندلس وطناً مستأنفاً . رابعها ان غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها لشبهها بها فى القصر والنهر والدوح والزهر الخ

أما حديث « زُوِيَتْ لِي مَشَارِقُ الأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا وَسَيبلُغُ مُلكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » فقد رواه مسلم وأحمد والنسائى وهو مروي عن أبي الربيع العتكى وقتيبة ابن سعيد عن حماد بن زيد (واللفظ لقتيبة) : حدثنا حماد عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى أسماء

كان من الحدود الطبيعية التى للكرة الارضية

وكان مركز هذه السلطنة التى لا نهاية لها هو فى سورية بمدينة دمشق القديمة وكانت الرئاسة الروحية والدنيوية فى الخلفاء بنى أمية . وكان الخليفة يومئذ هو الوليد (١)

وكان العرب قد وجدوا فى افريقية أمة تسكن جبال الاطلس اسمها البربر اشتهرت بصعوبة المراس وبحب الحرية والاستقلال وقاتلت القرطاجنيين والرومانيين من دونها . وكان بعض هؤلاء البربر يهوداً وبعضهم نصارى وبعضهم وثنيين . وكان لهؤلاء البربر لسن خاص بهم . ومنهم من كان يتكلم بلغة تقرب من العربى والعبرى والفينيق (٢) فسواء كان هؤلاء البربر بقايا شعوب جاءت من أرض كنعان وفينيقية (٣) أو كانوا

عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَها وَإِنَّ أُمَّتِى سَيبلُغُ مُلْكُها مَازَوَى لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمرَ وَالأَبْيَضَ وَإِنِّى سَأَلْتُ رَبِّى لِأُمَّتِى أَنْ لَايُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ (وعلى رواية أخرى : بسنة عامّة) وَأَنْ لايُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُواً مِنْ سِوىَ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّى قال : يَا مُحَمَّدُ إِنِى إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فإِنَّهُ لَايُرَدُّ وَإِنِّى أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعامةٍ وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّامِنْ سِوى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا (أو قال : مَن بين أقطارها) حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً وَيَسْبِى بَعْضُهُمْ بَعْضاً » اه

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان

(٢) استند رينو فى ذلك على الجريدة الآسيوية الجديدة نقلا عن مقدمة ابن خلدون والأصح أن يكون ابن خلدون تكلم عن ذلك فى تاريخه الخاص بالبربر وهو أحسن تاريخ لهذه الأمة . وقد ترجم الى الافرنسية بقلم البارون « دوسلان » De Slane وأعيد طبعه سنة ١٩٢٧ تحت إشراف « بول كازانوفا » من أساتيذ مدرسة فرنسة Collège de France وهو جزآن

(٣) استشهد رينو على هذه الرواية بكلام بروكوب Procope فى تاريخ حروب الفندال

قد رحلوا من اليمن فرارا من وجه الاحابيش الذين كانوا قد استولوا على بلاد اليمن [١] فهذا التشابه فى اللغة كان عاملا كبيراً فى استقرار دولة العرب فى افريقية واعان البربر العرب فى فتوحاتهم ومغازيهم . وأضف الى ذلك كون العرب والبربر متشابهين أيضا فى البداوة وسكنى الوبر وشظف العيش وطلب النجعة وحب القتال وشن الغارات

خبر موسى بن نصير وطارق بن زياد

فما رسخت أقدام العرب فى افريقية حتى فكروا فى عبور بحر الزقاق الفاصل بين افريقية واوربة . وكان ذلك سنة ٧١٠م وأمير افريقية من قبل الخليفة هو موسى ابن نصير من أهل الحجاز، ولد فى زمان عمر بن الخطاب ورضع مع اللبن الغرام بالغزو حباً فى نشر عقيدة التوحيد [٢] . وكان عمره يوم قام بهذه الغزوات ثمانين سنة . ولكن كانت فيه همة الشبان تتوقد نارها لم يفتر منها شيء . وكانت اسبانيا تحت

وبتاريخ لوبو Lebeau الافرنسى الذى ألف تاريخ دولة بيزنطية Hisoire du Bas - empire

(١) استشهد رينو بكلام ابن خلدون وبتاريخ أهالى افريقية الشمالية الذى وضعته لجنة من أكاديمية الآثار الكتابية والآداب بفرنسة ونشر سنة ١٨٣٥ وبغير ذلك

(٢) ولد موسى بن نصير اللخمى بالولاء المكنى بأبى عبدالرحمن فى سنة ١٩ للهجرة فى خلافة عمر رضى الله عنه .قال ابن خلكان انه كان عاقلا كريماً شجاعاً تقياً وكان من التابعين روى عن تميم الدارى . وكانت ولاية موسى على افريقية سنة ٨٩ بأمر الخليفة الوليد بن عبدالملك وهو الذى أداخ البربر بعد حروب شديدة، وبعد أن دوخ المغرب كله الى السوس الأقصى استعمل مولاه طارق بن زياد البربرى على طنجة وترك عنده ١٩ ألف فارس من البربر بالعدد الكاملة وكانوا أسلموا وحسن اسلامهم وترك عندهم بعض العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الاسلام ورجع الى افريقية أى بلاد تونس اليوم ، وقد أطاعته كل بلاد المغرب ، وعند ذلك أرسل الى طارق بغزو الأندلس . وسيأتى خبر موسى وطارق وغزواتهما مفصلا فى باطن هذا الجزء ثم فى الأجزاء المتعلقة بفتح العرب لاسبانية وكانت وفاة موسى سنة ٩٨ بوادى القرى من الحجاز وعمره ٧٩ سنة فالصحيح أنه لما فتح الأندلس كان ابن ٧٣ سنة

حكم القوط وكان الأمير عليها لذريق[١] . وكان يتبعها من أرض فرنسة مقاطعة «روسيون»[٢] وقسم من «اللانغدوق»[٣] من (بروفنس)[٤] وكانت فى اسبانية حواضر حافلة بالعمران زاهرة،الا أن روح الانتقاض كان كامناً فى النفوس،وفساد الاخلاق كان قد تغلغل فى جسم الأمة فلم يكن عجباً أن تسقط مملكة كهذه ولو عظيمة فى ظاهرها بيد عدد قليل من المتدينين الأحامس الذين يسوقهم الى الحرب حب الغنائم، فضلا عما يعتقدونه من انهم مرسلون من الله لهداية البشر

فجرّب موسى التجربة الاولى ببعض برابر أجازهم الى طريفة[٥] فعاثوا ونهبوا ولم يصادفوا مقاوماً فاشتد بذلك عزم موسى . وفى السنة التالية (٧١١) جرد تجريدة جديدة اثنى عشر ألف مقاتل كان أكثرهم من البربر عقد عليهم لطارق بن زياد ، فهزم طارق بهذا الجيش الصغير جيش القوط كله ، واحتز رأس لذريق وبعث

(١) Rodrigue رودريق والعرب تقول لذريق آخر ملوك القوط باسبانية كان أبوه دوق قرطبة فغضب عليه غيطشة ملك البلاد وسمل عينيه فثار لذريق على غيطشة وقاتله وهزمه واستوى على عرش اسبانية مكانه . فالتمس أولاد غيطشة مع السكونت يليان والى سبتة واستنجدوا العرب وأجاز طارق بن زياد الى الأندلس وهزم لذريق وجموعه بالقرب من شريش كما سيأتى الكلام عليه فى الأجزاء التالية . وقتل لذريق فى المعركة وأخذ العرب رأسه . وقيل بل غاب ولم يدر أين وقع وانما وجد المسلمون فرسه الأبيض وهذه رواية « أخبار مجموعة »

(٢) Roussillon هى المقاطعة المسماة بالبيرانة الشرقية استولت عليها فرنسة سنة ١٦٥٩ قاعدتها (برپنيان) Perpignan

(٣) Languedoc هى المقاطعة الواقعة الى الشمال من روسيون وقاعدتها تولوز وكان استيلاء فرنسة عليها سنة ١٢٧١

(٤) Provence هى مقاطعة عظيمة فى جنوبى فرنسة تضم جبال الالب السفلى ومصاب نهر الرون وبلاد الفار والفوكلوز وقد تقدم التعريف بها

(٥) Tarifa والعرب يقولون طريف مرسى فى جنوبى الأندلس بازاء جبل طارق الى الغرب ، سمى كذلك باسم أبى زرعة طريف بن مالك النخعى من جماعة موسى بن نصير كما سيأتى الكلام عليه فى الجزء التالى

به الى الخليفة [١] فى دمشق . وفى أقل من سنة تم لطارق فتح قرطبة ومالقة وطليطلة . وقد روى أحد مؤرخى العرب أنه لأجل أن يلقى الرعب فى القلوب أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا فى يده وجعل من لحومهم شواء أطعم منه عسكره .وطارق بن زياد[٢] هو الذى سمى باسمه هذا الصخر المسمى بجبل طارق.

---

(١) هذا على إحدى الروايات وقيل إن لذريق لم يوجد بعد المعركة لاحياً ولا ميتاً .

(٢) ذكر ابن عذارى المراكشى صاحب « البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب » نسب طارق بن زياد فقال : هو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن بزغاسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو ،فهو نفزى،ذكر أنه من سبي البربر وكان مولى موسى بن نصير ، وقال : فى سنة ٩٢ من الهجرة خرج طارق الى الأندلس وافتتحها بمن كان معه من العرب والبرابر ورهائنهم الذين ترك موسى عنده وكانقد أخذهم حسان (أى حسان بن النعمان أمير افريقية لعهد عبد الملك بن مروان) من المغرب الأوسط قبله . وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى فى سنة ٨٥ وفى هذا التاريخ تم اسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التى كان بناها المشركون الى القبلةوجعلوا المنابر فى مساجد الجماعات.اه وسنذكر عن طارق ماهو أوسع من هذا فى الأجزاء الآتية من هذا الكتاب . وأما ان طارقاً أطعم عسكره من لحم أسرى العدو فقد ذكر رينو فى حاشية كتابه أنراوى هذا الخبر هو ابن القوطية فى كتابه « فتح المسلمين للاندلس » قال رينو : وقد عاش ابن القوطية فى النصف الثانى من القرن العاشر للمسيح . وقيل له ابن القوطية لانه من ذرارى ملوك القوط باسبانية اه

قلت : قيل له ابن القوطية نسبة إلى جدته ابنة « وبة » ابن « غيطشة » ملك اسبانية الذى انتزع لذريق منه الملك وانضم بسبب ذلك أولاد غيطشة الى العرب . هذه رواية ابن خلكان قال : وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها أرطباس ، فتزوجها فى الشام عيسى بن مزاحم من موالى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وسافر معها الى الأندلس ، وجاءت القوطية بكتاب من الخليفة الى عامله على الأندلس فكف عمها عنها وأنصفها مما كان لها قبله ورعى حرمتها وطالت حياتها الى أيام الأمير عبد الرحمن الداخل فكانت تدخل عليه وتقضى حاجتها وغلب اسمها على ذريتها وعرفوا بها الى اليوم . ذكر ذلك فى كتاب الاحتفال فى أعلام الرجال تأليف أبى عمر أحمد بن محمد بن عفيف . انتهى ملخصا . وابن القوطية المؤرخ هو أبو بكر محمدبن عمر بن عبد العزيز ابن ابراهيم بنعيسى بن مزاحم الأندلسى الأشبيلى الاصل القرطبي المولدوالدار

فالمسلمون المؤمنون كانوا يرون هذا الجهاد مما يزيد سواد المسلمين ويضمن لهم الجنة ، والمسلمون الذين لم يكونوا يفكرون فى أمر الآخرة قد رأوا فى الأندلس قطراً خصيباً فياضاً بالخيرات فيه كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين . فاجتمعت اذاً فى هذا الفتح مقاصد الدنيا والأخرى وانتظم فيه الاحتساب مع الاكتساب . ومما لانزاع فيه أنه قد كان من أهم أسباب فوز طارق فى الأندلس عضد اليهود الذين كانوا كثيرين فى اسبانية وكان المسيحيون يغلظون فى معاملتهم ويعدون عليهم أنفاسهم فلما أقبل العرب وجدوا فيهم إخواناً يأخذون بثأرهم [1] وينفسون من خناقهم

أما فى نفح الطيب فيقول انها سارة بنت « المند » كبير أولاد غيطشة ، بسط عمها ارطباش يده على ضياعها فأنشأت سارة مركباً حصينا فى اشبيلية وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ، ثم قصدت باب الخليفة هشام بدمشق ، فأنهت خبرها وشكت ظلامتها من عمها واحتجت بالعهد المنعقد لابيها واخوته على الخليفة الوليد ، فأوصلها هشام الى نفسه وأعجبه صورتها وحزمها ، وكتب الى حنظلة بن صفوان عامله على افريقية بانصافها من عمها ارطباش ، فأنفذ لها الكتاب بذلك الى عامله بالأندلس أبى الخطار ابن عمه فتم لها ذلك وأنكحها الخليفة عيسى بن مزاحم فاتفق بها فى الشام ، ثم قدم بها الى الاندلس وولد له منها ولداه ابراهيم واسحاق فأدركا الشرف المؤثل والرئاسة باشبيلية . انتهى ملخصا

(١) ذكر دوزى R . Dozy المستشرق الهولاندى الشهير فى الجزء الثانى من تاريخه لدولة المسلمين فى اسبانية عللا كثيرة لسرعة فتح العرب لتلك البلاد سنذكرها فى مكانها ، الا أنا نعجل منها هنا بقضية اليهود التى قد أشار اليها رينو فى كتابه . فقال دوزى : ان رجال الدين الكاثوليكى كانوا يرهقون اليهود عسراً ويبالغون فى إيذائهم . قال المؤرخ الافرنسى المشهور ميشله Michelet كان الناس فى القرون الوسطى كلما سألوا : لما ذا هذا العالم الذى ينبغى أن يكون المثل الاعلى من الفراديس فى ظل الكنيسة نراه انقلب جحيما ؟ أجابتهم الكنيسة : « لان هذا من غضب الله الذى يرى أن قتلة ربنا لا يزالون وافرين »

ابتدأ اضطهاد الكنيسة لليهود سنة ٦١٦ فى أيام الملك « سيسبوت » Sisebut وتقرر اعطاء اليهود مهلة سنة ليتنصروا فان لم يتنصروا فى خلال تلك السنة نفوا الى خارج اسبانية وضبطت أملاكهم وجلد كل منهم مائة جلدة . فتنصر منهم تسعون ألفا من مجرد الرعب . ولكن المتنصرين كما لا يخفى لبثوا يختنون أولادهم سرا ويدينون بدين موسى . فقرر مجمع الاساقفة الرابع المنعقد

فلما بلغ موسى بن نصير ما فتحه الله على يد طارق هاج أشدّ هياج للأخذ بنصيبه من هذا الفتح وأقبل بجيش من العرب والبربر (١) ومعه واحد من أصحاب محمد عمره مائةسنة وكثير من أبناء الصحابة (٢) . وقد انتحى موسى طريقاً

فى طليطلة تركهم أخيرا وشأنهم بشرط أن يسلموا أطفالهم لاجل تنشئتهم فى النصرانية . ثم فى المجمع السادس فى طليطلة قرر الاساقفة أنه لا يؤذن بمبايعة ملك على اسبانية الا على شرط انفاذ قرارات المجامع الاسقفية بحق اليهود . وبرغم هذا كله بقى يهود فى تلك البلاد كثيرون ، ولكن استمر المسيحيون يعذبونهم نحوا من ثمانين سنة الى أن فرغت جعبة اصطبارهم فأجمعوا الثورة بمظاهرة يهود البربر فى افريقية ، ووعدهم هؤلاء بالاجازة الى الاندلس لاجل نجدتهم . وكان ذلك فى زمن الملك « اجيكا » Egica الذى بلغه هذا الخبر فجمع الاساقفة وبعد أن استوثقوا من صحة الخبر قرروا استعباد اليهود بأجمعهم وضبط جميع أملاكهم . ومن الغريب أنه قضى على بعض اليهود بأن يكونوا عبيدا لمن كانوا عبيداً ، وتقرر أن يؤخذ أولادهم من بعد بلوغ سن السابعة وينشأوا فى النصرانية ولم يكن يؤذن بزواج اليهودى من اليهودية ، بل كان لا بد لليهودى بعد أن صار عبدا من أن يتزوج بأمة مسيحية . وكان لا بد لليهودية من أن تتزوج بعبد مسيحي الخ

فلما جاء المسلمون وفتحوا اسبانية كان اليهود هناك فى أشد العذاب ، فحررهم المسلمون من الرق ، وتركوا لهم الحرية التامة بأن يمارسوا شعائر دينهم فنشقوا نسيم الفرج ، فلذلك كانوا هم والارقاء وجميع الضعفاء من أعظم أنصار الاسلام . انتهى ملخصا

(١) جاء فى نفح الطيب نقلا عن الرازى أن موسى خرج من افريقية الى الاندلس فى رجب سنة ٩٣ واستخلف على افريقية أسن ولده عبد الله بن موسى وكان موسى فى عشرة آلاف

(٢) جاء فى النفح : زعم ابن حبيب أنه دخل الاندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة اسمه المنيذر . قال : ودخلها من التابعين (الذين صحبوا من صحب النبى صلى الله عليه وسلم) ثلاثة : الامير موسى بن نصير ، وعلى بن رباح اللخمى ، وحيوة بن رجاء التميمى . وقيل ان ثالثهم انما هو حنش الصنعانى ، صنعاء الشام ، (قرية كانت على باب دمشق دون المزة) وانهم قفلوا عنها بقفول موسى . وأهل سرقسطة يزعمون أن حنشا مات عندهم ولم يقفل للمشرق وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه اه . وقيل ان التابعين الذين دخلوا الاندلس أربعة بأبى عبد الرحمن الجيلى الانصارى وخمسهم بعضهم بحيان أبى جبلة مولى بنى عبد الدار كان فى ديوان مصر فأرسله عمر بن عبد العزيز الى افريقية فى جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها . وكان روى

غير الطريق التي سلكها مولاه طارق وفتح بلداناً أخرى مثل ماردة[١] وسرقسطة[٢] وكان أكثر جنده من الفرسان وكانت تتبع كل كوكبة من فرسانه طائفة

عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر وغزا مع موسى بن نصير وانتهى معه الى حصن من حصون العدو يقال له قرقشونة (هي حصن Carcassonne في جنوبي فرنسة) اهـ . وقال ابن الأبار في التكملة : حيوة بن رجاء التميمي ، ذكر عبد الملك بن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير وأصحابه وأنه من جلة التابعين . قاله ابن بشكوال . وقال ياقوت في معجمه عند ذكر صنعاء الشام : وحنش بن عبد الله الصنعاني — صنعاء الشام — سمع فضالة بن عبيد، روى عنه خالد بن معدان والحلاج أبو كثير وعامر بن يحيي المعافري . قال ابن الفرضي عداده في المصريين ، وهو تابعي كبير ثقة ، ودخل الأندلس . قال : وهو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة بن فهد بن قنان بن ثعلبة بن عبد الله بن ثامر السبأي وهو الصنعاني يكنى أبا رشيد (بفتح الراء) كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة ، وقدم مصر بعد قتل علي ، وغزا المغرب مع رويفع ابن ثابت والأندلس مع موسى بن نصير (الى أن يقول) ومات بافريقية وولده بمصر . وقيل مات بمصر . وقيل بسرقسطة ، وقبره بها معروف ، كل ذلك عن ابن الفرضي . اهـ . وأما المنيذر الصحابي فقد جاء في النفح أن ابن حبيب لم ينسبه وانما ذكره ابن عبد البر (الأندلسي) في الصحابة ، وقال انه المنيذر الافريقي ، وروى عنه أبو عبد الرحمن الحبلي . قال : حدثنا المنيذر الافريقي ، وكان سكن افريقية ، وكان صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً فأنا الزعيم له فلآخذن بيده فلأدخلنه الجنة » رواه ابن عبد البر بسنده اليه

(١) Mérida من ولاية بطليوس والى الشرق منها وهي بلدة من بناء أغسطس الروماني استولى عليها العرب نحواً من ٥١٥ سنة ، وسيأتي ذكرها في الجزء الآتي من الحلة

(٢) أصل اسمها عند الايبريين « سالدوبه » وقد سميت سرقسطة في زمان الرومانيين باسم الامبراطور أغسطس فسميت Cesar-Augusta أي قيصر أوغسطه وقد حرفها العرب الى سرقسطه وكان يقال لها الثغر الأعلى لأنها القاعدة الحدودية بين العرب والافرنجة ، وكان القوط استولوا عليها سنة ٤٧٦ وحاصرها الافرنج (الافرنسيون) في زمان أحفاد كلوفيس فعجزوا عنها ، ولما استولى العرب على اسبانيه كانت من القواعد الكبار ، وحصرها شارلمان في أيام عبد الرحمن الداخل وعجز عنها واسترجعها الاسبانيول سنة ١١١٨ كما سيأتي الكلام عليه، بعد حصار استمر تسعة أشهر وحرب استمرت خمس سنوات . ودخل اليها محرر هذه السطور سنة ١٩٣٠ في أواخر

من حملة الارزاق بالبغال . وان مؤرخى العرب متفقون على أن موسى بن نصير وصل بغزواته الى فرنسة ، وأنه فى « ناربون »(١) وجد فى احدى الكنائس سبعة تماثيل فضية منقوشة ، وكذلك فى قرقشونة عرضت لمطامعه فى كنيسة « سانت مارى » سبعة أعمدة كبار هائلة من الفضة (٢)

وكان العرب يطلقون على فرنسة اسم « الأرض الكبيرة » ويعنون بها جميع الأرض الواقعة بين جبال البيرانه (التى يقول لها العرب البرانس) وجبال الألب والاوقيانوس ونهر البا ومملكة الروم . وهذه البلاد تنطبق فى الحقيقة على فرنسة

يونيو وشاهد أهم آثارها ومن جملتها قصر الجعفرية المنسوب الى أبى جعفر أحمد ، بناه فى أواسط القرن الحادى عشر للمسيح ، ولا يزال الجامع الذى فيه محفوظاً . ومما شاهدناه فيها كنيسة « السيو » التى بنيت على انقاض الجامع الاعظم . وبقى الاسبانيول يشتغلون بها من سنة ١١١٩ الى سنة ١٥٢٠ فجاءت من أفخم كنائس أوربة . ولها باب من الجهة الشمالية الشرقية لا تزال عليه الصنعة العربية والزليج الذى تمتاز به قصور العرب . وفى هذه الكنيسة قبة بالنحاس الاصفر من صنع المهندس العربى الذى كان يقال له الرامى ، بنيت سنة ١٤٩٨ وفيها من الزخرف شئ كثير يحار له العقل. وفى سرقسطة كنائس كثيرة بديعة غير هذه وقصور وجسر على نهر « ايبره » يصل بين البلدة والربض Rabal ويلفظون الربض « رابال » وهو لفظ غريب ، ولكن له أصل فى العربى ، وقد سمعت أناساً من ثقيف ومن هذيل يقلبون الضاد لاماً ، وذكرت ذلك فى رحلتى الحجازية المسماة بالارتسامات اللطاف . هذا وسكان سرقسطة اليوم ١١٠ آلاف نسمة

(١) Narbonne والعرب يقولون لها أربونة كانت قاعدة ثغورهم الشمالية مدة نصف قرن ، وهى مدينة على مسافة قريبة من البحر يمر بها جدول من نهر الاود ، وقد دخلتها سنة ١٩٣٠ فى أوائل سبتمبر وأنا قافل من الاندلس ، ورأيتها تشبه كثيراً المدن العربية فى ضيق أزقتها وازدحام بيوتها ، ورأيت فيها الاشجار التى تكثر فى البلاد العربية كالتين والصبير والرمان وما أشبه ذلك . وفيها زقاق منسوب الى السمح Zama وهو السمح بن مالك الخولانى . وعدد سكانها الآن لا يزيد على ٣٠ ألف نسمة

(٢) فى الصفحة ١٣٠ من نفح الطيب الجزء الاول الطبعة الازهرية يقول : قال بعضهم ان بين قرقشونة وبرشلونة مسافة خمسة وعشرين يوماً وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة « سنت مريه » وقد حكى ابن حيان أن فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الراءون مثلها ، لا يحيط الانسان بذراعيه على واحد منها مع طول مفرط

فى زمن شارل مارتل (١) وابنه بيبن (٢) ولا سيا فى زمان شارلمان (٣) . وكانت الأمم التى فى هذه المملكة تتكلم بعدة لغات كما يقول مؤرخو العرب

(١) Charles Martel أى كارل المطرقة ، والعرب تقول « قارله » ابن « بابين دريستال » ولد سنة ٦٨٩ واتهمه أبوه بقتل أخيه « غريموالد » فحبسه فى « كولونيه » ولما مات أبوه سنة ٧١٤ صار هو حاجب الملك مكان أبيه بمساعدة الاوسترازيين وقهر النوستريين فى عدة وقائع واستبد بأمور الملك شيلبريك الثانى ، ثم بأمور « تييرى » الرابع ، ولم يبق لأحد منهما من الملك سوى الاسم، وحارب الصكصون والبافاريين وتغلب عليهم، وهزم أولاد دوق اكيتانية، الا أن هذا لما رأى العرب فتحوا بلاده استصرخ قارله ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فحشد لقتال العرب عصائب الاوسترازيين والألمان، وتغلب على الأمير عبد الرحمن الغافقى فى وقعة بواتيه سنة ٧٣٢ ومن بعدها لقب بالمطرقة أو الصاقور . وأجمع الأوربيون على أن هذه الواقعة هى التى أنقذت أوربة والنصرانية من الاسلام . ثم طرد العرب من « نيم » وغيرها ، لكنه لم يقدر على طردهم من أربونة أو ناربون . وكانت وفاته سنة ٧٤١ وقد ترك من الولد « بيبن القصير » و « كرلومان » و « غريفون » و « رمى » و « برنار » و « جيروم » فاقتسم المملكة الأولان فيما بينهما وصار « رمى » مطراناً على مدينة روان Rouen

(٢) Pepin le Bref بيبن القصير ابن قارله، حارب الصكصون والبافاريين وأمير أكيتانية . وفى سنة ٧٥١ بويع ملكا على الفرنج Les Trancs وهو أول الدولة الكارلوفنجية Carlovingienne وكانت مبايعته بعضد الكنيسة له. وترك من الولد شارلمان Charlemagne وكارلومان Carloman ومات سنة ٧٦٨ وهو الذى استرد أربونة وقرقشونة من أيدى العرب

(٣) هو كبير ولد بيبن القصير، كانت ولادته فى نوستريا سنة ٧٤٢ وتولى الملك هو وأخوه كارلومان الى أن مات هذا سنة ٧٧١ فانفرد شارلمان بالملك وحارب الاكيتانيين واللومبارديين وقهرهم وأخذ ملك لومباردية أسيراً ، وحارب الصكصونيين والبافاريين والتورنجيين والسلاف والآفاريين والدانمركيين، ودوخهم جميعاً . ولكن أشد حروبه كانت مع الصكصونيين اذ جرد عليهم ٣٣ تجريدة ولم يبرح حتى أدخلهم فى الطاعة وفى النصرانية معاً ، وكانوا من أشد أعدائها فبث فيهم الدعاة والمبشرين حتى تنصروا قاطبة . وبلغت جيوشه شرقى أوربة ، وانتزع من يد روم القسطنطينية سواحل دالماسيا (اليوم فى يوغوسلافيا) وبلدان الدانوب ، وهكذا دخل فى حوزته كل ما كان يسمى بأوربة المسيحية . وتوجه البابا لاون الثالث امبراطوراً على الغرب فى سنة ٨٠٠ وجدد به السلطنة الرومانية . وكان عدا غرامه بالفتوحات مجتهداً فى تنظيم ادارة رعيته وتوزيع العدالة بينها ، وفى تهذيب الأهالى وتعليمهم وايداب الثوار منهم ، فهو أعظم ملوك الغرب فى القرون الوسطى،

وقد كان أشد مابهت له المسيحيون أوائذ أنهم كانوا يرون أعداءهم هؤلاء في كل مكان وفي وقت واحد . وكانت طريقتهم في الفتح أنه إذا خضع لهم بلد بدون قتال لم يعتدوا على سكانه في مالهم ولا في دينهم،وانما كانوا يحولون جانباً من الكنائس الى جوامع ويغنمون ما فيها من النفائس،ويضعون أيديهم على الأراضي التي نزح أهلها وعلى الخيل والأعتدة التي كانت ضرورية لهم في تلك الغزوات المتواصلة . وكانت الجزية التي يضربونها على الأهالي متفاوتة بحسب الاحوال وربما أخذوا من الأهالي رهائن ليستوثقوا منهم . فأما البلاد التي لم تخضع لهم الا بالسيف فقد كانت عرضة لجميع المظالم التي تصحب الفتوحات وكان يضرب عليها ضعف جزية البلاد الخاضعة بلا قتال . وكانوا يتركون فيها حامية لحفظها وربما جعلوا في هذه الحامية بعض اليهود الذين كانت عداوتهم للمسيحيين أضمن سبب للثقة بهم

وقد ذكر مؤرخو العرب في عرض الكلام على الفتوحات العربية في فرنسة أنه قد كان مقصد موسى بن نصير رحمه الله المعاد الى دمشق حضرة الخلافة عن طريق المانيا ماراً بالقسطنطينية وبآسية الصغرى ، بحيث يصبح البحر المتوسط كله عبارة عن بحر متوسط للمملكة الاسلامية ، يخدم مواصلات بعضها مع بعض . أما مؤرخو المسيحيين فلم يذكروا شيئاً عن دخول موسى الى أرض فرنسة . ولعل زحفة

خطب وده نيقوفور ملك الروم وهارون الرشيد خليفة العرب وأدارسة المغرب وغيرهم من الملوك المعاصرين

وقاتل شارلمان العرب قتالا مستمراً، براً وبحراً، وأجلاهم عن جزيرتي كورسيكا وسردانيه ، واسترجع منهم بلاد كتالونية وأراغون الى سرقسطة. وذلك بمساعدة اسبانيول آستوريا ونافاره . ولكنه لم يتمكن من فتح سرقسطة . وبينما هو قافل عنها دهمه الباشكنس في « رونسفالس » فاستأصلوا ساقة جيشه وقتل في ذلك اليوم « رولان » Roland أحد الأبطال الذين رافقوا شارلمان في تلك الحملة ، وهو الذي وضعت له الأقاصيص في فرنسة وتغنت بوقائعه شعراؤهم وزجالوهم، أشبه بعنترة عندنا . وقيل ان العرب، هم الذين هزموا جيش شارلمان في البيرانه وظاهرهم الباشكنس

موسى عليها كانت قاصرة على غارات سريعة مر بها كخطفة البازى ورجع . ومما لا مشاحة فيه أن النصرانية كانت يومئذ تحت أشد الأخطار. وان الانسان ليرتجف رعباً عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحلّ بأوربة لو لم يقع الخلاف من أول الأمر بين العرب الغالبين » اهـ كلام رينو ملخصاً

وقد استشهد رينو هنا بكلام المقرى فوجب أن ننقل قول المقرى فى هذا الصدد جاء فى الصفحة ١٢٩ من الجزء الأول من نفح الطيب ما يأتى ببعض اختصار : كانت نفس موسى بن نصير تنزعج الى جليقية (وهى ما يسميه الافرنج Galicie غاليسيا وقاعدتها مدينة كان العرب يسمونها شانت ياقو Santiago ويقول لها الافرنج Saint - Jacques De Compostelle) فبينما هو يعمل فى ذلك ويُعِد له اذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج عن الأندلس والاضراب عن الوغول فيها ، فساءه ذلك وتعلع به عن ارادته ، اذ لم يكن فى الأندلس بلد لم تدخله العرب الى وقت ذلك غير جليقية ، فكان شديد الحرص على اقتحامها ، فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة وسأله انظاره الى أن ينفذ عزمه فى الدخول اليها ويكون شريكه فى الأجر والغنيمة ، ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك (هو فى الافرنجية Luque) فأقام هنالك وبثّ السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز. وكان العرب والبربر كلما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين . فاتسع نطاق الاسلام بأرض الأندلس . وبينما موسى كذلك فى اشتداد الظهور وقوة الأمل اذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليد مغيثاً لما استبطأ موسى فى القفول وكتب اليه يوبخه وألزم رسوله ازعاجه . فانقلع حينئذ من مدينة «لك» بجليقية وخرج على الفج المعروف بفج موسى ، ووافاه طارق فى الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومضيا جميعاً ، وقفل معهما الرسولان مغيث وأبو نصر

حتى احتلوا اشبيلية . فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الأندلس وأقرّه بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر. وركب موسى البحر الى المشرق بذى الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه . وكان مقام طارق قبل دخول موسى سنةً ، وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر . وحمل موسى الغنائم والسبي وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة (سيأتى ذكر ذلك كله فى محله من الجزء الآتى) منوهاً بها ومعها من الجواهر مالا يقدر قدره وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذى فاته أسف على مالحقه من الازعاج، وكان يؤمل أن يخترق مابقى عليه من بلاد افرنجة ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس فى الشام، متخذاً مخترقه بتلك الأرض طريقاً مهيعاً يسلكه أهل الأندلس فى مسيرهم ومجيئهم من المشرق واليه على البرّ لا يركبون بحراً . وقيل انه أوغل فى أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا هى : « يابنى اسماعيل انتهيتم فارجعوا » فهاله ذلك، وقال: ما كتب هذا الا لمعنى كبير . فشاور أصحابه فى الاعراض عنه وجوازه الى ما وراءه فاختلفوا عليه ، فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية اهـ

وجاء فى نفح الطيب بعد ذلك بصفحتين ما يأتى : وذكر بعض المؤرخين أنهم وجدوا فى الحجر بعد ماتقدم من الكتابة التى هى : ارجعوا يابنى اسماعيل الخ ـ مامعناه: (وان سألتم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض[1]) اهـ

---

(١) قصة الكتابة العربية هذه أشبه بأن تكون ملفقة أو محرفة عن قصة أخرى . والحقيقة أن عدم تحقيق موسى بن نصير مقصده العظيم ذاك من اختراق أوربة من الغرب الى الشرق ونفوذه الى دمشق عن طريق القسطنطينية لم يكن عن قراءته فى الصخر كتابة عربية أو سريانية ، فالذى يقوم بتلك الأعمال الكبيرة الخارقة للعادة لا يكون ممن يعمل فيه الوسواس لكتابة كهذه يجوز ــ ان صح خبرها ــ أن تكون كتابة محدثة نقرها الافرنج أنفسهم ليدخلوا الوهل على قلوب العرب بعد أن رأوهم أوغلوا فى بلادهم وصمموا أن يصلوا الى غايتها . وانما لم يتمكن موسى بن نصير

وقال ابن خلدون عن دخول موسى بن نصير الى الأندلس ما يلى :

« نهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين فى عسكر ضخم من وجوه العرب . والموالى وعرفاء البربر ،فوافوا خليج الزقاق مابين طنجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز الى الأندلس، وتلقاه طارق فانقاد واتبع . ويقال ان موسى لما سار الى الاندلس عبرالبحر من ناحية الجبل المنسوب اليه المعروف اليوم بجبل موسى ، وتنكب النزول على جبل طارق وتم الفتح وتوغل فى الأندلس الى برشلونة فى جهة المشرق،وأربونة فىالجوف، وصنم قادس فى الغرب.ودوّخ أقطارها وجمع غنائمها، وأجمع أن يأتى المشرق من ناحية القسطنطينية، ويتجاوز الى الشامدروب الأندلس ودروبه، ويخوض اليه ما بينهما من

من ا كمال مشروعه بسبب الحاح الخليفة الوليد عليه فى القدوم الى دمشق ليقف منه على حقيقة خبر الأندلس وافرنجة ويشافهه فى عمل عظيم كهذا لا تكفى المكاتبة من بعيد فى تدبيره . وقد يكون الوليد خاف على المسلمين أن تأكلهم القاصية أو تنزل بهم داهيـة ، وأنت تعلم أن موسى بن نصير لما اتصل به يليان كونت سبتة وشوقه الى غزو الأندلس انتقاماً من الملك لذريق الذى كان اغتصب ابنة يليان على ما سيأتى خبره فى الجزء التالى ، وكتب موسى الى الوليد يخبره بما دعاه اليه يليان ويستأذنه فى اقتحام الأندلس كان جواب الوليد أن : خضها بالسرايا حتى ترى وتخبر شأنهـا ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال . فراجعه موسى بأنه ليس ببحر زخار وانمـا هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه . فكتب اليه الخليفة : وان كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه

فاذا كان الخليفة لم يسمح لموسى بعبور بحر الزقاق وهو خليج ضيق عرضه ١٤ كيلو متراً الا بعد مراجعات متعددة فكيف يسمح له باختراق أوربة من اسبانية الى فرنسة الى ايطالية الى بلاد البلقان الى القسطنطينية الى آسية الصغرى بدون أن يتروى فى الأمر ويروزه مائة مرة قبل أن يقدم عليه ، فقد كانوا فى اشفاق دائم على جيوش المسلمين أن ينقطعوا عن مركز الخلافة وتحل بهم نائبة

وسترى فيما بعد أن الأندلس كانت امتلأت بالمسلمين ، وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لا يزال يفكر فى اخراج المسلمين منها وإعادتهم الى افريقية خوفاً عليهم لانقطاعها عن بلاد الاسلام . ولقد صح خوفه من بعد ثمانمائة سنة . فالخليفة الوليد باستقدامه موسى بن نصير اليه كان قد وقف المشروع حتى يتروى فيـه ، ولكن ما وصل موسى الى دمشق حتى مات الوليد وخلفه سليمان أخوه وكان حاقداً على موسى فنكبه تلك النكبـة الشنيعة وجازاه على فتوحاته جزاء سنمار ، وعطل ذلك المشروع بجملته وانقياده الى هواه دون المصلحة العامة . وسترى فى كلام ابن خلدون أن استقدام الوليد لموسى لم يكن الا من خوفه على المسلمين

بلاد أعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ومستلحماً لهم الى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق . ونمى الخبر الى الخليفة الوليد فاشتدّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما همّ به موسي تغرير بالمسلمين، فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وأسرّ الى سفيره أن يرجع بالمسلمين ان لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده . ففتّ ذلك فى عزم موسي وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية فى ثغورها.واستعمل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتّخذها دار امارة.واحتلّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين، وارتحل الى المشرق سنة ست بعدها ، بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر. يقال ان من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي . وولى على افريقية ابنه عبد الله ، واندرجت ولاية الأندلس يومئذ فى ولاية المغرب ، فكان صاحب القيروان ناظراً فى الجميع . وقدم موسى على سليمان بن عبد الملك وقد ولى الخلافة بعد الوليد فسخطه ونكبه. وثارت عساكر الاندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته باغراء الخليفة سليمان. وكان خيّراً فاضلا وافتتح فى ولايته مدناً كثيرة . وكان الذى تولى قتله حبيب بن أبى عبيدة الفهرى. وكان سبب غضب سليمان على موسي أنه لما توجه الى المشرق وانتهى الى مصر وصل أشرافها وفقهاءها وبلغه الخبر بمرض الوليد، ووافاه كتابه يستحثه على القدوم، ووافاه كتاب آخر من سليمان يثبطه، فأسرع موسي باللحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاثة أيام ودفع اليه ما معه من الذخائر والأموال، فغاظ ذلك سليمان ، وأساء مكافأته حين أفضى الأمر اليه فنكبه ونكب آل بيته أجمع. وكانت وفاة موسي رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك . اه

وقال الشيخ أبو محمد بن أبى زيد القيروانى : ارتدّت البربر اثنتى عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ولم يستقر اسلامهم حتى عبر موسي بن نصير البحر الى الأندلس وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقروا هنالك فحينئذ استقر الاسلام

بالمغرب واذعن البربر لحكمه وتناسوا الردة . اه

وقال ابن عذارى المراكشي فى «المغرب فى أخبار ملوك الاندلس والمغرب» مايلى :

وفى سنة ٩٦ توفى الوليد بن عبد الملك فى جمادى الآخرة وولى الخلافة سليمان فغضب على موسى غضباً عظيما وأمر عليه فأوقف فى يوم شديد الحر، فى الشمس، وكان رجلا بادناً ذا نسمة، فوقف حتى سقط مغشياً عليه، وقال له سليمان : كتبت اليك فلم تنظر كتابى هلمّ مائة ألف دينار . فقال : ياأمير المؤمنين : قد أخذتم ما كان معى من الأموال فمن أين لى مائة ألف ؟ فقال سليمان : لا بد من مائتى ألف . فاعتذر . فقال : لا بد من ثلاثمائة ألف دينار وأمر بتعذيبه وعزم على قتله . فاستجار بيزيد بن المهلب وكانت له حظوة عند سليمان فاستوهبه منه وقال : يؤدى ما عنده . وقيل ان موسى افتدى من سليمان بألف ألف دينار . ذكر ذلك ابن حبيب وغيره . ثم ان يزيد بن المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى فقال له : ياأبا عبد الرحمن فى كم تمتدّ أنت وأهل بيتك من الموالى والخدّام أتكونون فى ألف ؟ فقال : نعم وألف وألف . قال : فلم ألقيت بيدك الى التهلكة ؟ أفلا أقمت فى قرار عزك وموضع سلطانك ؟ فقال : والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافى شيئاً، ولكنى آثرت الله عز وجل ولم أر الخروج عن الطاعة . اه

قلت : لم يكن يزيد بن المهلب بالذي يجهل فضل الطاعة للخليفة وشناعة شق العصا، ولكنه قال لموسى هذا الكلام لما أثار من غيظه عمل خليفة كسليمان بن عبد الملك برجل عظيم خدم الأسلام مالم يخدمه أحد مثل موسى بن نصير . فقد كافأه بما لا يكافأ به مجرم . وهو فى الحقيقة لا من أعاظم رجال الأسلام فقط بل من أعاظم رجال العالم . وحسبك أنه هو الذى دوخ البربر المشهورين بشدة البأس وصعوبة المراس بعد أن أشعلوا ثورات ، لا ينادى وليدها ولا يحصى عديدها ، وبعد أن ارتدوا عن الأسلام اثنتى عشرة مرة . فلم يستقر اسلامهم الا على يد موسى بن نصير . وحسبك

أنه دخل الأندلس واستتم فتحها واستصفى ممالكها وهو ابن ٧٥ سنة وكان جميع جيشه هو وطارق لا يزيد على ثلاثين ألف مقاتل . ولو أن قائداً معه ثلثمائة ألف مقاتل ما أحاط بالأندلس وأثخن فيها ما أحاطه موسى وأثخنه فى ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء تموج حواليه كالأبحر الزاخرة . وما رأى الأندلس وحدها كفؤاً لهمته بل حدثته نفسه التى قل مثلها فى نفوس البشر، فى بعد الهمة، أن يوغل فى أرض الافرنج ويعطف منها الى الشرق حتى ينفذ من القسطنطينية .

وقرأت فى تاريخ « دول الاسلام » للامام الذهبى أن موسى بن نصير توفى فى وادى القرى عن ٧٨ عاماً ، وأنه كان يقول : لو أطاعنى عسكرى نفذتهم حتى أفتح رومية

وروى ابن عذارى أنه أقام على المغرب والأندلس أميراً نحواً من ١٨ سنة

ومما ذكر فى وفاته أنه حج مع الخليفة سليمان فلما وصلا الى المدينة قال موسى لأصحابه : ليموتن بعد غد رجل قد ملأ ذكره المشرق والمغرب . وبالفعل كان موسى الرجل الذى ملأ اسمه المشرق والمغرب وكان فى الرجولية كالصخرة التى تنحط عنها السيول

هذا ولم يكتفِ سليمان بنكبة موسى فى شخصه حتى نكب جميع أولاده . فأمر محمد بن يزيد أمير افريقية بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه واستئصال أموال بنى موسى ، فسجنه محمد وعذبه ثم قتله .

وأما عبد العزيز بن موسى فقد رويت فى أسباب قتله روايات كثيرة، أقربها الى العقل أنه لما بلغه ماحل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع طاعة بنى مروان، فجاء أمر سليمان الى وجوه العرب بالأندلس بقتله، فقتلوه وحمل رأسه ورأس أخيه عبد الله حتى وضعا بين يدى أبيهما موسى وهو فى عذابه (١) .

(١) جاء فى كتاب « بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس » لابن عميرة الضبى ترجمة عبد العزيز ابن موسى بن نصير قال : كان والده قد استخلفه على الأندلس عند خروجه منها سنة ٩٥ فأقام واليها الى أن كتب سليمان بن عبد الملك الى الجند هنالك فقتلوه وأتوه برأسه . كذا قال سعيد بن يونس . وكان قتله فيما قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فى سنة ٩٩ وقال: ان الجند

قال ابن عذارى : « فـكان فعل سليمان هذا بموسى من هفوات سليمان التى لم تزل تنقم عليه »

قلت : من هفوات ابن عذارى أن يعبر عن أعمال سليمان هذه بلفظة هفوات . وهى فى الواقع من الجرائم التى لا تغفر . ولـكن مما لا يجوز أن ننساه أن موسى بن نصير أخذته الغيرة مما وفق اليه طارق بن زياد من الفتوح ، وأهانه ، بعـد أن تلاقيا فى الأندلس . وكان هذا العمل الصغير غير متناسب مع كبارة نفس موسى وعلو همته ولم يخلُ من تأثير فى قضية نكبته لأن طارقاً شكا الى الخليفة ما فعـله به وظاهره فى ذلك مغيث الرومى رسول الوليد الى الأندلس . قال صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم » وهو من أقدم ما كتب من تواريخ الأندلس يظهر أن صاحبه حرره (١) فى عهد الحكم

...

اجتمعوا على قتله لأمور نقموها منه وبلغتهم عنه فثاروا به وقتلوه وخرجوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك وانه لما احضر بين يدي سليمان حضر موسى بن نصير فقال له سليمان : أتعرف هـذا ؟ قال : نعم أعرفه صواماً قواماً فعليه لعنة الله ان كان الذي قتله خيراً منه اهـ

(١) قد أورد دوزي المستشرق الهولاندى المتخصص بتاريخ الأندلس عن كتاب «أخبار مجموعة» هذا بحثاً مدققاً كعادته فى المقـدمة التى وضعها بالافرنسية على كتاب « المغرب فى أخبار المغرب » لابن عذارى المراكشى فقال دوزي ما محصله :

« ان العرب لم يكونوا يكتبون التاريخ فى القرنين الأولين من استيلائهم على اسبانية وذلك لأن العرب كانوا يعتمدون كثيراً على الروايات الشفهية وان قوة ذاكرتهم لعجيبة فليس فى الأمم أمة تساميهم فى حفظ مايحفظونه من وقائع وسنين وأعلام وأنساب وذلك بدون ضياع ولا تحريف الا مالا بال له . فلم يكن بهم حاجة اذاً الى كتب مدونة . وكان التاريخ فى جميع الأفواه يتناقله الأبناء عن الآباء . ثم ان الذين كانوا يشتغلون بالـكتابة كان عددهم نزراً جداً وكانوا اذا كتبوا اختاروا التأليف فى الديانة وكانت التآليف فى غير الديانة مكروهة . فلهـذا ندرت الـكتابة فى التاريخ فى الصدر من أيام أمراء بنى أمية بالأندلس . ومع هذا فقد وجدت شذرات تاريخية من ذلك العهد ملحقة بتاريخ ابن القوطية وعليها هذا الاسم التالى : أخبار مجموعة فى افتتاح الأندلس وذكر من وليها من الأمراء الى دخول عبـد الرحمن بن معاوية وتغلبه عليهـا وملـكه فيها هو وولده والحروب الـكائنة فى ذلك بينهم . ومن تأمل فى هذا الاسم علم أنه موضوع الـكتاب وشك فى أن يكون هو اسمه . لهذا قد كنت ظننت أن « أخبار مجموعة » هو « الـكتاب الثانى »

المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ـ : انه لما دخل موسى الأندلس كان ذلك سنة ثلاث

الا أنى رأيت ابن الخطيب ينقل فى كتابته عن الصميل بن حاتم فصلا عن الخزائنى لم أجده فى مخطوط « أخبار مجموعة » الذي فى خزانة باريز . فعدلت عن هذا الرأى . والذى يدور عليه الكلام فى أخبار مجموعة هو كيفية فتح العرب للاندلس ثم الحروب الأهلية التى وقعت بينهم الى زمان عبد الرحمن الداخل ومن عهده الى زمان عبد الرحمن الثالث وهناك ينتهى الكتاب . ويظهر أن المؤلف عاش الى ما بعد سنة ٣٥٠ لأنه يذكر أن عبد الرحمن الثالث ملك مدة خمسين سنة . بل أظن أن المؤلف عاش بعد ذلك بكثير لا فى أيام الحكم بن عبد الرحمن الثالث ولا فى زمن المنصور ابن أبى عامر بل فى القرن الحادى عشر للمسيح لأنه عندما ذكر كيف فكر عمر بن عبد العزيز فى نقل المسلمين من الأندلس هتف قائلا : « وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله » وغير ممكن أن يكون كاتب شاهد لفتوحات الحكم الثانى وفتوحات المنصور ابن أبى عامر ويقول هذا الكلام وهو كلام جدير بالعربى الذى شاهد حوادث الأندلس فى عهد تقهقر العرب فيها كالقرن الحادى عشر للمسيح (أى بداية الأربعمائة للهجرة) الذى كاد فيه الاذفنش السادس يستولى على جميع ديار المسلمين فى الجزيرة الأندلسية ، ولكن يوجد فى هذا الكتاب فصل لا يمكن أن يكون قد كتب الا فى القرن العاشر المسيحي وهو الذى يقول فيه : أخبرنا محمد ابن الوليد . وهو رجل محدث ترجمه الحميدى مات سنة ٣٠٩ . ثم انه يقول فى مكان آخر انه سمع رواية فرار عبد الرحمن الداخل عن فم أحد معاصرى هذا الأمير ؟ وهو تناقض غريب اذ ينبغى أن يكون سمع من فم رجل عاش فى القرن الثامن . وعبارته هذه هى : أخبرنى من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من بدء حديث هربه قال الخ. فلاجل التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين ينبغى أن يكون بعض هذا الكتاب كتب فى أواخر القرن الثامن وأن النسخة المحفوظة فى مكتبة باريز قد اشتملت على فصول كتبها بعض رجال القرن الحادى عشر فهو بالحقيقة مجموعة تواريخ لا تاريخ واحد ومما يجدر بالذكر أن كل من تأمل فى هذا الكتاب يرى مؤلفيه من أنصار دولة بنى أمية اهـ

قلت : يجوز أن يكون فى هذا الكتاب روايات مجموعة لعدة رواة منهم من تقدم ومنهم من تأخر ولكن تشاؤم مؤلف الكتاب بمصير الأندلس لا أراه بسبب كون المتشائم عاش فى القرن الحادى عشر المسيحى أو الرابع للهجرة ، بل يجوز أن يكون قد عاش أيام الفتوحات والطوائل ويبقى متشائماً وذلك لاستمرار الفتن بين مسلمى الأندلس بدون انقطاع ولأن الشيطان ألقى بينهم روقه فأطاعوه وهذا مع ثقل حملهم وكثرة عدوهم واتصال الأندلس بالأرض الكبيرة أى أوربة ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين خطر هذا المقام من بداية الأمر والعاقل بشفوف بصيرته يدرك طرفاً من خزائن الغيب، وصدور الأمور مؤذنات بأعجازها . وسنذكر فيما يلى من الأجزاء خلاصة ما قاله دوزى عن تواريخ الأندلس العربية .

وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفاً ـ وهذا خلاف الرواية التي نقلها المقري وهي أنه دخلها بعشرة آلاف ـ وقد بلغه ما صنع طارق فحسده فلما نزل الجزيرة قيل له : اسلك طريقه. قال: ما كنت لأسلك طريقه، فقال له العلوج الأدلاء : نحن ندلك على طريق هي أشرف من طريقه ومدائن هي أعظم خطباً من مدائنه لم تفتح بعد يفتحها الله عليك ان شاء الله . فامتلأ بذلك سروراً، فكأن فعل طارق قد غمه، فساروا به الى مدينة شذونة فافتتحها عنوة ألقوا بأيديهم اليه، ثم سار الى مدينة قرمونة (١) فقدم اليها العلوج الذين معه وهي مدينة ليس في الأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن ترجى بقتال أو حصار . وقد قيل له حين دعا اليه ليست تؤخذ الا باللطف، فقدم اليها علوجاً ممن قد أمنه واستأمن اليه مثل يليان ولعلهم أصحاب يليان، فأتوهم على حال الافلال معهم السلاح فأدخلوهم مدينتهم فلما دخلوها بعث اليهم الخيل ليلاً وفتحوا لهم باب قرطبة ـ من أبواب قرمونة ـ فوثبوا على أحراسه ودخل المسلمون قرمونة . ومضى موسى الى اشبيلية وهي أعظم مدائن الأندلس شأناً وخطباً وأعجبها بنياناً وآثاراً، وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس، فلما غلب القوطيون حولوا السلطان الى طليطلة، وبقي شرف الرومانيين وفقههم ودينهم ورئاستهم في دنياهم باشبيلية، فأتاها موسى بن نصير حتى حصرها أشهراً . ثم ان الله فتحها وهرب العلوج الى مدينة باجة فضم موسى يهودها ومضى الى مدينة ماردة . وكانت أيضاً دار بعض ملوك الأندلس ، ذات آثار وقنطرة وقصور وكنائس تفوت الوصف، فحصرها وقد كان أهلها خرجوا اليه وزحمهم دفعة، فقاتلوه من سورها على قدر ميل أو أكثر ، قتالا شديداً . فلما رأى خروجهم اليه أبصر فيها حُفَراً كانت مقاطع للصخر فأكمن فيها الرجال والخيل ليلاً ، فلما أصبح زحف اليهم فخرجوا اليه كهيئة خروجهم بالأمس ، فركبهم المسلمون وخرج عليهم الكمين وقتلوا قتلاً ذريعاً ونجا من نجا منهم الى المدينة. وهي مدينة حصينة لها سور لم يبنِ الناس مثله ، فثبت

(١) مدينة مبنية على متن أكمة عالية تنحط عنها الأرض من جميع جهاتها وحولها سهول فيح الى مسافة بعيدة قد زرتها سنة ١٩٣٠ في سياحتي الى الأندلس وشاهدت آثارها وحصونها المتهدمة وهي من عمل اشبيلية

عليهم يقاتلهم أشهراً حتى عمل دبابة فدبّ المسلمون تحتها الى برج من أبراجها فنقبوا صخره فلما نزعوا صخره أفضوا فى داخله الى الصماء التى يقال لها « اللاشّه ماشّه » بلسان أهل الأندلس، فنبت عنها معاولهم وفؤوسهم . فبينا هم يضربون فيها إذ استفاق عليهم العلوج فاستشهد المسلمون تحت الدبابة فسمى بذلك البرج «برج الشهداء» الى اليوم. وما أقل من يعرف هذا . وكان فتحه لها فى رمضان سنة أربع وتسعين يوم الفطر . فلما كان من أمر الشهداء ما كان ، قال العلوج : قد كسرناه فان كان يوماً مجيباً الى الصلح فاليوم فاطلبوه اليه . فخرجوا اليه فألفوه أبيض اللحية فراوضوه على شىء لم يوافقه ثم رجعوا. فلما كان قبل العيد بيوم خرجوا اليه ليراوضوه فاذاهوقد شبب لحيته بالحناء ،فألفوه أحمر اللحية،فعجبوا وقال قائلهم : أظنه يأكل ولد آدم أو ما هذا الذى رأيناه بالأمس . ثم خرجوا اليه يوم الفطر فاذا اللحية سوداء فرجعوا الى أهل مدينتهم فقالوا : يا حماقى انما تقاتلون أنبياء يتخلقون كيف شاءوا يتشببون [1] قد صار ملكهم حدثاً بعد أن كان شيخاً ، اذهبوا فأعطوه ما سأل . فصالحوه على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين الى جليقية للمسلمين وأموال الكنائس وحليها له . ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر فى سنة أربع وتسعين . ثم ان عجم أهل اشبيلية تحيلوا على من بها من المسلمين وجاءوا من مدينة يقال لها لبلة ومدينة يقال لها باجة وقتلوا من بها من المسلمين ــ قتل فيها ثمانون رجلا ــ فقدم فلّهم على موسى بن نصير بماردة فلما فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش الى اشبيلية فافتتحها ورجع. ثم مضى موسى من ماردة فى عقب شوال يريد طليطلة . وبلغ طارقاً اقباله فخرج معظما له متلقياً فلقيه بكورة طلبيرة، فلما رآه نزل اليه، فوضع موسى السوط على رأسه ووبخه فيما كان من خلاف رأيه،ثم سار به الى مدينة طليطلة،ثم قال له:أحضرنى بما أصبت وبالمائدة[2] فأتاه بها وقد اقتلع رجلاً كسرها من أرجلها فقال له : أين هذه الرجل ؟ فقال : انى لا

---

(١) ماورد فى كتب اللغة فعل « تشبب » بمعنى جعل نفسه شاباً ويظهر أن الكاتب قاسها على فعل « تشيخ » أى صار شيخاً

(٢) سنأتى بخبر هذه المائدة التى أصابوها بطليطلة فى الجزء القادم عند الكلام على فتح طليطلة

علم لى، كذلك أصبتها . فأمر بالرجل فعمل لها من ذهب وعمل لها سفط من خوص فأدخلها فيه ثم سار حتى افتتح سرقسطة ومداينها . اه

ولم يرد فى « أخبار مجموعة » أن موسى دخل بلاد افرنجة . ومقتضى كلام صاحب هذا التاريخ أن هذا حصل من بعده فانه يذكر بعد ولاية موسى بن نصير ولاية ابنه عبد العزيز، ولا يذكر ان مقتل عبد العزيز كان باشارة من سليمان بن عبد الملك كما ذكر كثير من المؤرخين ، ولا يقول ان عبد العزيز بن موسى خرج عن الطاعة بعد مابلغه مافعل الخليفة بأبيه، بل بالعكس هو يقول انه لما بلغ الخليفة سليمان قتل عبد العزيز شقّ ذلك عليه وأمر عبيد الله بن زيد عامله على افريقية بأن يتشدد فى قضية قتل عبد العزيز وأن يقبض على حبيب بن أبى عبيدة وزياد بن النابغة اللذين قتلاه ، وان يقفلهما اليه مع من شركهما فى قتله من وجوه الناس

الولاة على الأندلس بعد موسى بن نصير

وهو يذكر أن أهل الأندلس ولوا عليهم بعد عبد العزيز والياً صالحاً كان يؤمهم فى صلاتهم هو أيوب بن حبيب اللخمى [1] ابن اخت موسى بن نصير . وتولى بعده الحر بن عبد الله الثقفى . ثم فى خلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه تولى السمح ابن مالك الخولانى، وأمره الخليفة بأن يخمس الأراضى ويخرج منها ما كان عنوةً خمسا لله من أرضها وعقارها ويقر القرى فى أيدى غُنّامها بعد أن يأخذ الخمس، وأمره بأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهارها . وكان رأيه انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله .

وهذه العبارة تدل على أن عقلاء المسلمين ، من أول الفتح وفى أيام عنجهية

---

(١) هو الذى بنى « قلعة أيوب » والاسبانيول يقولون Calatayoud وهى مدينة مررنا عليها فى طريقنا من سرقسطة الى مجريط

العرب بالأندلس وأيام كانت قرطبة عاصمة فيها مليون ونصف من السكان وكان فى الأندلس من عز الاسلام ما كان ، لم يزالوا يستشعرون خطر المقام بتلك البلاد نظراً لانقطاعها عن بلاد الاسلام ولكثرة فتن العرب بعضهم مع بعض وفتن العرب مع البربر وغير ذلك .

هذا وبعد السمح بن مالك الخولانى تولى عنبسة بن سحيم الكلبى ، ثم يحيى بن مسلمة الكلبى ، ثم عثمان بن أبى سعيد الخثعمى ، ثم حذيفة بن الاحوص القيسى ، ثم الهيثم بن عفير الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد فى واقعة بلاط الشهداء (١) ثم عبد الملك بن قطن المحاربى القرشى (٢) .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون فى البلاد حتى بلغوا افرنجة وحتى افتتحت عامة الأندلس اه

وذكر المؤرخ (كوندي) الاسبانيولى أن الحر الثقفى هو الذى تجاوز حدود الأندلس الى بلاد افرنجة ونواحى أربونة وسبى وغنم وقفل بالأسارى والغنائم

وقال : ان غزو الحر لافرنجة وصرف قوته الى الجهاد فى بلاد الغال كانا من الأسباب التى سهلت للمسيحيين الملتجئين الى جبال آستوريا الاجتماع على العصيان

(١) هى واقعة بواتيه الشهيرة

(٢) فى الجزء الخامس من صبح الأعشى ورد ترتيب أمراء الأندلس كما يلى : موسى بن نصير أقام بالأندلس سنتين واستخلف عليها ابنه عبد العزيز، ثم وليها بعد قتله عبد العزيز بن عبدالرحمن القيسى سنتين وثلاثة أشهر، ثم وليها السمح بن مالك الخولانى سنتين وتسعة أشهر، ثم وليها عنبسة ابن سحيم الكلبي أربع سنين وخمسة أشهر، ثم وليها يحيي بن مسلمة سنتين وستة أشهر، ثم وليها حذيفة بن الأحوص القيسى سنة واحدة، ثم وليها عثمان بن أبى نسعة الخثعمى خمسة أشهر، ثم وليها الهيثم بن عبيد خمسة أشهر ، ثم وليها عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى سنتين وثمانية أشهر ، ثم وليها عبدالملك بن قطن الفهرى أربع سنين، ثم وليها عقبة بن الحجاج خمس سنين، وشهرين، ثم وليها مفلح ابن بشر القيسى أحد عشر شهراً، ثم وليها حسام بن ضرار الكلبي سنتين، ثم وليها ثوابة الجذامى سنة واحدة ، ثم وليها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى تسع سنين وتسعة أشهر ، وكانت دولة بنى أمية بالأندلس . انتهى

وقد جاء فى الحاشية فى الطبعة الأميرية من الكتاب تصحيح لهذا الترتيب من ذلك أن أول وال بعد عبد العزيز هو أيوب بن حبيب اللخمى كما فى نفح الطيب والعبر

وزرع نواة المقاومة ووضع أساس دولة مسيحية في اسبانية محل الدولة التي كانت قد بادت . وقد انضم الى هذا السبب سبب آخر أراد الله به تيسير أمرهم هو سخط الناس على ادارة الحرّ، وتبرّم الدهماء بعسفه ، المسلمون والمسيحيون في ذلك سواء . فان الحرّ كان قد آسف الخاصة والقواد والأمراء وصاروا إلباً عليه، وكانت الأهالي في غاليسيا وليون والجبال الأشتورية حديثة العهد بالخضوع للعرب ، فثقل عليهم الظلم أكثر مما ثقل على الذين أطاعوا من قبل . وظهر في ذلك الوقت رجل استفاد من هذه الأحوال الروحية في الشعب وجمع شمل بقايا حزب المقاومة وثار به ، وهو بيلاي(١) أول ملك للاسبانيول بعد دخول العرب للاندلس اه

وذكر صاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس وأخبار أمرائها والحروب الواقعة بينهم » أن عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث ، مولى بني سلول من قيس ، عندما ولاه الخليفة مصر أقرّ بشر بن صفوان على افريقية وولى عقبة بن الحجاج السلولي الأندلس فدخلها سنة ١١٠ وافتتح الأرض حتى بلغ اربونة

ثم ذكر أنه لما وقعت الواقعة بين العسكر الشامي وعبد الملك بن قطن أمير الأندلس في خبر سيأتي ذكره في الجزء الآتي، وقتل الشاميون عبد الملك وصلبوه في قرطبة، كان ابناه في نواحي اربونة . قال صاحب « أخبار مجموعة » : فلما بلغ ابنيه ما كان حشدا من أقصى اربونة وراجعا أهل البلد والبربر، وسيوفهم تقطر من دماء البربر، فرضيت البربر أن تنال ثارها من أهل الشام (٢) فاذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأي. فأقبل

(١) Pélage

(٢) وذلك أن عبد الملك بن قطن كان قاتل البربر الثائرين عليه، بأهل الشام، وهزمهم وأوقع بهم وأخذ ثأر العرب الذين كان البربر قد أخرجوهم من جليقية واسترقة وشمالي الأندلس . ولكن لم تستقر الغلبة للعرب حتى عادوا الى أحقادهم القديمة وثار الجند الشامي بعبد الملك وقتلوه واضطر ولداه قطن وأمية أن يرجعا الى البربر ويستعينا بهم على العرب . وقد جاء نسب عبد الملك بن قطن في بغية الملتمس هكذا : عبد الملك بن قطن بن عصمة بن أنيس بن عبد الله بن حجوان بن عمر بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر الفهري أمير الأندلس وليها سنة ١١٥ بعد عبد الرحمن العكي من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسي الأمير بافريقية وقتل بالاندلس سنة ١٢٥

قطن وأمية ومعهما عبد الرحمن بن حبيب، وأقبل معهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب اربونة ، فأقبلوا فى مائة ألف أو يزيدون اه

ومن هنا يعلم القارئ ما كان من بال العرب بأربونة منذ خيم الاسلام بعقرتها وما كان من وفرة جيوشهم فيها لأجل الرباط وسداد الثغور

رجع الى حديث استيلاء العرب على جنوبى فرنسة

نعود الى كلام المستشرق « رينو » فى موضوع غارات العرب على جنوبى فرنسة فهو يذكر ان فتن العرب المستمرّة المصطلمة ، بعضهم مع بعض ، قد نفّست من خناق المسيحيين فى الاندلس وافرنجة .ويقول : ان معظم اهتمام الخلفاء كان وقتئذ توجه الى الاستيلاء على القسطنطينية التى كانوا أغزوها جيشاً عدته مائة وعشرون ألف مقاتل وأسطولا عدده ألف وثمانمائة سفينة . ولا شك ان سموهم الى فتح شرقى أوربة شغلهم عن الزحف على غربى أوربة .. ولكنه يقول : ان مؤرخى العرب ذكروا مع ذلك بعض غارات على « اللانغدوق » فى أيام ولاية الحر الثقفى سنة ٧١٨ مسيحية .

وقد أيد هذه الرواية « ايزيدور » اسقف « باجة » (١) وهو من المؤرخين الذين عاشوا فى ذلك العصر، و« لذريق شيمنيس » مطران طليطلة (٢) وقالوا : انالعرب زحفوا الى الامام حتى وصلوا الى مدينة « نيم » ولم يجدوا مقاوماً ورجعوا بالغنائم والسبي الكثير .

قال رينو : ولم تكن مقاطعات جنوبى فرنسة لتقدر أن تقف فى وجه العرب المندفقين عليها من جبال البيرانه ، وكان الحكم للدولة المعروفة بدولة « الكسالى » (٣) اذ ذاك ، وكانت بلاد اللانغدوق يقال لها « القوطية » Gotic

(١) قال رينو فى الحاشية انه نقل روايات ايزيديور الباجى عن مخطوطات متعددة.

(٢) لذريق شيمنيس: كتب فى القرن الثالث عشر للمسيح.واعتمد على كتب العرب.قال رينو ان تاريخه مطبوع بالعربى واللاتينى فى ليدن

(٣) Faineants هو اللقب الذى أطلقه المؤرخون على أواخر ملوك الدولة الميروفنجية الذين

بسبب طول مقام القوط بها . وقد يقال لها أيضاً « سبتمانية » أى « السبعية » لاشتمالها على المدن السبع : اربونة، ونيم، واقد، وبيزيه، ولوديف، وقرقشونة، وماقلونة[١] وكانت من جملة مملكة « اود » دوق اكيتانيه[٢] وكان هـذا يدعى انه من ذرية الملك كلوفيس[٣] وبهذا السبب كان من أبناء عم ملوك فرنسة الشمالية فكان يكره بطبيعة الحال حجاب القصر الذين قد استولوا على الامور واستبدوا بهـا من دون الملوك ولم يبق لهم همّ الا فى توطيد سلطتهم وسلطة جنس الفرنج[٤] فى تلك المملكة مما ثنى أعنتهم عن صدّ العرب الموجفين على جنوبى فرنسة

فصارت بلاد اللانغدوق والبروفانس متروكة لاهلها الغاليين[٥] وكان هؤلاء شعباً مركباً من أعقاب الرومانيين القدماء ومن القوط . وكانت لكل من الفريقين عادات خاصة وشرائع يمتاز بها . فلم يكن من واق لجنوبى فرنسة فى ذلك الوقت أحسن من وقوع بأس العرب فيما بينهم . وذلك ان حكومة اسبانية العربية كان مرجعها القيروان فى افريقية ، وحكومة افريقية كانت عائدة الى دمشق دار الخلافة . فلم يكن من الممكن أن تكون سلطة موزعة الى هذا الحد، وأن تتعدد مراكزها كل هذا التعدد وأن يستتب بها النظام ، وأن تقيم على الطاعة رجالات نشأوا فى ظلال السيوف . ثم ان النزاع كان وقع بين العرب والبربر، وبين المسلمين وغير المسلمين من الجيوش الفاتحة ولما كانت أراضى المسيحيين التى دخلت فى حوزة الفاتحين قد صارت الى أيدى عدد

سلموا الأحكام لحجاب القصر تسليم خلفاء قرطبة بعد الحكم المستنصر الى المنصور بن أبى عامر ثم الى أولاده من بعده . وقد استمرت هذه الحالة فى فرنسة من عهد « تيرى » الثالث (سنة ٦٧٥) الى عهد « شيلدريك » الثالث (٧٥٢)

(١) Narbone, Nime, Agde, Beziers, Lodéve. Carcassonne et maguelone

(٢) Eudes duc D'itquitaine

(٣) Clovis أول ملوك فرنسة هذا الذى يسميه المسعودى قلوزيه

(٤) Les Francs الفرانك وهم من السلالة الجرمانية تغلبوا على فرنسة فنسبت اليهم وتسمت بهم ثم ان العرب تلفظوا بها « الفرنج » أو « الافرنج » وغلبت هذه اللفظة على كل الأوربيين

(٥) Gaulois نسبة الى بلاد الغال، والفرنسيس يقولون الغول

من ذوى الأطماع،وحرم كثير من المستحقين، الفيء الذى يستحقونه،أدّى ذلك النزاع أخيراً الى القتال وسالت الدماء ومشت الصفوف بعضها الى بعض.وهناك سبب آخر كان به أعظم الفرج لفرنسة نفس من خناقها وأرخى من رباقها وهو انتقاض عصابة من مسيحيي اسبانية فيهم شِماس وصعوبة مراس ثاروا بالعرب ثورة الضوارى ، وأبوا الا الدفاع عن دينهم ووطنهم، فلجأوا الى جبال آستورية (١) وغاليسية (٢) ونابار (٣) وهناك بدأوا بمقاومة لم تضع عصاها الا باجلاء المسلمين أجمع عن تلك البلاد

وكان الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز اطلع على مادبّ من الخلل الى موقف العرب بالاندلس،فأنفذ اليها السمح بن مالك الخولانى أميراً،وعهد اليه باصلاح الامور ورم الثغور . وكان السمح مدبراً حكيما وقائداً باسلا وسائساً حازماً، ذا دربة بتمشية الأمور، فرتق الفتوق ووازن بين الدخل والخرج وأنصف الجند فى الاعطيات ووزع على المجاهدين جانباً من الأراضي وعهد بما بقى منها الى وكلاء من ذوى الأمانة ورد ريعها الى بيت المال . وكان الخليفة قد أمر السمح بأن يقدم له بياناً عن البلدان المفتوحة وما فيها من النفوس والجبايات، ليبرم فى أمر الاندلس رأيا، فقد كان عمر بن عبد العزيز شديد الخوف على الاسلام ، وكان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين فى تلك البلاد واستشعر من ورائهم خطراً على مستقبل المسلمين، ففكر فى اجلاء مسيحيي اسبانية وجنوبى فرنسة الى افريقية حيث لا يكون من وجودهم تهلكة على الدولة، الا أن السمح طمأن مخاوف الخليفة قائلا له: ان الاسلام ينمو وينتشر وتمتد شماريخه بسرعة فى اسبانية، وانه لا يبعد اليوم الذى تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد . روى ذلك بعض مؤرخى العرب وأسفوا من كون السمح بن مالك الخولانى لم يعمل برأي الخليفة فى هذا الموضوع (٤) انتهى

(١) Asturies والعرب يقولون اشتوريش

(٢) Galice غاليسية وأكثر ما يقول العرب جليقية

(٣) Navarre والعرب تقول نبره ونابار والاسبانيول يقولون نابارە

(٤) قال رينو فى الحاشية : ان من جملة هؤلاء الذين سفهوا رأي السمح هذا ابن القوطية والمقرى

ولنقابل الآن كلام رينو وكلام من نقل عنهم من مؤرخي الاسبانيول والافرنج بكلام العرب لتزداد الحقائق وضوحاً فنقول :

نقل المقرى فى النفح عن ابن حيان مايلى :

قالوا ان موسى اصطلح مع طارق وأظهر الرضى عنه وأقرّه على مقدمته على رسمه وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه وسار موسى خلفه فى جيوشه فارتقى الى الثغر الأعلى وافتتح سرقسطة وأعمالها وأوغل فى البلاد ، وطارق أمامه، لايمرّان بموضع الا فتح عليهما وغنّمهما الله تعالى مافيه. وقد ألقى الله الرعب فى قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد الا بطلب صلح . وموسى يجئ على أثر طارق فى ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهدوه عليه . فلما صفا القطر كله وطأمن نفوس من أقام على سلمه ووطأ لأقدام المسلمين فى الحلول به أقام لتميز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين الى افرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا حتى انتهوا الى وادى « ردونة [١] » فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم. وقد دوّخت بعوث طارق وسراياه بلد افرنجة، فملكت مدينتى برشلونة [٢] وأربونة [٣] وصخرة « ابينيون [٤] » وحصن « لودون [٥] » على وادى ردونة، فبعدوا عن الساحل الذى منه دخلوا جداً .

---

(١) نهر الرون Rhone وهكذا لفظ اسمه اليوم ولكن أصل اسمه هو « رودانوس » باللاتينى ومنه قال العرب « ردونه » كما كان الافرنج يقولون له فى أيام قدومهم الى تلك الديار . وهذا النهر يخرج فى سويسرة وينصب فى بحيرة ليمان ثم يخرج منها عند جنيف ويدخل أرض فرنسة وينصبب الى البحر المتوسط وطول مجراه ٨١٢ كيلو متراً

(٢) Barcelone قاعدة كتالونيا وأكبر مدينة فى اسبانية وارقاها وسيأتى عليها الكلام فيما يأتى

(٣) Narbonne

(٤) Avignion والعرب تقول « ابينيون » لأنها تجعل الفاء باء وربما قالت « افينيون » بالفاء الموحدة . وصخرة افينيون هى المكان الذى بنى عليه قصر البابوات الذين جعلوا اقامتهم بافينيون من سنة ١٣٠٩ الى سنة ١٣٧٧

(٥) Lyon ثالث مدينة فى فرنسة فى عدد السكان. وأصل اسمها « لودونوم » يمر بها نهر الرون والصاوون ويقسمها الى ثلاثة أقسام وهى من أعظم المدن الصناعية فى أوربة . وقد بنى ليون

وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد افرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً وقيل ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً . ولما أوغل المسلمون الى اربونة ارتاع لهم قارله ملك الافرنجة بالأرض الكبيرة وانزعج لانبساطهم فحشد لهم وخرج عليهم فى جمع عظيم . فلما انتهى الى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه وأقبل حتى انتهى الى صخرة ابينيون فلم يجد بها أحداً وقد عسكر المسلمون قدامه فيما بين الأجبل المجاورة لمدينة أربونة، وهم بحال غرة لاعيون لهم ولا طلائع، فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله، فاقتطعهم عن اللجا الى مدينة أربونة ، وواضعهم الحرب فقاتلوا قتالا شديداً استشهد فيه جماعة منهم، وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ودخلوا المدينة ولاذوا بحصانتها، فنازلهم بها أياماً أصيب له فيها رجالٌ، وتعذر عليه المقام وخامره ذعر وخوف مدد للمسلمين، فزال عنهم راحلا الى بلده، وقد نصب فى وجوه المسلمين حصوناً على وادي ردونة شكَّنها بالرجال فصيَّرها ثغراً بين بلده والمسلمين وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس انتهى

ان كلام ابن حيان هذا يجمل خبر غزوات العرب لافرنجة أو فرنسة من أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد الى زمان عبد الرحمن الغافقى . ومنه يعرف أن غزو العرب لافرنجة يرجع الى أول الفتح الأندلسى، وان كان مؤرخو الافرنج لا يذكرون مغازى العرب لفرنسة الا من بعد ولاية السمح بن مالك الخولانى . وأما المؤرخان المسيحيان ايزيدور الباجى وشيمينس مطران طليطلة ،وأولهما عاصر زمان الفتح، فانهما يذكران غارات للعرب على فرنسة فى زمان الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفى أمير الأندلس بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير الذى ثار به الجند وقتلوه حسبما تقدم الكلام عليه

والذى فى نفح الطيب نقلا عن ابن خلدون أن محمد بن يزيد عامل الخليفة سليمان ابن عبد الملك على افريقية لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير بعث الحر بن

....

الوالى الرومانى لوسيوس موناتيوس سنة ٤١ قبل المسيح وصارت عاصمة بلاد الغال فى زمان أغسطس ولا تزال من أمهات مدن فرنسة

عبد الرحمن الثقفى أميراً على الأندلس . وفى صفحة ١٤٠ من نفح الطيب من الجزء الأول الطبعة الأزهرية يذكر أمراء الأندلس على النسق الآتى :

طارق بن زياد مولى موسى بن نصير . ثم الأمير موسى بن نصير، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة . ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير، وسريره اشبيلية . ثم أيوب بن حبيب اللخمى ، وسريره قرطبة.وكل من يأتى بعده فسريره قرطبةوالزهراء والزاهرة بجانبيها الى أن انقضت دولة بنى مروان على ماينبه عليه.ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى. ثم السمح بن مالك الخولانى . ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى . ثم عنبسة بن سحيم الكلبى . ثم عذرة بن عبد الله الفهرى . ثم يحيى بن سلمة الكلبى . ثم عثمان ابن أبى نسعة الخثعمى . ثم حذيفة بن الأحوص القيسى . ثم الهيثم بن عبيد الكلابى. ثم محمد بن عبد الله الأشجعى . ثم عبد الملك بن قطن الفهرى . ثم بلج بن بشر ابن عياض القشيرى . ثم ثعلبة بن سلامة العاملى . ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبى. ثم ثوابة بن سلامة الجذامى . ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى . قال : وههنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة أفراداً عددهم عشرون فيما ذكره ابن سعيد ولم يتعدّوا فى السمة لفظ الأمير . قال ابن حيان : مدتهم منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الاندلس النصرانى وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة ٩٢ الى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهرى وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المروانى على سرير الملك قرطبة وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ١٣٨ ست وأربعون سنة وخمسة أيام انتهى .

وأما ابن عذارى فى « البيان المغرب » فيذكر فى الجزء الاول أن محمد بن يزيد أمير افريقية استعمل على الأندلس الحر بن عبد الرحمن القيسى ، وكانت الأندلس اذ ذاك الى والى افريقية كما كان أيضاً والى افريقية من قِبَل والى مصر.ثم قال : وسنة ٩٩ توفى سليمان بن عبد الملك واستخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يوم وفاته فاستعمل على إفريقية اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم . قال : واستعمل اسماعيل بن أبى المهاجر على الأندلس السمح بن مالك الخولانى . ثم ذكر

ابن عذارى أنه عند ولاية بشر بن صفوان على افريقية ولى الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي . ثم ذكر أنه عند ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى على افريقية تولى عثمان ابن أبى نسعة على الأندلس، ثم من بعده حذيفة بن الأحوص القيسى ، ثم الهيثم بن عبيد الكناني ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد ببلاط الشهداء . ثم ذكر امارة عبد الملك بن قطن على الأندلس ، ثم ولاية بلج بعد مقتل عبد الملك ، ثم ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي ، ثم ولاية أبى الخطار الكلبى ، ثم ولاية ثوابة بن سلامة الذى ثار على أبى الخطار وهزمه ، ثم ولاية يوسف الفهري آخر أمراء الأندلس الذى دخل فى زمانه عبد الرحمن بن معاوية الأموى الى تلك البلاد

وأما صاحب « أخبار مجموعة فى تاريخ أمراء الاندلس » فذكر بعد امارة عبد العزيز بن موسى بن نصير امارة أيوب بن حبيب اللخمى، كان يؤم أهل الأندلس فى صلاتهم وكان رجلاً صالحاً، فولوه أمرهم بعد قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، وهو ابن عمة عبد العزيز . وجاء بعده الحر بن عبد الله الثقفى (١) (ولم يقل الحر بن عبد الرحمن الثقفى) ثم ذكر انه لم يستقر بالحرّ القرار حتى ولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة فعزل عبد الله بن يزيد والى افريقية (ولم يقل محمد بن يزيد) وولاها اسماعيل بن عبد الله مولى بنى مخزوم وذلك أن الخلفاء كانوا اذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله الا هو ما فيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل اعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه . فأتى وفد افريقية بخراجها وذلك أنها لم تكن يومئذ ثغراً فكان ما فضل بعد اعطيات الأجناد وفرائض الناس ينقل الى الخليفة . فلما وفدوا بخراج افريقية فى زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا لحلف الثانية ونكل اسمعيل بن عبيدالله

---

(١) وبعض المؤرخين يسمونه الحر بن عبد الرحمن القيسى وهو واحد لان الثقفى قيسى وثقيف من بطون هوازن. وهوازن هو ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان

مولى بنى مخزوم ، ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولانى . فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ثم ضمّهما الى نفسه فاختبر منهما صلاحاً وفضلا . فلما ولى عمر ولى اسماعيل افريقية وولى السمح بن مالك الأندلس وأمره أن يخمّس أرضها ويخرج منها ما كان عنوة، خمساً لله من أرضها وعقارها، ويقر القرى فى أيدى غنّامها بعد أن يأخذ الخمس وأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهارها . وكان رأيه انتقال أهلها منها لا نقطاعهم عن المسلمين وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله . فقدمها السمح سنة مائة فوضع يداً فى السؤال عن العنوة ليميزه من الصلح وفى اخراج البعوث . وبنى القنطرة وذلك انه كتب الى عمر يستشيره ويعلمه ان مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة « فان أمرنى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت فان قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد وان أحبّ صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم » فيقال والله أعلم ان عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور وأن يبنى السور باللبن اذ لا يجد له صخراً فوضع يداً فبنى القنطرة فى سنة احدى ومائة

ثم هلك عمر رحمه الله ، فولى يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان أخا حنظلة بن صفوان افريقية، فعزل بشر السمح بن مالك وولى عنبسة بن سحيم الكلبى، ثم تتابعت ولاة الاندلس بعد عنبسة . فوليها يحيى بن مسلمة الكلبى ، ثم وليها بعد يحيى عثمان ابن أبى نسعة الخثعمى ، ثم وليها بعد عثمان حذيفة بن الأحوص القيسى ، ثم الهيثم بن عفير الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، وعلى يديه استشهد أهالى بلاط الشهداء،واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن . وولى عبد الملك بن قطن المحاربى محارب فهر من قريش ، وولايته الاولى نحو من ستة أشهر، لم تطل . وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون فى البلاد حتى بلغوا افرنجة وحتى افتتحت عامة الاندلس (الى أن يقول) : ان هشام بن عبد العزيز رحمه الله بعث على مصر عبيد الله ابن الحبحاب بن الحارث مولى بنى سلول من قيس وجعل اليه أمر افريقية والاندلس،

فأقر بشر بن صفوان على افريقية وولى عقبة بن الحجاج الاندلس . (ثم قال) : فدخل الأندلس (أى عقبة بن الحجاج) سنة عشر ومائه فأقام عليها سنين وافتتح الأرض حتى بلغ اربونة ، وافتتح « جليقية [1] » و « البة [2] » و « بنلونة [3] » ولم يبق بجليقية قرية لم تفتتح غير الصخرة فانه لاذ بها ملك يقال له « بلاى » فدخلها فى ثلثمائة راجل، فلم يزالوا يقاتلونه ويغاورونه حتى مات أصحابه جوعاً وترامت طائفة منهم الى الطاعة فلم يزالوا ينقصون حتى بقى فى ثلاثين رجلاً ليست معهم عشر نسوة فيما يقال انما كان عيشهم بالعسل، ولاذوا بالصخرة فلم يزالوا يتقوتون بالعسل معهم جباح [4] والنحل عندهم فى خروق الصخرة ، احترزوا وأعيي المسلمين أمرهم فتركوهم وقالوا : ثلاثون علجاً ماعسى أن يكون أمرهم ؟ واحتقروهم. ثم بلغ أمرهم الى أمر عظيم سنذكره اذا بلغنا موضعه ان شاء الله اه

ثم ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان عقبة بن الحجاج بقى أميراً على الأندلس الى سنة ١٢١ اذ ثارت البربر فى افريقية ودخلوا طنجة وقتلوا واليها عمر بن عبد الله المرادى، وشغل صاحب افريقية بشر بن صفوان بهذه الثورة،فوثب عبدالملك بن قطن المحاربى على عقبة بن الحجاج، فخلعه ولا أدرى أقتله أم أخرجه ؟ فملكها بقية ٢١ و٢٢ و ٢٣ حتى دخل بلج بن بشر القشيرى ثم الكعبى بأهل الشام ٠ وقد وصفنا سبب دخوله فى أحاديث تأتى بعد هذا

(١) جليقية أوغاليسية: يحدهامن الشمال والغرب بحر الاوقيانوس، ومن الجنوب البرتغال،ومن الشرق بلاد ليون وجبال أشتوريش، وفيها لقى العرب أشد المقاومة.وكان انضمام هذه البلاد الى مملكة قشتالة سنة١٠٧٣ لكنها بقيت حافظة استقلالها الداخلى الى زمان فرديناند وايزابلاء ففى عهدهما اندمجت فى بقية اسبانية . والاسبانيول يكتبون اسمها هكذا Galicia

(٢) Alava احدى مقاطعات شمالى اسبانية واقعة فى جنوبى البيرانه أهلها من الباشكنس

(٣) العرب كانوا يسمون نافار بنباونة وأحياناً نبرونة وقد يقولون لها نبرة . وهذه اللفظة بنبلونة Pampeluna اسم مدينة فى نافار فيها قلعة

(٤) الجبح ـ بضم فسكون وبكسر فسكون ـ حيث تعسل النحل . قال فى لسان العرب : اذا كان غير مصنوع والجمع اجبح وجبوح وجباح . وقيل: هى مواضع النحل فى الجبل

ثم ذكر ما معناه : انه بعد موت بلج القشيرى تولى الأندلس ثعلبة بن سلمة العاملي ، وجار فى سياسته ، وذهب وفد من الأندلس الى حنظلة بن صفوان أمير افريقيـة يشكون ماهم فيه، فأرسل عليهم والياً أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبى ، فأصلح الأمور ورضى به الشاميون والبلديون ، وكان رجلا من خيار الناس وأنزل أهل الشام فى الكوَر . وبقى أبو الخطار أربع سنين وستة أشهر الى أن دخل الأندلس الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن . وشمر هو الذى قتل الامام الحسين ابن على رضى الله عنه،وقتله بعد ذلك المختار بالكوفة ، فارتحل ولدالشمر عن الكوفة الى الجزيرة، ثم ارتحلوا الى الأندلس مع جند قنسرين،ورأسَ الصميل بالأندلس ودانت له قيس فيها واقتتل مع أبي الخطار وانهزم هذا، وتولى ثوابة بن سلمة الجذامى، ثم مات سنة ١٢٩ وتولى بعده يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهرى . وفى أيامه اشتدت العداوة بين قيس واليمن، فانحازت مضر وربيعة الى يوسف ومعه الصميل ، واجتمعت يمن الأندلس حِميرُها وكندتها ومذحجهاوقضاعتها تحت لواء أبى الخطار. وكانت بين الفريقين أشد حرب عرفها العرب بعضهم مع بعض . قال صاحب « أخبار مجموعة » : وهى الفتنة العظمى التى بها يخاف بوار الاسلام بالأندلس الا أن يحفظه الله .

ومن كلام هذا المؤرخ الذى كتب هـذا التاريخ فى أيام الحكم المستنصر يظهر انهم كانوا يخشون على اسلام الأندلس البوار ، لا من جهة انقطاع مسلمى الاندلس من وراء البحر فقط، بل من جهة الفتنة التى لا يفتر أوارها فيما بينهم.ولقد وقع ما كانوا منه يحذرون، فما كان زوالهم من هناك بحرب الاسبانيول فحسب بل كان أقوى عامل على زوالهم من الأندلس شدة عداوة بعضهم لبعض، وهو مرض الفرقة الذى رافقهم الى الساعة الأخيرة من ملكهم هناك[1]

(١) كان لم يبق للعرب في كل الأندلس الا مدينة غرناطة وكان الطاغيتان فرديناند وايزابلا آخذين منهم بالمخنق الذى يقطع الانفاس وقد أقاما وعساكرهما بمعسكر من الحجر بدلا من الخيام ايذاناً بأنهما لن يقلعا عنها . وكان أهل غرناطة مع ذلك يقاتلون الاسبانيول فى النهار ثم يعودون

رجع الحديث الى حرب القيسية واليمانية

ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان ابن حريث [١] وأبا الخطار زحفا الى يوسف والصميل [٢] بقرطبة ، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة بقبليها بقرية « شقندة [٣] » وعبر يوسف والصميل النهر اليهما بمن معهما . فالتقوا حين صلوا الصبح فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح وثبتت الخيل وحميت الشمس . ثم تداعوا الى البراز فتنازلوا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت . ثم تقابضوا بالأيدى والشعور ولم يكن فى الاسلام صبر مثله الا مايذكر من صفين [٤] . ولم يكن القوم بالكثير لاهؤلاء ولا هؤلاء وانما كانوا خيار الفريقين، وكانوا متقاربين،الا ان اليمن كانوا أكثر قليلا . فلما أعيي بعضهم بعضاً تواقفوا يضرب بعضهم وجوه بعض، بالقسى والجعاب،ويحثى بعضهم التراب على بعض ، اذ قال الصميل ليوسف : ماوفقنا اذ خلفنا جنداً نحن منهم فى غفلة قال : ومن هم ؟ قال : أهل السوق بقرطبة . فردّ اليهم يوسف مولاه خالد بن يزيدوصاحب سوقه، فأخرجا منهم نحواً من أربعمائة راجل معهم الخشب والعصى، ومع قليل منهم السيف والمزراق فخرج الجزّارون بسكاكينهم فجاءوا الى قوم موتى وقد مضت الظهر والعصر لم يصلوها لاصلاة خوف ولا أمن ، فجرّدوهم وقتلوا وأسروا بشراً كثيراً خياراً، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين . وكان ابن حريث

....

مساء فيقتتلون فى البلدة بعضهم مع بعض،حارة غرناطة مع حارة البيازين . راجع كتابنا « آخر بنى سراج » مع ذيله . واذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه

(١) يحيى بن حريث على وزن أمير: كان أميراً بكورة ريةوبها سكنى أهل الاردن

(٢) الصميل على وزن أمير

(٣) الاسبانيول يكتبونها Xecunde

(٤) حرب صفين بين على ومعاوية هى التى أخرت سير الاسلام الى الامام بعد أن كان أوشك أن يشمل الأرض . ولقد اضطر معاوية بسببها أن يهادن الروم . قال البلاذرى فى « فتوح البلدان » ان معاوية صالح الروم على أن يؤدى اليهم مالا . وحرب القيسية واليمنية فى الاندلس كانت الثلمة التى اقتحم منها الاسبان والافرنج على العرب حتى نكص هؤلاء الى الوراء وما زالوا

لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيب ودخل تحت سرير الرحى التى بموضع بيع الخشب . فلما أسروا أبا الخطار وهموا بقتله قال : ليس علىّ فوت ولكن عندكم ابن السوداء ابن حريث. فدلّ عليه فأخرج وقتلا جميعاً. وكان ابن حريث يقول: لوان دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها . فلما استخرج قال له أبو الخطار : يا ابن السوداء هل بقى فى قدحك شيء لم تشربه ؟ فقتلا ، وأسر منهم بشر كثير . ثم أتى بالاسرى وقعد الصميل فى كنيسة كانت فى داخل مدينة قرطبة، وهى اليوم موضع مسجدها الجامع، فضرب أوساط سبعين منهم . فلما رأى ذلك أبو عطا بن حمد المرّى قام اليه فقال له : أبا جوشن أغمد سيفك أو ارجع سيفك . قال له : اقعد أبا عطاء فهذا عزك وعز قومك . فجلس ولم يغمد السيف . ثم قام اليه فقال له : ياعرابى، والله إن تقتلنا الا بعداوة صفين لتكفنّ أولادعونّ بدعوة شامية . فأغمد سيفه وأمن الناس على يدى أبى عطاء بعد بلاء عظيم ، فيقال والله أعلم : ان تلك الوقيعة توجد فى بعض العلم انها قاطعة الأرحام (١) . وكانت قبل سنة احدى وثلاثين ومائة ، قال : فأعقبهم الله بالجوع والقحط فجاعت الاندلس سنة اثنتين وثلاثين ثم سنة ثلاث، فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر علج يقال له بلاى ، قد ذكرناه فى أول كتابنا ، تخرج من الصخرة (٢) وغلب على كورة « واستورس (٣) » ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل « استورقة (٤) » زماناًطويلاحتى كانت فتنة أبىالخطار وثوابة (٥)

ينكصون الى أن عادوا من حيث أتوا وأكروا كما أرموا وانطوى من هناك بساطهم الطويل العريض وكان وعد الله مأتياً

(١) قرأت فى كتاب « تاريخ مسلمى اسبانية » لدوزى المستشرق الهولاندى الذى يعده الاوربيون أفضل مؤرخ لدولة العرب فى اسبانية كلاماً معناه أن بغض قيس لليمن و بغض اليمن لقيس هو أشد من بغض العرب للامم الاعجمية . فتأمل

(٢) يقال لها صخرة Aguilar « اغيلار »

(٣) Asturias

(٤) استورقة : من بلاد ليون فى شمالى اسبانية، والاسبانيول يكتبونها Astorga

(٥) أىان هذهالفتنة بين العرب بعضهم مع بعضاهتبلالاسبانيول فيها الغرة فأخرجوا المسلمين

فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها، وتنصر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخروج، وقتل من قتل وصار فلهم الى خلف الجبل الى « استورقة » حتى استحكم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن استورقة وغيرها وانضم الناس الى ماوراء الدرب الآخر والى « قورية [1] » و « ماردة [2] » فى سنة ست وثلاثين . واشتد الجوع فخرج أهل الاندلس الى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين وكانت اجازتهم من واد بكورة « شذونة [3] » يقال له وادى « برباط [4] » فتلك السنون تسمى سنى برباط فخف سكان الاندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو الا أن الجوع شملهم اه

هذا ما اخترنا تلخيصه وتمحيصه من أخبار الامراء الذين تعاقبوا على الاندلس والذين كانوا يغزون افرنجة أو فرنسة . ولنضف اليهم ماذكره ابن عميرة صاحب « بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس » [5] فهو يذكر الحر بن عبد الرحمن القيسى ويقول انه عزل بعنبسة بن سحيم الكلبى، ويقول ان عنبسة تولى الأندلس سنة ١٠٦ من قبل بشر بن سفوان امير افريقية فى أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل ١٠٩

واما ابن خلدون فيذكر أن ولاية عنبسة بن سحيم كانت من قبل يزيد بن أبى مسلم عامل افريقية، لا بشر بن صفوان، وأن بشر بن صفوان كان والياً على افريقية

من جليقية. وهكذا تأسست الدولة الأسبانية الاولى بعد الفتح العربى وما زالت تشتد وتمتد حتى أخرجت المسلمين من كل اسبانية

(١) Coria

(٢) Merida من بلاد بطليوس فى غرب الاندلس

(٣) Sidonia

(٤) بقرب طرف الاغر Trafalgar وتكتب بالاسبانيولى Barbate

(٥) احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبى. له تاريخ بغية الملتمس وصل فيه الى أوائل دولة الموحدين وذكر واقعة الارك الشهيرة التى أدال الله فيها للمسلمين على الاذفنش الملقب بالانبراطور وتاريخها ٩ شعبان ٥٩١

وقت مقتل عنبسة . ولما بلغه الخبر أرسل مكانه والياً على الأندلس يحيى بن مسلمة الـكلبي . ويقول ابن خلدون : ان استشهاد عنبسة كان فى أرض الفرنجة سنة ١٠٧

وبين ابن خلدون وصاحب « أخبار مجموعة » اختلاف فى الأسماء ، لعـله من تصحيف النساخ . ففى نفح الطيب نقلاً عن ابن خلدون يذكر « الهيثم بن عبيد الـكلابى » — وهكذا فى صبح الأعشى — وفى « أخبـار مجموعة » الهيثم بن عفير الـكنانى . ثم ان صاحب « أخبار مجموعة » يذكر بعد الهيثم ولاية عبد الرحمن الغافقى بلا فاصل، على حين أن ابن خلدون يذكر بعد الهيثم محمد بن عبد الله الأشجعى . ولعل صاحب أخبار مجموعة أهمله لقصر مدته لأنه لم يلبث الا شهرين

وأما ابن عذارى فيذكر فى « المُغرب » أن بشر بن صفوان تولى افريقية مرتين وفى الثانية منهما ولى على الأندلس عنبسة بن سحيم . ثم يقول انه سنة ١٠٧ ولى على الأندلس يحيى بن سلمة الـكلبي . ومن هنا يعرف أن مقتل عنبسه بن سحيم بأرض افرنجة غازياً كان سنة ١٠٧ وهذه هى رواية ابن عميرة وابن خلدون أيضاً . والمستشرق رينو[1] يقول انه قتل سنة ٧٢٥ مسيحية . والمؤرخ كوندي الاسبانيولى يجعل قتله سنة ١٠٦ هجرية الموافقة ٧٢٤ مسيحية

ولنرجع الى تاريخ رينو عن غارات العرب على فرنسة فهو يقول :

ان السمح بن مالك الخولانى الذى تولى الأندلس فى خلافة عمر بن عبد العزيز بعـد أن سكّـن الدهماء وأصلح الأمور فى الداخل أعمل همته فى الجهاد ليستأنف المسلمون الحرارة الأولى وليجدد عزائمهم بعد الالتياث ويعقد صرائمهم بعد الانتكاث قال: وكان ذلك سنة ٧٢١ مسيحية، فى خلافة يزيد بن عبد الملك، وكان مضى على فتح العرب للاندلس احدى عشرة سنة لا غير . فأجاز السمح الى بلاد فرنسة ، تفيض بجيوشه أقطارها ، وزعم مؤرخو الافرنجة المعاصرون أن العرب جاءوا ومعهم نساؤهم

(١) استشهد رينو على هذه الرواية بتاريخ دير « مواساك » Abbaye de Moissac الذى فى مجموعة « مؤرخى بلاد الغال » Recueil Des Historiens des Gaules للدون « بوكيه » Don Bouquet الراهب البنديكتى المشهور فى علم التاريخ ولد فى «آميان» سنة ١٦٨٥ وتوفى سنة ١٧٥٤ واستشهد بمجموع آخر اسمه مجموع «موراتورى» Recueil de Muratori

وأولادهم لأنهم كانوا على نية الاستقرار فى البلاد . قالوا وكان الفقراء والمحاويج يأتون من جزيرة العرب والشام ومصر وافريقيــة ومعهم عائلاتهم لأجل سد مفاقرهم بالفتوحات وارتياد الرزق من وراء الغارات

قال رينو : ولم يزل السمح يتقدم بجيشه الى أن صار امام أربونة فحصرها ولم يلبث أن فتحها وقتل رجالها وسبى نساءها وذراريها . وكانت أربونة بمصاقبتها للبحر وسهولة الوصول اليها بالسفن من اسـبانية ثم بمنعتها الطبيعية من جهة البر تصلح أن تكون مسلحة للعرب فى أرض افرنجة . فزاد السمح فى تحكيم حصونهـا ووضع الحاميات فى المدن المجاورة لها

الـكلام على مدينة أربونة Narbonne

كانت زيارتى لأربونة بعـد أن قفلت من الأندلس، لا كما كانت زيارتى لطلوزة وقرقشونة،أى قبل أن دخلت اليها . وأربونة هى كما لا يخفى المدينة التى توجهت اليها همة العرب أكثر من الجميع من أرض فرنسة . وذلك لـكونها على كثب من البحر ولسهولة التوصل اليها من الأندلس على المـاء ، وكونها لذلك العهد أهم حاضرة افرنسية فى جوار اسبانية،فـكان العرب اذا أفاضوا من جبال البيرانه ناحرين الشمال يجدون أربونة هى المدينة الأولى التى تستقبلهم

وموقع أربونة هو على ارتفاع ١٠ أمتار فقط عن سطح البحر الملح،وعلى مسافة ١٤ كيلو مترا منه الى الشرق . ونهر الأود يمرّ بالقرب منها ،والسهول التى بينها وبين البحر هى متكونة من الرواسب التى أبقاها هذا النهر بجريه من آلاف وآلاف من السنين

وهى الآن مدينة من الدرجة الثالثة، لا يزيد عدد أهلها على ٣٠ ألفاً.ومناخها شبيه بمناخ المدن العربية أى انها لطيفة الشتاء نادرة الثلج حارة القيظ لولا نسمات لطاف تهب عليها أحيانا من جهة البحر فتخفف من حرارتها . وفى مدة تزيد على نصف السنة تعصف الرياح فى أربونة من الشمال الغربى،وتسفى التراب وتكدر صفو المزاج،ولكنها تفيد فى تنشيف ماحول أربونة من المستنقعات . وأكثر حاصلات أربونة من الـكرم

وفيهاجميع أشجار البلادالحارة وقد شاهدت فيها التين والزيتون والصبير

ويمر بأربونة جدول اسمه «روبين[١]» مشتق من قناة الجنوب المستمدة من الأود

وأربونة من أقدم مدن الأرض عثروا فيها على آثار الآدميين،من العصر الحجرى،وعلى قبور مما قبل التاريخ . وفى أواخر القرن الثانى عشر قبل المسيح أغار الساليون على أربونة واستقروا بها . وكانت لهم علاقات تجارية مع اليونانيين الذين كانوا يترددون الى سواحل بروفانس والكاتالان

وقد جعل الجيل المسمى « بالفولسك [٢] » مدينة أربونة حاضرة لهم . وجاء الرومانيون سنة ١٢١ قبل المسيح فافتتحوها وصارت فى أيامهم مركزا تجارياً عظيما تضارع مرسيلية . وكان الولاة الرومانيون يقيمون بها ، وكانت لها امتيازات لعهدهم عريضة ، وبلغ عدد أهلها مائة ألف نسمة فى ذلك العصر . وسنة ١٤١٣ استولى عليها القوط وتزوج فيها ملكهم ادولف بالأميرة «بلاسيدة غاله[٣]» اخت الامبراطور الرومانى، وكانت لزفافه فيها حفلة عظيمة. ثم استولى على أربونة «غوندبود[٤]» ملك البرغونديين [٥] ، لكنه لم يتمتع بهـا طويلا ، وعادت للقوط ، وثبت هؤلاء فيها برغم غارات الفرنج عليها

نقلنا هذه الخلاصة عن « دليـل أربونة [٦] » ولنذكر ما جاء فى هذا الدليـل بشأن العرب ، قال : فى أوائل القرن الثـامن للمسيح ظهر العرب على « سبتيانية »

---

(١) La Robine

(٢) Volsques

(٣) Placida - Galla

(٤) Gondebaud

(٥) Burgundes شعب جرمانى أغار على بلاد الغال سنة ٤٠٦ للمسيح واستوطن وادى الرون أو ردونة وأخذ بالثقافة اللاتينية وامتزج بالغاليين . وقد تزوج كلوفيس ملك فرنسة بابنة غوندبود ملك البورغوند أو البورغون هؤلاء . وكان العرب يقولون لهم البرجان

(٦) اسمه Narbonne Historique et Archéologique

وافتتح « زاما [١] » أربونة سنة ٧١٩ بعد حصار استمر ثمانية وعشرين يوماً فقتل الرجال وسبى النساء والأطفال . ثم نظر « زاما » الى أهمية أربونة الجغرافية فحصّنها وشحنها بالميرة . وهكذا تمكن العرب فيها من صد غارة شارل مارتل الذى حاصر أربونة سنة ٧٣٢ بعد أن هزم العرب فى معركة بواتيه . ثم ان « بيين » القصير حاصر أربونة سنة ٧٥٢ ونكص عنها ، ولم يتمكن منها سوى شارلمان سنة ٧٥٩ وذلك بعد أن حاصرها مدة سبع سنوات . فان الأهالى الذين فى البلدة كانوا ملوا هذا الحصار الطويل فثاروا بالحامية العربية وذبحوها . وعاد العرب سنة ٧٩٢ فحاصروا أربونة ، فبعث شارلمان لنجدتها بعثاً عدته عشرون ألف مقاتل، عقد لواءه للفارس المشهور غليوم [٢] وتلاقى الجمعان بقرب أربونة ، فاستأصل العرب جيش الافرنج ولم يبق من هؤلاء الا غليوم وثلاثة عشر من رفاقه، وصلم أنف غليوم فى المعركة ولقب من ذلك اليوم بذى الأنف القصير . الا أنه أحرز مجد قتل عبد الملك أمير الجيش العربى بيده . فأما أربونة فبرغم انكسار الافرنج ذلك اليوم لم تسقط فى أيدى العرب

انتهى ما جاء فى دليل أربونة . وهذا غير مطابق لما فى تواريخ العرب. انظر الى ما جاء فى نفح الطيب فى هذا الصدد ، قال : « كان هشام (ابن عبد الرحمن الداخل الأموى) يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز، وكان يبعث بقوم من ثقاته الى الكور، فيسألون الناس عن سير عماله ويخبرونه بحقائقها . فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه أو أنصف منه ولم يستعمله بعد . ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال : نسأل الله تعالى أن يزين موسمنا بمثل هذا [٣] . وفى أيامه

---

(١) السمح بن مالك الخولانى أمير الأندلس من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز . وفى أربونة اليوم شارع باسم السمح Rue, de Zama

(٢) Guillaume au court nez

(٣) قد بلغ هذا الكلام عن سيدنا مالك رضى الله عنه الأمير هشاماً الأموى صاحب الأندلس، فمال الى مذهبه فى الفقه ، وحمل عليه أهل الأندلس، وكانوا من قبل يتفقهون على مذهب سيدنا الأوزاعى رضى الله عنه . وقد استوفينا الكلام على ذلك فى الكتاب الذى حررناه عن الأوزاعى وهو الآن تحت الطبع

فتحت أربونة الشهيرة، واشترط على المعاهدين من أهل جلّيقية (١) من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها الى باب قصره بقرطبة وبنى منه المسجد الذى قدام باب الجنان ونضلت منه فضلة بقيت مكوّمة . وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً، ثم كانت الدائرة له. وقصد الى بلاد الحرب غازياً ، وقصد «البة (٢)» والقلاع، فلقى العدو وظفر بهم وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين . وبعث العساكر الى جليقية مع يوسف بن بخت ، فلقى « ابن منده (٣)» وهزمه، وأثخن فى العدو. وفى سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد ابن مغيث (٤) لغزاة العدو، فبلغ البة والقلاع فأثخن فى نواحيها. ثم بعثه فى العساكر سنة سبع وسبعين الى أربونة وجرندة (٥) فأثخن فيها ووطئ أرض برطانية (٦) .

(١) العرب كانوا يسمون بالجلالقة أهالى غاليسيا فى شمالى اسبانية وأهالى جنوبى فرنسة أحياناً

(٢) Alava وقد تقدم ذكرها

(٣) لا أعلم ان كان هذا هو الاسم الحقيقى أو كان محرفاً عن « برموده » Bermude وهو ملك كان فى جيليقية نزل فى آخر الأمر عن الملك للاذفنش لأنه كان أضاع به منه . اننا لم نقرأ اسم ملك ولا أمير اسبانى اسمه « ابن منده » وتحريف العرب اسماء الافرنج وتحريف الافرنج اسماء العرب بحر لا يلجج فيه

(٤) المؤرخ الاسبانيولى كوندى يذكر أن الأمير هشاماً أرسل جيشاً الى جبال الاشتوريش Asturies عدته ٣٩ ألف مقاتل بقيادة عبد الواحد بن مغيث لا عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث . وقد ذكرنا أن المحققين لا يمدحون تاريخ كوندى ولا يثقون بسيل تلعته

(٥) Gironde هى إحدى مقاطعات فرانسة الجنوبية الغربية ، يحدها اليوم من الشمال شارانت Charente السفلى ، ومن الغرب خليج غاسقونيا ، ومن الجنوب مقاطعة اللاند Landes ومن الشرق مقاطعة لووغارون Lot - et - Garonne ومقاطعة دوردون Dordogne

(٦) مقاطعة عظيمة من غربى فرنسة Bretagne أهلها من الجنس السلتى ولغتهم غير الافرنسية يحد برطانية من الشمال بحر المانش ، ومن الغرب والجنوب الغربى البحر المحيط ، ومن الجنوب الشرقى « بواتو » ومن الشرق « انجو » و « ماين » ومن الشمال بلاد نورمانديا . وكانت برطانية مستقلة فى القديم تولاها ٣٥ أميراً وما استلحقتها فرنسة الا فى أيام فرنسوا الأول سنة ١٥٣٥ ولا تزال فيها بقايا عصبية تنزع الى الاستقلال عن فرنسة. والأرجح أن لا يكون المراد هنا ببرطانية برطانية الافرنسية بل امبرطانية الكتالانية . وعند ذلك يلزم أن لا تكون البلاد التى قبلها جرندة

وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم. ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد الى بلاد جليقية ، فانتهى الى «استرقة [١]» فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك الباشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع أدراجه وأتبعه عبد الملك ، وكان هشام قد بعث بالجيوش من ناحية أخرى فالتقوا بعبدالملك وأثخنوا في البلاد ، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشيء ثم خرجوا سالمين ظافرين اه

فمن هنا يظهر أن العرب عادوا فافتتحوا أربونة في زمان الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل، ولكن الرواية عن الفتح التام والاستقرار تضعف بقول المقري في النفح: « ثم بعثه في العساكر الى أربونة، وجرندة فأثخن فيها » فاذا كان قد تم له فتحها فلا محل لغزوها ثاني مرة والاثخان فيها. وقد جاء ذكر الأمير هشام في المعلمة الاسلامية لهوتسما وباسيث ورفاقها، ولم يذكروا أنه فتح أربونة وانما قالوا انه أغزى مراراً الجيوش الاسلامية بلاد النصارى وجنوبي فرنسة، ووصلت جيوشه إلى «استرقة» و« أوبيادُه [٢] » من المملكة التي أسسها بقايا ملوك المسيحيين في اسبانية ، ممن لم يخضعوا للعرب، من أعقاب بلاي [٣]

التي هي في جنوبي فرنسة وقاعدتها بوردو بل جرندة التي هي من مقاطعات كتالونيا أي جرندة التابعة لبرشلونة والتي يقال لها اليوم جيرونه ، فان اسمها الروماني القديم جرندة Gerunda وكان اسمها هذا هو المستعمل يوم فتحها العرب . نبهني الى ذلك ولدنا الفاضل محمد الفاسي الفهري وقال لي انه لم يزل بفاس الى الآن عائلة من الأندلس يقال لها عائلة الجرندي نبغ منها علماء أعلام مثل أبي العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن الجرندي الأندلسي المتوفى بفاس سنة ١١٢٥ ترجمه القادري في نشر المثاني، والكتاني محمد بن جعفر في سلوة الانفاس . ولا شك في أن العرب سكنوا جرندة الكتالونية طويلا ولكنهم لم يسكنوا جرندة التي عاصمتها بوردو ولا عرفوها الا في الغزوات عابري سبيل . روى لي محمد الفاسي أن المستشرق الاسباني قديره Codera كتب فصلا خاصاً عن فتح العرب للمدن الثلاث: برشلونة وجرندة وأربونة ، يتلخص منه أن العرب فتحوا جرندة عند ما فتحوا الاندلس، وبقيت في أيديهم حتى انتزعها منهم شارلمان سنة ٧٨٥ ثم استردها العرب سنة ٧٩٣ ثم أخذت منهم سنة ٧٩٧ أو ٧٩٨ ثم عادوا ففتحوها ثم أخرجوا منها نهائياً سنة ٨٠٠

(١) Astorga من بلاد ليون في شمالي اسبانية

(٢) Oviedo وابن حوقل يسميها أوبيط

(٣) Pélage أول من ملك على فل الاسبانيول وأسس دولتهم المستقلة بعد فتح العرب للاندلس وسنذكر خبره وخبر أعقابه تفصيلا في الجزء الثاني

وغزا جيرونة [1] وأربونة . ولم يرد فى الانسيكلوبيديا الاسلامية أنه فتح أربونة

أما المؤرخ الاسبانيولى كوندى فانه يذكر غزوات الأمير هشام فى جليقية بالجيش الذى أرسله تحت قيادة الحاجب عبد الواحد بن مغيث ، وغزواته فى نواحى البيرانه بالجيش الذى أرسله تحت قيادة عبد الله بن عبد الملك، ويقول: ان عبد الله هذا فتح جيرونة سنة ٧٩٣ وفق ١٧٧ . وبعد أن فاز بفتح هذه البلدة زحف صوب الشمال فعبر البيرانه وفتح أربونة وذبح أهلها وا كتسح أقطارها ، ووصل إلى قرقشونة حيث تجمعت لصده أمراء البلاد قاطبة، وناجزته الحرب بين قرقشونة وأربونة، فظهر المسلمون فى هذه المعركة ، وانهزم المسيحيون انهزاما غير تام ، يدل على ذلك أن عبد الله قفل راجعا إلى الاندلس بعد تلك الطائلة . وقيل : ان سبب قفوله هو خوفه أنه بطول القتال يفقد الغنائم الوافرة التى كان غنمها . وقالوا: ان هشاما جعل هذه الاموال فى بناء جامع قرطبة . ثم ان الامير ولى عبد الله بن عبد الملك سرقسطة، وسرح عبد الكريم ابن الحاجب عبد الواحد إلى جليقية فماث ودمر ، ولكنه سقط فى كمين دبره له الاذفنش ، وهلك فيه أكثر عسكره وقواده ومنهم يوسف قائد الفرسان

وأما المستشرق رينو فى كتابه « غارات العرب على فرنسة ومن فرنسة على سافواى وبييمونت وسويسرة» فانه يذكر ما رواه مؤرخو العرب عن هذه الغزاة وما تابعهم فيه لذريق شيمينيس ، ويروى قصة أحمال التراب التى حملها اسارى المسيحيين المساكين على ظهورهم وبالعجلات من مسافة مائتى مرحلة، ويقول ان مؤرخى العرب زعموا سقوط أربونة تلك النوبة فى أيديهم، ولكنه يستبعد هذا الأمر بسبب كون المؤرخين المسيحيين لم يذكروا ذلك ولو بمناسبة دخول المسيحيين ثانية إلى أربونة . ثم يقول ان النويرى الذي روى خبر هذه الغزاة ببعض تفصيل لم يصرح بأن جيوش العرب استولت على أربونة فى هذه الغزاة واستقرت فيها [2]، وسنذكر بقية هذا

(١) Gironna من بلاد الكاتالان تابعة لبرشلونة

(٢) قال المسعودى فى مروج الذهب بعد أن روى واقعة سمورة على جيش عبد الرحمن الناصر

البحث فيما يأتي عند الـكلام على غزوات بنى أمية فى فرنسة

ما نصه : وأخذ ما كان بأيدى المسلمين من ثغور الاندلس مما يلى الفرنجة . ومدينة أربونة خرجت من أيدى المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها، مما كان بأيديهم من المدن والحصون، وبقى ثغر المسلمين فى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦ من شرق الأندلس طرطوشة، وعلى سائر بحر الروم مما يلى طرطوشة افراغة على نهر عظيم ثم لاردة. انتهى

ثم ذكر دوزى الهولاندى، ادرى من حرر تاريخ عرب الاندلس من الاوربيين، وذلك فى الجزء الثالث من « تاريخ الاسلام فى اسبانية » انه بعـد ثورة « بيلاى » جرت حوادث أخذت بأيدى الأستوريين ، وهى أن مسلمى شمالى اسبانية كان أكثرهم من البربر فثاروا على العرب ووقعت بين الفريقين الوقائع، وظهر البربر فى البداية على العرب ، ثم عاد هؤلاء فأخذوا بالثار وغلظوا على البربر فألجأوهم الى الجلاء راجعين الى افريقية، وعلى تفيئة ذلك حصلت مجاعة شديدة استمرت نحواً من خمس سنوات متوالية، فلم يبق من البربر هناك الا النزر . وخلت الديار تقريباً من المسلمين فثار الأستوريون تحت قيادة الأذفنش صهر « بيلاى » وذلك سـنة ٧٥١ مسيحية ، وذبحوا من بقى من المسلمين ، ولم يبق منهم أحد فى « براغة » ولعل براغة هذه هى التى يسميها المسعودى افراغة (لأن القاء يلفظها الأسبان باء) Braga ولا فى « بورتو » Porto ولا فى « فيزو » Viseu وأصبح جميع الساحل الى مصب نهر « دورو » أى الوادى الجوفى Duero خالياً من المسلمين . ثم انكشف المسلمون عن « استرقة» Astorga و «ليون » Léon و « سمورة» Zamoura و « دجنة » Diesma و « طلمنكة » Talamanqua فاستقروا فى «قورية» و «ماردة» Merida وأما من جهـة الشرق فجلا المسلمون عن « سردانة » Serdana و « سمنكه » Simankas و «سيقوبيه » Segovia و « ابيله» Avila و «أوقة » Oca و « ميرانده» Miranda على نهر « ابره » Ebra . وصارت ثغور الإسـلام « قويمرة » Coimbra وقورية و « طلبيرة » Talavera وطليطلة و « تطيـلة » Tudela و « بنبلونة » Pampelona

رجع الحديث الى السمح بن مالك الخولانى

وغارات العرب على فرنسة

قال رينو :

وبعد أن انتهى السمح من أمر أربونة ، وشحن المدن المجاورة لها بالمقاتلة ، زحف نحو طلوزة [١] وكانت وقتئذ عاصمة اكيتانية [٢] فحشد « اود » دوق أكيتانية كل ماقدر على حشده من الجنود ، وخف لصد العرب عن المدينة ، بينما كانوا قد أخذوا بخنقها واستعملوا المنجنيقات وسائر آلات الحصار فى قتالها إلى أن أوشك أهلها أن يسلموها . واذا باود قد أقبل بجيش يسد الفضاء حتى قال مؤرخو العرب ان الغبار المتطاير من زحف أقدامهم كان يغطى عين الشمس من كثرتهم ، فتلا السمح لعسكره الآية القرآنية : (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) ولما تدانى الجمعان خيل أن الجبال تلاقى بعضها ببعض ، وكانت المعركة من أهول ماتصوره العقل ، وكان السمح يظهر فى كل مكان وسيفه ينطف دما وهو يشدد عساكره بقوله وبفعله . وكان كالفحل الهائج لايرد رأسه شئ أو كالأسد الزائر يحمل على العدو فلا يقف أحد فى وجهه ، فما هو إلا أن أصابته طعنة خر بها صريعا عن جواده . فلما رآه المسلمون مجدلا [٣] فت فى أعضادهم ونكصوا على أعقابهم ، وتركوا قتلاهم بالعراء ورجعوا إلى الوراء . وكانت هذه الواقعة فى شهر مايو من سنة ٧٢١ وطاح فيها عدد من فرسان المسلمين المغاوير الذين شهدوا الفتوحات السابقة . ولقد تولى قيادة الجيش ، بعد قتل السمح وتقهقر العرب ، عبدالرحمن (الغافقى) وعاد به الى الأندلس [٤]

(١) Toulouse

(٢) Aquitaine

(٣) جاء فى « بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس » لابن عميرة الضبي ما يلى فى حرف السين : السمح بن مالك الخولانى ثم الحياوى ؟ أمير الأندلس استشهد فى قتال الروم بالاندلس فى ذى الحجة يوم التروية سنة ١٠٣

(٤) استشهد رينو هنا بكوندى الاسبانيولى وايزيدور الباجى والستاذ السكتي صاحب ترجمة

ولما شاع خبر هذه الواقعة دبّت الحماسة فى قلوب أهالى اللانغدوق والبيرانه وهبوا لخلع طاعة العرب وحميت أنوفهم ، الا أن هؤلاء كانوا لا يزالون متمكنين فى أربونة ، وكانت قد جاءتهم نجدات من الأندلس فعادوا يشنّون الغارات منها على البلاد المجاورة، وأضت جيوشهم تتقدم من كل مكان وتجر بخزائم الطاعة أنوف السكان وكان الرهبان والقسيسون فى ذلك الوقت هم أصحاب الكلمة العليا ، وكانت الكنائس والأديار ملأى بالنفائس والذخائر، فلم يكن من العجب أن تتوجه همة العرب قبل كل شئ الى اجتياح هذه المعابد وصب البلاء على الرهبان · ولم يكن من العجب أن يكون هذا القسم من تاريخنا ملآن بقصص تدمير العرب للأديار والبيع ، لأن الذين كانوا يكتبون اذ ذاك انما كانوا من الرهبان والاكايريكيين ، فكان معظم كلامهم الحديث عما حلّ بأديارهم وتقديمها على ديارهم

فقد جاء فى تواريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع أن العرب هدموا دير « جوسل[١] » بقرب « بيزيه[٢] » ودير القديس « بوزيل[٣] » بقرب « نيم[٤] » ودير « صنجيل[٥] » بقرب « آرل[٦] » والدير المشهور بالثروة المسمى بدير الترتيل[٧] بقرب « آغيمورت[٨] » وكان يسمى كذلك لأن الرهبان كانوا ألزموا أنفسهم فيه النشيد الدائم بتسبيح الرب، وذلك على أنه كلما تعبت طائفة خلفتها طائفة فى الترتيل فلا ينقطع الترتيل من الدير لا ليلاً ولا نهاراً . فدهم العرب هذه الأديار كلها بغتة، منحدرين عليها انحدار العقبان ، بحيث لم يقدر الرهابين الذين فيها

حياة البابا غريغوار الثانى ومجموعة مواساك التى فيها كتاب مؤرخى فرنسة

(١) Jaucels

(٢) Beziers

(٣) Saint-Bausile

(٤) Nimes

(٥) Saint-Gilles

(٦) Arles

(٧) Psalmodie

(٨) Aiguemortes

الا أن يخلصوا ، نجياً برقابهم وببعض ذخائر القديسين التى كانت عندهم (١) ، وكان العرب أول ما يعمدون الى الأجراس والنواقيس فيكسرونهـا (٢) وكانت بعض عصائب من أهالى البـلاد تقاتل العرب فى الاحايين ، وكان هؤلاء لا يسيئون معاملة الذين يدخلون فى طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال

ثم انه فى سنة ٧٢٤ تولى امارة الأندلس عنبسة (ابن سحيم الـكلبى) (٣) واجتاز جبال البيرانة بجيش جرار، وأوغل فى البلاد، وفتح قرقشونة وأوقع بمن وجد فيها ، ثم فتح نيم واخذ من أهلها رهائن أرسلهم الى برشلونة (٤) وقد كانت فتوحات عنبسة بحسب رأى ايزيدور الباجى فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة ، ولذلك تضاعف فى أيام عنبسة خراج بلاد الغال . وقيل ان عنبسة نفسه قد زاد الخراج على الأهالى ، ولا يظهر أن ذلك صحيح . وانما ازداد الخراج بتوفيره وبحسن تدبيره . ثم ان عنبسة وقع قتيلا فى احدى الوقائع سنة ٧٢٥ فخلفه فى القيادة « حديرة » وجاءت الى هذا نجدات من الأندلس ، وعادت ريح الاسلام فعصفت ببـلاد النصرانية من كل جهة ، بحسب تعبير أحد مؤرخى العرب . فالسبتمانية الى حدود الرون و« الالبيجوا (٥) » و « الرورغ (٦) » و « الجيفودان (٧) » و « الفيلاى (٨) » صارت ميداناً لغارات العرب. وشملها الخراب من كل جهة . ومالم يؤخذ بالحديد سلطوا عليه النار الى حد أن كثيرين

(١) استشهد رينو على ذلك بتاريخ نيم تأليف منار Menard

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن النويرى

(٣) جاء فى بغية الملتمس فى «تاريخ رجال أهل الأندلس» لاحمد بن يحيى بن احمد بن عميرة مايلى : عنبسة بن سحيم الـكلبى كان أمير الأندلس فى سنة ١٠٦ من قبل بشر بن صفوان أمير افريقية فى أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل سنة تسع . والله أعلم

(٤) نقل رينو هذا الخبر من مجموعة « مؤرخى بلاد الغال » عن تاريخ مواساك Moissac

(٥) Albigeois

(٦) Rouergue

(٧) Gevaudan

(٨) Velay

من الغزاة أنفسهم أكبروا هذا العيث الزائد فى تلك البلاد. فانهم لم يكونوا يعفون عن شيء سوى الجواهر النفيسة والسلاح والخيل وكل ما يزدادون به قوة على قوة

وأكثر ما شمل الخراب مقاطعة « روذيس [١] » فقد احتل العرب فيها حصناً يظنه بعضهم حصن « روكبريف [٢] » والآخرون حصن « بالاغيه [٣] » وأخذوا يجتاحون جواره ولا يلقون مناهضاً ولا عرقاً نابضاً . وقد بقيت عندنا عن تلك النوازل شهادة رجل كان يقال له « دادون [٤] » عندما زحف العرب خرج بسلاحه ومعه جماعة مسلحون من أهل وطنه، فجاء العرب الى بيته ولم يجدوا فيه سوى أمه فأخذوها من جملة السبي، وعادوا الى الحصن الذى كانوا تبوأوه ، فجاء دادون بسلاحه ومعه رفاقه ، ووقفوا أمام باب الحصن ، وطلب دادون تسليم أمه وقال انه ليس ببارح حتى ينقذها فأجابه واحد من العرب : إن شئت أن نرد عليك أمك فادفع الينا الجواد الذى أنت راكبه والا فاننا نذبح أمك أمام عينيك . فأجاب دادون وقد كاد الغضب يخرجه من عقله : افعلوا بأمى ماتريدون فلا أسلم جوادى . عند ذلك جاء البربرى بأم دادون وقطع رأسها وألقاه من فوق الحصن إلى ما بين يدى ذلك المسكين . فعندما شاهد دادون رأس والدته كادت نفسه تزهق من الألم وأخذ ينتحب ويصيح: ياللأخذ بالثار . ولكنه لم يكن يقدر أن يدخل الى الحصن . فذهب وقد خولط فى عقله وانقطع عن الناس، وأقام على ضفاف وادى « دوردون [٥] » فى المكان الذى بنى فيه فيما بعد الدير المسمى بدير « كونك [٦] »

وقد استشهد رينو على هذه الحادثة بقصيدة « ارمولدس نيجلوس [٧] » التى

---

(١) Rhodés

(٢) Roqueprive

(٣) Balaguier

(٤) Dadon

(٥) Dourdon

(٦) Conques

(٧) Ermoldus Nigellus

نشرها فى موراتورى [1] ثم الدون بوكيه [2] فى مجموعة مؤرخى بلاد الغال، ثم المسيو بيرتس [3] فى تاريخ الجرمانيين . وقد جاءت هذه الحادثة فى البيت المائتين والسبعة من قصيدة « نيجلوس ». وليس يوجد فى القصيدة ولا فى تاريخ دير « كونك » ما يدل على السنة التى أغار فيها العرب على « روزغ » ولكن إذا عرفنا أن دادون مات فى أواخر القرن الثامن علمنا الزمن الذى وقعت فيه هذه الحادثة . فأما دير « كونك » فقد بقى قائماً الى زمان الثورة الفرنسوية

ولنذكر حادثاً آخر يدل على ما بلغته من الفجائع تلك الغارات التى كان جانب عظيم من فرنسة مرزحاً لها، وهذا الحادث وقع فى دير « موناستييه [4] » فى جهات « فيلى [5] » فقد كان المسلمون اجتاحوا مقاطعات « بوى [6] » و « كليرمون [7] » وكنيسة « بريود [8] » ثم أشرفوا على دير « موناستييه » فجمع القديس «شافر [9]» رئيس الدير رهبانه، وأمرهم بأن ينسحبوا الى الحراج المجاورة، ويأخذوا معهم الاعلاق النفيسة والذخائر التى فى الدير ويتواروا فى البرية، الى أن يتأذن الله بالفرج وبأوقات أحسن فيعودوا فيها الى متبوَّئهم الأول . أما هو أى القديس المذكور فقد أجمع أن يبقى فى الدير مهما كان البرابرة يريدون أن يفعلوا به، فان أمكنه أن يردهم الى الصراط المستقيم فذاك، وإلا فان قتلوه فيكون تردَّى بالأحمر من أثواب الشهادة: فأخذ الرهبان يبكون ويستغيثون راجين منه أن يذهب معهم الى البرية ويطلب النجاة

Muratori (١)

Bouquet (٢)

Pertz (٣)

Monastier (٤)

Velay (٥)

Puy (٦)

Clermont (٧)

Brioude (٨)

Saint Chaffre (٩) وكان يقال له أيضاً Saint Theofroi

كما يطلبون أو أن يتركهم يموتون معه . فأصرّ القديس على كلامه وقال لهم إن اتقاء الخطر ضرورى لا سيما اذا كان فى السلامة فائدة للكنيسة . وضرب لهم مثلاً مسألة الرسول بولس الذى كان اليهود أعداؤه يقتصون أثره فى دمشق للاقتصاص منه، ففر منهم ونزل ليلاً فى زنبيل تدلى به من عن سور المدينة وخاص نجياً . وكذلك بطرس رئيس الحواريين كان قد أجمع الفرار من وجه نيرون لو لم يكن سبق فى إرادة الله توقيف خطواته . ثم قال لهم القديس : أما أنا فانى لست بذاهب من هذا الدير ، فان من واجبات الراعى أحياناً أن يضحى بنفسه فى سبيل خلاص رعيته ، وانى إن سال دمى هذه المرة فربما يسكن بانفجاره الغضب الإلهى الثائر بدون شك من خطايا البشر.

فلما رأى الرهابين تصميم القديس هذا لم تسعهم إلا طاعته ، وبعد أن سمعوا القداس وأخذوا معهم النفائس التى فى الدير خرجوا إلى البرية، وتغلغلوا فى الغابات ، ولكن انسلّ منهم اثنان فصعدوا فوق رابية مشرفة على الدير ليشهدوا ما عساه أن يقع فيه . ولم يلبث العرب أن حضروا فوجدوا القديس « شافر » عاكفاً على الصلاة فى زاوية من الدير، فلم يأبهوا له، وانما أخذوا يطوفون فى الدير أملاً بالعثور على شئ يغنمونه، وكان مرادهم أن يثقفوا الرهبان وأن يأخذوا منهم أحدثهم سناً وأقواهم بنيةً ليبيعوهم فى سوق النخاسين بالأندلس . فلما علموا أن الرهبان قد فرّوا بأسرهم وأنه لم يبق فى الدير شئ من النفائس التى كانت تحدثهم أنفسهم بها استشاطوا غضباً وانهالوا على القديس بضرب مبرّح

وكان فى ذلك اليوم عند البرابرة عيد يقدمون فيه ضحية لله، ولم يقل المؤرخ الذى ننقل عنه هذه القصة ما شكل تلك الضحية ؟ ولكنه يقول إنهم كانوا فى ذلك العيد يشربون الخمر ويطنزون ، مما يدل على أن العصابة التى أغارت على كورة « فيلاى » لم تكن عصابة مسلمة، ولكن عصابة بربرية لايزال أهلها غائصين فى لجج الوثنية . فلما رآهم القديس قد انتبذوا مكاناً للقيام بشعائر عيدهم جاءاليهم ونصح لهم بأنهم بدلاً من عبادة الشياطين يكون أولى بهم أن يعبدوا خالق الأكوان الذى لولاه لم يكن شىء فى هذه الدنيا ، فلم يكن هذا الكلام ليقع منهم موقع القبول بل زادهم سخطاً

وجاء أحدهم فرماه بحجر فسقط على الأرض مغشيا عليه . ثم أراد البرابرة أن يحرقوا الدير ويدكوه الى الحضيض ، ولكن يقول المؤرخ انهم بينما هم يهمون بأن يفعلوا سلط الله عليهم زيحاً صرصراً عاتية وصواعق محرقة فاركنوا الى الفرار ، وتركوا الدير . ثم مات القديس بعد أيام قلائل من أثر الضرب ، بعد أن عاد الرهبان إلى ديرهم . ولا تزال الكنيسة تحتفل بعيد القديس « شافر » فى ١٩ اكتوبر من كل سنة . وأما الدير المذكور فقد بقى قائماً الى زمان الثورة الفرنسوية الكبرى

ونظن أنه فى ذلك العهد كانت قد وقعت غارة العرب على مقاطعة « دوفينى[١] » وعلى مدينة « ليون[٢] » وعلى بلاد « برغونيا[٣] » وقد ذكر أحد مؤرخى العرب هذه الغزوات قائلا : إن الله قد قذف الرعب فى قلوب الكفار فلم يكن واحد منهم يقف فى وجه المسلمين إلا لطلب الأمان. ولم يزل المسلمون يتقدمون فى البلاد ويؤمنون العباد الى أن وصلوا الى وادى « الرون » وهناك ابتعدوا عن السواحل وأوغلوا الى الداخل

وقد نقل رينو هذا الكلام عن المقرى. ولكن إن كان الكلام الذى نقله هنا هو الوارد فى النفح فان العبارة التى اطلعنا عليها هى هذه نقلا عن ابن حيان :إن موسى اصطلح مع طارق وأظهر الرضا عنه وأقره على مقدمته، على رسمه،وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه،وسار موسى خلفه فى جيوشه،فارتقى إلى الثغر الأعلى وافتتح «سرقسطة» وأعمالها وأوغل فى البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليهما وغنمهما الله تعالى مافيه . وقد ألقى الله الرعب فى قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح . وموسى يجىء على أثر طارق فى ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ماعاهدوه عليه . فلما صفا القطر كله وطأمن نفوس من أقام على سلمه،ووطأ لأقدام المسلمين فى الحلول به،أقام

(١) Dauphiné مقاطعة من فرنسة قاعدتها « غرينوبل » تتألف منها الآن ولايات « الايزير » و « الدروم » و « الالب » العليا

(٢) مدينة ليون الشهيرة وقد تقدم ذكرها

(٣) تقدم ذكرها أيضاً

لتمييز ذلك وقتاً، وأمضى المسلمين إلى افرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا وانتهوا، حتى انتهوا إلى وادى «ردونة» فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم. وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلد إفرنجة فملكت مدينتى «برشلونة» و«أربونة» وصخرة «آبينيون» وحصن «لودون» على «وادى ردونة» فبعدوا عن الساحل الذى منه دخلوا جدا • انتهى

فهذه العبارة قد تقدم نقلنا إياها فى الكلام عن موسى بن نصير وطارق.
رجع الى كلام رينو • قال:

ولا نعلم فى الحقيقة الأمكنة التى أشرف عليها العرب ذلك اليوم الا بأخبار الاجتياح الذى وقع فيها ، فانه فى نواحى «فيين [١]» على ضفاف «الرون» أصبحت الكنائس والأديار كلها دكاً، و«ليون» التى يسميها العرب «لودون» رأيت أيضاً تخريب أعظم كنائسها. وكذلك شمل العيث «ماسون [٢]» و«شالون [٣]» وكذلك «بون [٤]» حل فيها من العيث ما لا يوصف. ووصل العرب الى مدينة «أوتون [٥]» وأحرقوا كنيسة «سان [٦] نازير» وكنيسة «سان جان [٧]» ودير «سان [٨] مرتين» . وكذلك نهبوا دير «سين [٩] اندوش» فى «صوليو [١٠]» وكذلك

(١) Vienne مدينة على وادى «الرون» تبعد ثمانين كيلو متراً عن «غرينوبل» الى الشمال الغربى

(٢) مدينة Maçon من مقاطعة الصاوون واللوار على مسافة ٤٤١ كيلومتراً الى الجنوب من باريز

(٣) قصبة Chalon على نهر الصاوون، على ٥٨ كيلو متراً من ماسون وهى غير مدينة شالون على المارن

(٤) Bon مدينة على ٣٨ كيلو مترا الى الجنوب الشرقى من «ديجون»

(٥) Autun مدينة على مسافة ١٠٦ كيلو مترات الى الشمال الغربى من ماسون

(٦) Saint-Nazaire

(٧) Saint-Gean

(٨) Saint-Martin

(٩) Saint-Andoche

(١٠) Saulieu قصبة من ساحل الذهب من ولاية سيمور Semur

دمر العرب دير « بيز [١] » بقرب « ديجون [٢] » . وقد استشهد « رينو » على هـذه الحوادث بتاريخ « مواساك » من مجموعة مؤرخى بلاد الغـال وبتاريخ « الدون [٣] بلانشيه » المسمى بتاريخ برغونيا وبتاريخ « غاليا كريستيانيا [٤] »

ويذهب بعضهم إلى أن غارات العرب قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا ، وقالوا إنهم بثوا سراياهم إلى جهات نهر «اللوار» وأخرى بقرب « نيفير [٥] » وأخرى إلى مقاطعة « فرانش [٦] كونتى »

وقالوا إن دير «سان [٧] كولومبان» قد دكه العرب فى تلك الغزوة، وأنهم قتلوا أكثر الرهابين والقسيسين الذين صادفوهم فى « بيزانسون » . قال « رينو » : وليس فى هذه الروايات شىء لايقبله العقل ولا سيما ماتعلق منها بمقاطعة «فرنش كونتى» التى فيها أسماء وآثار عربية كثيرة . وقالوا أيضا ان الدير الذى فى سفح جبال « الفوج [٨] » المسمى بدير «لوكسول [٩] » قد جعله العرب أيضا أثراً بعد عين، وذبحوا الرهابين الذين كانوا فيه تحت رئاسة القديس «ميلين [١٠] » . نقل هذه الروايات « رينو » عن الأب «لكوانت [١١] » ونقل أيضا عن «مابيون [١٢] » وقال: يظهر ان المسلمين لم يجدوا مقاومة

(١) Beze

(٢) Dijon قاعدة بلاد « برجونيا » على مسافة ٣١٥ كيلو متراً من الجنوب الشرقى من باريس

(٣) Plancher

(٤) Gallia Christiania

(٥) Nevers

(٦) Franche-Comté مقاطعة فى شرق فرنسة، قاعدتها « بيزانسون » تحتوى على ولايات « الصاوون » العليا و « دوبس » Doubs و « جورا » Jura

(٧) Saint-Colomban

(٨) Vosges

(٩) Luxeuil

(١٠) Mellin

(١١) Lecointe

(١٢) Mabillon

حقيقيه إلا أمام مدينة «سانس[١]» فان هذه المدينة كان فيها مطران ينتسب إلى عائلة نبيلة ، يقال له « ايبول [٢] » اشتهر بالفضائل والكمالات حتى جعلوه فى مصاف القديسين . فهذا المطران عندما سمع بايجاف العرب قاصدين بلده بدأ بتحصين البلدة، وهيأ أسباب الدفاع عنها، بحيث لما وصل العرب إليها وأخذوا يقذفونها بقذائف منجنيقاتهم كان أهاليها يرمونهم من أعالى الأسوار بأجزاء محرقة كانت تلتهب بها آلاتهم الحربية

قال « رينو » : إلا أنه يعترضنا فى هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بان أصحاب هذه الغارات كانوا من السرازين[٣] ولا ثمة لفظة تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل هم مسلمون بدون شك ، بل كان المؤرخون يشيرون اليهم بقولهم «فندال[٤]» وطالما كانوا يطلقون هذا الاسم فى النصف الأول من القرن العاشر على المجار عند ما جاء هؤلاء الى المانية ودخلوا الى فرنسة واكتسحوا « الالزاس » و «اللورين» و « فرانش كونتى » و « برغونيا » و « شمبانيا » وغيرها

ثم يعود رينو، فيقول: إنه على كل حال قد تحقق مجئ العرب إلى فرنسة وتغلغلهم فى أحشاء البلاد وانهم لم يكن لهم خطة مرسومة معينة فى مغازيهم ومراميهم، وأنهم لم يجدوا فى البداية من أهل فرنسة الا مقاومة واهية وعزما غير جميع . نعم تختلف فرنسة عن اسبانية فى هذا الباب بأن اسبانية وجد فيها من انضم الى العرب وسعى بين أيديهم ودان بدينهم ، وأما فى فرنسة فاذا استثنينا بعض أشخاص لايعرفون معنى للدين ولا للوطن لم يوجد من الأهالى فئة كان لها شيء من الوجاهة والنبالة رضيت بأن تنحاز الى العرب أو أن تصبأ عن دينها، بل انه فى وسط مدينتى أربونة وقرقشونة ، حيث أقام العرب مدة طويلة، بقى الاهلون متمسكين بدينهم المسيحى لايرضون به بدلا

---

(١) Sens قصبة مقاطعة إفرنسية تسمى يوند « Yonnd »

(٢) Ebbon

(٣) Sarrazins وهو لقب المسلمين عند الإفرنج فى ذلك الوقت

(٤) Vandales

وكان اود دوق اكيتانية طول هذه المدة منحرفا عن القتال، متجنبا الانغماس فى الحرب ،لأن غارات العرب كانت واقعة على أطراف بلاده ولم تكن فى قلب البلاد مثل ذى قبل . وأما « شارل مارتل » فكان مشغولا بمحاربة « الغريزونيّين » و « البافاريين» و « السقسون » الذين كان يخشى أن يعبروا عليه نهر الرين وينازعوه مركز سلطانه . وكان بينه وبين « أود » ما بين النظراء الذين يغص بعضهم بمكان بعض .فأما مؤرخو العرب الذين لم يكن لهم اطلاع على تلك المنافسات الداخلية بين ملوك الافرنج فعللوا سكوت « شارل مارتل » الذى كانوا يسمونه « قارله » عن مقارعتهم بالتعليل الآتى.قالوا :

إن كثيرا من أمراء الافرنج فزعوا إلى«قارله» وشكوا له الأضرار التى حلت بهم من عيث المسلمين فى البلاد ، وأونحوا له العار الذى يلحق بها من كون جيش كالجيش العربى ، مجهز بأسلحة خفيفة ، يتغلب على جيوش شاكة بأثقل الأسلحة غائصة فى الزرد إلى أعناقها كالجيوش الافرنجية .فأجابهم قارلة : دعوهم الآن يفعلون فانهم فى إبان صولتهم أشبه بالسيل الذى يجرف كل مايقف فى وجهه، وهم اليوم قد اتخذوا من جرأتهم دروعا ومن اقدامهم حصونا ، ولكنهم بعد أن تمتلىء أيديهم من الغنائم ،وبعد أن يألفوا نعيم الحضر ويستولى الطمع عليهم فينافس بعضهم بعضاً ويدخل الشقاق فى صفوفهم، حينئذ نزحف إليهم ونتغلب عليهم ونترك جمهم شريداً وقائمهم حصيداً.. وقد نقل هذا الكلام « رينو » عن المقرى صاحب النفح . ونحن راجعنا المقرى فوجدناه يقول فى آخر صفحة ١٢٨من الطبعة الأزهرية المصرية مايلى :

وقال الحجارى فى المسهب ان موسى بن نصير نصره الله نصراً ماعليه مزيد ، وأجفلت ملوك النصارى بين يديه حتى خرج على باب الأندلس الذى فى الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة ، فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة — وهذه سمة لملكهم — فقالت له : ماهذا الخزى الباقى فى الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من

جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم مافيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم. فقال لهم مامعناه : الرأي عندي أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم فى إقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر . قال :فكان والله كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء . انتهى

قلت: إن أعظم العوامل التى قضت برجوع بدر العرب كالعرجون القديم، بعد أن كان تماما وأنار المشرق والمغرب ، تعود الى عاملين كبيرين : أحدهما الفتنة التى ذكرها صاحب المسهب بين الشاميين والبلديين، فقد طال بينهما النزاع وتحول الى فتنة صماء أوقفت سير الاسلام فى أوربة بعد أن مشى فيها مشى النار فى يابس العرفج . واهم من فتنة البلديين والشاميين فتنة العرب والبربر ، فقد أجمع المؤرخون من العرب والافرنجة على أن الحرب التى اصطلت بين المسلمين فى شمالى اسبانية والتى تغلب فيها البربر على العرب وأخرجوهم بها من تلك الديار كانت هى السبب فى انتهاز الافرنج والاسبانيول تلك الغرة اللائحة لاستئناف دولتهم وصولتهم وطردهم للمسلمين من شمالى اسبانية . وبعد ذلك عندما جمع العرب شملهم وكروا على البربر واوقعوا بهم، انتقاما عما صدر من البربر من قبل، استفاد الاسبانيول والافرنج فائدة كالفائدة الأولى، واغتنموا أيضاً مثل تلك الفرصة، وقد كان أنكى من الفتنتين المار ذكرهما فتنة القيسية واليمانية وواقعة شقنده المشهورة ووقائع أخرى كانت تشغل العرب بعضهم ببعض ، فيستأسد العدو فى خلالها وينهض من ورائها فيكر عليهم ويسترجع منهم قلاعا وحصونا وحواضر عامرة. وقد شوهد أنه لما اشتدت الفتنة فى قرطبة بين العرب والبربر فى أيام الخليفة المستضعف هشام الثانى كان كل فريق من المسلمين يستعين بالاسبانيول ، وكان هؤلاء يشترطون للنجدة كذا وكذا من الحصون وكذا وكذا من المدن ، وكان أولو الأمر

فى قرطبة ينزلون لهم عنها (١) . أما العامل الثانى الذى لم يكن يقل خطراً عن الأول فانه ولوع العرب بالغنائم وحرصهم عليها الى الدرجة التى كانت سبباً فى الهزائم، فان الواقعة الكبرى التى وقعت بين عبد الرحمن الغافقى و «شارل مارتل» الذى يقول له العرب «قارله» كان سبب إدبار العرب فيها وتملص أوربة من أيديهم هو شدة الخوف على الغنائم لاغير، فانه لما تلاقى الجمعان أراد عبد الرحمن أن يأمر جيشه بترك الغنائم التى كانوا جمعوها حتى لا تبقى قلوبهم مشغولة بها عن القتال . ولكنه توجس خيفة أن يكسر بذلك من قلوبهم، فتفتر عزائمهم وتخبث نفوسهم، فأذن لهم فى حفظ غنائمهم وهو كاره، فجعلوها وراء المعسكر وأعينهم فيها . وعلم بذلك الأفرنج ولحظوا شدة حرص العرب عليها، فلما حمى الوطيس زحف جانب من جيش الافرنج من طريق آخر قاصداً المعسكر الذى فيه الغنائم، فانكفأ العرب عن ميدان القتال راجعين إلى معسكرهم الذى فيه

(١) قال ابن عذارى فى البيان المغرب : قال ابراهيم بن القاسم : وكان أهل قرطبة على حال شدتهم وعظيم محنتهم لاجين فى الفتنة والتعصب على البربر، ومن ذكر الصلح قتل، حتى ان رجلا من وجوه أهل العلم قال فى الجامع : اللهم اصلح علينا فقتل فى مكانه . وقال آخر فى الجامع : ان الله أحب الصلح وأمر به، فقتل فى الحين . وجاءت امرأة من الفرن فأوقعت قدراً فانكسرت فكانت سوداء فقالوا بربرية سوداء فقتلت «الى أن يقول» : وأتى رسل ابن مامة القومس زعيم نصرانيته يستنجزون تسليم الحصون اليه على ألا يغدرهم ولا يتعرض لشئ من ثغورهم . فرضوا بهذا وحضر الفقهاء والعدول والقاضى وكتبوا كتاباً بذلك

قال : ولما وصل الرسل الى قرطبة حضر الفقهاء والقاضى والعدول وكتبوا كتاباً بالشروط وتسليم الحصون للنصارى وقرىء على الناس بحضرة هشام (اى الخليفة) وواضح (أى الحاجب) وشهد فيه جميع من حضر وخرج القوم من القصر مستبشرين بما كان (تأمل كيف كانوا يستبشرون بتسليم الحصون الى الاسبانيول بشرط أن يظاهروهم على البربر) فكان الذى صار لابن مامة جميع الحصون التى كان أخذها الحكم بن عبد الرحمن ومحمد بن أبى عامر وابنه المظفر، كل ذلك استخفافاً من هشام . هكذا ذكر الرقيق فى كتابه .

قال : وسمع اللعين ابن شانجه أيضاً بما سلم الى اللعين ابن مامة دونه من الحصون، فكتب يطلب حصوناً أخر وتوعد وتهدد، فأجيب الى ما سأل من ذلك وكتب بتسليمها اليه . وهذا كله لجاجاً فى ألا يصالح البربر اه

تلك الأسلاب ليدافعوا من دونها، ولم يبق فى الميدان قوة كافية لصد السواد الاعظم من الجيش الافرنجى . وهكذا كانت تلك الهزيمة الكبرى فى المحل الذى يسميه العرب ببلاط الشهداء ، ويسميه الافرنج بمعركة «بواتييه» .فأنت ترى أن «قارلة »عندما قال للافرنج قوله ذاك «دعوا العرب يملأون أيديهم» كان كأنه يقرأ فى ظهر الغيب

نعود الى سياق التاريخ بحسب رواية « رينو » فنقول :

وفى سنة ٧٣٠ تولى إمارة الأندلس عبد الرحمن « الغافقى » الذى خلف السمح بن مالك الخولانى فى قيادة الجيش المحاصر « لطلوزة » عند مصرع السمح فى المعركة، وكان عبد الرحمن هذا رجلا صارماً عادلا محبباً فى جنده ، لنزاهته ولعدم رغبته فى حطام الدنيا لنفسه،وكان أيضاً محل احترام صلحاء المسلمين لمعرفته بالحديث النبوى ومصاحبته لأحد أولاد الخليفة عمر (١)

---

(١) جاءت ترجمة عبد الرحمن الغافقى فى كتاب بغية الملتمس فى رجال أهل الأندلس، لأحمد بن يحيى بن عميرة، كما يلى :

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى وهو العكي :أمير الأندلس،وليها فى حدود العشر ومائة من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسى صاحب افريقية . وعبد الرحمن هذا من التابعين يروى عن عبد الله بن عمر وروى عنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وعبيد الله بن عياض، استشهد فى قتال الروم بالأندلس سنة ١١٥ حكى ذلك غير واحد . وكان رجلا صالحاً جميل السيرة فى ولايته كثير الغزو للروم عدل القسمة فى الغنائم وله فى ذلك خبر مشهور، أخبرنى أبو طاهر اسماعيل بن قاسم الزيات لقيته بفسطاط مصر، قال : أخبرنا الصادق بن مرشد بن يحيي بن القاسم المدينى سماعاً عليه ، أخبرنا على بن منير الخلال قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن احمد بن الفرج، أخبرنا أبو القاسم على بن الحسن ابن خلف قال : أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم قال : غزا عبد الرحمن يعنى ابن عبد الله العكى إفرنجة وهم أقاصى عدو الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . وكان فيما أصاب رجل من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزبرجد فأمر بهـا فكسرت ثم أخرج الخمس وقسم سائر ذلك فى المسلمين الذين كانوا معه. فبلغ ذلك عبيدة يعنى ابن عبد الرحمن القيسى الذى هو من قبله فغضب غضباً شديداً وكتب اليه كتاباً يتوعده فيه فكتب اليه عبد الرحمن : ان السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجاً . انتهى . وسنذكر فى متن الكتاب تكملة أخبار عبد الرحمن الغافقى رحمه الله

وقبل أن نكمل ترجمة عبد الرحمن الغافقى التى ستنتهى بوافعة بلاط الشهداء ينبغى لنا أن نكمل الخبر عن الفترة التى وقعت بين امارة عنبسة بن سحيم الـكلبي وامارة الغافقى ، فنقول : قال المؤرخ الاسبانيولى « كوندى » : إن أول عمل قام به عنبسة هو تنظيم الخراج وتقسيم الأراضى بين المسلمين بدون تجاوز على الأراضى التى لها ملاكون أصليون من الأهالى ، فكان يستوفى العشر من الذين خضعوا لدولة العرب من أنفسهم ، ويستوفى الخمس ممن لم يخضعوا الا بالسيف . وهو الذى بنى جسر قرطبة (١)

وطاف عنبسة فى المقاطعات ينظر فى مظالم الناس ويوزع بينهم العدل بدون تمييز بين الأديان . ثم إن أهالى «طرّسونه» انتقضوا عليه فزحف إليهم ودوخهم ودك حصونهم، واقتص من زعماء الثورة وفرض عليهم غرامة مضاعفة .

ثم أغزى جيوشه بلاد افرنجة ، فدمر وأحرق ونسف زروعا وأسر خلقا كثيرا ، وقيل إنه كان يكره هذا العيث فى بلاد العدو ، إلا أنه كان يدارى جنده ويحذر أن يتهم بفتور الحمية الاسلامية (٢) . قال « كوندى » : ثم انه فى ذلك الوقت خرج فى سورية نبى كذاب اسمه «زوناريا (٣)» كان يزعم أنه المسيح المنتظر عند اليهود. فلما سمع بخبره عرب الاندلس، وكان كثير منهم من أهل الشام، صدقوا مقالته هذه وتركوا الغنائم التى كانوا غنموها والمساكن التى كانوا ارتضوها ، وعادوا إلى سورية مجفلين ، فضبط عنبسة الأملاك التى تركوها، وحولها لبيت المال . ثم فى السنة التالية غزا عنبسة بلاد فرنسة ورافقه النصر فى أول الأمر، وما زال يقطع الأودية ويستقرى

(١) أكثر المؤرخين يقولون ان بانى جسر قرطبة هو سلفه السمح بن مالك الخولانى ، ولعل عنبسة أكمل بناءه بعد قتل السمح

(٢) لا شك أن الغافقى بمكانه من معرفة الشرع كان يعلم أن نسف الزروع وهدم البيوت وقطع الأشجار واستعمال النار كل ذلك مخالف لقواعد الحرب فى الاسلام ولو فى بلاد العدو وقد نص على ذلك الأئمة بالصراحة ، وغاية ما شدد المشددون منهم هو أنه يصح اذا بدأ به العدو ولم تبق للمسلمين حيلة الا مقابلته بالمثل

(٣) Zonaria وهذا الخبر الذى رواه كوندى، ونقلناه عنه، رينو لم نسمع به حتى الآن وهو من أغرب ما سمع من الأخبار . والظن أنه ان كان له أصل فيكون فى المجتمع اليهودى لا المجتمع الاسلامى

البسائط حتى عبر نهر « الرون » الى الشرق ، ولـكنه وقع فى إحدى الوقائع مثخناً بجراحات كثيرة، مات على أثرها ، وذلك سـنة ١٠٦ للهجرة . وقبل أن مات استخلف حديرة الفهرى،فلم يشغل هذا المنصب الا مدة يسيرة ، لأن أمير افريقية أرسل أميراً على الأندلس يحيى بن سلمة [١] . وكان هذا قائداً مجرباً محبا للعدل صارماً جداً فى اعطاء الحقوق لأصحابها ، فهابه المسلمون والمسيحيون معاً. وبينما كان يطوف فى الولايات الشمالية انتهز أعداؤه الفرصة فطلبوا من أمير افريقية عزله فأجابهم إلى ماسألوا وأرسل أميرا على الأندلس عثمان بن أبى نسعة [٢] وكان عثمان هـذا مشهورا بالبسالة والنجدة والبصيرة بالحروب،فتولى الامارة واضطلع بها، ولـكن وجد أصحابه فيه عوداً صليباً وقناة لا تلين لغامز ولم يحققوا فيه آمالهم،ولا هو عرف لهم جميل سعيهم فى تأميره، بل رأوا منه ماأمضّ وأرمض، فما زالوا يسعون به كما سعوا بسلفه حتى حملوا الخليفة هشاما على صرفه بحذيفة بن الأحوص [٣] فلم يقم هـذا إلا قليلا ، وعاد أمير افريقية فولى على الأندلس عثمان بن أبى نسعة نفسه ، ولـكن ولاه وكيـلاً لا أصيلا، إلى أن قدم من دمشق بأمر الخليفة الهيثم بن عبيد الـكنانى [٤] وكان الهيثم شامياً ولكنه كان فظاً بخيلا جاسياً،فآسف شيوخ العرب والبربر وساءت ملـكته فيهم،فاتحدوا عليه فالقى بهم فى السجون وأهلك بعضهم

(١) فى نفح الطيب أن يحيى بن سلمة الـكلبى أنفذه بشر بن صفوان الـكلبى، والى افريقية،لما استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عنبسة فقدمها آخر سنة ١٠٧ وأقام فى ولايتها سنتين ونصفاً .

(٢) الافرنج يسمونه « مونوزه » Munuza وهكذا جعلوا ابن أبى نسعة محرفاً الى « مونوزه » ويقول « رينو » :ان كلا من الافرنج والعرب يحرفون أسماء بعضهم حتى تنكر على الانسان أصلها

(٣) فى نفح الطيب أن عثمان بن ابى نسعة اللخمى قدم والياً من قبـل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى صاحب افريقية وعزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الأحوص القيسى

(٤) فى نفح الطيب يقول إنه قدم من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى أمير افريقية وأنه وصل فى المحرم سنة ١١١ وغزا أرض مقوشة فافتتحها وتوفى سنة ١١٣ لسنتين من ولايته. وقدم بعده محمد بن عبد الله الأشجعى فولى شهرين. ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله ابن الحبحاب صاحب افريقية فدخلها سنة ١١٣ وغزا الإفرنجة الخ .

وكان من جملة المشكوبين زياد بن زيد فرفع الشكوى الى الخليفة ، هو ومن معه ، واتهموا الهيثم بأنه يسير فى الأندلس سيرة لا مناص من أن تنتهى ببوار الأمة والخطوب المدلهمة، فأرسل الخليفة هشام محمد بن عبد الله، وفوض إليه أمر التحقيق عن الشكاوى الواقعة بحق الهيثم، وأذن له بأنه اذا ثبت لديه كون الهيثم مجرماً يعزله ويقتص منه ويتبدل به الأمير الذى يراه الأصلح ، فجاء محمد هذا ومضى بالتحقيق اللازم على أحسن وجه . وعند ما ثبت لديه إجرام الهيثم ألقاه فى السجن واطلق الذين كان نكبهم ورد عليهم أموالهم. ويقال إنه قبل أن نفى الهيثم من الأندلس الى افريقية أمر بتطويفه فى شوارع قرطبة راكباً على حمار ، تشهيراً له ونكالا وفاقاً

وبعد ذلك فوض محمد بن عبد الله بالامارة الأمير عبد الرحمن الغافقى فاستحسن الجميع تولية عبد الرحمن الغافقى لما كانوا سبروا من نجابته ومن مزاياه العالية. ولم يشذ عن الجمهور الا عثمان بن أبى نسعة الذى كان يرى نفسه أولى بالامارة، فتولى عبد الرحمن سنة ٧٢٨ وفق ١١٠ (هنا فرق بثلاث سنوات عن رواية نفح الطيب) . وكان متوفر العناية باقامة العدل ورفع المظالم وايتاء الحقوق أصحابها. ولأجل أن يتمكن من تسكين الدهماء وارضاء الجمهور بقى سنتين يطوف على بلد بلد ويباشر اماطة المظالم وازاحة العلل بنفسه غير مميز بين المسلم والمسيحى، وعزل كثيراً من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية وكذلك أعاد الى المسيحيين الكنائس التى كانوا انتزعوها من أيديهم والتى كان لهم الحق بها وفقا للعهود ، كما أنه هدم الكنائس التى كانوا أخذوا الاذن فيها بالرشوة خلافاً للعهود .

ولم يكن يهدأ له بال الا بغزو فرنسة حتى يدوخها ويضمها الى إمارته أو يضم منها البلدان التى كانت من قديم الزمان تحت حكم القوط . فحشد جيشاً جراراً من نخبة المقاتلة والصابرين فى الحروب، واستنجد أمير أفريقية فأرسل اليه بجنود مختارة للجهاد، تتلظى شوقاً الى الجلاد. ولما وصلت نجدة أمير افريقية سرحها عبد الرحمن إلى الدروب، وبعث الى عثمان بن أبى نسعة أمير الثغر بأن يشاغل العدو بالغارات الى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش . فوقع من عثمان على باقعة شديد البأس كان بدون هذا ينافس عبد الرحمن على الامارة ولم يكن مرتاحاً الى عمل يبدأ به عبد الرحمن وينال

به حسن الذكر . وقد انضاف الى هذا السبب فى كراهيته لتلك الحرب أنه فى إحدى غاراته على فرنسة وقعت فى يده ابنة « أود » دوق اكيتانية، ويقال إنها كانت تسمى « نوميرانسه[١] » ويقال ان اسمها « مينين[٢] » ولكنها كانت مشهورة باسم «لامبيجيه[٣]» وكانت بارعة فى الجمال مع مكانها من بيت الملك ، فهام عثمان بها حباً وتزوج بها كما تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأميرة « ايجيلونة[٤] » أرملة الملك «لذريق» فمن بعد أن أصبح عثمان بن أبى نسعه صهراً لدوق «اكيتانية» عقد مع أبيها معاهدة سلم ومهادنة أمن بها «دوق اكيتانية» غارات العرب ولو الى مدة من الزمن.

فلما ورد أمر الأمير عبد الرحمن الغافقى الى الأمير عثمان بن أبى نسعة بالزحف على بلاد حميه « دوق اكيتانية » وقع فى حيص بيص، وراجع الأمير قائلا له إنه لا يقدر أن يخفر جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله . وكان عبد الرحمن قد عرف بزواج عثمان مع ابنة « أود » وانه قد شغفه حبها فغضب من تلكؤ عثمان عن الزحف، وأفهمه أن ذلك العهد الذى كان عقده مع الافرنج بدون علمه لا يعده هو موثقاً له، وأن عليه أن يتحرك للجهاد بدون مراجعة. فلما قطع عثمان أمله من منع عبد الرحمن عن إعمال الغارة فى بلاد « أود » أرسل الى حميه يخبره بما وقع[٥] حتى يأخذ حذره ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان. فأرسل جيشاً الى الباب تحت قيادة ابن زيان، انتخبه من أصدق رجاله ، وأمره بأنه إن تمكن يقبض على

---

(١) Numérance

(٢) Minine

(٣) Lampégie

(٤) Egilone

(٥) كان العرب يطلقون لفظة الباب على بلدة واقعة فى أحد منافذ جبال «البرانه» أو «البرانس» والمؤرخ «كوندى» يظن انها مدينة « بوى سردا Puy Cerda وهذا الرأى موافق لرأى المسيو « شينييه » Chenier الذى يقول ان عثمان بن أبى نسعة كان أميراً فى « سردة » ويقول آخرون إنه كان فى الطرف الغربى من مقاطعة « روسيون » Rousillon فى المحل الذى يقال له « سردانة » وهو قرية صغيرة لا تبعد عن « بوى سرده » وكانت تابعة لاسبانية برغم كونها محاطة

عثمان بن أبى نسعة ويرسله اليه، وان أبى الطاعة يهدر دمه. فوصل ابن زيان بعسكره بغتة الى مقر عثمان، وهو ينوى القبض عليه، ففر هذا فى الجبال ومعه بعض أعوانه واستصحب أيضاً زوجته الأميرة «لمبيجيه» التى كان لا يفارقها ولا يرى الدنيا إلا بها، فسار الجيش فى اثره حتى أدركوه وأحاطوا به، فتفرق عنه أصحابه فى تلك الأوعار ولم يبق معه سوى زوجته الحسناء، فدافع عن نفسه وعنها دفاع الأسود حتى أردوه قتيلا، وفى جسمه ما لا يحصى من طعن وضرب، فاحتزوا رأسه وأتوا به وبالأميرة الحسناء الى الأمير عبد الرحمن . فلما رأى عبد الرحمن هذه الغادة هتف قائلا : والله ما كنت أظن أنه يوجد مثل هذا الصيد فى جبال البرانس. وقد وقعت هذه الواقعة سنة ٧٣٠ وفق ١١٣ ثم إن الأمير عبد الرحمن أرسل الأميرة الى دمشق هدية للخليفة ، وهكذا انتهت حياة الأميرة « لمبيجيه » ابنة دوق « اكيتانيا » فى حرم الخليفة الأموى فى الشام [1].

ولما وصل خبر مصرع عثمان الى دوق « اكيتانية » علم أن الحرب واقعة لا محالة وتأهب للدفاع الشديد، ولكن الجيش العربى اندلق من جبال « البيرانه » اندلاق السيول من الجبال، لا يقف فى وجهه شىء، فاكتسح الأرضين من « نافارا [2] » الى « بوردو [3] » وامتلأت أيدى المسلمين بالغنائم. ولما وصلوا الى « بوردو » حاول أهلها أن يدافعوا عنها فكسروهم وأخذوا البلدة عنوة ووضعوا السيف فيها ونهبوها .

بأرض فرنسة . وكان الى شمالى هذه القرية على جبل منفرد فى حذاء « البيرانه » حصن قديم فيظن بعضهم أن هذا الحصن هو الذى كان يقيم فيه أمير الباب من قبل العرب

(١) قال المسيو « دومارليس » صاحب الحواشى على تاريخ « كوندى » الاسبانيولى: إن هذه الواقعة هى السبب فى قول المسيو « شينيه » Chenier) بأن المسلمين يعتقدون أن أحد خلفائهم تزوج بأميرة إفرنسية . قال: وليس هذا القول خطأ لأن « أود » دوق « اكيتانية » أى ملك بلاد الغال فى عصره كان ينتسب الى « كلوفيس » أول ملوك فرنسة

(٢) Navarr هى مملكة فى شمال اسبانيا كان العرب يقولون لها « نافارا » وأحياناً « نبرا »

(٣) Bordeaux مدينة عظيمة فى غرب فرنسة على مسافة ٣٧٨ كيلو متراً الى الجنوب الغربى من باريس، وهى قاعدة مقاطعة « الجيروند » التى كان العرب يقولون لها « جيرندة » وكانوا يقولون لمدينة « بوردو » بورديل

وكان الأهالى الذين وقعوا فى اليد يفدون أنفسهم بالمال . وأما أمير «بوردو» فقد قتل فى المعركة .

وبعد أن انتهى عبد الرحمن من فتح بوردو تقدم الى الشمال فوجد دوق «اكيتانية» فى طريقه يحاول صده فى مضيق «دوردون [١]» غير أن حملات العرب لم يكن ليصدها شيء، فانهزم «أود» وفر بجيشه، وقطع أمله من ملكه، فتناسى جميع ما كان بينه وبين «شارل مارتيل» من الأحقاد والضغائن، وأرسل يستصرخه ، فلم يمكن «شارل مارتيل » أو « قارله » الا إجابة « أود » لا لأجل الانسانية فقط بل لأجل السياسة، اذ كان جميع مصير فرنسة والممالك المجاورة لها متوقفاً على نتيجة هذه الحرب فلو كان العرب تغلبوا ذلك اليوم على الافرنج لما كانوا وقفوا الا على ساحل البلطيق

فامتد الصريخ فى كل بلاد فرنسة وزحفت المقاتلة من كل صوب، وانضم الجميع تحت لواء « شارل مارتيل » وبقى العرب يتقدمون الى أن وصلوا الى قريب من مدينة « تور [٢] » وهناك علم عبد الرحمن الغافقى أن جيشاً عظيما زاحف لمصادمته ، وكان عبد الرحمن مع شدة بأسه وغرامه بالحرب عاقلا حازماً بصيراً بالعواقب ، ففكر ساعة فيما بين أيدى رجاله من الغنائم الثقيلة وعلم ما يعوقهم عن القتال من اهتمامهم بحفظها ، فهم باعطاء الأمر الى الجيش بترك جميع ما فى أيديهم من الغنائم والأسلاب، ولكنه خاف من إغضاب عسكره فيما لو حملهم على تجرع هذه الكأس المرة ، إذ قد تفتر همتهم وتلقس نفوسهم، فرجع عن عزمه هذا معتمداً على ما كمن فى نفوسهم من شجاعة وصبر ، ثم تقدم وحصر « تور » وأخذها عنوة بمشهد من جيش « شارل مارتيل» وخيم بساحتها. ولما دخل العرب المدينة أسرفوا فى القتل والنكاية . ثم تلاقى الجمعان بين «تور» و« پواتييه [٣] » وكان عبد الرحمن هو البادىء بالمناجزة فاستمرت

---

(١) Dordogne والمؤرخ « كوندى » الاسبانيولى يقول إن هذه الواقعة حصلت على وادى « الغارون » ولكن « دوماريليس » الذى حشى كتاب « كوندى » يقول إن أكثر المؤرخين الافرنسيين يجعلونها فى مضيق « دوردون » .

(٢) Tours من مدن فرنسة المشهورة واقعة على نهر « اللوار »

(٣) Poitiers مدينة على مسافة ٣٣٢ كيلو متراً إلى الجنوب الغربى من باريس

المعركة مدة طويلة، قبل أن يترجح النصر للافرنج. ولما رأى عبدالرحمن الخلل قد ابتدأ يظهر في صفوفه ألقى بنفسه في وسط المعمعة يصطليها بيده ، ودخل حتى بين صفوف الأعداء أنفسهم، يغامر مغامرة الجندي الذي هو من عرض الجند ، الى أن خر هناك صريعاً، فلما رأى العرب مصرع قائدهم الأكبر نزل بهم الرعب ونكصوا على أعقابهم وبنكوصهم خمدت جمرتهم وسقط في أيديهم، فأذرع الافرنج فيهم القتل وطرحوا منهم بالعراء ألوفاً وما زالوا يعملون في أقفيتهم السلاح الى «أربونة[1]»

فلما وصل خبر هذه الفاجعة الى الأندلس والى افريقية زلزل المسلمون زلزالا شديداً، وعم الحزن واشتد البث ولبس المسلمون أثواب الحداد ، فأسرع أمير افريقية بارسال عبد الملك بن قطن الفهري، خلفاً لعبد الرحمن الغافقي، وأنفذ معه جيشاً من خيل ورجل

(١) يقول المسيو « دوماريس » في حاشية كتاب « كوندى » : ان المؤرخين من الافرنج لم يتفقوا على تعيين يوم هذه الواقعة ولا على محل نشوبها. فبعضهم يقول إنها وقعت في ١٧ اكتوبر سنة ٧٣٢ وبعضهم مثل « كوندى » يقول انها وقعت سنة ٧٣٣ وأما العرب فانهم أوثق رواية عن يوم وقوعها، لأن هذه الحادثة المشؤومة على الأمة العربية ، التي كانت سبب توقف سير قوتها والتي سقط فيها رجل من أعاظم قواد العرب في التاريخ، كانت عندهم من أشد الوقائع نكاية بهم فحفظوا جيداً تاريخ وقوعها. فالعرب يقولون إنها وقعت سنة ١١٥ للهجرة . قلت: يريد « دوماريس » أن يقول إنها وقعت سنة ٧٣٣ ولكن الذي في نفح الطيب يخالف هذا إذ يقول إنها وقعت في رمضان سنة ١١٤ أي وفق سنة ٧٣٢

قال : بقي مكان الواقعة. فبعض المؤرخين من الافرنج مثل « فيللي » Velli يجعل وقوعها على خمس مراحل من « تور » والآخرون يقولون بل جرت بقرب « بواتييه » ومؤرخو العرب يذكرون انها نشبت على ضفاف نهر « أوفار » Ovvar وربما قصدوا بذلك نهر « ڤيين » Vienne الذي ينصب في اللوار . ويقول العرب إن سبب الهزيمة هو أنهم كانوا وضعوا الغنائم في الخيم وراءهم فانحرف فريق من الافرنج وهاجموا المخيم فخاف العرب على الغنائم التي فيه. وبينما المعركة في أشد معمعانها ترك جانب كبير من فرسانهم ساحة الحرب ورجعوا لحماية الغنائم وبرجوعهم هذا خفت كفتهم في ميدان القتال حيث كان منتصباً الميزان وكان أقل شيء يمكنه أن يرجح الكفة الواحدة على الكفة الأخرى . فعبد الرحمن كان حسب لقضية الغنائم هذه حساباً كبيراً وخاف أن تكون سبب بوار العرب ذلك اليوم فوقع فيما خاف منه

وبعث الى الخليفة بدمشق يعلمه بفاجعة بلاط الشهداء وقتل الأمير عبد الرحمن الغافقى وبأنه أنفذ عبد الملك الفهرى مكانه وجرد معه جيشاً، فوافق الخليفة على عمل عامله وشمر للأخذ بالثار وأمر بغزو بلاد فرنسة وأخذها بالسيوف من كل ناحية، فسار عبد الملك الفهرى وفى نيته أن يأخذ بذحل المسلمين ويجبر الكسر الذى وقع، ولكن هيهات فقد كان بلغ بالمسلمين اليأس مبلغه وذهب كل كلام القائد فى استنهاض هممهم سدى وسار منهم مع عبد الملك جيش الى فرنسة لكنهم ساروا بصدور غير منشرحة وآمال غير منفسحة . وكيف يقاتل جيش تعوزه القوة المعنوية. فانهزم جيش عبد الملك فى جبال « البيرانه »

وأخيراً أرسل الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج (السلولى) وكان اشتهر ببسالته وحسن تدبيره فى حرب البربر بافريقية فوصل إلى الأندلس ، وانتعشت به الآمال بما كان عليه من زكاء السيرة والعدل وسداد التصرف، فبدأ بعزل العمال الذين عسفوا الرعية وحبس الذين غلوا من أموال الدولة أو قاموا بجبايات غير شرعية ، وانتصر للضعفاء واقتص لهم من الأقوياء، وأمر الولاة بتجنيد فرق من الجند أرصدها لاستئصال قطاع الطرق، وأسس كثيرا من المدارس والمساجد، على نفقة الدولة، وخصص لها الخدمة الكثيرين. وكان لايميز فى المعاملة بين أصناف رعيته . وبالاجمال فقد كان عقبة هذا كامل العدالة تام الرجولية لايجد قائل فيه مطعناً . ثم نظر فى سيرة سلفه عبد الملك الفهرى فلم يجد عليه ما يؤاخذه به، فجعله أميرا على الخيالة، وأرسله الى الثغر. وكان فى نية عقبة أن يزحف الى فرنسة بجيش جرار [1] امتثالا لأمر الخليفة ، ولكن لما وصل الى « سرقسطة »

---

(١) وأما فى نفح الطيب فيقول ان عقبة بن الحجاج السلولى تولى من قبل عبيد الله بن الحبحاب فأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهداً مظفراً حتى بلغ سكنى المسلمين « أربونة » وصار رباطهم على نهر « ردونة » ثم وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهرى سنة احدى وعشرين فخلعه وقتله . ولكن المؤرخ كوندى الاسبانيولى لا يروى الحوادث على هذه الصورة بل يقول انه فى غياب الامير عقبة فى افريقية وقع الخلل فى إدارة الاندلس وصار كل أمير يعمل بما يعن له ووقت الفوضى ولم يكن غير عبد الملك الفهرى من يعرف أن يحفظ النظام فى جيشه وأن يسد الثغور . وفى ذلك الوقت انتهز الاشتوريون فرصة هذه الفوضى بين العرب وخرجوا من جبالهم وطردوا العرب الذين يلونهم

جاءه الخبر بأن البربر فى افريقية ثاروا عوداً على بدء، وأمره أمير افريقية بأن يتولى قيادة الجيش الثائر للتنكيل بهم وأن يعبر البحر الى طنجة ، وهكذا اضطر عقبة أن يعدل عن غزو فرنسة وأجاز الى طنجة واشتدت به عزائم العرب فى افريقية

وكانت هذه الواقعة سنة ٧٣٧ مسيحية وفق سنة ١٢٠ هجرية . وفى آخر هذه السنة توفى « بيلاى » بطل «استورية » الذى كان هو وحده بنفسه نواة المقاومة بما بقى من قوة الاسبانيول فى وجه العرب بعد أن استصفى هؤلاء جميع اسبانية واخنوا على ملك المسيحيين بها ، فانه بطائفة قليلة من رجاله لم يزل يفر فى جبال « اشتورية » من صخرة إلى صخرة إلى أن اعتصم بمغارة جعلها مركز قوته المنيعة ، ولم يبرح معتصما بذلك الغار يشن منه الغارات على الأطراف القريبة منه وهو بمنجاة من العرب ، حتى وسع رقعة إمارته وما زالت تتسع شيئاً فشيئاً إلى أن صارت إمارة مذكورة ثم مملكة ثم تغلبت هذه المملكة بعد عدة قرون على جميع إسبانية وأخرجت العرب من كل أوربة . وسنذكر فى الجزء التالى جميع مايتصل بنا علمه من خبر « بيلاي » هذا ، وكيفية نشوء إمارته ونمو أعقابه إلى أن استرجعوا جميع وطنهم بعد ثمانية قرون ولنعد الآن الى تاريخ « رينو » عن غزوات العرب فى فرنسة ، ولنمهد لكلامه بما يلى :

واقعـة بلاط الشهداء

قبل الدخول فى شرح هذه الواقعة وأسبابها وما قيل فيها أري أن اترجم للقاري

وقدموا صوب بلاد المسلمين فزحف عبد الملك اليهم بجيشه وهزمهم واضطرهم الى الرجوع من حيث أتوا . ثم بعد ثلاث سنوات كانت استمرت بها ثورة البربر الى أن دخلوا فى الطاعة عاد عقبة ابن الحجاج الى الاندلس فوجد الولاة فى أسوأ حال وليس هناك أمير كفؤ للامارة قائم بالواجب عليه غير عبد الملك الفهرى فكتب اليه عقبة أنه لما كان طرأ عليه مرض أصبح لا يقدر معه على الإمارة فقد كتب الى الخليفة بأن يوليه مكانه . وهكذا كان . ومات عقبة فى قرطبة وبكاه الجميع بدون استثناء نظراً لحسن سيرته

بطلى هذه المعركة عبد الرحمن الغافقى العربى و « شارل مرتيل » الافرنجى الذى يسميه العرب «قارلة» وأذكر خلاصة خبرهما، فيكون ذلك أعون على فهم الواقعة والحوادث التى أدت إليها ونشأت عنها ·

« فشارل مرتيل » هو ابن « ببين ديريستال [١] » مولده سنة ٦٨٩ كان اتهمه أبوه بقتل أخيه الذى كان من غير أمه فاعتقله فى كولونية [٢] وما زال إلى أن مات أبوه ببين سنة ٧١٤ فى الاعتقال فثار الأسترازيون أى أهالى القسم الشرقى من المملكة الميروفنجية الافرنجية بتلك الدولة وجعلوا شارل(أو كارل أو قارله)دوقاً عليهم وتغلبوا به على اهالى القسم الغربى من المملكة بعد وقائع متعددة سنة ٧١٦ وسنة ٧١٧ الى سنة ٧١٩ وعند ذلك اضطر الملك « شيلبريك » الثانى أن يتخذ شارل حاجباً فتسلم زمام الأمور واستبد بها وصار مع الملك«شيلبرك» الثانى والملك «تيتري» الرابع كما كان المنصور بن أبى عامر فى الأندلس مع الخليفة الأموى هشام أو كما كان عز الدولة ابن بويه أو ابن عمه عضد الدولة بن بويه مع الخليفة الطائع العباسى أو كما هو القيم العام الذى تجعله إحدى الدول الاستعمارية من قبلها فى هذا العصر بجانب أحد سلاطين الاسلام ممن ليس له من السلطنة الا الإسم .. هذا ومن ذلك الوقت أخذ شارل يمهد البلدان التى تليه ويدوخ الشعوب التى فى جواره فقهر السكسون والبافاريين وغيرهم من الألمان وكذلك كان « أود » دوق أكيتانية قد هاجمه فدحره .

ولكن لم يبلغ تلك الشهرة التى بلغها ولم يلقب بشارل مارتيل أى المطرقة الا بعد أن ظهر على العرب فى واقعة « پواتييه » أو بلاط الشهداء . جاء فى « المعلمة التاريخية الافرنسية لغريغوار وموريس فال [٣] » ما يلى : وكان العرب استولوا على اسبانية وسبتيمانية وتهددوا بلاد الغال والنصرانية كلها وهزموا « أود » دوق أكيتانية فاستصرخ هذا شارل فزحف شارل إلى العرب على رأس جيش الأسترازيين

(١) Pepin D'heristal

(٢) Cologne والالمان يقولون كولن

(٣) Dictionnaire Encyclopédique Par L. Gregoire et Maurice Vahl

والمقاتلة التى جاءته من وراء الرين ، فانتصر على الأمير عبد الرحمن انتصاراً عظيما بين «تور» «وبواتييه» سنة ٧٣٢ ويقال إنه بعد هذه الوقعة تلقب بمارتيل ، وهى لفظة معناها المطرقة. ثم إنه بسط الملك الافرنجى على البلاد التى يسقيها نهر الصاوون ونهر الرون، ودخل سبتيمانيا، وطرد العرب من نيم ومدن أخرى ، لكنه لم يقدر على أربونه التى تم فتحها فيما بعد على يد ابنه بيبن القصير. انتهى .

ومات شارل مارتيل سنة ٧٤١ ولم يسمح لأحد من الملوك الميروفانجيين بشىء من الملك ولا بلقب الملك، وترك سبعة أولاد ذكور، أشهرهم بيبن وكارلومان، فتقاسم هذان المملكة بينهما

أما عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فهو أمير الأندلس. كان مع السمح بن مالك الخولانى فى غزاة طلوزة بحسب رواية « رينو » ولما استشهد السمح رحمه الله فى تلك الغزاة تولى عبد الرحمن قيادة جيش العرب الغازى للافرنجة ، وقفل به الى الأندلس وآلت إليه الامارة فيما بعد . وقد ذكرنا فى حاشية متقدمة ترجمة الأمير عبد الرحمن المذكور نقلاً عن بغية الملتمس لابن عميرة . ولنذكر الآن شيئاً عن نسب هذا الرجل العظيم فنقول :

يقال له الغافقى نسبة الى غافق وهى قبيلة من الأزد وهو ابن الشاهد بن عك ابن عدنان بن عبد الله بن الأزد. وقيل بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث ابن عدنان واليهم ينسب الحصن المعروف بغافق فى الأندلس على مسافة مرحلتين من قرطبة . وجاء فى تاج العروس ان لهم خطة أيضاً بمصر . وذكر ياقوت فى معجم البلدان غافق ، فقال : إنها حصن بالأندلس من أعمال فحص البلوط منها أبو الحسن على بن محمد بن الحبيب بن الشماخ الغافقى كان من أهل النبل وتولى الأحكام ببلدة غافق مدة طويلة قدر ٦٥ سنة ومات سنة ٥٠٣ . وقال المقرى فى نفح الطيب : إن غافقا هو ابن عك بن عدنان بن أزان بن الأزد ، قال ابن غالب : من غافق أبو عبد الله بن أبى الخصال الكاتب. وأكثر جهات شقورة ينتسبون الى غافق . انتهى

قلت : ومن العلماء المعروفين المنسوبين الى غافق عبد العزيز بن على بن عيسى بن سعيد

ابن مختار الغافقى أبو الأصبغ المعروف بالشقورى المتوفى سنة ٥٣١ ترجمه ابن بشكوال في الصلة وابن الأبار في التكملة

ومنهم عبد الرحمن بن بشر بن الصارم الغافقى أبو سفيان وفد على سليمان بن عبد الملك ورجع الى الأندلس فاستشهد بها في قتال الروم، روى عنه بكير بن الاشج وعبد الرحمن بن شريح

ومنهم أبو بكر محمد بن أبي عامر بن حجاج الغافقى الاشبيلى وهو الذى جاور بالمدينة المنورة وقال :

لم يبق لى سؤل ولا مطلب   مذ صرت جاراً للحبيب الحبيب
لا أبتغى شيئا سوى قربه   وها أنا منه قريب قريب

جاء ذكره في نفح الطيب

ومنهم أبو عبدالله محمد بن فطيس الغافقى الألبيرى الزاهد : كان من أهل الحديث والضبط رحل إلى المشرق وسمع من شيوخ كثيرين وعاد إلى البيرة وطنه وتوفى بها في شوال سنة ٣١٩ عن تسعين سنة، ورد ذكره في النفح أيضا .

ومنهم محمد بن عيسى بن دينار الغافقى من أهل قرطبة كان فقيها زاهدا حج وحضر افتتاح أقريطش « أى جزيرة كريت » واستوطنها. قاله الرازى.

ومنهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقى : من أهل بلنسية أصله من جيان وسكن المرية ثم مالقة يكنى أبا يحيى ترجمه صاحب نفح الطيب، وقال: إنه كتب لبعض الامراء بشرق الأندلس وله كتاب سماه «المغرب فى أخبار محاسن أهل المغرب» جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية بعد أن رحل اليها من الأندلس سنة ستين وخمسمائة وتوفى بمصر سنة ٥٧٥ .

ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام الغافقى الاشبيلى الشهير بالمسيلى: رحل حاجا وقفل إلى بلده. ذكره صاحب النفح .

ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن خصيب بن احمد بن حزم الغافقى : أندلسي سكن دمشق وتولى بها الحسبة وسمع بمصر وبغداد وطرابلس ودمشق وغيرها

كان مالكي المذهب لكنه كان يميل إلى مذهب المعتزلة ، قال المقرى: ماسمعت بمالكى معتزلى غير هذا . توفى سنة ٤٠٤ ذكره ابن عساكر.

ومنهم أبو أمية ابراهيم بن منبه بن عمر بن احمد الغافقى من أهل المرية نزل مرسية وتولى القضاء والخطبة فيها وحدث بصحيح البخارى آخر الحجة سنة ٥٥٥ ذكره صاحب النفح . ومنهم غير هؤلاء من الأعلام

وأما عبد الرحمن الغافقى، أمير الأندلس،فقد ذكر المقرى فى النفح نقلا عن ابن سعيد أنه كان من التابعين تولى إمارة الأندلس فى حدود العشر ومائة وهو من أبطال الاسلام المعدودين . كل ماذكره المؤرخون من أخباره يدل على أنه كان من أفذاذ الرجال،جمع إلى الشجاعة والإقدام العدل فى الاحكام والسهر على مصالح الأنام وبعد النظر فى السياسة

قال المؤرخ « رينو » إنه كان مهتما بأخذ ثأرالمسلمين عن الغزوات التىأصيبوا فيها فى السنين الأخيرة قبل إمارته . وكان يفكر فى حملة شديدة على فرنسة يدوخ بهاهذه المملكة ثم يجتاز منها إلى ايطالية فألمانية فالقسطنطينية ويدخلها فى حكم الاسلام . ولما كانت الحماسة الدينية فى ذلك الوقت فى إبان غليانها،وكانت الأندلس وفرنسة الجنوبية بخصب أراضيهما واعتدال هوائهما أصبحتا مقصداً للعرب من جميع الجهات ، وكان يأتيها كل يوم رجالات أشداء من جزيرة العرب ومن جبال الأطلس، فقد كان الأمير عبد الرحمن الغافقى يمرن هؤلاء المجاهدين على استعمال السلاح ويثير فيهم نخوة القتال وكان مقامه بقرطبة ولكنه بقى مدة يطوف فى الأندلس وينظر فى مظالم العباد ويقتص من القوي للضعيف ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة ويتبدل بهم ولاة معروفين بالعدل والنزاهة . وكان يعامل المسلمين والمسيحيين على السواء تقريباً وعلى كل حال لم يكن يخرج فى معاملة المسيحين عن العهود المعقودة معهم

وفى تلك الأيام كان المسلمون يوالون الغارات من أربونة وقرقشونة على البلدان المجاورة لها، ولكن حصل حادث نفس من خناق المسيحيين بعض الشئ ، وذلك أن

القائد الذى كان فى سردانة من جبال البيرانيه كان بحسب رواية إزيدور الباجى ولذريق شمينيس أحد أحلاس الحرب الافريقيين الذين بالاتحاد مع العرب فتحوا الأندلس.وكان يسمى « مونوزه » وكان من ذوى البطش والشبا المرهوب وكان فى مبدأ أمره صارماً جداً فى معاملة المسيحيين وأحرق حياً أسقفاً اسمه « أنا مبادوس » فلما وقعت الحرب بين البربر والعرب مال بطبيعة الحال الى قومه البربر واتحد مع «أود» صاحب جنوبى فرنسة الذى لأجل أن يتمكن منه أزوجه ابنته المسماة «لمبيجيا» وكانت فتاة بارعة فى الجمال (١) بلغت شهرة عظيمة

وقد روى « كوندى » الاسبانيولى هذه الحادثة بشكل آخر نقلا عن مؤرخى العرب ، فجعل « مونوزه » هذا محرفا عن عثمان بن أبى نسعة (٢) الذى تولى إمارة الأندلس مرتين، وكان ينافس عبد الرحمن الغافقى على الامارة ويرى نفسه أولى بها . وروى « كوندى» أن ابن أبى نسعة هذا أصاب هذه الأميرة فى إحدى غزواته فسباها فى من سبا وهام بحبها نظراً لجمالها واتحد من أجلها مع « أود » أبيها، ثم لما حمله عبد الرحمن على شن الغارات فى بلاد إفرنجه اعتذر « مونوزه » أو ابن أبى نسعة بوجوب مراعاة الميثاق الذى بينه وبين « أود» فلم يقبل عبد الرحمن منه هذا العذر وأصر عليه بالتعبية والزحف، فأسرع ابن أبى نسعة بتحذير حميه «أود» ليكون على أهبة ضخمة فى وجه عبد الرحمن،فأرسل عبد الرحمن نخبة من جنوده إلى «البيرانه» وأمرهم بالقبض على ابن أبى نسعة حياً أوميتاً . فلما رأى هــذا نفسه لايقدر على الوقوف أمامهم فر ومعه زوجته الحسناء الى الجبال ، فتأثروه الى حيث ثقفوه ، وتغلبوا عليــه واحتزوا رأسه وأرسلوا بالرأس الى دمشق. وكذلك أرسلوا الى دمشق الأميرة «لمبيجيا » التى دخلت

---

(١) ذكر رينو أن بعض مؤرخى ذلك العصر اتهموا اود بأنه هو الذى دعا العرب إلى فرنسة. وهو وغيره يظنون أن هذه التهمة باطلة وان الذين كتبوا ذلك كانوا من أنصار شيلد براند أخى شارل مارتل وأنصار شارل وكلهم كانوا يريدون الوقيعة باود

(٢) عثمان بن أبى نسعة هــو عربى لخمى كما يظهر من كتب العرب . وهو الذى تزوج بابنــة « اود » أمير بلاد الغال بحسب رواية « كوندى » الاسبانيولى ومؤرخى العرب . فأما مايقوله « رينو » من أن صهر الأمير « اود » لم يكن عربيا وإنما كان بربريا اسمه «مونوزه» فلم يقل على أى شئ استند فى هذه الرواية ولاذكر شيئاً من تاريخ « مونوزه » هذا الذى سماه .

فى حرم الخليفة . روى هذه الحادثة أيضا ازيدور الباجى ولوذريق شيمينيس ، ثم رويا أن المسلمين الذين كانوا فى جنوبى فرنسة كانوا قبل واقعة « پواتييه » غزوا مدينة « أرل »

قال « رينو » :وقد أشار مؤرخو العرب الى هذا الحصار بدون تسمية هذه المدينة ولـكن بوصفهم اياها بأنها مبنية على ضفاف نهر كبير هو أكبر نهر فى تلك البلاد كانت تصعد به السفن من البحر . ويظن بعض مؤرخى الافرنج ان حملة العرب على مدينة آرل لم تـكن الا خدعة يقصدون بها صرف نظر الافرنج عن وجهة الحرب الحقيقية وهى الجهة الشمالية . فان عبد الرحمن بعد أن لبث نحواً من سنتين ، يتأهب للزحف ويكتّب الـكتائب ويعبى الجنود، توجه الى جبال البيرانيه . وكان جيشه جراراً يرجّ الارض ويهتز شوقاً الى القتال . والأرجح أن مروره من هناك وقع فى ربيع سـنة ٧٣٢ وقد جعل طريقه على أرغون ونابارة ودخل أرض فرنسة من أودية «بيغور(١)» و « بِيرْن (٢) » يستدل على ذلك من آثار التدمير التى وقعت فى تلك الديار فقد هدم العرب الـكنائس والأديار مثـل دير « سان سافين (٣)» بقرب « طارب (٤)» ودير «سان سيفر دورستان (٥)» فى « بيغور » وخرّب العرب « آير (٦)»و«بازاس(٧)» و«اوليرون(٨)» و « بيرن » وكذلك دير « سانت كروا (٩) » بقرب بوردو . ثم افتتحوا بوردو (١٠) عنوة . وأقبل اود دوق اكيتانيا بجموعه محاولا صدهم فى ممر

(١) Bigorre

(٢) Béarn

(٣) Saint - Savin

(٤) Tarbe

(٥) Saint - Sever - De - Rustan

(٦) Aire

(٧) Basas

(٨) Oleron

(٩) Sainte-Croix أى الصليب المقدس

(١٠) Bordeaux

دور دفاون [1] نهزم. وكان عدد قتلى المسيحيين من الكثرة بحيث أن المؤرخ ايزيدور الباجى [2] قال : ان الله تعالى وحده يقدر أن يحصيهم . فلما رأى أود أن لاطاقة له بالثبات أمام العرب استصرخ شارل مارتل الذى كان فى ذلك الوقت يدافع عن مملكته فاستجاش عصائبه القديمة من جهات الدانوب والالبا [3] والاوقيانوس. ثم ان العرب بعد أن ظفروا بأود أوغلوا حتى وصلوا الى بواتيه وأحرقوا دير «سانت إيميلين [4]» وكنيسة « سانت إيلير [5] » فى بواتيه

قال رينو : انه بلغت حماسة العرب فى تلك الغزوة أن بعض مؤرخيهم شبههم بريح صرصر ، تقتلع كل ماجاء أمامها ، أو بسيف ماض يقطع كل مايصادمه . وكان العرب قد وضعوا نصب أعينهم مدينة « تور » التى كان فيها دير « سان مارتين [6] » المشهور بنفائسه . وهناك تلقى العرب خبر قدوم شارل مارتيل بجيوش الافرنجة . فقلما ذكر التاريخ معركة لها مابعدها مثل هذه المعركة . فكان المسيحيون من جهة يذبون عن ديانتهم وأوضاعهم وأملاكهم وأنفسهم ، وكان المسلمون من جهة أخرى معتقدين أيضا أنهم انما يقاتلون فى سبيل الله ، خلا ما كان يهمهم من حفظ الغنائم التى فى أيديهم ، قال رينو : ان مؤرخا عربيا روى ان عبد الرحمن كان فى آخر الأمر فى خوف شديد من لهو جيشه بالغنائم الكثيرة التى كانوا يجرونها فى أثناء زحفهم ، وانه قد فكر فى حملهم على تركها فى أرضها لئلا تشغلهم عن القتال فتكون عليهم وبالا ، لكنه لم يشأ ــ وهوفى مأزق كذلك المأزق ــ أن يغيظهم ويخسر توجه قلوبهم . وبقى واثقا بشجاعتهم وبيمن نقيبته فى القتال . فكان لتردده هذا تلك النتيجة المشؤومة . وقد روى هذا المؤرخ العربى أن العرب هاجموا مدينة تور ،

---

(١) Dordogne

(٢) تقدم ذكر هذا المؤرخ

(٣) الدانوب معلوم . ونهر الالبا هو نهر شهير فى المانية

(٤) Saint-Émilien

(٥) Saint-Hilaire

(٦) Saint-Martin

بمرأى من شارل مارتل ، وأنهم انقضوا مثـل النمور الـكاسرة على أهلها فذبحوهم ذبح الشياه مما لاشك أنه قد أغضب الله تعـالى فعاقبهم بنكال قريب . أما مؤرخو المسيحيين فـكانت رواياتهم عن هذه المعركة قاصرة ولم يذكروا شيئاً عن أخذ العرب لمدينة تور . وقد بقى الجيشان يرابط كل منهما الآخر مدة ثمانية أيام ، وبعد مناوشات ليست بذات بال أجمع الجيشان على الوقعة الفاصلة . وبحسب هـذه الرواية العربية تـكون الوقعة قد حصلت بقرب تور . وهذا هو رأى لذريق شيمينيس الذى كان يروى عن مؤرخى العرب . وأما مؤرخو الافرنجة فأكثرهم يذهبون الى أنها وقعت فى احدى ضواحى « بواتييه » ويستدلون على ذلك من الآثار المحفوظة فى دير مواساك . ومن الممكن الجمع بين الروايتين . وذلك بأن يقال ان بداية المعركة حصلت بقرب تور وأنها انتهت بقرب بواتييه . وقد كان ذلك فى شهر اكتوبر سنة ٧٣٢ بحسب رواية بعضهم . وكان المسلمون هم الذين بدأوا القتال ، وكان الفرنج قادمين من حروب اتسق لهم فيها النصر ، فـكانت حماستهم تغلى مراجلها ويزيدها فيهم وجود شارل مارتل الذى كان كلما ظهرت ثلمة خف وسدّها بنفسه . وقد هاجم المسلمون بخفة حركاتهم على سروات الخيل مهاجمات شديدة، يحاولون بهاخرق صفوف الافرنج فـكانوا يجدون أمامهم صفوفا أشبه بالجدران فى ثباتها، فـكانت تتكسر عليها حملات العرب ، فاستمر القتال أول يوم طول النهار ولم يحجز بينهم سوى الظلام . وفى اليوم التالى تجدد القتال ورخصت النفوس فى سوق المنايا وحمل المسلمون حملات اليائسين، اذ لم يكونوا ينتظرون من الافرنج مثل هـذا الثبات ولـكنهم لم ينالوا منهم وطراً . وبينما كانوا يضاعفون حملاتهم اذ أغارت فرقة من الافرنج على معسكر المسلمين يظن ان قائدها كان اود دوق اكيتانية ، فلما رأى المسلمون غارة جانب من الافرنج على مخيمهم اشفقوا على الغنائم التى كانوا حازوها فتركوا المصاف وانـكفأوا الى المخيم ليستخلصوه من أيدى الافرنج . وعند ذلك هرع عبد الرحمن يرد المنكفئين ويسوى الصفوف، فذهب اجتهاده عبثاً، وأصابه سهم من جهة العدو فخر صريعاً . وعند ذلك وقع الفشل فى صفوف المسلمين، لـكنهم تمـكنوا من تخليص مخيمهم من أيدى الأعداء وان كانوا فقدوا كثيراً من رجالهم . وأقبل الظلام فحال بين الفريقين . وكان مراد شارل

مارتل الكر على العرب عند الصباح ، الا أنه عندما أصبح الصباح لم يجد منهم أحداً . وذلك أنهم لما رأوا ماحل بهم سروا فى أحشاء الليل وانحازوا إلى الوراء قاصدين جبال البيرانه . وكان مسراهم من السرعة بحيث أنهم تركوا خيامهم منصوبة وغنائمهم مطروحة فى الأرض

ولما رأى شارل مارتل آن العدو أقلع بقضه وقضيضه وزع على عساكره ماوجده فى مخيم العرب من الغنائم المركومة ، ولكنه لم يتأثر العرب فى طريقهم وهم قافلون . وعللوا ذلك بأنه خشي أن يكون انكفاؤهم إلى الوراء استدراجا ومكيدة ، أو أنه قد أمن بعد هذه الوقعة على مملكته وأصبح لايخشى عليها شراً . فلذلك قطع نهر اللوار، راجعا إلى الشمال، مفتخراً بما احرزه من النصر الباهر . ومنذ ذلك اليوم لقبوه بمارتيل (أى المطرقة) سموه بها لمتانته ولما سد به بنفسه من الثلم التى كانت تقع فى جيشه

ولا يمكن قبول روايات بعض مؤرخى المسيحيين الذين أوصلوا عدد المسلمين الصرعى فى تلك المعركة إلى ثلاثمائة وستين ألفا، فان المسلمين ذلك اليوم لم يسقطوا كلهم صرعى،وما كان من الممكن جمع جيش مؤلف من خمسمائة ألف مقاتل فى تلك الأيام وقد كانت الحروب الداخلية المستأصلة للرجال لاتنقطع .ثم على فرض المحال وأنه كان ممكنا جشد فيالق جرارة كهذه فكيف كان يمكن ايجاد الميرة اللازمة لهذه الفيالق الجرارة فى البلاد التى تمر فيها وقد كانت خربت تقريبا من توالى الغارات والرزايا . نعم لاينكر أن هذا الجيش الذى قاده عبد الرحمن الغافقى ، تلك النوبة ، كان أعظم جيش وأحمس جيش قاده العرب الى وطننا الجميل ، وأنه كان قد هب للحرب كالريح المرسلة ، وأدل دليل على ذلك هو كون فرنسة بأجمعها جمعت ذلك اليوم جموعها وجاءت بالشوك والشجر لمقابلة ذلك الجيش العربى المغير ، وأن هذه المعركة لاتزال حتى اليوم شاغلة أعظم موقع فى أذهان جميع الاوربيين

وأما مؤرخو العرب فلم يكونوا يعلمون من تفاصيل تلك المعركة الفاصلة أكثر مما عرفه مؤرخو الافرنج . وغاية ماذكر العرب أن عدداً كبيراً من رجالهم استشهدوا فى بلاط الشهداء وهو الاسم الذى أطلقوه علي تلك الواقعة.ويقولون انه لايزال يسمع هناك دوى خفى هو ضجيج الملائكة الذين ينزلون من السماء للصلاة فى ذلك المكان

المقدس على الشهداء الذين لقوا فيه ربهم

قال المستشرق رينو : وبعد هذه الهزيمة انكفأ فل الجيش العربي الى البيرانه مدمراً كل مامر به ومن جملة ذلك دير سولينياك[(١)] . وقيل ان الافرنج عند ما انكفأ العرب أعملوا فى أقفيتهم السلاح الى أن بلغوا أربونة . ولا يظهر أن هذه الرواية متينة[(٢)] وقد كان تأثير هذه الهزيمة مختلفا جداً بين المسلمين والمسيحيين، فالمسيحيون استجدوا عزائمهم واستأنفوا صرائمهم، وهبوا فى جبال البيرانه للأخذ بالثأر ، واعتقدوا أن الله عاد معهم يؤيدهم على أعدائهم . والمسلمون استولى عليهم الوهل ونزل الوهن بعزائمهم وأخذ الأتقياء منهم يقولون ان ماحل بهم من الادبار بعد الاقبال انما كان جزاء وفاقا من الله تعالى على استرسالهم فى معاصيهم وامعانهم فى ركوب أهوائهم

وكان النائب فى الامارة الذى تركه عبد الرحمن الغافقى فى قرطبة قد طير الخبر بهزيمة المسلمين فى بلاط الشهداء الى القيروان والى دمشق. فارتمض الخليفة لهذا الخطب وأرسل أميراً على الأندلس اسمه عبد الملك[(٣)] وجهز معه جيشاً وأمره بالاخذ بثأر المسلمين وشفاء صدور المؤمنين واستنفاد الوسع فى هذا الأمر . فأقبل هذا الأمير على الأندلس، يحاول رتق الفتق ورفو الخرق ، واغذ بجيشه الى البيرانه ، وأخذ يخطب فى الغزاة والمرابطة ويشدد من عزائمهم ويجدل سواعد المسلمين ويحبك من مرائرهم ويبين فضائل الجهاد وعلو رتبة الاستشهاد ، إلا أن كل هذه الخطب فى المجاهدين لم تفعل فيهم الفعل الكفيل برأب ذلك الصدع . وكان نصارى شمالى اسبانية وجنوبى فرنسة قد رفعوا رؤسهم بعد هذه الوقعة ونبذوا الى المسلمين على سواء . وروى مؤرخ من مؤرخي العرب أن جيشاً من الفرنسيس قطع وقتئذ البيرانه واستولى على بانبلونه وجيرونه

أما الأمير عبد الملك فاعمل الحركة أولا الى كتالونيا واراغون ونافار[(٤)] ثم تقدم

---

(١) Solignac

(٢) بل الأظهر أنهم رجعوا من بلاط الشهداء والعدو خائف أن يطأ أذيالهم لشدة ما كان لهم من الرعب فى قلوب الافرنج

(٣) هو عبدالملك بن قطن الفهرى

(٤) كتالونيا هى بلاد الكتالان التى قاعدتها برشلونة . واراغون هى مملكة شمالى اسبانية الى الشرق. ونافار هى من البلاد المجاورة لأراغون والعرب يسمونها نابرا وأحياناً نبرونه

الى بلاد اللنغدوق[١] وحصن المدن التى كانت منها فى أيدى المسلمين ، ثم أبعد المغار فى بلاد العدو . وكانت بلاد « السبتمانيا » و « بروفانس » فى حالة الفوضى تقريباً . وكان كل ذى طمع فيها قد انفرد بامارة واستأثر بزعامة . وكان بعض من هؤلاء الزعماء ينضوون تحت جناح دوق أكيتانية والآخرون يتفيأون فى ظل شارل مارتل، وذلك مصانعة لكل منهما ، ولكنهم كانوا فى الحقيقة انما يريدون الاستقلال بامارتهم . وكثيراً ما كانوا يتحدون يداً واحدة مع المسلمين الذين كانوا فى أربونة ،وذلك ليتقوا بأس أولئك الملوك الكبار. ومن هؤلاء الأمراء « موروند» الذى كان يلقب بدوق مرسيلية والذى كان بيده أكثر مقاطعة بروفانس

وفى تلك المدة كان شارل مارتل مشغولا ببسط سلطته على برغونية وعلى مقاطعة ليون، حيث كان المسلمون قدشنوا الغارات واهرجوا البلاد وأمرجوها ، ثم انه زحف لقتال « الفريزون[٢] » فشغلوه أيضاً عن قتال المسلمين

وفى سنة ٧٣٤ اتفق يوسف أمير أربونة العربى مع موروند دوق مرسيلية وزحف المسلمون بجيش جرار ، وعبروا نهر الرون واستولوا على مدينة « آرل » ونهبوا أديار الرسل والعذراء[٣] وهدموا قبر سان « سيزير[٤] » ثم تقدموا إلى أواسط بلاد البروفانس، وحاصروا مدينة « فريتا » المعروفة اليوم « بسان ريمى[٥] » واستولوا عليها ، وساروا منها نحو « آفينيون » وعبثاً حاول مقاتلة «آفينون» صد المسلمين فى ممر « دورانس[٦] » فان المسلمين ذللوا كل العقبات. وكانت « آفينيون» فى ذلك الوقت عبارة عن الصخرة التى بنى عليها فيما بعد قصر الباباوات، وهو المكان الذى كان مؤلفو العرب يسمونه بصخرة أبنيون . وقد بقى المسلمون فى ذلك الوقت أربع سنوات

(١) Languedoc

(٢) Frisons شعب جرمانى كان ينزل بين بحر الشمال ونهر الرين الأدنى

(٣) Couvents des Saints- Apôtres et de la Vierge

(٤) St-Césaires وقد روى رينو هذا الخبر عن تاريخ « غاليا كريستيانيا »

(٥) Fretta, aujourd'hui St Remi

(٦) Durance

محتلين بلاد « بروفانس[1] » وكان « أود » دوق أكيتانيا قد توفى سنة ٧٣٥ فجاء شارل مارتل واستولى على بلاده وخضع له أولاد الدوق المذكور

وأما الأمير عبد الملك[2] فبعد أن أهب الله له ريح النصر فى هذه الغزوات بأرض فرنسة،عاد إلى جبال البيرانيه ، لتدويخ الأهالى الباقين على العصيان ، فصادفته أنواء وأمطار وهو فى جبال وأوعار فوقعت عليه هزيمة . وعندما بلغ الخليفة ماأصابه قلد إمارة الأندلس أميراً غيره اسمه عقبة [3] ولم يبق فى يد عبد الملك سوى إمارة القاطعات التى فى جوار البيرانه

وكان عقبة هـذا رجلا يتقد حمية على الاسلام ويرى فى الجهاد قرة عينه . ويقول مؤرخو العرب إنه اختار امارة الأندلس حبا بالجهاد والرباط . وكان اذا وقع فى يده أسير من المسيحيين لايهمل أن يعرض عليه الاسلام . وفى أيامه حصن المسلمون جميع المواقع التى أمكنهم تحصينها فى بلاد اللنغدوق ، حتى ضفاف نهر الرون ، وشحنوها بالمقاتلة.وفى ذلك الوقت أعادوا المغار كما بدا على بلاد «دوفينيه[4]» فخربوا بلدة «سان بول» المعروفةبالثلاثة القصور و «دونزير[5]» واحتلوا «فالانس[6]» وأصبحت جميع الـكنائس المجاورة لمدينة « فيين[7] » على ضفتى الرون قاعا صفصفا

---

(١) قد ذكر المستشرق رينو فى حاشية كتابه نصوص التواريخ التى تخبر عن هذه الواقعة وهى باللاتينية كما لايخفى لأنها كانت لغة الـكتابة فى ذلك العصر . فمن هذه النصوص ماتقله عن تاريخ دير «مواساك» «Moissac» ومجموعةمؤرخىفرنسة« Recueil des Historiens de France » وتاريخ بروفانس للمؤلف بابون « Papon » وذكر أيضا لتأييـد خـبر الوقائع التى جرت بين العـرب والافرنج على ممر « دورانس » كتابة لاتينية كانت فى كنيسة بقرب « بونبا» «Bonpas »

(٢) أى عبد الملك بن قطن الفهرى الذى سبق ذكره

(٣) هو عقبة بن الحجاج السلولى الذى تقدم ذكره أيضاً

(٤) « Dauphiné» مقاطعة فى شمالى « پروفانس » وغربى « سافوا » وشرقى «ليون» تقدم ذكرها

(٥) « Saint - Paul - Trois Chateaux et Donzere »

(٦) مدينة على نهر الرون « Valence»

(٧) « Vienne» مدينة على الرون أيضا

وكان المسلمون للاخذ بثأر جيشهم الذي قهره شارل مارتل في بلاط الشهداء قد احتلوا مدينة ليون من جديد، وبثوا الغارات منها على بلاد «بورغونية» فأخذ شارل مارتل يتأهب لقتالهم، وقد كان وافقه الحظ من جهة الشمال والشرق حيث سكنت الثورات التي كانت ثائرة عليه، فسرح أخاه « شيلد براند[١] » بجيش إلى ليون، وأرسل يستصرخ «لويتبراند[٢]» ملك «اللومبارديين» في ايطالية ليوافيه بجيش لقتال المسلمين الذين كانوا البا واحداً مع موروند دوق مرسيلية وقد تمكنوا من جبال «دوفينه» و «بيمونت[٣]» . فجاء شيلدبراند (أخو شارل مارتل) وحاصر المسلمين في آفينيون واستعمل في حصارها الآلات المعروفة لذلك العهد، وتبعه شارل مارتل نفسه بجيش جديد، وجاء لويت براند ملك اللومبارديين بجيش آخر من ايطالية، فاستولوا على أفينيون عنوة واستأصلوا من بها من المسلمين . وتقدم بعد ذلك شارل مارتل صوب أربونة وكان فيها أمير يقال له بحسب تلفظ المؤرخين القدماء أتيما[٤] وكانت مواصلات مسلمي الأندلس مع مسلمي سبتيمانيا أكثرها من طريق البحر نظراً لكون أهالي جبال البيرانيه المسيحيين حائلين بين الفريقين . فلما وصل الخبر الى عقبة بأن شارل مارتل قد ضيق الحصار على أربونة أرسل جيشا في البحر، لنجدة هذه البلدة، تحت قيادة رجل يقال له عامر[٥] فلما عرف شارل مارتل بمجيء هـذا الجيش الجديد جاءه بغتة قبل أن يتأهب للقتال فأخـذ المسلمون على غرة وكانت هزيمتهم تامة . وقتل أميرهم ولم ينج منهم الا فل قليل خلصوا الى مراكبهم وآخرون وصلوا الى « أربونة » . ولـكن برغم هـذا كله لم يتمكن شارل مارتل من أخذ « أربونة » وصعّـرت له خدّها . وفي تلك الأيام جاءه الخبر بأن الفريزون والسكسون أشعلوا الثورة من من جديد، فاضطر شارل أن يرحل عن « أربونة » ولـكنه قبل رحيله خرب القلاع

(١) Childebrand

(٢) Luitprand

(٣) Piemont هي اليوم اسم البلاد الواقعة في شمالي ايطالية

(٤) لعله الهيثم

(٥) روى ذلك ايزيدور الباجي

التى كانت فى « بيزيه [١] » و « أقد [٢] » ودمر أبواب مدينة « نيم [٣] » الشهيرة وقسما من الملهى الرومانى الذى كان فيها خوفا من أن يتحصن به العرب . وكذلك دمر مدينة « ماجلون [٤] » وأخذ المسلمين الذين فيها أسارى ومعهم أيضاً أناس من المسيحيين أبقاهم رهائن عنده

ولا يمكن أن يقال إن جميع أهالى جنوبى فرنسة كانوا يحبون شارل مارتل، ولو كان قد دفع عن النصرانية غارات المسلمين، لأن هؤلاء الأهالى كانوا ينظرون الى هذا الرجل وقومه كبرابرة من أهل الشمال بينما هم يرون أنفسهم أمة ذات مدنيّة قديمة من زمان الرومانيين . ولا نزاع فى أن المسلمين كانوا قد خربوا الكنائس والأديار وما يخصها من الأراضى، ولكن شارل مارتل عندما جاء ودفع عادية المسلمين عن تلك البلاد لم يرد تلك العقارات على الرهبان والأساقفة ، بل وزعها على رجال الحرب من أنصاره، فبقيت الكراسى الأسقفية خالية . ويقال إن « فيليكاريوس [٥] » مطران « فيين » بعد أن خرج المسلمون من البلاد لم يرجع الى أسقفيته ، لخلو الكرسى مما يقوم بأوده ، فذهب الى « فاله [٦] » حيث جعلوه رئيساً لدير « سين موريس [٧] » وكان الأحبار ورجال الدين يؤوّلون هذه المصائب بأنها عقاب صبّه الله تعالى على هام

---

(١) Béziers مدينة على القناة المسماة بقناة الجنوب، ذات آثار قديمة، سكانها خمسون ألفا

(٢) Agde مدينة على الضفة الشمالية من نهر هيرولد، كانت احدى المدن السبع التى نسبت اليها مقاطعة سبتيمانية التى معنى اسمها السبعية.

(٣) Nimes مدينة مشهورة فى جنوبى فرنسة ذات آثار رومانية عظيمة

(٤) Maguelon مدينة على البحر كانت ترفأ إليها سفن المسلمين الواردة من الأندلس وافريقية

(٥) Wilicarius

(٦) Valais

(٧) Saint-Maurice فى سويسرة. وسيأتى ذكر هذا الدير الذى أحرقه العرب

العباد تنبيهاً لهم للرجوع الى طريق الفضيلة (١) . ولم يخل الأحبار ورجال الدين من أناس تعلقوا بشارل مارتيل الذى تولى كبر دفع المسلمين عن أوربة ، وأشهر هؤلاء «هيماروس» مطران « أوكسير(٢)» الذى كان يحارب فى جيش شارل مارتيل بنفسه ويقاتل المسلمين فى البيرانه وهو فى ثوب الأسقفية

وكان موروند دوق مرسيلية قد فر هارباً من وجه شارل مارتل، وبقى متواريا الى أن غادر شارل مارتل جنوبى فرنسة عائداً الى الشمال . فلما ذهب شارل مارتل شمالاً ظهر موروند من مخبأه،وجدد علاقاته مع المسلمين،وقاموا بعمل واحد،فبلغ الخبر شارل مارتل.وفى سنة ٧٣٩ زحف الى الجنوب ومعه أخوه شيلدبرند واستولى على مرسيلية ومن ذلك الوقت أصبح المسلمون فى أربونة لايجرؤون على عبور نهر الرون

وليست عندنا معلومات يوثق بها عن كيفية معاملة المسلمين لأهالى مقاطعة بروفانس، ويجوز أن يكون اتفاقهم مع موروند قد جعلهم أقل ضغطا على بلاده مما كانوا فى غيرها . ولكن نزلت على بلاد بروفانس و « لانغدوق » مصيبة ثانية وهى غارات المسلمين البحرية التى كانت سواحل جنوبى فرنسة دائما عرضة لها

وكان المسلمون فى أول الأمر لايحبون ركوب البحر،ولكن بعد أن فتحوا سورية ومصر وافريقية اضطروا الى استعمال الأساطيل البحرية . وبعد وفاة الرسول بخمس عشرة سنة غزا معاوية أمير الشام جزيرة قبرص . وفى سنة ٦٦٩ غزا العرب جزيرة صقلية . ومن ذلك الوقت لم تبرح سواحل سلطنة القسطنطينية عرضة للغارات البحرية الاسلامية . وكانت طوائف الأساطيل الاسلامية ، فى بادئ الأمر ، جمعاً مؤتشباً من الأفاقين ومن النصارى الذين أسلموا ومن الشذّاذ من كل قوم ولكن المسلمين فيما بعد تعودوا ركوب البحر والغزو فيه طمعاً فى الغنائم.ومنهم من كان يغزو

---

(١) ذكر رينو شواهد بهذا المعنى من جملتها مكتوب من القديس «بونيفاس» رئيس أساقفة « مايانس » الى ملك « مرسية » فى انكلترة سنة ٧٤٥ وهى مملكة كانت فى أواسط انكلترة قاعدتها لنكوكن

(٢) Auxerre مدينة على ١٧٠ كيلومتراً الى الجنوب الشرقى من باريس

فى البحر جهاداً فى سبيل الله وابتغاء الأجر والثواب ، وصاروا يروون أحاديث عن الرسول معناها الحث على الجهاد فى البحر، حتى بلغت بهم الحماسة الى أن النساء صرن يغزون فى البحر، ومنهن أم حرام امرأة أحد الصحابة التى ماتت فى غزاة بحرية فى قبرص. وقيل انه لما ذهب الأسطول الاسلامى يغزو القسطنطينية ، كان أحد أولاد الخليفة عمر حاضراً، فسأل أمير البحر عن ذنوب الغزاة المجاهدين، فأجابه الأمير بأن آثامهم معلقة فى أعناقهم . فأجابه ابن عمر : والذى نفسي بيده لقد تركوا آثامهم على الشاطئ . وعزوا الى الرسول أنه قال : إن الجهاد فى البحر فيه عشرة أمثال أجر الجهاد فى البر

وكانت الغزوات الاسلامية البحرية ، صدر الاسلام ، موجهاً أكثرها الى مملكة الروم. ولما استولى العرب على مدينة قرطاجنة لم يفكروا فى أول الأمر أن يجاهدوا فيما وراء البحر ، ولذلك بنو مدينة القيروان على مسافة بعيدة عن الشاطىء . ولما غزا موسى بن نصير الأندلس لم يكن عنده إلا أربع سفن لاغير ، كانت تذهب وتجيء لنقل الجنود من افريقية الى جبل طارق (١) . وعند ذلك فهم موسى ضرورة بناء الأساطيل وأنشأ دور الصناعة فى كثير من مرافىء الأندلس . وكذلك كانت للعرب مرافىء كثيرة ممتدة من جبل طارق الى طرابلس الغرب . وسنة ٧٣٦ أنشأ العرب دار صنعة عظيمة فى تونس . وكان لهم فى الأندلس قائد للبحر اسمه أمير الماء (٢) ويظن أن لفظة أميرال محرفة عنها . وذكر مؤلفو العرب أن موسى غزا جزيرة سردانية سنة ٧١٢ وذكر مؤرخو المسيحيين غزاة للعرب فى جزيرة كورسكا (٣) وكانت جزائر سردانيا وكورسكا وصقلية تابعة لملك القسطنطينية . ففى البداية كان العرب يكتفون بانتقاصها من أطرافها ولكن أخذوا فيما بعد يتوغلون فى الداخل .

---

(١) روى ذلك ابن القوطية

(٢) نقل رينو هذا عن النويرى بحسب تأليف مخطوط فى خزانة الكتب الملوكية بفرنسة

(٣) ان أحد مؤرخى القرن الخامس عشر زعم أن المسلمين دخلوا جزيرة كورسكا فى زمان الرسول نفسه ولبثوا فيها الى زمان شارلمان ولكن هذه الرواية منقوضة

وكان أول نزول العرب، فى سواحل فرنسه، هو فى جزيرة « ليرين [١] » بقرب عين الطيب [٢] . وقد اختلف المؤرخون فى التاريخ الذى يقال إن العرب غزوا فيه هذه الجزيرة، فقالوا إن ذلك وقع سنة ٧٢٨ وقالوا بل سنة ٧٣٩ وكان فى هذه الجزيرة دير شهير تخرج منه آباء للكنيسة وأساقفة مشهورون. ويوم كبسه العرب كان فيه خمسمائة راهب آتين من فرنسة وإيطالية وسائر بلاد أوروبة . وكان رئيس هذا الدير القديس « پورسير [٣] » فلما قرب المسلمون من الدير جمع القديس الرهبان بأجمعهم وقال لهم إنه يجب عليهم أن ينتظروا الموت . وإنما أرسل الى البر الأحداث الذين كانوا يتعلمون فى الدير . فلما نزل المسلمون فى الجزيرة فتشوا عن غنائم يأخذونها فلم يجدوا شيئا ذا بال، فعرضوا على الرهبان الاسلام، فلم يقبل أحد أن يترك دينه فذبحوهم جميعاً .

ومات شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بيين القصير، واشتغل فى توطيد ملكه فى شمالى فرنسة وجنوبيها، بحيث كان يمكن العرب أن يغتنموا هذه الفرصة ويجددوا غاراتهم على جنوبى فرنسة ويبلغوا منها مرادهم. ولكن وقع الشقاق بين العرب أنفسهم فعاقهم عن كل عمل من هذا القبيل . فان العرب لم يكونوا فى هذه الغزوات وحدهم بل كان معهم البربر، وكان القبيلان فى نزاع دائم ، كما أنه كان العرب أنفسهم منقسمين الى يمانيين وهم أبناء قحطان ، والى عدنانيين وهم أبناء اسماعيل بن ابراهيم . وكانت الحروب دائمة بين هذين الشعبين، لشدة ماعند العرب من العصبية، فبعد أن وقعت فى بلاد العرب امتدت الى مصر والشام ثم الأندلس وفرنسة .

وفى ذلك الوقت أعفى العرب الأقوام الذين خضعوا لهم وساروا معهم من الجزية التى كانوا ضربوها عليهم، ومنهم البربر ، فاعتاد هؤلاء أن لا يؤدوا شيئا . إلا أنه فى سنة ٧٣٧ عاد أمير افريقية فتقاضى البربر الجزية فعصوا عليه . وكانوا أقواماً أشداء

---

(١) Lerins

(٢) Antibes بلدة على شاطئ البحر بقرب نيقية أونيس

(٣) Saint Porcaire

نشأوا على صهوات الخيول،فلم يقدر الأمير على تدويخهم، واضطر عقبة أمير الأندلس أن يجيز الى بر العدوة —أى الى افريقية— لادخال البربر فى الطاعة.وهكذ تمكن شارل مارتيل، فى غياب عقبة فى افريقية لادخال البربر فى الطاعة، أن يخضد شوكة العرب فى جنوبى فرنسة [1] . ثم اشتدت ثورة البربر فى افريقية وظهروا على العرب ولجأ فريق من العرب الى الأندلس. وكان العرب والبربر الذين فى الأندلس قد تقاسموا الأراضى فيما بينهم، سواء فى الأندلس أو فى جنوبى فرنسة، فخافوا من أن هذا الفريق الذى دخل الأندلس من العرب ينازعهم على الأراضي،وقصدوا أن يجلوهم عن البلاد . وكان الأمير عبد الملك أمير الأندلس عدواً لهؤلاء العرب الذين دخلوا الأندلس ، فقتلوه ونصبوا رأسه على جسر قرطبة . وكان فى أربونة أمير اسمه عبد الرحمن، من أنصار عبد الملك فزحف من أربونه بجيش يقال إنه بلغ مائة ألف مقاتل وكان يريد الأخذ بثأر عبد الملك، فوصل الى قرطبة واقتتل الفريقان ورمى عبد الرحمن قائد جيش العدو بسهم فقتله وقفل الى أربونة بعد أن أخذ بثأر صديقه [2]

ولم يكن فى وسع الخلفاء فى دمشق أن يعيدوا السكون الى نصابه فى بلاد بعيدة كبلاد الأندلس ؛ لاسيما ان الثورات كانت تتوالى فى الولايات الشرقية فتشغلهم عن المغرب . وهكذا تغيرت الحالة فى جنوبى فرنسة ، وخلا الجو للمسيحيين، برغم قصر باع ببين القصير وفتور همته. وكان المسلمون الذين فى أربونة قد إستولوا على مدينة نيم والمدن المجاورة لها ، ولكن الحاميات الاسلامية فى تلك المدن أخذت تخف شيئاً فشيئاً، فصار فى نيم وفى بيزييه وفى ماغلون إدارة أهلية مستقلة بعض الشيء ، وأصبح لكل من هذه البلدان أمير يدير أمورها لكنه معترف بسلطان المسلمين [3] . ومثل

---

(١) ظهر من هنا أنه لولا ثورة البربر على العرب ما كان أمكن شارل مارتل أن يضم جنوبى فرنسة الى مملكته ويخلص بروفانس ولانغدوق وسبتيمانيا من ايدى المسلمين

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن ابن القوطية . وقد جاء فى أخبار مجموعة

(٣) نقل رينو هذا الخبر عن تاريخ اللانغدوق تأليف « فيسيت » Vaissette وعن تاريخ نيم تأليف مينار Menard

هذا حصل فى شمالى إسبانية ، أى فى أشتورية ونابار وغيرها .

وفى سنة ٧٤٧ تولى قيادة الأندلس أمير اسمه يوسف (١) فأنفذ ابنه عبد الرحمن بجيش ، الى البيرانه ، لأجل تدويخ تلك البلاد ؛ ولكن المسيحيين قاوموه بالسلاح مقاومة شديدة . وكانت طرق الاتصال بين مسلمى أربونة وبين قرطبة ، تكاد تكون منقطعة ، بسبب جبال البيرانه ، ولذلك لم يطل الأمر حتى ابتدأ المسيحيون فى السبتمانيه ينتقضون على المسلمين . وكان يتنازع هـذه البلاد ، أى المدن السبع ، فيفر (٢) بن أود دوق أكيتانيا وبين بن شارل مارتل . وكان بين قد نال من البابا لقب ملك وهو اللقب الذى لم ينله أبوه برغم جميع ما بلغه من الشهرة والمكانة

وفى سنة ٧٥٢ سار بين بجيش الى اللانغدوق ، واستولى على نيم وأقت وماغلون وبيزيه (٣) . وبعد ذلك زحف لحصار أربونة وضيق عليها بجميع قوته . ولما وجد أن أمر حصارها يطول أبقى جانباً من عساكره حولها تحت قيادة أمير من أمراء القوط اسمه أنسماندوس (٤) إلا أن العرب قتلوا انسماندوس هذا ، فى كمين عملوه له ، وصادف ذلك حصول مجاعة فى جنوبى فرنسة عطلت حركات الجيوش

وكان بنو العباس فى الشرق قد تغلبوا على بنى أمية ، ونقلوا مركز الخلافة من دمشق الى بغداد واستأصلوا الأمويين ، وتعقبوهم فى كل مكان ، ففر منهم واحد الى افريقية ومنها أجاز الى مالقة فتلقاه عرب الأندلس كمنقذ لهم ، وكان اسم هذا الأمير عبد الرحمن (٥) وكانت هذه الواقعة سنة ٧٥٥ وقد قدّر أن يكون على يد هذا الرجل

---

(١) يوسف بن عبدالرحمن الفهري

(٢) Vaifre

(٣) أورد رينو على ذلك نصا من مجموعة مؤرخى فرنسة منسوباً الى مواساك الذى تقدم ذكره فى إحدى الحواشى.

(٤) Ansemundus

(٥) هو عبدالرحمن بن معاوية الملقب بالداخل. والافرنج يكتبون اسمه Ebn-Moavia وكان الافرنج الأقدمون من كثرة تحريفهم لأسماء العرب يسمونه Benemauguis وأظنهم قد خلطوا بينه وبين ابن مغيث الذى كان من أمراء دولته

وأعقابه أعظم مجد ممكن لمسلمي اسبانية · وفى أيامهم تأثلت المدنية العربية فى الأندلس تأثلا لاتزال له آثار باهرة هناك الى اليوم . والى يوم مجيء عبد الرحمن لم يكن لأمراء المسلمين فى الأندلس شغل الا بقتال بعضهم بعضاً فلم يؤثروا آثاراً خالدة

وقد لقى عبد الرحمن نفسه خطوباً وأهوالاً ، وبقى يسكن الثورات ويرتق الفتوق مدة طويلة . ولكنه تمكن أخيراً من توطيد سلطته وتمكين استقلاله ، واستوسق له أمر الأندلس بتمامها ، الا أنه لم يقدر أن يتجاوز الى غيرها ، فلذلك تحاشى أن يتلقب بلقب الخليفة واقتصر على لقب أمير . وبقى أعقابه الى القرن العاشر مكتفين بهذا اللقب ، وانما كانت عاصمتهم قرطبة مركزاً للعلوم والصنائع ومبعثاً لأشعة المعارف

وبعد أن رسخت قدم عبد الرحمن الأموى فى الأندلس ، فكر فى مدينة أربونة وما يليها من جنوبى فرنسة ، وسرح جيشاً تحت قيادة أمير اسمه سليمان ، زحف الى البيرانه أملا برفع الحصار عن أربونة ، ولكن المسيحيين كبسوهم فى تلك الأوعار ، فانهزموا هزيمة تامة

ولما كان جمهور أهالى أربونة من المسيحيين ، وقد ضرسهم حصار أربونة بنابه ولم يعد لهم طاقة بتحمل تلك الحالة ، داخلوا الملك بيبن سراً على أن ينتقضوا على المسلمين وينضموا الى جيشه ، بشرط أنهم يكونون فى المستقبل أحراراً فى بلدتهم ، وتكون ادارة أمورهم بحسب عرف القوط . وهكذا تم الاتفاق بينهم وبين بيبن . فبينما كانت الحامية الاسلامية غافلة عما يصنعون كبسوها على غفلة منها ، وذبحوها بأجمعها ، وفتحوا أبواب البلدة للفرنسيس · وكان ذلك سنة ٧٥٩ فانقرضت حكومة الاسلام من أربونه ، وأبقى الملك بيبن جيشاً وافراً لأجل حراسة البلاد [١].

اه ملخصا من كلام رينو

(١) نقل رينو عن هـذه الحادثة رواية الدون بوكيه Bouquet ذكر رينو فى الحاشية نقلا عن الدون بوكيه أن بعض مؤرخى الافرنجة يذهبون الى أن المسلمين لم ينقرضوا من جنوبى فرنسة تلك المرة بل بقيت منهم طوائف فى مقاطعة دوفينيه وفى مقاطعة نيس أو نيقية وفى جبال الألب وأن

غارات العرب على فرنسة

من بعد جلائهم عن أربونة

الى عهد استيلائهم على بروفانس سنة ٨٨٩ مسيحية

قال « رينو » : ان العهد الذى سنتكلم عنه الآن فى هذا القسم من تاريخنا مختلف عن العهد الذى تقدمه والذي سردنا وقائعه . فقد ظهر لنا مما تقدم من الوقائع أن العرب فى تغلغلهم فى فرنسة لم يكونوا مقتصرين على نية الاستيلاء على هذه المملكة فقط ، وإدخالها فى الاسلام ، بل كان هدف رميهم الاستيلاء على سائر أوروبة وإضافة هذه القارة التى كادت فى زمان الرومانيين تستولى على العالم ، الى سلطنة الاسلام كاحدى مقاطعاتها . ومما لا ينبغى أن ننساه أن قواد الجيش العربى الفاتح كان أكثرهم من الجزيرة العربية والشام والعراق ، فكان مركز ديانتهم ومبعث قوتهم فى الشرق ، ومن الشرق ، فكانت جميع أعراقهم تنزع بهم الى هناك . ولم يكن فى نظرهم عقبة كؤود بعد أن قاموا بتلك الفتوحات التى لا نظير لها ، وكانوا كلما كانت مملكة أوسع رقعة وأكثر رجالا وجدوها أصلح للغارة وأجدر بالفتح وبنيل المجد فى الدنيا والثواب فى الآخرة

أما العهد الذي سندخل فيه الآن فلا يماثل العهد السابق ؛ فان الأمير الذى بدأ يتولى الأندلس كان بقية عائلة مالكة قد ثل عرشها فى الشام وأبيد رجالها بالسيف، ففر شريداً وانسل وحيداً الى اسبانية ، وأصبح لا يرى فى افريقية وفى سائر أقسام السلطنة الاسلامية الا أعداء له ولأهله. ولم تكن الجزيرة الأندلسية بالقطر الذى يمكنه

هذه الطوائف بقيت متمكنة فى تلك الجهات طول مدة بيبن وولده شارلمان. وقد ورد فى بعض التواريخ المتعلقة بمقاطعة دوفينيه أن المسلمين احتلوا مدينة غرينوبل Grenoble وذهب مؤرخ دير ليرين المسمى فنسان بارال إلى أن المسلمين كانوا فى نيس وان شارلمان هو الذى طردهم منها . ومن هنا استدل بعض المؤرخين على أن المسلمين كانوا لا يزالون فى دوفينيه من زمان شارل مرتيل الى أوائل القرن العاشر حيث جددوا غاراتهم على بروفانس وتقدموا الى بلاد البيمونت وسويسرة .

وحده أن يستقل بحملات عظيمة كفيلة بالاستيلاء على الارض الكبيرة ، بل كان المسلمون فى ذلك القطر قد دبَّ فى جوانبهم الوهن بسبب الفتن الداخلية المستمرة التى كانت بينهم ، والتى كانت قد أبادت خضراءهم ، وبما تأصل فى طباع أهل الأندلس من غريزة حب الانتقاض على كل سلطة مما اهتبل به المسيحيون ، سكان المقاطعات الشمالية ، الغرة لأجل الكرة على العرب

وكانت فرنسة التى هى مرمى العرب فى هذه الغارات تتأيد يوماً فيوماً ويغلظ أمرها ، فانها فى عهد « بيبن » و « شرلمان » خضعت بأجمعها لسلطة واحدة ، وكان يمكنها لدى الحاجة أن تستعين بجيوش جرارة تأتيها من ألمانية وبلجيكا وإيطالية ، فارتفع اذاً كل خوف من وجودها بعد ذلك عرضة لاعتداء المعتدين ، ولم يعد مسلمو إسبانية هم المهاجمين لمسيحيي فرنسة ، بل أصبح مسيحيو فرنسة هم المهاجمين لمسلمي إسبانية [١] . وكان « بيبن » و « شرلمان » قد أخذا يراسلان أهالى « كتالونيا » و « اراغون » و « نابار » ليوحدوا حركتهم مع الافرنج ، كما أنهما كانا دائما يمدان أيدى التحريك الى أمراء العرب الثائرين على السلطان فى قرطبة ، وكثيراً ماهم . ثم لم يلبث شرلمان وأولاده أن وطئوا بالفعل أرض إسبانية وأدخلوا بعضها فى مملكتهم ، لأن الولايات التى تشرب من نهر الايبر [٢] بقيت مدة من الزمن تابعة لفرنسة ، ثم عندما أخذ المسيحيون سكان الشمال يكرون على العرب ويسترجعون بلاد آبائهم كان أهالى جنوبى فرنسة الذين أكثرهم والاسبان من أصل واحد يخفون لنجدتهم ويجيبون لصريخهم

ومما يدلك على بعد المدى الذى تصل اليه أهواء النفوس اذا استحكمت العداوة أن أمراء قرطبة كانوا فى نزاع دائم مع خلفاء بغداد ، وكان وكد كل من الفريقين النكاية

---

(١) قدظهر من هنا أنسقوط الدولة الأموية فىالمشرق وصدع الوحدة العربية بانسلاخالأندلس عن دولة الخلافة هما العاملان فى تأخر العرب فى قارة أوربة . ومما لانزاع فيه أن القوة المتحدة التى كانوراءها الأندلس وافريقية ومصر والشاموالعراق وجزيرة العرب وفارس وخراسان كانتأقوى على تجريد الجيوش وتسريب الأموال من القوة التى لمتكن تتجاوز جزيرة الأندلس وحدها

(٢) Ebre هو النهر الذى يمر بسرقسطة. والاسبانيول والعرب يقولون له ايبره

بالآخر ، أكثر منه فى الفتوحات فى بلاد المسيحيين أنفسهم . وبينما كان ملوك قرطبة يراسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا فى حرب مع مسلمى الشام وفارس ومصر كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيس الذين كانوا فى حرب مستمرة مع مسلمى الأندلس ، وكانت لذلك العهد العلاقات التجارية قد بدأت بين الشرق والغرب وسارت السفن تختلف بين « مرسيلية » و « فريجوس » ومرافئ سورية ومصر ، لأجل التجارة بالبهارات والطيوب والمنسوجات الحريرية ، وانضمت الى هذه العلاقات التجارية أسباب دينية كان يستهان لأجلها بجميع الأخطار ، وذلك أن المسيحيين فى الغرب كانوا فى أثناء الحروب بينهم وبين المسلمين لا يتأخرون ساعة عن أن يزوروا البقاع المقدسة فى فلسطين

وفى سنة ٧٣٣ ذهب حجاج من الغرب الى بيت المقدس والناصرة وكانوا يجولون آمنين فى فلسطين والشام وزاروا قصر الخليفة نفسه فى دمشق ولم يعترضهم أحد [١] ولا خافوا ولا حزنوا

وكان الخلفاء العباسيون يعاملون الدولة الافرنسية أحسن معاملة ، ويتبادلون وإياها التحف والألطاف وان كان قد وجد من عمالهم فى افريقية من يشن الغارات على سواحلنا فى الأحايين ، فما ذاك الا لتباعد المسافات بين أولئك العمال وبين مركز الخلافة العباسية

هذا ومنذ استرجع « بيبن » القصير « أربونة » وأجلى العرب عنها سكنت الأمور بين مسلمى الأندلس والفرنسيس . وكان « بيبن » يعد « البيرانه » هى التخم الطبيعى بين فرنسة وإسبانية . وكان عبد الرحمن مشغولا حينئذ بمحاربة الأمراء الخارجين عليه . ولم يكن « بيبن » يهمل شيئا من الوسائل لاثارة نيران الفتن بين المسلمين . وسنة ٧٥٩ أى بعد استرداد الفرنسيس لأربونة دخل أمير برشلونة المسمى

(١) نقل «رينو» هذا الخبر عن ترجمة حياة القديس «جيبو» Jubeau فى مجموعة البولنديين أى تاريخ القديسين Recueil des Ballandistes

سليمان [١] فى علاقات مع « بين » وتعاهد معه [٢] . ومؤرخو الفرنسيس يزعمون أنه انضوى تحت لواء « بين » ولكن الأصح أن يقال إنه ماقصد الا أن يستعين به على الاستقلال عن سلطانه · ومن بعد ذلك أصبحت هذه خطة أمراء المسلمين فى شمالى الأندلس ، فيوم يضغط عليهم السلطان فى قرطبة يلجأون الى فرنسة، ينشدون عندها التنفيس من حناقهم ، واذا ظهرت لهم مطامع الفرنسيس بحق بلادهم عادوا الى رئيسهم فى قرطبة واعتصموا به ، وكانت تساعدهم على الاستقلال طبيعة البلاد التى كانوا فيها فانها بلاد جبلية كثيرة الأوعار صعبة المرتقى يسهل على المقاتلة بها ، ولو كان عددها قليلا ، أن تشاغل الجيوش الجرارة . وكان العرب يسمون « قشتالة » القديمة و «البة» بلاد « البا » و « القلاع » [٣] وكانوا يسمون النابار بلاد البشكنس . وربما أطلقوا هذا الاسم على البلاد التى وراء البيرانه الى جهة فرنسة ، لأن أصل الأهالى واحد سواء فى السفح الجنوبى أو السفح الشمالى من البيرانه

وكان العرب يسمون البيرانه جبل البورتات وهذه اللفظة مشتقة من الكلمة

(١) هو سليمان الاعرابى الكلبى أمير برشلونة. وكانت بينه وبين شارلمان علاقات مذ كان أميراً بسرقسطة . انظر إلى مايقوله صاحب أخبار مجموعة : ثم ثار سليمان الاعرابى بسرقسطة وثار معه حسين بن يحيى الأنصارى ، من ولد سعد بن عبادة ، فبعث إليه الأمير (يعنى عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد فى جيش ، فنازل أهل المدينة وقاتلهم أياماً ، ثم ان الاعرابى طلب الفرصة من العسكر فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب وقالوا قد أمسك عن الحرب وأغلق أبواب المدينة ، أعد خيلاً ، ثم لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه فى المظلة فصار عنده أسيراً وانهزم بجيش . فبعث به الاعرابى إلى قارلة فلما صار عنده طمع قارلة فى مدينة سرقسطة من أجل ذلك فخرج حتى حل بها ، فقاتله أهلها ودفعوهم أشد الدفع فرجع إلى بلده . انتهى

قلت : إن العرب يسمون شارلمان قارلة كما كانوا يسمون جده شارل مارتل وسيأتى ذكر قصة الأمير سليمان هذا — الذى مالأ شارلمان على قومه — وكيف انتهى أمره

(٢) نقل «رينو» هذا الخبر عن مجموعة « الدون بوكيه »

(٣) يكثر فى تواريخ العرب ذكر غزوات الجيوش الاسلامية لبلاد ألبا والقلاع Le Pays D'alaba et des Chateaux ويقال أحياناً «ألفا» ولكن تلفظ الاسبانيول للفاء هو كلفظ العرب للباء

اللاتينية Portus وبالاسبانيولية Puerto ومعناها المر ، وذلك لأنه من هناك كان المر من الأندلس الى الارض الكبيرة . وكان يوجد فى البيرانه أربعة أبواب معروفة عند العرب : الأول طريق برشلونة الى أربونة على مدينة « بربينيان [١] » الحاضرة . والثانى طريق « بويسردا » على «سردانة [٢]» . والثالث الطريق الذى يؤدى من « بنبلونة » الى « سان جان بييه دوبور [٣] » والرابع طريق طولوزة الى بايـّون[٤]. وكانت طرق البيرانه فى القرون الوسطى أوعر مما هى الآن بلا نكير

وكما كان بين ملك فرنسة كثير التضريب بين أمراء المسلمين ، لايفتأ يغرى بعضهم بالايقاع ببعض ، كان الخليفة العباسى المنصور بعد أن بنى بغداد مجتهداً أيضا فى توحيد المملكة الاسلامية كما كانت لعهد بنى أمية ، ولذلك أرسل من سواحل أفريقية أسطولا فيه عساكر لمقاتلة عبد الرحمن الأموى الملقب بالداخل [٥] ووجد

---

(١) Perpignan قاعدة ولاية روسيون أوالبيرانه الشرقية

(٢) Cerdagna

(٣) Saint - Jean - Pied - de - Port

(٤) Tolosa a Bayonne وطولوزة هذه هى غير طلوزة الإفرنسية. والفرق بينهما أن طولوزة الاسبانية تكتب بحرف O فقط وان طلوزة الإفرنسية تكتب بحرفين OU

(٥) قال ابن خلدون : وفى سنة ست وأربعين ومائة سار العلاء بن مغيث اليحصبى من افريقية إلى الأندلس ، ونزل بباجة الأندلس ، داعياً لأبى جعفر المنصور ، واجتمع اليه خلق ، فسار عبد الرحمن اليه ولقيه بنواحى اشبيلية ، فقاتله أياماً ثم انهزم العلاء وقتل بسبعة آلاف من أصحابه . وبعث عبدالرحمن برؤس كثير منهم الى القيروان ومكة ، فألقيت فى أسواقهما سراً ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعلاء ، فارتاع المنصور لذلك ، وقال : ماهذا إلا شيطان والحمدلله الذى جعل بيننا وبينه البحر . أو كلاماً هذا معناه . انتهى

وجاء فى كتاب « أخبار مجموعة » الذى تقدم ذكره فى أخبار عبد الرحمن الداخل : ثار عليه العلاء بن مغيث اليحصبى ، ويقال حضرمى وسود (يعنى دعا لبنى العباس الذين كان شعارهم السواد) ودعا إلى طاعة أبى جعفر وكان قد بعث اليه بلواء أسود فى سن قناة ، قد أدخله فى اهليجة وطبع عليه ، فأخرجه العلاء فجعله فى رمحه وقام به فى جند مضر وساعده على غيه واسط بن مغيث الطائى وأمية بن قطن الفهري فأقبلت اليمانية حتى صاروا باشبيلية فاتهموا أمية بن قطن فأخذوه وكبلوه ، وخرج الأمير اليهم ، واجتمعت اليه الحشود ، وأقبل حتى نزل بقرية القوم بقلعة رعواق وأقبل

من أمراء المسلمين بالأندلس من مالأه على عبد الرحمن . ولما كان بيبن لايخشى عادية المنصور ، بمكانه من البعد عن فرنسة ، وكان يرجو نصرته لكون عدوهما واحداً أسرع الى الدخول فى العلاقات مع المنصور ، وأمّل منه الجذب بضبعه

وفى سنة ٧٦٥ أرسل رسلا الى بغداد لبثوا ثلاث سنوات حتى رجعوا الى فرنسة ومعهم رسل الخليفة، فنزلوا فى مرسيلية وصعدوا الى مقر بيبن فبالغ فى الاحتفاء بهم وقضوا ذلك الشتاء فى مدينة «متز» باللورين، ثم أمر باقامتهم فى قصر سلس Sels على ضفاف اللوار ثم أعيدوا الى الشرق، عن طريق مرسيلية ، ومعهم الهدايا الى الخليفة

هذا وقد اتبع شارلمان خطة أبيه « بيبن » فى هذا المعنى فما استوسق له الأمر حتى أخذ يداخل أمراء الأندلس ، من مسلمين ومسيحيين ، فكان يقول لهذا الفريق إنه انما يريد ليحررهم من طاعة أمير قرطبة ويساعدهم على استقلالهم ويخفض جناح الرحمة لهم، ولذلك الفريق أنه هو حامى النصرانية الطبيعى الناصر للنصرانية الحافظ للكنيسة الأصلية القامع للبدع الخ

وكان العرب عند ما فتحوا الأندلس أبقوا للمسيحيين حريتهم الدينية ، فكان

غياث بن علقمة اللخمى من شذونة ممداً لهم. فلما سمع بخبره الأمير بعث اليه بدراً مولاه فى قطيع من عسكره فقطع به فنزل فى الولجة التى بين وادى إبره والنهر الأعظم. ونازله بدر فتراسلا حتى انعقد بينهما صلح، ورجع غياث بن علقمة اللخمى إلى بلده ، ورجع بدر إلى الأمير ، فلما بلغ القوم الخبر قالوا ليس لنا الا مدينة قرمونة فعبوا على الخروج اليها ليلا. وجاء الخبر الى الأمير فبعث بدراً ، وقال له : ابتدر الى المدينة وارفع رأس قبتك على باب قرمونة واجمع اليك أهل الطاعة الى أن نوافيك غدوة . وركب الأمير من سحر طويل فأصبح على ظهر وتباطأ القوم فأصبح القوم فى الشعراء تحت قرمونة . فلما نظر الى القبة مضروبة على باب المدينة علم أنهم قد بدروا اليها ، فاجوا وتطلعت عليهم خيل العسكر، فانهزموا وقتلوا قتلا ذريعاً. وأصيب أمية بن قطن مكبلا فمن عليه الأمير وأطلقه وقطف من رؤوسهم سبعة آلاف رأس فميز رؤوس المعروفين ورأس العلاء ومثله، ثم كتب باسم كل واحد بطاقة ثم علقت من أذنه ، ثم أجزل العطية لمن انتدب لحمل تلك الرؤوس الى افريقية فجمعها فى أخرجة وركب فيها البحر حتى انتهى الى القيروان ، فطرحها ليلا فى السوق ، فلما أصبح الناس وجدوها ووجدوا كتاباً مكتوباً بالخبر فى الخرج ، فانتشر ذلك حتى بلغ أباجعفر . انتهى

يوجد أساقفة في قرطبة وطليطلة والمدن التي من الدرجة الأولى (١) وكان لهم قسيسون في كل مكان وجدوا فيه ، إلا أنه لا يظهر انه كان يوجد في المدن الثغرية التي كانت مترددة بين حكم المسلمين وحكم النصارى أساقفة ينظرون في شؤون المسيحيين الروحية وكان المسلمون في إحدى الحروب هدموا مدينة طرّكونة(٢) فلم يبق فيها مركز أسقفي فصارت أمور بلاد كتالونيا الروحية مربوطة برئيس أساقفة أربونة في فرنسة . وقد كان أيضا رئيس أساقفة أوش من مقاطعة جيرس Gers في فرنسة ينظر في شؤون مملكة أراغون الروحية . وكان شارلمان يفصل خصومات المسيحيين الاسبانيين فيما بينهم وكان يتوسط لهم عند البابا فيما اذا كانت لهم رغائب اليه أو قضايا عنده

وسنة ٧٧٧ ثار أميران من أمراء المسلمين في مقاطعات نهر إبره ، وخرجا من طاعة السلطان في قرطبة ، فاجتازا البيرانه قاصدين شارلمان في وستفاليا Westphalie(٣) حيث كان منعقداً مجلس حافل ، وكان أحد هذين الأميرين وهو المسمى سليمان ، أثناء وجوده أميراً على سرقسطة ، قد قاتل عساكر أمير قرطبة وأخذ قائدها أسيراً وجاء به وقدمه كهدية الى شارلمان ويزعم مؤرخونا أن هذا الأمير دخل في طاعة الامبراطور الافرنسي (٤) .

---

(١) جاء في نفح الطيب عند ترجمة الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الثالث ذكر وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة وعبيدالله بن قاسم مطران طليطلة . وجاء فيه عند ترجمة الناصر ذكر ربيع الأسقف الذي أرسله الخليفة الى ملك الصقالبة رسولا يرد بذلك زيارة رسول هذا الملك لبابه . ومن هذه الأسماء يعرف القارئ أن أهل الذمة في الأندلس كانوا قد استعربوا وتسموا بأسماء العرب وان كانوا بقوا على النصرانية . وكانوا في هذا أشبه بالمسيحيين من عرب الشرق

(٢) Tarragone مدينة في كتالونية على البحر المتوسط . قال ياقوت في معجم البلدان : بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر منها نهر علان يصب مشرقاً الى نهر ابرة وهو نهر طرطوشة . وهي بين طرطوشة وبرشلونة بينها وبين كل واحدة منهما سبعة عشر فرسخا . قال : وطرقونة موضع آخر بالأندلس من أعمال لبلة

(٣) وستفاليا هي اليوم من مقاطعات بروسية

(٤) استشهد « رينو » على ذلك بمجموعة الدون بوكيه وكذلك بتاريخ ابن القوطية . وأما مؤرخو العرب فلم يتفقوا على اسم هذا الأمير لأن بعضهم يسميه سليمان بن قحطان العربي والآخرين

وكان شارلمان مترصداً فرصة كهذه حتى ينقضّ على إسبانية ويملك ولو جانباً منها ، فأمر بالنفير العام وتوافت إليه المقاتلة من المانية وفرنسة ولمبارديه ، وزحف بهم قاصداً البيرانه . وكان ذلك سنة ٧٧٨ ولم يكن يشك فى كون الأهلين سيهرعون من كل ناحية اليه، يجتمعون تحت لوائه ، ولكن أخطأ حدسه هذا، لأن المسلمين عند ما جاء بنفسه قاوموه بالسيف وظهر انه لم يكن مقصد بعض أمرائهم من خطبة وده إلا الاستعانة به على استقلالهم . وأما المسيحيون فى الجبال فقد آلوا هم أنفسهم أيضاً أن لا يخضعوا لحكم الأجنبي اياً كان ، فما وصل شارلمان الى البيرانه حتى وجد نفسه محاطاً بالأعداء فضيق الحصار على بنبلونه (١) ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد . وكذلك قاومته مدينة سرقسطة . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه استولى عليها ذلك اليوم وانه أخذ أميرها أسيراً وأرسله مكبلا إلى فرنسا . وأما مؤرخو العرب فينكرون ذلك ويقولون انه فشل فى هجومه على سرقسطة فشلا تاماً. ولكن بعد ذلك جرى ان قتل أمير سرقسطة غيلة فالتجأ ابنه الى فرنسة (٢) . أما أمراء برشلونةوجيرونة ووشقة فقد أرسلوا رهائن من قبلهم الى شارلمان

وبينما شارلمان يحارب فى شمالى اسبانية إذ جاءه الصريخ بأن أمة الصكصون أبت بأن تترك ديانتها الوثنية وبأنها زحفت للقتال ، فاضطر شارلمان الى مغادرة إسبانية

يسمونه مطرف بن العربى . وقد تقدم أن هذا الأمير هو سليمان الاعرابى الـحبى. وأما أسيره الذى أرسله إلى شارلمان فهو ثعلبة بن عبد الذى أسره بحيلة كما تقدم

(١) من مملكة نابار وهى قلعة حصينة

(٢) جاء فى أخبار مجموعـــه : ان حسين بن يحيى الأنصارى رفيق سليمان الـكلبى، الذى ثار بسرقسطة على الأمير عبـد الرحمن الداخل ، كان قد عـدا على سليمان يوم جمعة فقتـله فى المسجد الجامع وصار الأمر لحسين وحده فنزل به الأمير عبد الرحمن. وكان عيسون بن سليمان الاعرابى قد هرب إلى أربونة فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة أقبل فنزل خلف النهر ، فنظر يوماً إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة وصار على جرف الوادى فاقحم عيسون فرساً له كان يسميه الناهد فقتله ، ثم رجع إلى أصحابه. فسمى ذلك الموضع إلى اليوم « مخاضة عيسون » ثم استدعاه الأمير حـتى صار فى عسكره وحارب سرقسطة معه

عائداً الى فرنسة ، و بينما هو فى طريق رجوعه وعند وصوله الى وادى « رونسفو » Roncevaux انقض عليه المسيحيون الجبليون ، وساعدهم فى ذلك المسلمون ، فأوقعوا بساقة جيشه واستأصلوها . وهلك ذلك اليوم كثير من أبطال الفرنسيس بينهم فيما يقال « رولان » Roland الفارس الشهير

و بالاختصار كانت الجهات الشمالية من اسبانية أشبه بالثغور لفرنسة كما كانت بلاداً ثغرية للعرب . وكان العرب يسمونها إفرنجة لكونها طالما ألحقت بمملكة أكيتانيا . وكان شارلمان قد جعل اكيتانيا لابنه لويس الذى جعل كرسى ملكه طلوزة أوطولوز

فبعد أن قفل شارلمان من إسبانية عادت فعصت عليه المدن التى كانت أطاعته قبلا ، وحنق المسلمون على المسيحيين وجعلوا ينتقمون منهم ، بحجة أنهم كانوا السبب فى مجيء الفرنسيس . فلجأ عدد من المسيحيين الى الجبال وكانوا يتحملون شظف العيش و يلبسون جلود السباع ولا يبالون بسكنى البرارى . ولكن المترفين من المسيحيين الذين لم يكونوا يستطيعون السكنى فى الأوعار ، التجأوا الى شارلمان ، ووزع هذا عليهم أراضى فى بسائط أربونة ، ولم يفرض عليهم من الضرائب شيئا إلا الخدمة العسكرية . وقيل انه كان بين هؤلاء المهاجرين أناس مسلمون ارتدوا الى النصرانيــة كما يظهر من أسمائهم (١) وقــد اشتهر أناس من هؤلاء المهاجرين ولا

(١) نقل «رينو» هذا الخبر عن « الدون بوكيه » ولم نعلم شيئاً من هذا القبيل أى من تنصر جماعة من المسلمين فى أوائل الفتح الاسلامى للاندلس سوى ما ذكره المؤرخون من العرب وهو أنه عند ما اشتدت الفتنة بين القيسية واليمانية اغتنم الفرصة أهالى شمالى إسبانية وأخرجوا المسلمين من بلادهم وبقى من هؤلاء بينهم بقايا تنصروا .

قال صاحب أخبار مجموعة : فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر علج يقال له بلاى قد ذكرناه فى أول كتابنا فخرج من الصخرة وغلب على كورة وستورس ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل استورقة زماناً طويلا حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة فلما كان فى سنة ١٣٣ هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها وتنصر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخروج وقتل من قتل الخ. ولا مانع من أن يكون فى الذين هاجروا من شمالى إسبانية إلى فرنسة أناس أصلهم من المسلمين

يزال من بقاياهم عائلات نبيلة ينتسبون إليهم مثل عائلة فلنوف Villeneuve

ثم إن عبد الرحمن الأول أمير قرطبة توفى سنة ٧٨٨ وقد وصفه المؤرخون الفرنسيون بالقسوة ، وقالوا انه كان سفاكاً للدماء جباراً عاتيا وأنه أوقع بكثير من رعيته العرب والبربر . وزعم الدون بوكيه أن النصارى واليهود قاسوا العذاب ألواناً فى أيامه ، وأنهم اضطروا الى بيع أولادهم ليتمكنوا من المعيشة . وأما نحن فنعتقد أن هذا الأمير الذي فتح بلاده فتحاً بقوة ساعده و بمجرد حسن تدبيره وكان فى جدال وجلاد دائمين لأجل توطيد سلطانه ، لم يكن ليستغنى احياناً عن الإتيان بمثلات من الشدة يرهب بها أعدآءه . والحقيقة انه كان فى نفسه حليما عاقلا محبا للعلوم والصنائع ، وأنه هو أول مؤسس للمدنيَّة العربية الزاهرة فى الأندلس . ولا يظهر أنه كانت له علاقات رأساً مع شارلمان ، وان كان المقرى يذكر ذلك و يقول انه أراد أن يخطب احدى بناته (١) والأرجح أنه لم يكن عبد الرحمن الأول هو الذى دخل فى علاقات

---

(١) جاء فى نفح الطيب(الجزء الأول صفحة ١٥٥)مايلى : وخاطب عبدالرحمن قارله ملك الإفرنج وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المكسر تام الرجولية فمال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة . اه

قلت : وأما كون عبد الرحمن فتح البلاد بنفسه ودوخها بصرامته ولم يستغن فى ذلك كما قال « رينو » عن إرهاف الحد ، فلننقل فى هذا الموضوع ماجاء فى النفح عن ابن حيان : ولما ألفى الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غفلا من حلية الملك عاطلا أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم بالسيرة الملوكية وأخذهم بالآداب فأكسبهم عما قليل المروءة وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية وجند الأجناد ورفع العماد وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس واستقل له الأمر فيها ، فلذلك ظل عدوه أبو جعفر المنصور بصدق حسه وبعد غوره وسعة إحاطته يسترجح عبد الرحمن كثيراً ويعد له بنفسه ويكثر ذكره ويقول : لاتعجبوا لامتداد أمره مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شؤونه وعدمه لأهله ونشبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته حتى

كهذه مع قارله ، بل عبد الرحمن الثانى الذى كانت له علاقات مع شارل الأصلع والذى كان عائشا فى عصر لم تكن فيه هذه المصاهرات وأمثالها مستنكرة اه

وقبل إكمال حديث « رينو » عن عبد الرحمن الأول وعبد الرحمن الثانى رأينا مناسباً أن نذكر خلاصة تاريخ عبدالرحمن الثانى نقلا عن نفح الطيب .

قال المقرى : غزا عبد الرحمن بن الحكم لأول ولايته إلى جليقية وأبعد وأطال المغيب وأثخن فى أمم النصرانية هنالك ، ورجع . وفى سنة ٢٠٨ أغزى حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد إلى البة والقلاع ، فخرب كثيراً من البلاد وانتسفها ، وفتح كثيراً من حصونهم وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين ، وانصرف ظافراً . وفى سنة ٢٤ بعث قريبه عبيدالله بن البلنسى فى العساكر ، لغزو ألبة والقلاع ، فسار ولقى العدو فهزمهم وأكثر القتل والسبى . ثم خرج لذريق ملك الجلالقة وأغار على مدينة سالم بالثغر ، فسار إليه فرتون بن موسى وقاتله فهزمه وأكثر القتل والسبى فى العدو . ثم سار إلى الحصن الذى بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه . ثم سار عبدالرحمن فى الجيوش إلى بلاد جليقية فدوخها وافتتح عدة حصون منها وجال فى أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبى والغنائم . وفى سنة ٢٦ بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة وانتهوا إلى أرض برطانية[١] وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل ططيلة[٢] ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوه . وكان لموسى

انقاد له عصيهم وذلله أبيهم فاستولى فيها على أريكته ملكا على قطيعته قاهراً لأعدائه حامياً لذماره مانعاً لحوزته خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه . انتهى

قلت : وكان المنصور يلقب عبدالرحمن الداخل بصقر قريش وسنذكر فى الجزء التالى كلاماً آخر للمنصور عنه فى هذا المعنى

(١) برطانية هنا لا يظهر أنها التى يقال لها بريطانية Bretagne من شمالى فرنسة إلى الغرب بل هى مقاطعة من كتالونية يقال لها اليوم امبردانية Ampurdania وكان أهل البلاد يقولون لها « امبروطانية » وهى لفظة مشتقة من « امبورياس » اسم مدينة فينيقية قديمة ثم يونانية عمرها أهل صور وصيدا فى أرض كتالونية

(٢) Tudela من مدن شمالى الأندلس

في هذه الغزاة مقام محمود. وفى سنة ٢٩ بعث ابنه محمداً بالعساكر، فتقدم إلى بنبلونة، فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى

إلى أن يقول : وفى سنة إحدى وثلاثين بعث العساكر إلى جليقية فدوخوها وحاصروا مدينة ليون[1] ورموها بالمجانيق وهرب أهلها عنها وتركوها ، فغنم المسلمون مافيها وأحرقوها ، وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً ، فثلموا فيه ثلمة ورجعوا . ثم أغزى عبدالرحمن حاجبه عبدالكريم فى العساكر إلى بلاد برشلونة فعاث فى نواحيها وأجاز الدروب التى تسمى « البرت » إلى بلاد الفرنجة، فدوخها قتلاً وأسراً وسبياً ، وحاصر مدينتها العظمى « جيروندة[2] » وعاث فى نواحيها وقفل . وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم « توفيلس[3] » بعث إلى الأمير عبدالرحمن سنة ٢٥ بهدية يطلب مواصلته ويرغبه فى ملك سلفه بالمشرق من أجل ماضيق به عليه المأمون والمعتصم ، حتى انه ذكرهما له فى كتابه إليه ، وعبر عنهما بابنى مراجل وماردة[4] فكافأه الأمير عبدالرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيى الغزال من كبار أهل الدولة وكان مشهوراً فى الشعر والحكمة، فأحكم بينهما الوصلة وارتفع لعبدالرحمن ذكر عند مناغيه من بنى العباس . ويعرف الأمير عبد الرحمن بالأوسط ،

(١) Leon يريد بهامدينة ليون الإسبانية فى شمالى إسبانية لامدينة ليون الإفرنسية التى يكتب اسمها هكذا : Lyon

(٢) Jironde يريد بمدينة جيروندة بوردو وكان العرب يقولون لها أيضاً بورديل وهى مدينة بلاد جيروندة الإفرنسية

(٣) هذا هو إمبراطور بيزانطية الذى قاتله المعتصم العباسى وفتح من بلاده عمورية. وورد ذكره فى قصيدة أبى تمام الطائى التى يذكر بها وقعة عمورية والتى مطلعها

السيف أصدق إنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

فانه يقول فيها :

لما رأى الحرب رأى العين توفلس   والحرب مشتقة معنى من الحرب   الخ

(٤) كانت أم الخليفة المأمون أم ولد اسمها مراجل ماتت فى نفاسها به. وكانت أم المعتصم اسمها ماردة وكانت أحظى النساء عند هارون الرشيد. ويظهر أن توفلوس إمبراطور الروم قصد أن يغرى بنى أمية أمراء الاندلس بغزو الشرق ليشغل بنى العباس عن قتاله ويوهن قوتهم

لأن الأول عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر . ثم توفى عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين بربيع الآخر لاحدى وثلاثين سنة من إمارته . ومولده بطليطلة فى شعبان سنة ست وسبعين ومائة

وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون. وكثرت الأموال عنده واتخذ القصور والمتنزهات وجلب اليها المياه من الجبال وجعل لفضلها مصنعاً اتخذه الناس شريعة وأقام الجسور .و بنيت فى أيامه الجوامع بكور الأندلس. وزاد فى جامع قرطبة رواقين . ومات قبل أن يستتمه ، فأتمه ابنه محمد بعده ، و بنى بالأندلس جوامع كثيرة و رتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة . قال: وكان كثير الميل للنساء ، وولع بجاريته « طروب » وكلف بها كلفاً شديداً وهى التى بنى عليها الباب ببدر المال حين تجنت عليه وأعطاها حلياً قيمته مائة ألف دينار اه

وجاء فى النفح كلام طويل عن محبة هذا الأمير لطروب ولغيرها من الجوارى ولم يقل إنه خطب ابنة شارل الأصلع ملك فرنسة .ولم أذكر ان « دوزى » الذى استقصى فى الكلام عن عبد الرحمن الثانى وسيرته الشخصية ذكر شيئا من هذا

ونعود الى سياق حديث « رينو » عن أمراء بنى أمية ومغازيهم فى افرنجة ، فهو يقول : ان عبد الرحمن الداخل كان استخلف ابنه هشاماًمن بعده وان هشاماًالأول حكمه وجد الفتن مشتعلة فى أكثر البلاد فأراد أن يشغل الأمة عن الفتن الداخلية ، بجهاد العدو الخارجى ، لأنه أجمع شيء للكلمة . وكان يريد أن يتلافى مانقص من المملكة بغارات بين وشارلمان الأخيرة ويخضد شوكة مسيحيي بلاد استوريش وشمالى الأندلس فأجمع على قتال المسيحيين فى كل مكان . وفى أيامه كثرت القالة بأن المسلمين لايقدرون الا على قتال بعضهم بعضاً ، وأفتى بعض الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج لأمراء لايعرفون أن يقاتلوا الا أمة محمد وحدها ، وكانوا يضربون الأمثال فى خدمة الإسلام بخلفاء بغداد الذين كانوا يواصلون غزو مملكة القسطنطينية

فبناء على هذا كله تحمس هشام وأعلن الجهاد ، وأمر الناس كافة بأن ينفروا قاصدين جبال البيرانه ، فمن لم يقدر على الجهاد بنفسه وجب أن يجاهد بماله . وقرىء

منشور الأمير فى الجوامع ، وفيه الآى القرآنية التى تحض على الجهاد [١]. فلما تلى هذا المنشور نفر الناس للجهاد من كل فج ، وانثالوا على الأمير من كل حدب ، ولكن برغم هذا كله لم يكن المجاهدون بالأعداد التى كانت تجتمع فى الغزوات الاولى لأول الفتح عند ما كان المجاهدون كحصى الدهناء ، ينفرون للجهاد فى سبيل الله من افريقية والشام وجزيرة العرب وغيرها. فان هذه البلدان كلها كانت فى أيام هشام موصدة الأبواب على من أراد الجهاد فى الاندلس ، فأصبح الغزو فى الاندلس منحصرا فى أهلها . ولذلك لم يجتمع فى هذا النفير سنة ٧٩٢ غير مائة ألف مقاتل ، انقسمت الى شطرين : زحف منها شطر الى قتال مسيحي أشتوريش ، فلم يظفروا بطائل يذكر ، وزحف الشطر الآخر تحت قيادة الوزير عبد الملك [٢] الى كتالونيا ، ومنها تأهب لاجتياح فرنسة .

وكان دخولهم الى فرنسة سنة ٧٩٣ وشارلمان يومئذ مشغول على ضفاف الدانوب ، بحرب الآفاريين ، ونخبة جنود مملكة اكيتانيا غائبة فى ايطالية بصحبة لويس بن شارلمان . فنهد المسلمون من فورهم الى أربونة ، ولما وجدوها محصنة بادروا بإحراق أرباضها ، وزحفوا الى قرقشونة [٣] وكان لويس ملك اكيتانيا قد عهد بالوكالة فى غيابه الى غليوم كونت طلوزة ، فاستنفر غليوم أمراء المملكة ورجالاتها ، وأقبل المسيحيون تحت السلاح من كل جانب ، وتلاقوا مع المسلمين على ضفاف نهر « اوربيو » [٤] فى المكان المسمى « فيلدانيا » [٥] بين قرقشونة وأربونة . وكانت المعركة من أحمى المعارك وطيسا ، وقاتل الكونت غليوم قتال الضواري ، ولكن

(١) نقل « رينو » صورة هذا المنشور وقال إنه وجد فى مجموعة مطبوعة فى القاهرة قال : وليس بأكيد أن يكون هو نفس المنشور الذى تلى باسم الأمير هشام ولكنه على كل حال لايختلف عنه فى المعنى

(٢) عبدالملك بن عبدالواحد بن مغيث

(٣) نقل « رينو » هذا عن تاريخ « موساك » فى مجموعة « الدون بوكيه »

(٤) Orbieux

(٥) Villedaigne

المسلمين ثبتوا كالاوتاد والفرنسيس انهزموا ذلك النهار وولوا الأكتاد وأصيبوا بخسائر فادحة . وغنم المسلمون غنائم فوق الاحصاء ، غير أنه لم يكمل سرورهم وقتل أحد كبار قوادهم ، فلم يتعقبوا المسيحيين في هزيمتهم ، واكتفوا بما أصابوه من السبي والغنم ، وقفلوا الى الأندلس ظافرين . وكان لهذه الطائلة، للمسلمين على المسيحيين، فرح عظيم عند المسلمين لأنه كان قد طال عهدهم بالظفر (١) وأصاب الأمير خمس الغنائم فبلغ خمسة وأربعين ألف مثقال من الذهب. فاذا حسبنا قيمة الذهب يومئذ بالنسبة إلى قيمته الحاضرة وجب أن نضرب هذا العدد بتسعة فيجتمع لنا سبعمائة ألف فرنك من معاملتنا الحاضرة (٢) فبنى هشام بهذا المال في جامع قرطبة الذي كان أبوه لم يتمه (٣) وكان عبد الرحمن الأول بدأ جامع قرطبة ، من غنائم الحرب ، فزاد ذلك في حرمة الجامع في نظر المسلمين . فلما باشر ابنه هشام بناء القسم الجديد من الجامع وجد المسلمين ملتزمين الصلاة في القسم القديم ، فسأل عن سبب ذلك ، فقيل له: إن هذا من أجل كون هذا القسم بني من غنائم الجهاد . فأجابهم هشام بأن القسم الجديد أيضاً بني من غنائم الجهاد . واستدعى القاضي ونفراً من كبار القوم فأيّدوا كلامه (٤) . وقال بعضهم: ان أسس هذا الشطر الجديد من الجامع وضعت على تراب مجلوب من جليقية ومن جنوبي فرنسة ، أي من مسافة مائتي مرحلة ، حمله أسرى المسيحيين على ظهورهم . وقد تقدم هذا الخبر في الكلام على مدينة أربونة

ولم يثبت أن المسلمين تمكنوا من أربونة في تلك الغزاة ، ولو كانوا فتحوها لكان

---

(١) نقل « رينو » ذلك عن مجموعة مؤرخي فرنسة وعن النويري

(٢) يعني بالمعاملة التي كانت سنة ١٨٣٦ أي منذ قرن تقريباً

(٣) ورد في نفح الطيب أن من محاسن الأمير هشام إكمال بناء الجامع بقرطبة وكان أبوه شرع فيه. وأما الغزاة التي ذكرها « رينو » فهي التي يقول عنها في النفح ان هشاما بعث وزيره عبدالملك ابن عبد الواحد بن مغيث في العساكر سنة ١٧٧ إلى أربونة وجيروندة فأثخن فيها ووطىء أرض برطانية وتوغل عبدالملك في بلاد الكفار وهزمهم.

(٤) استشهد « رينو » هنا بتاريخ للعرب في إسبانية ملحق بجغرافية أبي الفدا التي طبعها «رينك» في « لايبسيك »

مؤرخو المسيحيين أشاروا إلى ذلك الحادث . واشتهر فى تلك الحرب غايوم كونت طلوزة ، من أمراء البلاد ومن أفرس فوارسها وأشدهم تحمسا بالدين المسيحى ، لأنه بعد أن قضى حياته فى الحروب ، وكان من جملة غزاة الفرنسيس الذين فتحوا برشلونة ، أنهى حياته فى دير جلون(Gellone) الذى بناه هو بنفسه فى لوديف(Lodéve)ومات بذلك الدير منقطعاً للعبادة ، وصار معدوداً فى مصافّ القديسين. ترجمه أحد معاصريه فقال:انهم فى القرن العاشر كانوا فى الكنائس يرتلون دائما الأناشيد بذكر أعماله المجيدة ومواقفه فى جهاد المسلمين . ولما أخذ شعراء الفرنسيس ينظمون القصائد على شارلمان ومشاهير رجاله و يترنمون بذكر وقائع ، فيها ماهو صحيح وفيها ماهو خيالى ، كانوا يجعلون من ذلك قسطاً كبيراً لغليوم ذى الأنف القصير ، وكانوا يصورون مدينة نيم ومدينتى اورنج وآرل كأنها قد وقعت فى أيدى المسلمين ولم يتم استخلاصها إلا على يد ذلك البطل الذى لايغالب . . . وكذلك وجدت كتابة لاتينية بقيت محفوظة الى زمان الثورة الفرنسوية فى دير « مون ماجور » (Mont - major) تفيد ان شارلمان جاء بنفسه الى آرل لطرد المسلمين منها

ومن المعلوم أن الشعراء لم يكن همهم التدقيق فى المسائل التاريخية اذا أرادوا التغنى بأحاديث أبطالهم وهاموا فى أودية خيالهم . فأما الكتابة التى فى دير « مون ماجور » فهى غير صحيحة ، لأنها تتضمن أن شارلمان بنى ذلك الدير تمجيداً لواقعة طرد المسلمين من آرل ، والحال ان الدير قد بُنى بعد ذلك بمئة وخمسين سنة .

وكان هشام ملك قرطبة قد توفى سنة ٧٩٦ وخلفه ابنه الحكم ، فثار به عماه (١)

(١) جاء فى نفح الطيب : أنه تولى بعد هشام ابنه الحكم بعهد منه إليه ، فاستكثر من المماليك وارتبط الخيل واستفحل ملكه وباشر الأمور بنفسه. وفى خلال فتنة كانت بينه وبين عميه اغتنم العدو الكافر الفرصة فى بلاد المسلمين وقصد برشلونه فملكوها سنة خمس وثمانين ومائة وتأخرت عساكر المسلمين إلى مادونها . وقال أبو الفداء : ولما اشتغل الحكم بقتال عميه اغتنمت الفرنج الفرصة فقصدوا بلاد الاسلام وأخذوا مدينة برشلونة فى سنة ١٨٥

فاضطر أن يقضى أوائل أيامه فى قمع الثورة . وفى السنة التالية بينما كان شارلمان فى مدينة اكسلاشابل — Aix - la - Chapelle جاء مستنجداً به أمير برشلونة المسلم وعم الحكم أمير قرطبة (١) . وفى تلك السنة نفسها بينما كان لويس بن شارلمان ملك اكيتانيا عاقداً مجمعاً فى طلوزة ، جاءه رسول من الاذفونش ملك جليقية واشتورية ، يلتمس حشد جميع القوات المسيحية وتجريدها لقتال العدو العام . ثم وفد أيضاً على هذا المجمع رسول من قبل أمير مسلم فى ناحية وشقة (Huesca) يقال له « باهالوك » يريد أن يسالم المسيحيين (٢)

فظهر ان الغرّة كانت لائحة لأخذ الثأر من المسلمين وللدخول الى اسبانية ، وكان لويس ملك اكيتانيا وأخوه شارل (او كارل) قد شنّا الغارات فى أطراف القاطعات التى تشرب من نهر ابره . ثم عاد لويس فأجاز البيرانه من جهة آراغون . وحاصر وشقة التى كان أميرها قد أرسل بمفاتيحها إلى شارلمان ، ولكن لما جاء الفرنسيس لتسلم بلدته امتنع عليهم ولبس لهم جلد النمر . وفى ذلك الوقت كان عبد الله عم الحكم أمير قرطبة قد استولى على طليطلة ، وعمه الآخر سليمان استقر فى بلنسية ، فسرح جيشاً لقتال عمه عبد الله فى طليطلة ، وسار هو بنفسه مع جيش من الفرسان قاصداً البيرانه ، فأدخل فى الطاعة برشلونة وغيرها من المدن التى كانت اشرطت نفسها للعصيان . ومن هناك قصد الجبال وأوقع بالمسيحيين وسبى منهم كثيراً نساء ورجالا ، واتخذ الحكم من أسراه حرساً خاصاً وهو أول أمراء قرطبة الذين اتخذوا حرساً خاصاً من الأسرى والأجانب . وقد رجع الحكم من تلك الغزاة مظفراً منصوراً (٣) .

(١) نقل رينو هذا الخبر عن الدون بوكيه

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخى بلاد الغال ولم نعلم أصل الأمير المسلم الذى ذكره وهم يحرفون الأسماء العربية تحريفاً يبعد بها عن الأصل بعداً كبيراً بحيث تتنكر على الباحث تماماً

(٣) جاء فى نفح الطيب : وفى سنة اثنتين وتسعين ومائة جمع لذريق بن قارله ملك الفرنج جموعه وسار لحصار طرطوشة فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن فى العساكر فهزمه ففتح الله على المسلمين وعاد ظافراً . ولما كثر عيث الفرنج فى الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين فافتتح الثغور والحصون وخرب النواحى وأثخن فى القتل والسبى والنهب وعاد إلى قرطبة ظافراً . انتهى

قلت : لعل المقرى يعنى بلذريق بن قارله لويس بن شارلمان

كما ان عمه سليمان قتل فى إحدى المعارك التى دارت بينهما،وعمه عبد الله فر الى افريقية وعادت طليطلة الى الطاعة . ثم انالاذفونش صاحب جلّيقية اغار فى تلك الأيام على المسلمين فى إشبونة ، ووقع فى يديه بعض أسرى منهم ، فأرسلهم راكبين على البغال إلى شارلمان اعتزازاً بالنصر. ثم ان لويس ملك اكيتانيا الذى هو ابن شارلمان اكتسح نواحي وشقة (١) ولم يكن شيء من هذه الغارات ، سواء من هــذه الجهة أومن تلك الجهة ، ليؤدى الى نتيجة حاسمة يستفص منها أحد الفريقين ملكاً، بل كانت النتيجة الوحيدة هى خراب تلك النواحى . وكان أهم مالقيه الفرنسيس فى هذه الحرب هو أن أمراء المسلمين الذين كانوا أظهروا الطاعة لشارلمان ، عند ماجاءت جيوشه إلى بلادهم ، ابوا أن يقبلوها وأصلوها ناراً حامية . وكان المسلمون لايزالون أصحاب المدن الكبرى والمعاقل المنيعة مثل برشلونة وطرطوشة وسرقسطة ، وكانت برشلونة بنوع خاص بحصانة موقعها وبقربها من فرنسة ووجودها على سيف البحر ، من أشد البلاد نكاية بالفرنسيس . وكان الأمير الذى فيها والذى يسميه مؤرخونا « زاتون(٢)» قد أوهم شارلمان انه يريد الدخول فى طاعته ، ولكن عند ماحضر الفرنسيس أمام بلدته امتنع من قبولهم وقلب لهم ظهر المجن فأجمع لويس ملك اكيتانيا بالاتفاق مع غليوم كونت طلوزة ، وبرأى مجمع مؤلف من أمراء تلك البلاد أن يستولى على برشلونة فى أول فرصة . وكان شارلمان يومئذ فى رومة مشغولا بقضية تتويجه امبراطوراً على الغرب .

وكانت برشلونة كما قال الشاعر « ارلمو لدوس نيجاوس » قد أصبحت للمسلمين معقلاً متيناً ، وكانت تصدر عنها فرسان تلك الخيل المشهورة بخفة الحركات ، فتبث

---

(١) جاء فى معجم البلدان لياقوت : وشقة بليدة فى الأندلس ينسب اليها طائفة من أهل العلم منهم حديدة بن الغمر له رحلة وابراهيم بن عجيس بن اسباط بنأسعد بن عدى الزيادى الوشقى كان حافظاً للفقه واختصر المدونة له رحلة سمع فيها يونس بن عبد الأعلى ومات سنة ٢٧٥ وابنه أحمد سمع من أبيه وتوفى سنة ٣٢٢

(٢) Zaton وهو من جملة تحريف الإفرنج للاعلام العربية ولايدرى ماأصل هذا الاسم

الغارات فى بلاد النصارى وتعود أيديها ملأى بالغنائم . وكانت من المنعة بحيث ان الفرنسيس لبثوا سنتين يحصرونها ويضيقون عليها ، ويكتسحون نواحيها ، ولكنهم لم يقدروا على دخولها : وقد قسم الفرنج جيشهم الى ثلاثة أقسام : قسم منهم كان يهاجم برشلونة،وقسم ثان يقوده غليوم كونت طلوزة كان يرابط فى الممرّ الذى تفيض منه جيوش المسلمين الآتية من قرطبة لنجدة برشلونة ، وقسم ثالث كان يقوده الملك لويس نفسه ، وكان فى أعالى جبال البيرانه ، يحمل على المسلمين حيث وجد الفرصة ملائمة .

وكان الافرنج قد تقاسموا أعمال الحصار ، فمنهم من كان مشغولا بوضع السلالم ، ومنهم من كان يجلب الميرة والعدة ، ومنهم من كان موكولا اليه الحفر والنقب ، ومنهم من كان موكولا اليه غير ذلك . فاشتد الحصار شدة غير معهودة ، وجاءت جيوش المسلمين فلم تقدر على النفوذ الى برشلونة فتحولت الى بلاد اشتورية، وهزمت أهلها ، فبقى أمير برشلونة منفرداً بقوته ، وخرج فى إحدى المعارك لقتال الافرنج المحاصرين ، فأخذ أسيراً ثم حمل الافرنج على البلدة الحملة الأخيرة وفتحوها (١) .

وكان فتح الافرنج لبرشلونة سنة ٨٠١ مسيحية بعد أن بقيت تسعين سنة فى أيدى المسلمين . فلما دخلوها حولوا جوامعها كنائس ، وأرسل الملك لويس إلى أبيه شارلمان جانباً من الغنائم، فيها دروع وخوذ ، ومنها خيول مسرجة بأفخر السروج،وبعد ذلك أصبح لفرنسة منطقتان فى شمالى اسبانية احداها كتالونيا وقاعدتها برشلونة ، والثانية غشقونية ومن جملتها نابارة وأراغون

وفى تلك السنة جاء وفد من قبل هارون الرشيد الى شارلمان . وكان شارلمان قبل ذلك قد أرسل رسولا يهودياً اسمه اسحق مصحوباً باثنين من الفرنسيس لأجل السلام من قبله على الخليفة العباسى ، وقد أمر شارلمان هذا الوفد بأن يمر بالقدس قبل ذهابه الى بغداد ، وأن يتعهد أحوال زوار المسيحيين لبيت القدس ، ويتوسط لدى

(١) مؤرخو الاسلام ينسبون سقوط برشلونة إلى تأثير الفتنة التى أثارها سليمان وعبد الله عما الحكم وشغلته عن انجاد تلك المدينة كما تقدم لك من كلام المقرى فى النفح وكلام أبى الفداء

الخليفة فى تسهيل هذه الزيارة حتى يزداد عدد الزوار والتجار القاصدين إلى البقاع المقدسة . وكان الفرنسيس من عهد انيبال لم يروا فى بلادهم فيلا ، فكان من جملة مهمة هذا الوفد ان يأتوا من الشرق بفيل يبتهج برؤيته أهل فرنسة. فلما وصل الوفد الى بغداد استقبلهم الخليفة براً وترحيباً ووعد بتسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس وترفيه مقامهم عند مايردون اليه، ولم يكن فى دار الوحوش التى عند الخليفة عندئذ سوى فيل واحد فبعث به هارون الرشيد الى شارلمان ومعه هدايا أخر من منسوجات حريرية وقطنية لم يكن يوجد منها فى فرنسة ، ومن طيوب ومعطرات وأشياء اخر . وكان من جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر ، عظيم الحجم ، وساعة من نحاس أصفر أيضاً تتحرك بالماء وتدق اثنتى عشرة مرة بعدد ساعات النهار

ونزل الوفد فى قدمته من الشرق ، فى مدينة بيزة ، وحملت الهدايا بابتهاج عظيم إلى « اكس لاشابل » مركز الامبراطور شارلمان . ولما وصل الوفد قدموا للامبراطور تحايا الخليفة ، وأبلغوه ماقاله لهم من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك[١] وكان هذا الوفد قد صدر له الأمر من شارلمان بأن يتوجه الى قرطجنة ، فى افريقية ، ويلتمس من ابراهيم الأغلبى (عامل الخليفة) الاذن بنقل رفات القديس ثبريانس المدفون فى قرطجنة وغيره من القديسين المدفونين هناك ، فأذن لهم ابراهيم فيما طلبوه وبعث أيضاً رسولا وراءهم الى الامبراطور يتودد إليه . وقد كان لذلك فى هاتيك الأيام وقع عظيم ، نظراً لانقطاع العلاقات تقريباً بين الاقطار المتباعدة ، وكانت الناس تستدل به على عظمة شارلمان[٢] وأن الله أعطاه فى ذلك العصر صورة ترى كل ملك دونها يتذبذب. وفى تلك الأيام لم تسكن الحرب بين المسلمين والافرنج فى بلاد اراغون وكتلونية

(١) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة الدون بوكيه من رواية « اجينار » Eginard

(٢) ذكر رينو هذه الجملة نقلا عن الدون بوكه وقال : إن مؤرخى العرب لم يذكروا شيئاً من أخبار هذه العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان وانما ذكروا تبادل رسائل بين بين القصير والمنصور العباسى وبين الملك لويس الحليم Le Debonnaire وبين المأمون . وأما المسيو بوكفيل « Pouqueville » فقد ذهب إلى كون هذه الأخبار كلها غير صحيحة

وناباره ، وكانت سجالا بين الفريقين .

ولم يكن شارلمان ليقدر على النظر فى جميع شؤون مملكته الواسعة . فى سنة ٨٠٩ مسيحية مات الكنت اوريول « Aureole » قائد الجيوش الافرنسية فى اراغون ، فجاء أمير سرقسطة المسلم ، وكان يقال له عمروس ، واستولى على الأماكن التى كانت فى حوزة الكنت زاعماً انه عند ما يأتى شارلمان بنفسه يسلمها اليه ، ولكن لما جاءت العساكر الافرنسية أبى إنزالهم فيها ، فبقيت فى يد المسلمين . هكذا روى مؤرخو الفرنسيس . وقد روى بعض مؤرخى العرب أن عمروس هذا كان أميراً فى وشقة ، وكان أبوه مسلماً وأمه مسيحية . وكان مثل هذا الزواج كثير الوقوع فى اسبانية لذلك العهد ، لاسيما فى الأصقاع الشمالية ، وكان يقال لهؤلاء الذين هم من أب مسلم وأم مسيحية المولَّدون . وكان هذا الصنف من الناس لايرجعون الى مبدأ ، ولا يتقيدون بذمام ، وانما يتبعون مصالحهم الخاصة . وكانوا كثيرين فى مدينة طليطلة فثاروا على أمير قرطبة فرماهم برجل يقال له عمروس ، وكان داهية من الدواهى . فجاءهم عمروس وتظاهر لهم بالاخلاص لقضيتهم ، وأوهمهم انه فى نفسه ممالئ لهم ينتظر أول فرصة للانتقاض معهم على السلطان ، وأقنعهم بذلك بمكره وحيلته وصدقوا كلامه واتفق معهم على بناء قلعة فى أعلى البلدة تكون المعقل الأمين بزعمه لهم ، بحيث لاتنالهم جيوش السلطان بسوء . فلما أكمل بناء هذه القلعة دعاهم فيها الى وليمة ، فكان كلما دخل منهم واحد قطع الجند رأسه ، فقيل انه قطع رؤوس أربعمائة من أعيانهم ، وقيل انه بلغ عدد القتلى خمسة آلاف . وهكذا تمكن عمروس من إدخال طليطلة فى الطاعة . انتهى

وقد ذكر دوزى الهولندى فى « تاريخ الاسلام فى إسبانية » ان عمروس هذا كان من الاسبانيول الذين اتخذوا الاسلام ديناً . والحقيقة انه لم يكن يهمه لامذهب ولا مشرب ، وانما كانت تهمه مطامعه الدنيوية ، فكاشفه الأمير الحكم بما فى نفسه من أمر طليطلة التى كانت لاتنتهى من ثورة الا الى ثورة ، وكانت تأبى الخضوع

لوال عربي ، وقد أعيي الحكم أمرها، فدبر عمروس هذه المكيدة على أهالى طليطلة بالاتفاق مع الحكم، وكتب الحكم قبل ذلك اليهم قائلا لهم: إن أعظم دليل على اعتنائنا بشأنكم أننا مرسلون اليكم الآن والياً من أبناء جنسكم . وقد كان هذا القول صحيحاً لان عمروس كان اسبانيولياً ، مهتدياً للاسلام . وذهب عمروس فخدع أهالى طليطلة وتودّد اليهم وزعم انه كاشفهم سراً بما فى نفسه من الحميّة على جنسه ، والاستعداد لخلع طاعة السلطان عند ماتلوح أول بارقة أمل ، وقال لهم : إن أكثر أسباب النزاع بينكم وبين السلطان كانت من قبل الولاة الذين كانوا يتولون طليطلة ، فكانوا يضعون الجند فى بيوتكم فيسلبون راحتكم ، فلو بنينا فى طرف من المدينة حصناً نتخذه ثكنة للعساكر لانحسمت أسباب النزاع بينكم وبين السلطان . فوثق الأهالى بكلام عمروس ، وبنوا الحصن واستقرّ به عمروس . وبعد ذلك أكمل عمروس المكيدة بأنه تواطأ مع السلطان على أن يرسل جيشاً الى طليطلة بحجة أن العدو تحرك فى الثغر فأرسل الحكم جيشاً تحت قيادة ولده عبدالرحمن ـ وكان فى الرابعة عشرة من عمره ـ فلما وصل الجيش الى طليطلة أشاعوا أن العدو انقبض الى بلاده ، وأن الجيش سيعود أدراجه الى قرطبة . ولكن عمروس أشار على أعيان طليطلة بأن يأتوا للسلام على الأمير عبد الرحمن ، قياماً بواجب الحرمة للسلطان ، فجاء منهم جمهور وسلموا عليه ، واستقبلهم الأمير بالحفاوة والاكرام ، وهم دعوه أن يطيل الاقامة عندهم ، وتظاهر الأمير بادىء ذى بدء بانه مضطر لسرعة الأوبة ولكن أعيان البلدة ألحوا عليه بالتريث عندهم ، وأمّلوا فيه خيراً كثيراً ، وكانوا مسرورين بكون واليهم الجديد اسبانيوليا من جنسهم ، وبعد ذلك تقرر إعداد وليمة لأعيان طليطلة وجوارها ولكنها لم تكن مريئة المآكلة . وفى اليوم التالى جاء المدعوون أفواجاً أفواجاً ونزلوا عن ركائبهم وربطوها خارج الحصن ، وصاروا يدخلون زرافات ، وكان فى ساحة الحصن خندق وقف بجانبه جماعة من الجلادين، فكانوا كلما أقبل جماعة يقطعون رؤوسهم ويرمون بها فى الخندق . وتمّ كل هذا وأهل البلدة لايعلمون بشئ مما جرى داخل الحصن

وكان هناك طبيب من أهل طليطلة ، عظيم الفراسة ، لحظ عدم خروج أحد

من المدعوين . فسأل الأهالى هل رأيتم أحـداً من المدعوين الى الحصن خرج منه ؟ فأجابوه : يجوز أن يكونوا دخلوا من هـذا الباب وخرجوا من الباب الآخر . فقال لهم الطبيب : بل أظن أنهم لن يخرجوا أبداً وأنه أتى عليهم القتل. وقال ابن عذارى : ان عـدد القتلى يوم الخندق هذا بلغ سبعمائة . وقال النويرى وابن القوطية : انهم أكثر من خمسة آلاف ، ولـكن من بعد هذه الواقعة سكنت الثورة فى طليطلة مدة طويلة . انتهى كلام دوزى

فهذه كانت عقبى غرام أهل طليطلة بالانتقاض. وعمروس الاسبانيولى هذا الذى دبر هذه المـكايد هو الذى خدع أيضا قواد الفرنسيس وتسلم منهم المواقع التى كانوا فيها . ولا يبعد على رجل كهذا ، غدر ذلك الغدر بأهل وطنه ، أن يغدر بالفرنسيس

ولننظر الآن الى رواية المؤرخ كوندى الاسبانيولى ، قال: إن الحـكم لم يتمتع طويلا بالراحة التى كان وطد أطنابها بتعبه وجهاده ، ففى سنة ٨٠١ مسيحية وفق ١٨٥ هجرية تحرك ملك اشتورية وأراد التجاوز على المسلمين . ولـما كان يعـلم نفسه أضعف من أن يقدر عليهم استنجد بشارلمان ، وهذا أسرع لنجدته مؤملا بذلك الاستيلاء على ولايات إسبانية الشمالية وضمها الى مملـكته ، فجعلت أمداد شارلمـان تثوب الى الاسبانيول تحت قيادة ولده لويس ملك أكيتانية ، فزحف لويس واستولى على مدينة جيرونة ، وجاء فحاصر برشلونة ، وانضم اليه بهلول بن مخلوق من عمال أمير قرطبة ، وسار بالفرنسيس الى طرطوشة ، فزحف الحـكم بنفسه ومعه عمروس ومحمد بن مفرج قائد الخيالة الذى كان عظيم الاعتماد عليه نظراً لدهائه وإقدامه

ولـما وصل الى سرقسطة ثارت الثورة فى طليطلة بمـا أحرج الأهالى من عسف يوسف بن عمروس الذى كان قبض عليه الأهالى لسوء ملـكته فيهم، فاستدعى السلطان والده عمروس ، وعهد اليه نظراً لدربته ودهائه بولاية طليطلة ، وأرسل ولده يوسف قائداً على تطيلة

ثم أغار الحـكم على نابارة وبنبلونة ودخل وشقة ، فخشى الاذفونش على بلاده وحشد عساكره ، وزحف اليه يوسف بن عمروس فأوقعه الاذفونش فى كمين وأخذه

أسيراً ، فدفع عليه أبوه فدية جسيمة حتى أنقذه . وأما الحكم فكان يتوقد صدره احنة على بهلول عامله الذى انحاز الى الفرنسيس ومشى بين يديهم ، ولما عرف إنه فى جوار طركونة عمد اليه من فوره ، ولم يزل فى اثره حتى ثقفه فى طرطوشة بعد أن هزمه ، واحتزّ رأسه . ورجع الحكم الى قرطبة بدون أن يتعرض لبرشلونة وذلك خوفاً من الفشل فى حصارها

أما حصار الافرنج برشلونة فقد أجمع المؤرخون انه كان من أندر ماعرف التاريخ شدة وصبراً وان مسلمى لبرشلونة صبروا فى هذا الحصار الى الحد الذى تتحير فيه العقول. ولكن الخلاف وقع بين المؤرخين فى الأطوار التى دخلت فيها تلك الحرب . فبعضهم قالوا ، كما فى تاريخ متس وتاريخ ريجينون وغيرهما ، انه فى سنة ٧٩٧ قدم أمير برشلونة العربى على شارلمان ، وبعد ذلك فى سنة ٨٠١ أراد خلع طاعته ، فأخذ أسيراً ونفى . وهؤلاء المؤرخون يسمونه تارة « زاتون » Zaton وطوراً «زادو» وأحياناً « زاد » Zaddo, Zaad ولعل اسمه سعدون أو سعد . وفى تاريخ الملك لويس الحليم ورد أن سعدون هذا وقع أسيراً فى سربونة ، وانه بعد أسره تولى امارة برشلونة ابن عم له ، اسمه عامر ، فدافع عن البلدة دفاعاً يتقاصر عنه كل وصف مدة سنتين ، تحمل فى أثنائها مسلمو برشلونة من ضيق الحصار مايعجز أىّ قبيل عن تحمله

وذهب مؤرخون منهم مارمول « Marmol » الى ان الرواية الصحيحة هى أن سعدون أو سعداً كان تابعاً لملك قرطبة فانتقض على سلطانه فأرسل الى شارلمان يعده بالدخول فى طاعته ، وفى سنة ٧٩٧ و ٧٩٨ دخل فعلا فى طاعة شارلمان ولكن شارلمان بعد سنتين من هذا العهد شعر بأن أمير برشلونة نقض طاعته ، فسرح اليه جيشاً تحت قيادة ولده لويس فحاصر برشلونة واستفتحها ثم انصرف عنها ، فجاء أمير سرقسطة واستردها ، ولكن لويس عاد ثانية سنة ٨٠٦ فاستولى عليها وعلى أعمالها. فالروايات تختلف فى كيفية استيلاء الفرنسيس على برشلونة ، ولكن خلاصتها واحدة وهى أن العرب خسروا بلاد كتلونية مذ ذلك الوقت ، وأنه تولى عليها فى البداية أمراء تابعون لفرنسة ثم لم يبرحوا حتى استقلوا عنها وعن العرب معاً

وقد ذكر كوندى الاسبانيولى واقعة عمروس فى طليطلة ، وكيف غدر بأعيان تلك البلدة وكيف دعاهم الى وليمة فى القصر وقطع رؤوسهم غدراً . ولكن رواية كوندي تختلف عن رواية دوزي بكون دوزى يوهم ان تلك المكيدة وقعت بتواطؤ عمروس مع سيده الحكم ومع ابنه الأمير عبد الرحمن الذى كان فى الخامسة عشرة من عمره ، وبأن كوندى يقول ان صاحب ذلك الرأى انما كان عمروس ، وان الأمير عبد الرحمن مع صغر سنه أوضح له فظاعة ذلك العمل وما يبقى بعده على الأعقاب من قبيح الذكر ولكنه تغلب عليه لحداثة سنه، وراجعه الأمير كثيراً وأبدى وأعاد فلم يقنع عمروس الا بتنفيذ مابيّته لأهل طليطلة،قائلا للأمير : انطليطلة قدألفت العصيان من زمن طويل حتى صار لها خلقاً ملازماً وانه لابد لسكونها من قطف عدة مئات من رؤوس أعيانها . ثم ذكر كوندى زحف ملك اكيتانية وحصاره لطرطوشة سنة ٨٠٧ وان الأمير عبد الرحمن كان فى سرقسطة فزحف لانجاد طرطوشة ووافاه اليها والى بلنسية فطردوا الفرنسيس عنها. ثم يقول: ان عبد الرحمن عاد فاستولىسنة ٨١٢ على جيرونيةمن كتلونية ، وانه وصل بجيشه الى أربونةوعاد بغنائم وافرة . ثم ان الفرنسيس استولوا على طرطوشة بعد حصار شديد وسار ملكهم لويس منها قاصداً أخذ وشقة (١) فما كاد ينصرف عن طرطوشة حتى رجعت هذه البلدة الى حكم العرب .

وقد علق « دومارليس » على روايات كوندى عن هذه الحرب حاشية معناها ان مؤرخى الفرنسيس يزعمون ان ملك قرطبة بعث الى شارلمان وفداً بطلب الصلح ، وأنهم وصلوا الى « اكسلاشابل » وتقرر الصلح على أن ينزل العرب لشارلمان عن جميع البلاد الواقعة بين نهر ابره والبيرانه ، وان هذه المعاهدة انعقدت سنة ٨١٠

فدومارليس يستبعد وقوع هذه المعاهدة بكون العرب لم يذكروا عنها شيئاً فى تواريخهم ثم بكون لويس بن شارلمان زحف الى كتلونية عدة مراتمن بعد هذا التاريخ فيرى دومارليس انه يجوز أن تكون حصلت مهادنة بين الفريقين الى حد سنة ٨٢٠

---

(١) Huesca وابن حوقل فى المسالك والممالك يسميها وسكة

أو الى مابعد ذلك · وأما العرب الذين شوهدوا فى اكسلاشابل فربما كانوا من بعض أولئك الولاة المسلمين الذين كانوا ينتقضون على ملك قرطبة ويستعينون عليه بالأجانب من قبيل بهلول بن مخلوق الذى تلقى جزاء خيانته من يد الحكم نفسه

أساطيل الاسلام فى الأندلس وافريقية

قال رينو : وفى تلك الأيام أخذت قوة الاسلام البحرية تزداد وتنبسط فى البحر المتوسط بسبب رغبة المسلمين بانشاء الأساطيل فى مرافىء الأندلس وافريقية · وقد كان لذلك تأثير عظيم فى اجتياح المسلمين لجنوبى فرنسة . ولما اقتطع عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس عن خلافة بنى العباس وأرسل هؤلاء جيشاً فى البحر ، أجاز الى الأندلس لمطاردته ، علم عبد الرحمن بأنه لا بد له من قوة بحرية فى وجه قوتهم البحرية

فنى سنة ٧٩٣ اتخذ عبد الرحمن الأول دور الصناعة [١] فى مراسى طرّكونة وطرطوشة وقرطجنة واشبيلية والمرية وغيرها . وقبل ذلك كانت جزر الباليار ـ أى ميورقة ومينورقة ويابسة وجزيرتا سردانية وكورسيكة ـ عرضة لغزوات المسلمين ، بحيث ان أهالى هذه الجزائر وضعوا أنفسهم تحت حماية شارلمان . وورد فى مجموعة الدون بوكه ان هؤلاء كانوا تغلبوا على المسلمين فى بعض الوقائع وأخذوا منهم بضع رايات ، فأرسلوا بها اليه . وعلى أثر ذلك ازداد غزو المسلمين لهذه الجزائر ، فكانوا يغادونها القتال ويراوحونها ، ويسبون من أهلها النساء والأطفال ويقتلون المقاتلين

---

(١) سمى العرب المعامل التى كانت تبنى فيها المراكب البحرية بدور الصناعة وربما قالوا الصنعة ومشى كتابهم على هذا الاصطلاح، فترى مؤرخينا يقولون : كانت الصنعة فى صور أو أسس الأمير فلان دار الصنعة فى تونس أوكانت صنعة الأندلس بالمرية ومأأشبه ذلك . وأخذ الإفرنج جملة « دار صنعة » فلفظوها «دارسنا» بحسب صعوبة إخراجهم لحرف العين كمالايخفى، ثم قلبوها إلى «آرسنا» وأضافوا إليها حرف اللام المستعمل عندهم فى النسبة والمقامات الظرفية فصارت «آرسنال» ثم جاء الترك فحرفوا « دار صناعة » أو « دار صنعة » إلى « ترسانة » فقالوا عن دار الصناعة التى فى خليج استانبول « ترسانة عامره »

ولم يكونوا يعفون الا عن الشيوخ العاجزين والمرضى والمقعدين .

وسنة ٨٠٦ اكتسح المسلمون جزيرة كورسيكة[1] وكان بيبن بن شارلمان ملكاً على ايطالية ، فأرسل أسطولا لمطاردتهم ، فلما شعر المسلمون بدنو أسطول النصارى انسحبوا الى الوراء ، فطمع فيهم آدمر Admer كونت جنوة وتعقبهم بأسطول فرجعوا اليه وقتلوه وهزموا أسطوله وأسروا ستين راهباً وباعوهم فى الأندلس . وبلغ ذلك شارلمان ففكهم من الأسر بفدية أداها عنهم[2]

وسنة ٨٠٨ جاء قرصان من الأندلس ، فنزلوا بسردانية فاجتمع أهلها ودحروهم فنزلوا بكورسيكة (أو قرسقة) فصادمهم القائد بورشارد Burchard فخسروا ثلاثة عشر مركباً وانهزموا . ولكن المسلمين فى السنة التالية جاؤا من افريقية ونزلوا فى سردانية ، كما ان غزاة مسلمين آخرين جاءوا يوم عيد الفصح ونزلوا فى كورسيكة وعاثوا فيها . وجاء فى تاريخ كورسيكة لجاكوبى انالمسلمين خيّموا فى الجهة الشرقية من الجزيرة بين أطلال مدينة آليرية «Aleria» ولم يتمكن الفرنسيس من طردهم الا بشق الأنفس ، ثم فى سنة ٨١٣ رجعوا الى كورسيكة وأسروا وغنموا . وبينما هم راجعون أكمن لهم كونت امبورياس Amporias بقرب مدينة برينيان قوة بحرية غنمت منهم ثمانية مراكب كان فيها أكثر من خمسمائة أسير ، فانتقم المسلمون عن ذلك باجتياح سواحل نيقه Nice وبروفنس وسيفيتة فكشيا Civita - Vecchia

---

(١) أو قورسقة

(٢) وقرأت فى مدينة جنوة فى تاريخ جمهورية جنوة لمؤلفه فريدريشى دونافار أنه فى سنة ٩٣٤ جاءت قوة بحرية إسلامية من افريقية فحصرت جنوة حصاراً شديداً ، لكن الجنويين تمكنوا من دفعها عنهم ، فرجعت أدراجها وأصابها ضرر من زوبعة بحرية . ثم بعد سنتين من تلك الواقعة جاء أسطول إسلامى آخر وهاجم جنوة واشتد القتال فتغلب المسلمون ودخلوا البلدة وأصابوا مغانم كثيرة وأخذوا أسرى كثيرين ونقلوا . وكان أسطول جنوة فى كورسيكا فلما جاء ورأى ماحصل بجنوة سار فى أثر الأسطول الاسلامى فهزمه وفك الأسرى واسترجع الغنائم وصار الجنويون من ذلك الحين يحصنون بلدتهم

بقرب رومة (١)

ورأى الامبراطور شارلمان ان الخطر قد ازداد على بلاده ، وأن لا بد له من تدابير بالغة في الشدة لرد غارات المسلمين البحرية . وقد كانت امارة الأغالبة في افريقية تابعة للخلافة العباسية في بغداد ، فكان أمير القيروان مدة خلافة هارون الرشيد يتحامى سواحل مملكة شارلمان حرمة للعهد الذى كان بين هارون والامبراطور ، ولكن عند ما مات الرشيد سنة ٨٠٩ ووقعت الحرب بين ولديه الأمين والمأمون تفصى الأمير الأغلبي من ذلك العهد ، وصارت مراسي تونس وسوسة بؤرة قرصان تنبث منها الغارات البحرية . وقيل ان أمير صقلية كان يشكو إلى رسول قادم من عند الاغالبة عيث القرصان في سواحله، فأجابه الرسول : نعم منذ مات أمير المؤمنين صار الذين كانوا عبيداً يريدون أن يكونوا أحراراً والذين كانوا أحرارا ولكنهم فقراء يريدون أن يكونوا أحرارا أغنياء .

وكان القرصان أكثر مايتعرضون للسفن التى تتردد بالبضائع بين فرنسة وايطالية من جهة ، ومصر والشام واسيا الصغرى من أخرى . وكان قد انضم الى قرصان المسلمين قرصان النورمانديين وأخذوا جميعاً يعيثون في السواحل الجنوبية ، فأمر شارلمان ببناء الابراج والحصون في السواحل وعند مصاب الأنهار ، وأنشأ الأساطيل لدفع عوادى القرصان . وجميع هذه الروايات جاءت في مجموعة الدون بوكه

ولما طالت هذه المساجلات البحرية وتعب منها الفريقان داخل بعضهم بعضاً في

(١) الذى عرفته في رومة من روايات بعض أدباء الطليان والمطلعين منهم على التواريخ أنه يوجد على مسافة ٥٠ كيلومتراً من رومة قرية يقال لها « سراسينشكو » Sarracinesco أصل أهلها من المسلمين كان سلفهم غزاة وقعوا إلى تلك الأرض وأحاط بهم الأهالى فقتلوا جانباً واستسلم لهم الباقى وتنصروا وعمروا تلك القرية . ويقال إن سحنهم لا تزال تدل على أصلهم العربى وأن مآكلهم ومشاربهم وصنعة الغناء عندهم تدل على عروبتهم . وحتى هذا اليوم تراني أترقب الفرصة لمشاهدة تلك القرية والتنقيب عن صحة ماسمعته . وقيل لى انه يوجد في ولاية « غاليارى » Gagliari من سردانية قرى أصل سكانها من العرب وأنه يوجد آثار عربية في « لوشيرة » بقرب نابلى . ولا يخفى أن الامبراطور فريدريك الثانى امبراطور ألمانيا وملك صقلية الذى عاش في أوائل القرن الثالث عشر المسيحى كان عنده جيش من العرب هم عمدة قوته وكان متقناً للغة العربية

عقد معاهدة سلم تأمن بها السفن البحرية غوائل متلصصة البحر . فى سنة ٨١٠ انعقدت أول متاركة ، ثم تجددت بعد سنتين ، وجاء رسول من الأندلس يرجح انه يحيى بن حكم أمير الماء [١] فى الأندلس قاصداً اكسلاشابل وعقد مهادنة مع شارلمان لثلاث سنوات . ولكن المسلمين نقضوها هذه المرة لأنهم سنة ٨١٣ نزلوا فى جزيرة كورسيكة وتقدم عبد الرحمن ابن أمير قرطبة الى حدود فرنسة بجيشه . وفى تلك الواقعة قتل القديس آفانتين « Saint Aventin » من أهالى بانيير دولوشون Bagneres - De - Luchon فى مقاطعة غارون العليا

ومات شارلمان سنة ٨١٤ وخلفه ابنه لو يس الحليم ، وسار على أثره فى السياسة ولكن فى أيامه استفحلت غزوات المسلمين البحرية . وجرت لذلك العهد حادثة فى قرطبة تفاقم بسببها هذا الأمر، وذلك ان أهالى ربض قرطبة ثاروا على الحكم أميرهم فسار اليهم الحكم برجاله وحرسه وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ونفى بقية السيف ، وكانوا زهاء خمسة عشر ألفاً فاركبهم طبقاً عن طبق وأجازهم البحر إلى اسكندرية وهناك خاف عاديتهم والى الأسكندرية فأدى اليهم مبلغاً من المال واركبهم الى جزيرة اقريطش التى يقال لها اليوم كريت [٢]

(١) نقل رينو ذلك عن مجموعة مؤرخى فرنسة وعن تاريخ كوندى وحتى الآن لم أظفر بهذا الخبر فى كتب العرب

(٢) جاء فى نفح الطيب فى ترجمة الحكم : وكانت له الوقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة لأنه فى صدر ولايته كان قد انهمك فى لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه، وطالوت الفقيه وغيرهما، فثاروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة وكان محلهم متصلا بقصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدوة وبالاسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم ، ثم ثاروا بها فزحف اليهم عبدالله بن طلحة صاحب مصر للمأمون بن الرشيد وغلبهم وأجازهم إلى جزيرة اقريطش فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الافرنج من أيديهم بعد مدة . انتهى

وقال كوندى عن هذه الواقعة : ان الحكم سار إلى العصاة بنفسه برغم رجاء ابنه وكبار قواده أن لا يغامر بنفسه وأوقع بالثائرين حتى امتلأت الشوارع بجثث القتلى ولكن الذين لبثوا داخل البيوت لم يصبهم سوء . وقبض الحكم على ثلاثمائة من الثوار وصلبهم على النهر . ثم أمر بدك

وفى سنة ٨١٦ توجه رسل من قبل الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذى كان بدأ يباشر الاشغال فى حياة أبيه ، وذلك الى مدينة كومبيان Compiegne حيث كان

....

حارة الربض كلها بعد أن أمر بنهبها ولكنه أمر بعدم التعرض للنساء . ومازال السيف عاملا فى الثوار إلى اليوم الثالث فعفا عمن بقى منهم فى الحياة بشرط أن يخرجوا من قرطبة مع عائلاتهم ، فرحل جانب من هؤلاء المساكين إلى طليطلة ، وأجاز نحو من ثمانية آلاف إلى بر العدوة حيث تقبلهم إدريس بن إدريس فى فاس وبنوا حارة فيها هى مبدأ سكنى الأندلسيين بفاس . وسار منهم خمسة عشر ألفاً الى الاسكندرية ودخلوا البلدة واستولوا عليها ، فالجأ عامل الخليفة المأمون على مصر الى مصالحتهم وأدى لهم جانباً من المال على أن يذهبوا ويستعمروا احدى جزر بحر يونان ، فاختاروا اقريطش ، وكان المعمور منها قليلا فنزلوا بها وكان زعيمهم منذ برحوا قرطبة أبو حفص عمر بن شعيب فجعلوه أميراً عليهم ثم انضم اليهم كثير من المصريين والشاميين والعراقيين وأخذوا يغزون فى البحر ويغنمون ثم كان بناؤهم مدينة « قنديا »

وروى المسيو شينيه Chenier ان الذى بنى قنديا هو أحد قواد الأمير عبدالله بن عبد الرحمن وكان اسمه « كندش » Candax فانه بعد موت سيده فارق الأندلس خشية انتقام الحكم منه

وقد ذكر كوندى رواة هذه الحادثة مثل الحميدى ومحمد بن هشام وغيرهما . وأما دوزى فقال ان عدد الذين نزلوا من الربضيين بالاسكندرية كان ١٥ الفاً عدا النساء والأولاد . وكانت أمور مصر يومئذ مختلة فلم يقدر العامل على منعهم من النزول . واتفقوا أولا مع قبيلة من عرب الضواحى الى أن تمكنوا ، فاقتتلوا مع هؤلاء العرب وهزموهم واستولوا على الاسكندرية . فأرسل الخليفة المأمون جيشاً قاتلهم فقاتلوه وثبتوا الى سنة ٨٢٦ مسيحية إلا أن عمال الخليفة تغلبوا أخيراً عليهم فخرجوا الى جزيرة اقريطش التى كان منها جانب تابعاً للقسطنطينية فاستولوا عليها وأسس قائدهم أبو حفص عمر البلوطى — من فحص البلوط — دولة استمرت فى اقريطش (أوكريت) الى سنة ٩٦١ اذ عاد الروم فافتتحوا الجزيرة اهـ

وجاء فى الانسيكلوبيديا الاسلامية باللغة الافرنسية ان المسلمين احتلوا جزيرة اقريطش سنة ٦٧٣ مسيحية . ولكن المعلومات قليلة عن هذا الدور الأول من احتلالهم . ثم انه فى سنة ٨٢٥ استولى على هذه الجزيرة أبو حفص عمر بن شعيب البلوطى وذلك على أثر وقعة الربض فى قرطبة واجلاء الحكم الأموى أهل الربض ومجيئهم الى الاسكندرية ، فجاءوا الى جزيرة اقريطش فافتتحوها كلها ماعدا أرض سفاكيا ، وأرسل ملوك بيزنطية مراراً بالجيوش لطرد المسلمين من هناك فلم يتمكنوا من ذلك وبقيت هذه الامارة الاسلامية فى كريت ١٣٥ سنة ثم بنى المسلمون عند رأس « شاراكس » عاصمة لهم سموها قانديا وصار هذا الاسم عاماً لاقريطش

وسنة ٩٦١ جاء القائد البيزنطى نيقوفور فوكاس وحاصر قانديا واستفتحها بعد حصار عدة

يقيم الامبراطور ، ثم ذهبوا الى اكسلا شابل حيث كان سينعقد مجلس شورى . وكان مراد رسل أمير الأندلس عقد متاركة ، وانعقدت الّا انها لم تطل . وفى سنة ٨٢٠

أشهر واستصفى الجزيرة وأخذ آخر امراء المسلمين على الجزيرة عبد العزيز أسيراً ، ومات فى القسطنطينية ، ودخل فى خدمة ملك الروم ابنه انماس وفارق الاسلام هذه الجزيرة اذ جلا المسلمون عنها ، ومن اختار البقاء تنصر

أما استيلاء الأتراك العثمانيين على كريت فبدأ سنة ١٦٤٥ وانتهى سنة ١٦٦٧ وبقيت للبنادقة بعض مدن فسقطت فى أيدى الترك سنة ١٧١٥ اه

وقال ياقوت فى معجم البلدان : اقريطش بفتح الهمزة وتكسر والقاف ساكنة والراء مكسورة وياء ساكنة وطاء مكسورة وشين معجمة اسم جزيرة فى بحر المغرب يقابلها من بر افريقية لوبيا وهى جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى وينسب اليها جماعة من العلماء . قال أحمد بن يحيى بن جابر (يعنى البلاذرى) : غزا جنادة ابن أبى أمية الازدى جزيرة ارواد فى سنة ٥٤ فى أيام معاوية ثم غزا اقريطش فلما كان فى أيام الوليد فتح بعضها ثم اغلق . وغزاها حميد بن معيوف الهمدانى فى خلافة الرشيد ففتح بعضها . ثم غزاها فى خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسى المعروف بالاقريطشى فافتتح منها حصناً واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شىء حتى لم يبق فيها من الروم أحداً وخرب حصونهم وذلك فى سنة ٢١٠ فى أيام المأمون (هذه رواية البلاذرى فى « فتوح البلدان » عند ذكر فتح الجزائر البحرية)

وقال غير البلاذرى : فتحت اقريطش فى أول أيام المأمون ، وقيل فتحت بعد ٢٥٠ على يد عمر ابن شعيب المعروف بابن الغليظ ، وكان من أهل قرية بوطروح من عمل فحص البلوط من الأندلس وتوارثها عقبه سنين كثيرة . وقال ابن يونس : كان أول من افتتحها شعيب بن عمر بن عيسى ، وكان سمع يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر ، ثم ندب لفتحها فسار اليها حتى افتتحها . وكانت من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم الى أن أناخ عليها نقفور بن الفقاس الدمستق فى خلافة المطيع ، وتملك أرمانوس بن قسطنطين فى آخر جمادى الأولى سنة ٣٤٩ فى اثنين وسبعين ألفاً منهم خمسة آلاف فارس ، ولم يزل محاصراً لها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع فى نصف المحرم سنة ٣٥٠ فقتل ونهب وسبى ، وأخذ صاحبها عبد العزيز بن شعيب من ولد أبى حفص عمر بن عيسى الأندلسى وأمواله وبنى عمه ، وحمل ذلك كله الى القسطنطينية ؛ وقيل انه حمل الى القسطنطينية من أموالها وسبى أهلها نحواً من ثلاثمائة مركب وهدموا حجارة المدينة والقوها فى الميناء الذى دخلت مراكبهم فيه ، لئلا يدخل فيه بعدهم عدو ، وهى الى الآن بيد الإفرنج . وتنسب اليها بعض الرواة منهم محمد بن عيسى أبو بكر الاقريطشى حدث بدمشق عن محمد بن قاسم المالكى روى عنه عبد الله بن محمد النسائى المؤدب قاله ابو القاسم انتهى .

سار اسطول إسلامى من تركونة وغزا جزيرة سردانية فجاء أسطول مسيحى لأجل الدفاع عنها ، فتغلب الأسطول الاسلامى وأغرق المسلمون ثمانية مراكب للمسيحيين وأحرقوا أيضاً مراكب كثيرة .

....

وقال ابن عميرة فى بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس : عمر بن شعيب ، أبوحفص ، المعروف بالغليظ البلوطى من أعمال فحص البلوط المجاور لقرطبة ذكره أبو محمد بن حزم وقال : إنه كان من فل الربضيين وانه الذى غزا اقريطش وافتتحها بعد الثلاثين ومائتين وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذى غنمها فى أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ وكان أكثر المفتتحين لها ممه أهل الأندلس. هكذا قال . وذكره سعيد بن يونس فقال : شعيب بن عمر ابن عيسى أبو عمر صاحب جزيرة إقريطش كان تولى فتحها بعد سنة ٢٢٠ وقد كان كتب شعيب هذا بالعراق وكتب عن جده يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر أيضاً . هذا آخر كلام ابن يونس فقد اختلفا فى اسمه أولا فقال أحدهما عمر بن شعيب وقال الآخر شعيب بن عمر ، ووصفاه بالفتح ، ولولا ذلك لقلنا ان أحدهما ابن الآخر ويحتمل أن يكونا حضرا الفتح انتهى

وجاء فى صبح الأعشى أن عبدالله بن أبى سرح أمير مصر كان افتتح اقريطش وبقيت بأيدى المسلمين حتى تغلب عليها النصارى فى سنة ٣٤٥

وقال ابن حوقل : وكانت اقريطش وقبرس للمسلمين وأبناء المجاهدين ، فداخل أهلها من الحسد والنكد ماداخل أهل الثغور الجزرية والشامية وأهل ذلك البلد من الفسق والفساد والشح والعناد والفسالة والسفاد فجعلوا عبرة للمعتبرين وموعظة للناظرين ، ولا يصلح الله عمل المفسدين ولا يضيع أجر المحسنين

وقال فى محل آخر : وكان للمسلمين فى بحر الروم غير جزيرة جليلة وناحية مشهورة فاستولى العدو عليها مثل قبرس واقريطش ، وكانتا جزيرتين كثيرتى الخير والمسير والتجارة والوارد منها والصادر عنها ، وكانوا يغزون بلاد النصرانيـة وينكون فيها النكاية الظاهرة يوجبها لهم قربهم من مطالبهم ومجاورتهم بمساكنهم فصمدت النصارى صمدها ووكدت وكدها إلى أن ملكتها جميعاً . وكانت قبرس على غير ما كانت عليه اقريطش من موافقة كانت بينهم وبين المسلمين فيها ، وذلك انها قسمان ، فكانت نصفاً للمسلمين ونصفاً للنصرانية ، وكان للمسلمين بها أمير وحاكم. وجزيرة اقريطش حرة مذ كانت . فتحت لم يكن للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج الا على طريق الجهاد أو فى سنين الهدنة والمسالمة يدخلونها على شرائط بينهم انتهى

ثم انه قد ذكر المسعودى فى مروج الذهب ان الخليفة المستعين بالله ابى احمد بن الخصيب الى اقريطش سنة ٢٤٨

وفى تلك السنة مات الحكم ، وتولى ابنه عبد الرحمن ، وكان الحكم موصوفاً بالقسوة جباراً وكان يلقب بأبى العاصي ومن هنا لقبه الافرنج بلفظة ابولاز Abulaz فلما مات الحكم جاء عمه عبد الله يطالب بالامارة كعادته ، وهو الذى كان داخل

....

ومما يتعلق بجزيرة اقريطش عبارة لابن جبير الأندلسى فى كلامه على جزيرة صقلية فقد ذكر أنه صادف رجلا مسلما فى مدينة اطرابونش كان قد تحول الى النصرانية وذكر أنه قد يعرض للمسلمين هناك من الفتنة فى دينهم ومن أسباب النكال ما يدعوهم الى فراق الاسلام قال : فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء المدينة التى هى حضرة الطاغية ، ويعرف بابن زرعة ، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام والانغماس فى دين النصرانية ومهر فى حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى الأحكام النصرانية وربما طرأ حكم اسلامى فيستفتى أيضا فيه لما سبق من معرفته بالاحكام الشرعية ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله . ومع ذلك فأعلمنا انه يكتم ايمانه فلعله داخل تحت الاستثناء فى قوله تعالى (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان)

قال ابن جبير : ووصل هذه الأيام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين القائد أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر ، وهذا الرجل من أهل بيت توارثوا السيادة كابراً عن كابر ، وهو مع ذلك من أهل العمل الصالح كثير الصنائع الأخروية من افتكاك الاسرى وبث الصدقات فى الغرباء والمنقطعين من الحجاج فارتجت هذه المدينة لوصوله ، وكان فى هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه أحاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين أيدهم الله فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات اغرمته نيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمنية ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقى بدون مال ، فاتفق فى هذه الأيام رضى الطاغية عنه وأمره اياه بالنفوذ لمهم من أشغاله السلطانية . فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة رغبة منه فى الاجتماع بنا فاجتمعنا به فاظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مايبكى العيون دماً . فمن ذلك أنه قال كنت أود لوابيع انا وأهل بيتى لعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ويؤدى بنا الى الحصول فى بلاد المسلمين . فتأمل حالا يؤدى بهذا الرجل مع جلالة قدره الى ان يتمنى مثل هذا التمنى مع كونه مثقلا عيالا بنين وبنات ، فسألنا الله عز وجل له حسن التخليص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة وفارقناه باكياً مبكياً ، واستمال نفوسنا لعرف منزعه وخصوصيه شمائله وكنا أبصرنا له ولأخوته بالمدينة دياراً كأنها القصور المشيدة . وشأنهم بالجملة كبير . وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج أصلحت أحوالهم ويسرت لهم الكراء والزاد والله ينفعه بها ويجازيه الجزاء الأوفى

شارلمان لأجل أن يساعده على ابن أخيه . فلما جاء هذه المرة واهرج الأندلس وامرجها اهتبل الفرنسيس الغرة ليزحفوا مجدداً الى كتلونية وآرغون فعاثوا ودمروا وأحرقوا

وفى سنة ٨٢٠ اتهم بيره Bera أمير برشلونة من قبل فرنسة بمالأة المسلمين سراً ، وكان الواشى به أحد القوط ، وكان بيره نفسه قوطياً أيضاً ، وكان من عادة القوط أنه اذا تخاصم اثنان ولم يقدر احدهما أن يثبت دعواه بالبينة تبارزا بالسلاح فالمغلوب منهما يعد مذنباً . وفى ذلك اليوم كان المغلوب « بيره » فتقرر حينئذ أنه كان خائنا للفرنسيس . وفى ذلك الوقت ثار نصارى نابارا على الفرنسيس من شدة عسفهم وظلمهم ، واتفقوا مع المسلمين ، وسلموهم مدينة بنبلونة ، فأرسل الامبراطور الكنت أزنار Asnar والكنت ابل Eble لأجل تسكين الثورة ، فانقض عليهما نصارى الجبال وثقفوهما. فأما أزنار فعفوا عنه لأنه كان من اصل غشقونى أى من أقارب الاسبانيول

قال ابن جبير : ومن أعظم مامنى به أهل هـذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة ، فيتنصر ويتعمد ، فلا يجد الأب للابن سبيلا ولا الأم للبنت سبيلا، فتخيل حال من منى بمثل هذا فى أهله وولده يقطع عمره متوقعاً لوقوع هذه الفتنة فيهم وأهل النظر فى العواقب منهم يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة اقريطش فى المدة السالفة فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية بالاستدراج الشىء بعد الشىء حالا بعد حال حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته .

قال : ومن عظم هذا الرجل الحمودى المذكور ، فى نفوس النصارى ، أنهم يزعمون انه لو تنصر لما بقى فى صقلية مسلم . قال : ومن أعجب ماشهدناه من أحوالهم التى تذيب القلوب رأفة وحنانا ان أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه الى أحد أصحابنا الحجاج راغباً فى أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الادراك فان رضيها تزوجها وان لم يرضها زوجها ممن يرضاه من أهل بلده وذلك طمعاً فى التخلص من هذه الفتنة ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين ، وطال عجبنا من حال تؤدى الى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة واسلامها الى يد من يغربها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها ، كما انا استغربنا حال الصبية ورضاها بفراق أهلها رغبة فى الاسلام واستمساكاً بعروته الوثقى ، وكان استشارها الاب فى ماهم به فقالت : ان أمسكتنى فانت مسؤول عنى. انتهى باختصار.

وقد اوردنا هذه الأمائيل ليعلم القارىء كيفية تلاشى الاسلام من اقريطش وصقلية وغيرهما من جزائر البحر المتوسط وبعد ذلك من الأندلس ، وذلك بعد فقد المسلمين استقلالهم وسلطانهم السياسى ، والدين لايمكن حفظه بلا دنيا كما قلنا ذلك مراراً

فأطَّت بهم رحم القرابة نحوه. وأما الكنت إبل فلكونه افرنسياً صريحاً أرسلوه الى الأمير فى قرطبة. روى ذلك الدون بوكه

وفى سنة ٨٢٦ ثارت مدينة ماردة، على عبد الرحمن، فكتب اليهم لويس بن شارلمان الكتاب الآتى نصه :

«باسم ربنا الاله وباسم مخلصنا يسوع المسيح، من لويس الامبراطور السعيد بالنعمة الالهية إلى الاساقفة والشعب فى ماردة. قد اتصل بنا ماتقاسونه من العذاب من جهة الملك عبد الرحمن الذى لا يزال يرهقكم عسراً متبعاً فى ذلك طريقة ابيه أبولاز الذي كان يبتزكم أموالكم والذى كان جعل اصدقاءه أعداء وجعل الطائع عاصياً، فاليوم يريدون أن يحرموكم حريتكم وان يثقلوا كواهلكم بالضرائب وان يمسوا كرامتكم ويهينوكم. وقد علمنا انكم ابيتم تحمل الاهانة ودفعتم عنكم ظلم ملوككم ووقفتم فى وجه طمعهم وغدرهم. وقد جاءنا هذا الخبر من مصادر عدة، فرأينا ان نكتب هذا الكتاب لتعزيتكم على ماأنتم فيه ولتحريضكم على الثبات فى خطتكم هذه. ولما كان هذا الملك البربرى عدواً لنا، كما هو عدولكم، فاننا حاضرون للاشتراك معكم فى قتاله. ومرادنا فى هذا الصيف بعون الله تعالى أن نرسل جيشاً يجتاز البيرانه ويكون حاضراً للعمل باشارتكم، فان كان عبد الرحمن سيزحف اليكم فيكون جيشنا بالمرصاد له، وترانا نعلمكم من الآن انكم ان كنتم تخلعون طاعة عبد الرحمن وتصيرون من رعايانا فنحن حاضرون ان نعيد اليكم حريتكم الأولى، بدون مساس بها وبدون ان نطالبكم بأدنى مال تؤدونه لنا، وانتم تختارون القانون الذى تريدون ان تسيروا عليه، ونحن نعاملكم كأصدقاء يريدون أن يشتركوا فى الدفاع عن سلطتنا ونسأل الله أن يسبغ عليكم أثواب العافية» انتهى

وفى ذلك الوقت عقد الامبراطور لويس ندوة عامة فى اكسلاشابل، حضرها ابنه ببين وسائر أمراء البلاد المجاورة لاسبانية، وأعلن الامبراطور عزمه على غزو الأندلس للاخذ بالثار. وكان فى اكسلاشابل قائد قوطى اسمه عيسون Aizon التجأ بزعمه الى الامبراطور، فما شعروا به الا وقد انسل من هناك خفية، وجاء وأثار

الأهالى فى كتلونية وآراغون ، واستولى على مدينة أشونة Assuna واجتاح البلاد التى كانت تحت احتلال الفرنسيس ، وأرسل يستنجد أمير قرطبة ، ولما أبطأ عليه الامداد ذهب بنفسه الى قرطبة لأجل الاستعجال فى التعبئة والنجدة فسرح عبد الرحمن جيشاً بقيادة عبيد الله أحد ابناء عمه ، وسار هذا الجيش ومعه عيسون ، وأغذّوا السير ، بينما الجيش الافرنسى يسير بطيئا ، فوصلوا الى برشلونة وجيرونة واجتاحوها ، وتقدموا الى سردانة وملأوا البلاد عيثاً وتدميراً كما جاء فى مجموعة بوكه . وكان أهالى ماردة قد أعلنوا الحرب على عبد الرحمن ، وانتظروا نجدة الفرنسيس لهم ، ولكن عبد الرحمن ضيق عليهم الحصار وجرّعهم أمرّ كؤوسه ثلاث سنوات حتى دخلوا فى طاعته صاغرين ورجعوا داخرين بعد أن كانوا فاخرين . وفى تلك الأيام ازداد عيث قرصان النرمندانيين فى سواحل فرنسة والمانية وانكلترة واسبانية ، بينما قرصان افريقية والأندلس تجعل فى سواحل فرنسة وايطالية غدوّها ورواحها، فعيل صبر بونيفاس امير كورسيكة وأرسل مراكب الى افريقية فاجتاحت ساحل قرطاجنة للأخذ بالثار .

وقد ذكروا انه كان المسلمين لذلك العهد بارجة متناهية فى الكبر يظنها الرائى من بعيد سورا عالياً سائراً فى البحر غزت مرة جزيرة اوى Oye فى بريطانية عند مصب نهر لوار ولكن لم نعلم من آثارها شيئا غير هذا

ولا يخفى ان هذه الوقائع كانت تتراكم كلها فى أيام الامبراطور لويس الحليم الذى كان هو بنفسه فائل الرأى ضعيف العزيمة سيىء الادارة فاقد الارادة ، قسم مملكته بين أولاده الثلاثة ، وسلم الى كل حصته ، ثم بدا له أن يعيد القسمة وأن يجعل نصيباً لولده الرابع ، فثار أولاده عليه وقاتلوه وخلعوه ، ورجع إلى العرش ، ولكن لم ترجع مهابته وامتلأت أيامه بالفتوق والآفات بحيث أنه أصدر سنة ٨٢٨ منشوراً يقول فيه ان المجاعة والطاعون وسائر اصناف الآفات السماوية انقضّت على شعوب سلطنتنا مما يدل على غضب الله تعالى من أعمالنا غير المستقيمة . ثم أمر الامبراطور بصيام عام وباجتماع الاساقفة فى أربع حواضر ، منها مدينة طلوزة ، وذلك لأجل المذاكرة فى التدابير اللازمة لمعالجة هذه الحال

اما العلاقات التجارية ، بين مملكة شرلمان وبين مصر والشام ، فلم تنقطع فى وقت من الأوقات. وفى سنة ٨٣١ تجددت المواصلات بين الخلافة العباسية والسلطنة الغربية ، وقد تقدم وفد من قِبل الخليفة المأمون إلى فرنسة مؤلف من ثلاثة اثنان منهما مسلمان والثالث مسيحى . وجاءوا الى الامبراطور بهدايا منها منسوجات فاخرة ومنها افاويه عاطرة .

وكانت الحرب لاتزال مشتعلة فى جبال البيرانه ، بين جيوش أمير الأندلس وجيوش فرنسة ، فاجتاح الأمير عبيد الله ابن عم الأمير عبد الرحمن فى سنة ٨٣٨ البلاد التى كانت تحتلها جيوش الفرنسيس ، كما ان هؤلاء اجتاحوا من بلاد قشتالة ما كان تابعا لملوك قرطبة ، وسار أسطول للمسلمين من تركونة ومعه اسطول آخر من جزيرتى ميورقة ويابسة . وهاجم المسلمون مرسيلية وانزلوا العساكر فى نواحيها واستولوا على ضواحيها وساقوا جميع الرجال حتى الرهبان اسرى . والمظنون انه فى تلك الغزوة حصلت الحادثة المنسوبة الى القديسة اوزيبيا Cusébia رئيسة دير الراهبات فى مرسيلية والأربعين راهبة اللائى كنّ فى ذلك الدير ، وذلك انهنّ خشين من ان الغزاة يتجاوزون على اعراضهن ويلحقون بهن المعرات فشوهن خلقة انفسهن بجدع انوفهن حتى يكن بمأمن من تجاوز غزاة العرب

ومات الامبراطور لويس سنة ٨٤٠ فوقع الخلف بين أولاده ، واغتنم المسلمون هذه الفرصة فدخلوا من مصب نهر الرون ، كما جاء فى مجموعة مؤرخى فرنسة للدون بوكه ، وعاثوا فى مدينة آرل ونواحيها . وفى الوقت نفسه أغارموسى أمير تطيلة فى بلاد نابار وأوغل حتى بلغ أرض سردانة ، واكتسح تلك البلاد (١)

وكانت فى تلك الأيام قد ساءت الأحوال فى فرنسة الى الدرجة القصوى بسبب

---

(١) أشار رينو الى هذا الخبر نقلا عن المقرى . وقد راجعنا كلام المقرى فى النفح ، فرأيناه يقول : انه فى سنة سبع وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن العساكر الى أرض الفرنجة وانتهوا الى أرض برطانية وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوه وكان لموسى فى هذه الغزاة مقام محمود

الحروب الداخلية ، وأصبحت قد انتثر سلكها وتعطلت حلاها وتقاسم جنوبى فرنسة ثلاثة ملوك : الامبراطور لوطير Lothaire والملك شارل الأصلع والملك الشاب بيبن ابن بيبن الذى كان ملكاً على اكيتانية . ثم ثار أمير اسمه فولكراد Folcrade على الامبراطور وسمى نفسه كنت آرل وبروفنس . وقد بلغ حب الشقاق وفساد الأخلاق ان الكثيرين من سلالة شارل مارتل وبيبن القصير وشارلمان كانوا يستنجدون بالأعداء الأجانب بعضهم على بعض

ولم تكن ايطالية بأحسن حالا من فرنسة لأن المسلمين كانوا استولوا على جزيرة صقلية ، وكان اثنان من أمراء المسيحيين يتنازعان الامارة فى بلاد بينيفنتى بقرب نابولى ، فاستنجد كل منهما بالمسلمين الذين كانوا فى صقلية ، فدخل المسلمون الى الأرض الكبيرة واستولوا على قسم كبير منها (١) .

(١) جاء فى فتوح البلدان للبلاذرى تحت عنوان « فتح جزائر فى البحر » مايلى :

قالوا: غزا معاوية بن حديج الكندى أيام معاوية بن أبى سفيان سقلية ، وكان أول من غزاها ، ولم تزل تغزى بعد ذلك فقد فتح آل الأغلب بن سالم الافريقي منها نيفاً وعشرين مدينة وهى فى أيدى المسلمين (أى فى القرن الثالث للهجرة) وفتح أحمد بن محمد ابن الأغلب منها فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله قصريانة وحصن غليانة . وقال الواقدى: سبى عبد الله بن قيس بن مخلد الدرقى سقلية فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجوهر فبعث بها إلى معاوية فوجه بها معاوية الى البصرة لتحمل الى الهند فتباع هناك ليثمن بها . قالوا : وكان معاوية بن أبى سفيان يغزى براً وبحرا فبعث جنادة ابن أبى امية الازدى الى رودس. وجنادة احد من روى عنه الحديث ولقى أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ومات فى سنة ٨٠ ففتح رودس عنوة وكانت غيضة فى البحر وأمره معاوية فانزلها قوماً من المسلمين وكان ذلك فى سنة ٥٢

قالوا: ورودس من أخصب الجزائر وهى نحو من ستين ميلا فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة . قال البلاذرى : وحدثنى محمد بن سعد عن الواقدى وغيره قالوا اقام المسلمون برودس سبع سنين فى حصن اتخذلهم ، فلما مات معاوية كتب يزيد الى جنادة يأمره بهدم الحصن وبالقفل . وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها وكان مجاهد بن جبر مقيما بها يقرىء الناس القرآن . وفتح جنادة ابن أبى امية فى سنة ٥٤ أرواد وأسكنها معاوية المسلمين وكان ممن فتحها مجاهد وتبيع ابن امرأة كعب الاحبار وبها اقرأ مجاهد تبيعا القرآن . ويقال انه اقرأه القرآن برودس . وارواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية (ان جزيرة ارواد هى قبالة طرطوس بالقرب من طرابلس الشام فاما أن يكون وقع خطأ من البلاذري فى تعيين موقع أرواد واما أن يكون المقصود بارواد هذه جزيرة أخرى في

وفى سنة ٨٤٦ جاء غزاة العرب الى رومة وصعدوا فى نهر الطير ونهبوا كنائس

الارخبيل الرومى كان العرب يسمونها ارواد) وغزا جنادة اقريطش فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق وغزاها حميد ابن معيوف الهمدانى فى خلافة الرشيد ففتح بعضها، ثم غزاها فى خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسى المعروف بالأقريطشى وافتتح منها حصنا واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شىء حتى لم يبق فيها من الروم أحد وأخرب حصونهم انتهى. وهذه الرواية قد تقدمت بحرفها

ثم قال البلاذرى : وبالمغرب أرض تعرف بالارض الكبيرة وبينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يوماً أو أقل من ذلك قليلا أو أكثر قليلا وبها مدينة على شاطىء البحر تدعى باره وكان أهلها نصارى وليس بروم غزاها حبلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها ثم غزاها خلفون البربرى ويقال انه مولى لربيعة ففتحها فى أول خلافة المتوكل على الله وقام بعده رجل يقال له المفرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصنا واستولى عليها وكتب الى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وانه لايرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة الا بأن يعقدله الامام على ناحيته ويوليه اياها ليخرج من حد المتغلبين وبنى مسجدا جامعاً ، ثم ان أصحابه شغبوا عليه فقتلوه ، وقام بعده سوران فوجه رسوله الى أمير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقداً وكتاب ولاية ، فتوفى قبل أن ينصرف رسوله اليه ، وتوفى المنتصر بالله وكانت خلافته ستة أشهر ، وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بالله فأمر عامله على المغرب ، وهو أوتامش مولى أمير المؤمنين ، بأن يعقد له على ناحيته فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أوتامش وولى الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين ، فعقد له وأنفذه. انتهى .

قلت : إن الأرض الكبيرة هذه هى أرض ايطالية التى تقابل سقلية . ومدينة باره التى ذكرها البلاذرى هى قاعدة مقاطعة اسمها باره وهى على بحر الادرياتيك والطليان يقولون لها بارى Bari .

وجاء فى تاريخ ابن الأثير فى الجزء السابع فى حوادث سنة ٢٢٨ ما ملخصه : ان الفضل بن جعفر الهمدانى سار فى البحر فنزل مرسى مسينى وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة واستأمن اليه أهل نابل وسنة ٢٢٩ خرج أبو الأغلب العباس بن الفضل فى سرية فبلغ مدينة « شره » فقاتله أهلها قتالا شديداً ، ولكنهم انهزموا وقتل منهم مايزيد على عشرة آلاف . وفى سنة ٢٣٢ ضيق الفضل ابن جعفر الهمدانى على مدينة مسينى وأكمن لهم فى بعض الوقائع ، فوقعوا فى الكمين ولم ينج منهم إلا القليل ، فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وسلموا المدينة إلى المسلمين. وفى تلك السنة أقام المسلمون بمدينة طارنط من أرض انكبودة وسكنوها وسنة ٢٣٤ استولى المسلمون على مدينة راغوس وهدموها وأخذوا منها ما أمكن حمله وسنة ٢٣٥ غزا المسلمون مدينة قصريانة .

وكان الأمير على سقلية محمد بن عبد الله بن أغلب وكان مقيما بمدينة بلارم لا يخرج منها إلا للغزو وتوفى سنة ٢٣٦ وكانت امارته تسع عشرة سنة . ثم ذكر ابن الأثير فتح قصريانة بعد ذلك ، وقال

القديسين بطرس وبولس وغزوا أيضا جنوة وعطلوا سدود نهرها، فنفر الأهالى وقاتلوهم

انه سنة ٢٤٤ فتح المسلمون قصريانة على يد العباس بن الفضل بن يعقوب الذى تولى امارة سقلية بعد محمد بن عبد الله بن الأغلب المتوفى سنة ٢٣٦ وان العباس هـذا كان غزا نواحى قصريانة ونهب وأحرق ليخرج إليه البطريق فلم يفعل ، وأنه سنة ٢٣٨ خرج العباس فى جمع عظيم وأتى قطانية وسرقوسة ونويطس وراغوس فغنم من جميع هذه البلاد وفى سنة ٢٤٢ سار العباس فى جيش كثيف ففتح حصوناً جمة ، وسنة ثلاث وأربعين نزل على القصر الجديد وحصره وما زال يضيق عليه حتى تسلمه وأنه فى سنة ٢٤٤ أرسل جيشاً فى البحر فلقيهم أربعون شلنديا للروم فاقتتلوا أشد قتال فانهزم الروم وأخذ منهم المسلمون عشرة شلنديات برجالها ثم غزا العباس قصريانة ووقع فى يده رجل من هناك دله على أماكن من سور المدينة دخل منها ووضع السيف فى الروم ففتحوا الأبواب وتسلم البلدة وغنم منها ما يفوق الوصف وكان ملك القسطنطينية أرسل ثلاثمائة شلندى ملأى بالعساكر فوصلت إلى سرقوسة (سيراكوزا Syracusa) فخرج إليهم العباس وقاتلهم فهزمهم وغنم منهم مائة شلندى .

قال: وفى سنة ٢٤٦ نكث كثير من قلاع سقلية وهى سطروابلة وابلاطونو وقلعة عبد المؤمن وقلعة البلوط وقلعة أبى ثور فخرج العبـاس اليهم فاقتتل مع الروم فانهزم الروم ثم سار إلى قلعة عبد المؤمن وقلعة بلاطونو فحصرهما فجاءه الخبر بأن كثيراً من عساكر الروم قد وصلت فزحف اليهم ، فتلاقوا بجفلودى ، وجرى بين الفريقين قتال شديد فانهزمت الروم وعادوا الى سرقوسة. وسنة ٢٤٧ سار العباس الى سرقوسة ، ثم الى غيران قرقنة ، فاعتل ذلك اليوم ، ومات بعد ثلاثة أيام ثالث جمادى الآخرة فدفن هناك فنبشه الروم وأحرقوا جسده وكانت ولايته احدى عشرة سنة وأدام الجهاد شتاء وصيفاً وغزا أرض قلورية وانكبردة وأسكنها المسلمين انتهى .

قلت: ان مدينة طارنت التى مر ذكرها هى فى الأرض الكبيرة فى مقاطعة أوترانتة وان أرض قلورية التى يشير اليها ابن الأثير وانكبردة هما الآن كالبرة Calabra وقد جاء ذكرها فى معجم البلدان لياقوت قال : قلورية بكسر أوله وتشديد اللام وفتحه وسكون الواو وكسر الراء والياء مفتوحة خفيفة وهى جزيرة فى شرقي صقلية (العرب يسمون شبه الجزيرة جزيرة) وأهلها افرنج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة ينسب إليها فيما أحسب أبو العباس القلورى روى عن أبى اسحاق الحضرمى وغيره وحدث عنه أبو داود فى سننه . ومن مدن هذه الجزيرة قبرة ثم بيش ثم تامل ثم ملف ثم سلورى . قال ابن حوقل : وهى جزيرة داخلة فى البحر مستطيلة أولها طرف جبل الجلالقة وبلادها التى على الساحل قسانة وستانة وقطرولية وسبرسة واسلوحراحة وبطرقوقة وبوة . ثم بعد ذلك على الساحل جون البنادقيين وفيه جزائر كثيرة مسكونة وأمم كالشاغرة وألسنة مختلفة بين افرنجيين وألمانيين وصقالبة وبرجان وغير ذلك . ثم أرض بلبونس واغلة فى البحر شكلها شكل قرعة مستطيلة

(قلت يريد بيلبونس Péloponése وهي شبه جزيرة المورة . وكان العرب يقولون لـكلانرة قلفرة أيضاً)

قال المسعودى فى مروج الذهب عند ذكرامة النوبرد ويريد بهم اللومبرديين : ان المسلمين ممن جاورهم كانوا غلبوهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة باره وطارينتو ثم قال : ان مدينة طارينتو ومدينة سيرين وغيرهما من مدنهم الـكبار سكنها المسلمون مدة من الزمان ثم ان النوبرد أنابوا ورجعوا على من كان فى تلك المدن من المسلمين فأخرجوهم عنها بعد حرب طويل ، وما ذكرنا من المدن فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة فى أيدى النوبرد انتهى

ومن هذا كله يعرف أن المسلمين لم يقتصروا على فتح جزيرة صقلية ، بل تجاوزوها الى الأرض الـكبيرة ولبثوا فيها زمناً طويلا إلى أيام فريدريك الثانى امبراطور المانية وملك صقلية الذى عاش فى أوائل القرن الثالث عشر للمسيح وكان قد اتخذ جيشاً من المسلمين وكان يعرف العربية معرفة جيدة انتهى

وقال الاستاذ الشيخ محمد الخانجى البوسنوى من مدرسى المعهد العلمى الخسروى في مدينة سراى بوسنة فى مقدمة كتابه « الجوهر الأسنى فى تراجم علماء بوسنة » فتحت جزيرة صقلية بتمامها سنة ٢١٣ على يد قاضى القيروان عالم زمانه أسد بن الفرات صاحب المدونة الأسدية وكان رجلا صالحا فقيهاً أدرك مالك بن أنس ورحل اليـه . فبقيت صقلية بأيدى المسلمين مدة واهتدى أهلها فصاروا مسلمين وبنوا بها الجوامع حتى أنه كان فى مدينة واحدة من مدنها وهى « بلرم » نيف وثلاثمائة مسجد ، قال ابن حوقل : رأيت فى بعض الشوارع من بلرم على مقدار رمية سهم عشرة مساجد . ودام ملك المسلمين لصقلية الى سنة ٤٦٤ وبعد زوال ملـكهم منها بقى فيها الاسلام مدة مديدة . وقد ظهر من صقلية من أهل العلم عدد كثير تراجمهم موجودة . وكان الاسلام جاوز البحر من صقلية الى أرض قلورية من بلاد ايتاليا واستولى المسلمون على عدة بلاد منها كريو وباره وطارنت وكانوا قرعوا أبواب رومية مقر البابارئيس النصرانية . وبنى بمدينة « ريو » أبو الغنائم الحسن بن على ابن الحسين الـكلبى مسجداً كبيراً فى وسطها وذلك سنة ٣٤٠ وكل هذه البلاد التى ذكرناها خلت بمرور الزمان من الاسلام والمسلمين وعفت فيها آثارهم واندرست معالمهم (وتلك الأيام نداولها بين الناس) انتهى .

وقد مر ابن جبير الأندلسى بجزيرة صقلية وهو قافل من الحج سنة ٥٦٠ وكانت خرجت من ملك الاسلام ، ولـكن كان المسلمون لا يزالون يسكنون فيها ، قال ابن جبير : بخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفه مشحونة بالأرزاق على اختلافها مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها ، لـكنها معمورة بعبدة الصلبان يمشون فى مناكبها ويرتعون فى أكنافها والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم قد أحسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم ضربوا عليهم اتاوة فى فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها والله عزوجل يصلح أحوالهم ويجعل العقبى الجميلة مآلهم . قال : وليس فى مسينى إلا نفر يسير من

وحمل الرهبان والقسيسون السلاح [(١)]

ولم تكن الأندلس بأسعد حالا فى تلك الأيام لأن الفتن كانت تصطلمها . والآفات تنيخ عليها بكلكلها فانضم الى الفتن المجاعة والقحط والجراد وغزو النورمنديين الذين

ذوى المهن وذلك مايستوحش بها المسلم الغريب. وأحسن مدنها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلرمة وفيها سكن الحضريين من المسلمين ولهم فيها المساجدوسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها لكن المدينة الكبيرة التى هى مسكن ملكها غليام أكبرها وأحفلها .

وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين وكلهم أوأكثرهم متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم فى أحواله حتى ان الناظر فى مطبخه رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم. ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته (الحمد لله حق حمده) وكانت علامة أبيه (الحمد لله شكراً لأنعمه) .

وأما جواريه وحظاياه فى قصره فسلمات كلهن ومن أعجب ماحدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز وهو يطرز بالذهب فى طراز الملك أن الأفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود مسلمة تعيدها الجوارى المذكورات، وأعلمنا أنه كان فى هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك فكان يتطلع فى قصره فلا يسمع إلا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليذكر كل أحد منكم معبوده .

وأما فتيانه الذين هم عيون دولته فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً ويتصدق تقربا الى الله ويفتك الأسرى ويربى الأصاغر منهم ويزوجهم وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمى هذه الجزيرة لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم بعد تقدمة رغبة منه إلينا فى ذلك فاحتفل فى كرامتنا وبرنا وأخرج إلينا عن سره المكنون بعد مراقبة منه فى مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا واستهدى منا بعض مااستصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة وقال لنا أنتم مدلون باظهار الاسلام فائزون بما قصدتم له ونحن كاتمون إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سراً فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج والاغتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لنتخذها عدة للإيمان وذخيرة للاكفان فتعطرت قلوبنا له إشفاقا ودعونا له بحسن الخاتمة .

(١) جاء ذلك فى مجموعة البولنديين ، وفى تاريخ مدينة نيس للمسيو لويس دورنت ، وفى مخطوط لمؤلف اسمه أغيو فريدو محفوظ فى مكتبة تورينو .

أخذوا ينزلون فى أشبونة واشبيلية ويفسدون فى أرضهما .

وفى سنة ٨٤٨ عاد المسلمون فغزوا مرسيلية وجميع الساحل الى جنوة ، كما جاء فى مجموعة الدون بوكه ، وكان الملك بيين شاباً وكان فى حرب مع عمه شارل الاصلع ، فطلب بيين مساعدة المسلمين له وأرسل إلى قرطبة غليوم كونت طلوزة حفيد البطل غليوم الذى اشتهر فى حروب المسلمين وتلقب بالقديس ، كما سبق الكلام عليه ، فنال غليوم ما أراده وأصحبوه بعساكر تمكن بها بيين من اخراج عمال شارل الأصلع من برشلونة ومن مدن أخرى من كتلونية . وكان قرصان المسلمين قد نزلوا فى سواحل آرل ، واضطروا لمعاكسة الريح أن يتأخروا فى الساحل ، فحمل الأهالى السلاح من كل جهة وذبحوهم . ولكن فى تلك المدة زحف جيش من المسلمين يقوده موسى عامل سرقسطة وتقدم من جهة اورجل Urgel وريباغورسة Ribagorsa ولم يزل يثخن فى أرض الفرنسيس ويقتل ويسبى الى ان اضطر الملك شارل الأصلع أن يطلب من المسلمين الصلح ولم ينله الا بتقديم هدايا ثمينة كما جاء فى مجموعة الدون بوكه

وفى سنة ٨٥٠ وقعت نكبة على مسيحيي الأندلس ، وحصلت حوادث فى قرطبة وصل خبرها الى فرنسة . وتحرير الخبر أن الشرع الاسلامى يطلق لأهل الذمة الحرية الدينية ولا يجبرهم الا على اداء الجزية ، ولكن اذا تزوج مسلم بمسيحية فالأولاد يجب أن ينشأوا على دين الأب ، كذلك اذا أسلم مسيحى أو مسيحية فأولاده معدودون من المسلمين اذا كانوا قاصرين ، فاذا بلغوا سن الرشد وأرادوا الرجوع عن الاسلام فلا يحق لهم ، وكذلك اذا قذف أحد المسيحيين نبى الاسلام فليس أمامه سوى الاسلام أو الموت

وقد كان الزواج المختلط كثير الوقوع فى الأندلس ، فطالما تزوج مسلمون بمسيحيات وقد كانت المرأة المسيحية المتزوجة بمسلم كثيراً ماتلقن بناتها قواعد النصرانية فيحصل بسبب ذلك نزاع شديد فى العائلات . وفى ذلك الوقت كان فى قرطبة قسيس متضلع فى اللغة العربية اسمه بهارفكتس ، وكان قد شاع ان بهارفكتس فى احدى المرار تلفظ بالشهادتين وأسلم ، فصادفه بعد ذلك أناس من المسلمين وسألوه عن رأيه فى نبى الاسلام

(صلي الله عليه وسلم) فامتنع أولا عن الجواب فألحوا عليه فى تبيين رأيه ، فأجاب بجواب نال فيه من الرسول.وقيل ان المسلمين ذلك اليوم لم يتعرضوا له بسوء ، ولكنه بينما كان ماراً فيما بعد فى أحد الشوارع جاء احد المسلمين واغرى العامة بالهجوم على القسيس قائلا لهم : إن هذا هو الذى قذف بالنبى . فهجمت العامة عليه ، وذهبوا به إلى القاضى ، فسأله عما عزى اليه من القذف ، فلم ينكر كلامه ، بل أيده امام القاضى فاضطر القاضى أن يحكم عليه بالقتل ، وكان ذلك فى شهر رمضان فلم ينفذ فيه الحكم الى أن انسلخ الشهر وجاء العيد فقطعوا رأسه بمحضر من جم لا يحصى من الأهالى (١) .

فكان لهذه الحادثة صدى بعيد وثارت من أجلها الخواطر ، وكان المسيحيون كثيرى العدد فى الأندلس وفى نفس قرطبة مركز السلطنة وكان المسلمون تركوا لهم كثيرا من كنائسهم وأديارهم ، وكانت لهم أديار للرهبان وأخرى للراهبات ، وكان من المسيحيين كثير من المستخدمين فى القصر الملكى لاسيما ان القصر كان يحتوى عدداً عظيما من الصقالبة . فكثرت من أجل ذلك المنازعات الدينية وصارت تتقدم الشكايات على بعض المسيحيين بأنهم قذفوا بالرسول فيؤتى بهم إلى القاضى فيسألهم فلا ينكرون فيحكم القاضي عليهم بالقتل ، ولأجل أن لا يأخذ المسيحيون أجسادهم ويحنطوها ذخائر كان الحكام يحرقون أجساد المحكوم عليهم بالقتل ويرمون رمادها فى النهر وقيل انهم كانوا يطرحون بعضها للكلاب

وقد كان تأثير هذه الشدة بعكس ما أمل رجال الحكم فانه وجد من المسيحيين من كان يتهافت على القذف بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ليقتلوه ويصير شهيداً . وقتل بهذا الشكل أناس كثيرون ومن جملتهم رجل اسمه « سانشو » من فرنسة كان مستخدما فى القصر ، واثنان من الخصيان فى القصر أيضا ، وأكثر من تهافت على القذف بالرسول لنيل الشهادة المتحمسات من النساء المسيحيات (٢)

---

(١) ان الكنيسة جعلت بهارفكتس هذا قديساً وله عيد كل سنة فى ١٨ ابريل .

(٢) سنذكر هذه الحوادث ونستوفى هذا الموضوع فى الأجزاء التالية إذ ليس له تعلق بما نحن بصدده الآن ، وإنما ذكرنا ما قاله رينو بطريق الاستطراد لأن فيه شيئا ما يتعلق بملك فرنسة فى علاقاته مع ملك الأندلس .

وأخيراً عقد اساقفة المسيحيين مجمعاً قرروا فيه ان التحرش بهذا الموضوع أى القذف بنبى الاسلام عمداً ، حبا بالقتل ونيل الشهادة ، هو مخالف لروح الانجيل . ثم ان الملك شارل الأصلع تدخل فى هذه المسألة ، بناء على التماس المسيحيين منه ، لأنه قد أصابهم فى البلدان الشمالية من إسبانية ماأصابهم فى قرطبة

ولما تفاقم هذا الأمر اشتد غضب عبد الرحمن الثانى على المسيحيين ، وطرد من قصره جميع الذين كانوا مستخدمين فيه منهم . ثم مات عبد الرحمن سنة ٨٥٨ وخلفه ابنه محمد ، وفى أول أمره شدد أيضا فى معاملة المسيحيين حتى فكر فى اخراجهم جميعاً من مملكته ، ولكنه عاد فعدل عن فكره بسبب توالى الثورات وعدم مؤاتاة الوقت له . وكانت الحرب لا تزال مشتعلة فى كتلونية ، وكان موسى أمير سرقسطة قد ظفر بالمسيحيين فى بعض الوقائع إلا أنه انكسر فى آخر الأمر وتغلب عليه ملك اشتورية فعزله الأمير محمد من إمارة سرقسطة ، فاستشاط غضباً وانحاز الى المسيحيين ، وزوج ابنته بغرسية ملك نابارة ، وثارت فى أثناء ذلك مدينة طليطلة

ثم ان المسلمين غزوا أيضاً جزيرتى سردانية وكورسيكة ، واشتدت الفوضى وانتشر الحبل فى بلاد فرنسة ، فكنت ترى الكنائس مهدمة والمدن خراباً واللصوص اسراباً والناس يتركون ديارهم ويضربون فى الأرض طلباً للامان ، ومنهم من فضل الموت على ترك أرضه ، ومن الأهالى من كان ينضم الى الغزاة طمعاً فى السلب .

وبينما الحال هكذا فى فرنسة لم تكن الاندلس بأسعد منها، اذ ثار فيها رجل يقال له عمر بن حفصون — كان مسيحياً فأظهر الاسلام — واعصوصب حوله جيش من اللصوص وقطاع الطرق ، فثار على الأمير محمد وجاذبه الحبل وصارت الأندلس فى أمر مريج ، واضطر الامير الى مسالمة ملك فرنسة شارل الأصلع ليتفرغ لامر ابن حفصون ، وجاءت رسل شارل الى قرطبة وكان ذلك سنة ٨٦٦ وتقرر ان تبقى كتلونية بيد الفرنسيس ، وعاد رسل شارل بهدايا ثمينة من قرطبة ومعهم ابل بحدائج مزينة . وهكذا تقضى حوادث الزمن على الملوك بمصافاة ذوى الشحناء ومهاداة الأعداء

وفى سنة ٨٦٩ جاء غزاة العرب فنزلوا فى بروفانس فى محل يقال له كامرغ

Camargua وهو جزيرة مشكلة من نهر الرون ، وفيها أملاك للمطران رولان رئيس اساقفة آرل . فلما نزل المسلمون فى هذه الجزيرة صادفوا المطران هناك يتعهد مزارعه فقبضوا عليه وقتلوا ثلاثمائة من رجاله وساقوه الى أحد مراكبهم ، فجاء المسيحيون لأجل ان يفكوه بفدية ، فطلب المسلمون به مئة وخمسين ذهباً و ١٥٠ ثوباً و ١٥٠ سيفاً و ١٥٠ عبداً ، فرضى المسيحيون بتقديم هذه الفدية، فجمعوها وقدموها لأجل انقاذ المطران ، وكان هذا فى أثناء جمعها قد فارق الحياة بما أصابه من الرعب فكتم المسلمون موته حتى يقبضوا المال . ولما تسلموا جميع الأشياء التى اشترطوها أخرجوا جثة المطران إلى البر ، وألبسوها الثياب التى كانت عليه عند ما كان حياً ، وانصرفوا وكان المسيحيون قد جاءوا جمعاً عظيما لتهنئة المطران بالخلاص ، فلم يجدوا سوى جثة هامدة ، وتحوّل فرحهم مأتماً .

ومات شارل الأصلع سنة ٨٧٦ وكان ناوياً أن يذهب بجيش الى ايطالية التى كان المسلمون قد استولوا على نواحيها الجنوبية وأصبح بسبب ذلك البابا فى رومة تحت الخطر . وبرغم توالى غزوات المسلمين والنرمنديين كان الشقاق بين أمراء فرنسة لايزال قائماً قاعداً ، حتى نهكت قوى البلاد بأجمعها ، ولم يبق إلا أمل ضعيف يمسك بحشاشتها . وبلغ اختلاف الكلمة وتشظى العصا أقصى مايتصور العقل

القسم الثالث

نزول العرب فى بروفانس وغاراتهم من هناك

على سافواى وبيمونت وسويسرة

الى دور اجلائهم عن فرنسة

قال رينو : ان الدور الأخير الذى سنتكلم عنه يشابه الدور الذى تقدمه فى شدة المهاجمات وفى آثار السلب والعيث ، جد المشابهة . وانما الفرق هو فى كون الحوادث السابقة لم تصب الا سواحل فرنسة خاصة ، على حين أن الحوادث التى نحن بسبيلها الآن ستمتد إلى بلاد دوفينى ، إلى خدود ألمانية ، وان الحوادث السابقة كانت عبور سبيل ، على حين أن هذه كانت راجعة إلى مركز ثابت مستقر ، وكانت تُنذر بأن تستمر

وقد بدأ هذا الدور فى سنة ٨٨٩ إذ كان متولياً على بروفنس ودوفينى رجل يقال له بوزون Boson وقد سمى نفسه ملك أرل . ولما كان بوزون المذكور غير منتسب إلى بيت شارلمان الامبراطورى ثقلت امارته على الناس ، وشملهم القنوط ، فكان المكان والزمان مساعدين على نزول غزاة العرب فى تلك الديار

واليك تحرير خبر نزولهم واستقرارهم فى بروفنس بحسب تاريخ ليوتبراند Liutprand فى مجموعة موراتورى وبحسب تاريخ دير نوفاليز Novalese وبحسب مجموعة الدون بوكه وتاريخ بروفنس تأليف بوش Bouche قالوا :

ان عشرين ملاحاً عربياً ركبوا مركباً خفيف القلع من سواحل اسبانية ، قاصدين سواحل بروفنس ، فأخذتهم الريح العاصفة وألقت بهم فى خليج غريمو Grimad الذى يقال له أيضا خليج سانتروبز Sant-Tropes فصعدوا الى البر ، لم يبصرهم أحد ، وكان حول هذا الخليج أجة أشبة بلغ من اشتباك سرحها أن الانسان لم يكن يجرؤ أن يدخل فيها . وإلى الشمال من الخليج كانت سلسلة جبال ، بعضها أعلى من

بعض ، فاذا وصل الانسان إلى قمتها أشرف على قسم كبير من بروفنس السفلى .
فأغار العرب على أقرب قرية من البحر وذبحوا أهلها ، وأخذوا يرودون فى الجوار .
ولما وصلوا إلى القمم التى كانت تشرف من جهة على البحر وتناوح من جهة أخرى جبال الألب ، فهموا حالا ملاءمة هذا المكان لاستقرارهم فيه ، بصورة دائمة ، فالبحر كان لهم باباً لتلقى الامدادات التى قد يحتاجون إليها فى بعض الأحيان ، والبر كان لهم منفذاً إلى النواحى التى يرومون الغارة عليها ، والغابة المشتبكة التى ذكرناها تصلح لهم معقلا يلجأون إليه عند الاضطرار .

فلم يطأ هؤلاء القرصان تلك الأرض حتى أرسلوا إلى اسبانية وافريقية ، يستمدون من إخوانهم الانضمام إليهم ، وبدأوا هم بالعمل فى مكانهم . فما مضت عدة سنوات حتى امتلأت تلك الأرض بالحصون والمعاقل . وكان أهم تلك الحصون المسمى فركسيناتوم (١)

(١) اختلف المؤرخون فى موقع فركسيناتوم التى شغلها المسلمون مدة طويلة ، فمؤرخو الفرنسيس يضعون فركسيناتوم فى خليج سانتروبيز Saint-Troppez وهو مكان فيه معبر بين فرنسة وايطاليا وبقربه جبل يقال له جبل المورو . ومؤرخو الطليان يخالفونهم فى تعيين هذا الموقع ، فالمؤرخ بونينو Bonino يضع فركسيناتوم فى بروفنس بقرب آرل وهناك مؤرخ آخر اسمه مونبريزيو Monbrizio يضع فركسينا توم وراء جبال الألب البحرية . ومنهم من جعل هذا المكان بقرب آرل وقالوا ان العرب نزلوا هناك وفى فريجوس وأنطيب (التى جعلها العرب عين الطيب) وامتدوا إلى قصر نيسة (التى يقول لها العرب نيقة والفرنسيس يسمونها نيس) إلى مدينة سانريمو التى قرأت فى دليلها منذ بضع سنوات ان العرب احتلوها . ومن هناك امتدوا الى مدينة البنغة Albenga .

هذه كانت رحلتهم الأولى . وأما الثانية فهى أنهم ذهبوا من انبرون إلى جيوفنى ديمورتانة Jiovanni Di Mortana ومنها تقدموا الى الداخل ونهبوا وأحرقوا دير نوفاليز Novalesa ودير سانموريس فى ڤاليزية .

والمؤرخون الطليان الذين تكلموا عن نزول العرب فى تلك السواحل وهم : بينغونى Pingone ودى بينى Debene ودلا شيزا Dellachiesa ودورندى Durandi وسيغبرتو Sigeberto يقولون فى أصل مجىء المسلمين إلى هناك انه سنة ٨٩١ جاء قرصان من اسبانية فساقتهم زوبعة إلى سواحل بروفنس فنزلوا الى البر ووجدوا غابة اسمها فراسينيتو وهو اسم مشتق من أسماء النبات

Fraxinetum الذى يشتق من اسم بشجر الدردار الكثير فى تلك الجهات · والمظنون أن فركسيناتوم كانت فى القرية الحاضرة التى يقال لها غاردفرينه Garde-Frainet الواقعة

....

الغالب على تلك الأرض ، ثم قاموا هناك وتحصنوا فى جبل تسمى باسمهم فيقال له اليوم جبل «مورو» ثم التحق بهم آخرون وتكاثروا وصاروا قوة مذكورة وصار أمراء البلاد يستعينون بهم فى قتال بعضهم بعضاً ، وانتشر المسلمون فى السڤواى ودالڤينيتيو وڤاليزيا وليغورية الى جنوة . ومن حكام الطليان الذين دعوا المسلمين لمساعدتهم ووعدوهم بالمغانم لبرتوديسنو ليتو وادالبرتو مركيز طوسكانة . اطلعت على ذلك فى خزانة كتب عمومية بمدينة جنوة .

ومن أغرب الأمور أن جميع المؤرخين تكلموا عن نزول العرب فى فركسينيت عدا مؤرخى العرب أنفسهم ، فتوجد عن هذه الحادثة تواريخ بالأفرنسية والألمانية والايطالية ولكنه لا يوجد تقريبا شىء بالعربية وانما جاء فى المسالك والممالك لأبى القاسم بن حوقل الذى كتب رحلته على أثر سفره من بغداد سنة ٣٣١ للهجرة وذلك قوله : وجبل القلال جبل قديم على مر الزمان فيه مياه وأراض وعمارة وحرث يقوت من نجا إليه فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه ، وصاروا فى وجوه الأفرنجة لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره فى الطول نحو ميلين .

ذكر ابن حوقل هذا فى كلامه على بحر الروم . وذكر فى محل آخر جزيرة ميورقة وقال . وميورقة جزيرة لصاحب الأندلس وكذلك جبل القلال يضاف إلى ذلك العمل .

وورد ذكر جبل القلال فى معجم البلدان لياقوت أثناء كلامه على انكبردة قال : بلاد واسعة من بلاد الافرنج بين القسطنطينية والاندلس تأخذ على طرف بحر الخليج من محاذاة جبل القلال ، وتمر على محاذاة ساحل المغرب مشرقا إلى أن تتصل ببلاد قلورية .

قلت : يعنى بها بلاد إيطاليا اليوم التى تبتدىء من محاذاة جبال الألب وتنتهى بشبه جزيرة كلابرة وفى صبح الأعشى يقول : قلفرية نقلا عن تقويم البلدان قال : ويقال لها قلورية بابدال الفاء واوا

قلت : وكنت أفكر أن جبل القلال هذا بالأوصاف التى وصفه بها ابن حوقل وياقوت لا تنطبق إلا على الجبل المشرف فى سواحل فرنسة على حدود ايطالية ولكنى لم أكن أرضى بمجرد التخمين وكنت أود لو وقفت على كلام لمستشرق الافرنج فى هذا الموضوع وكنت تحدثت فى هذه المسألة مع الشاب الأجل الفاضل المدقق السيد محمد الفاسى من آل الجد الفهريين بفاس ومن جالية الأندلس ، وتقدمت إليه فى أن يبحث لى فى المكتبة الوطنية فى باريز لعله يهتدى إلى نص أو نصوص تكشف لنا الغامض وتقدر أن نعين بها ما يريده كتاب العرب بقولهم جبل القلال فأجابنى حفظه الله بالكتاب الآتى نصه بتاريخ ٩ ذى الحجة سنة ١٣٥٠ قال : أخذت كتاب الخزانة العربية الصقلية تأليف آمارى Amari وهى كما لا يخفى مجموعة نصوص تتعلق بصقلية منقولة عما يقرب من مئة كتاب عربى فوجدته ينقل كلام بن حوقل الوارد فى جبل القلال فأخذت ترجمة الخزانة الصقلية إلى الايطالية وهى

فى ذيل الجبل إلى جهة الألب . ومما لاجدال فيه أن مركز هذه القرية كان بغاية الأهمية ، لأنها الطريق الوحيد من الخليج إلى الشمال . وإلى الآن يجد الناس فى أعلى

....

مفيدة جدا بالتعاليق التى جعلها عليها آمارى ويوجد فيها طبعتان كلتاهما فى سنة ١٨٨٠ واحدة فى جزئين من الحجم الصغير والأخرى فى جزء واحد من الحجم الكبير وجبل القلال ورد فى الصفحة السابعة من الطبعة الكبيرة أما فى الترجمة فان آمارى اكتفى بكتابة جبل القلال بالحروف اللاتينية وجعل بين هلالين ترجمة للفظة قلال بمعنى رؤوس الجبال جمع قلة وذكرها بالأفرنسية هكذا Cimes وجعل على هذا تعليقا مضمونه تلخيص كلام المستشرق رينو الذى سأنقله لك بالحرف، وأحال عليه: نشر المستشرق جوين بول كتاب مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع فى ثلاثة أجزاء مع أجزاء ثلاثة أخرى للتعاليق باللاتينية وقد ورد فيه جبل القلال فى صفحة ٢٣٩ من الجزء الأول، وعلق جوين بول فى صفحة ٢٥ من الجزء الخامس قائلا انه كتب إلى رينو الشهير فى هذا الباب فأجابه بما يلى سامحا له بنشره . وقد نقل لى ولدنا السيد محمد الفاسى كتابة رينو بنصها الافرنسى فآثرت ترجمتها بالعربى وهى هذه :

« فى تأليف نشرته سنة ألف وثمانمائة وستة وثلاثين تحت عنوان غارة العرب على فرنسة ومن فرنسة على سفواى وبييمونت وسويسرة فى القرون الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى قد ذكرت انه فى سنة ٨٨٩ دخل بعض قرصان من الأندلس فى أرض فرنسة فى خليج غريمنو الذى يقال له سانتروبيز وأنشأوا لأنفسهم فى آخر الخليج على قلة جبل معقلا هائلا وهذا المعقل يسميه المعاصرون لذلك الوقت فركسيناتوم والآن تسمى القرية المبنية على سفح الجبل غاردفرينه Gadre Frainet والغابة التى تحيط بالجبل اسمها الآن غابة الموراى العرب . كلما استقر هؤلاء القرصان فى ذلك الموقع المتناهى فى المناعة استدعوا اليهم أفاقين آخرين جاءوهم من سواحل الأندلس وافريقية ثم انضم اليهم بعض الجياع من أهل البلاد . وساعدتهم الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فيها فتقدموا فى البلاد وقطعوا جبال الالب وانتشروا فى السفواى وشمالى ايطالية وسويسرة. وعندما نشرت هذا الكتاب لم تكن النسخة المخطوطة من كتاب الاصطخرى قد نشرت وكنت أظن أن وجود هذا المعقل الاسلامى فى قلب النصرانية كان لم يزل مجهولا عند كتاب المسلمين فى الاندلس وأفريقية وآسية فأما الآن فقد تحقق عندى ان الاصطخرى وابن حوقل قد سمعا فى أثناء اسفارهما بخبر فركسيناتوم من سواحل بروفنس وان كلا منهما لم يهمل ذكر ذلك فى كتابه

وأعظم من هذا ان خبر هذا المعقل الاسلامى فى قلب اوربة وصل الى أقاصى بلاد العجم

فالاصطخرى فى صفحة ٣٩ من طبعة كتابه المخطوط يذكر بعض الجزائر مثل صقلية واقريطش وقبرص ثم يذكر جبل القلال، فقد يظن القارىء أن مراده به احدى الجزر التى

الجبل آثار خراب وبقايا عمران : جدرانا متهدمة ، وبنياناً منحوتاً فى الصخر وبئراً منحوتة فى الصخر أيضاً

....

يحيط بها البحر وفى الاطلس الذى تحت نمرة ١١ مذكور هـذا الجبل وموضوع فى وسط البحر الى الغرب من صيقيلية يقابله المهدية وتونس من جهة وطرطوشة من الاخرى وكذلك الحال فى الخارطة التى تحت نمرة ٥ ولا فرق بينهما سوى ان الجبل فى الخارطة الثانيـة موضوع على مسافة أبعد الى الغرب على علو مالقة والجزائر ومن المعلوم أن الخرائط الملحقة بكتاب الاصطخرى هى ناقصة جداً وفيها خطأ كثير نظير الاطالس العربية على وجه الاجمال

ولا يجوز أن ننسى أن اسم جزيرة وشبه جزيرة هو واحد عند العرب كما عند اليونان وترى الاصطخرى يقول عن جبل القلال مايطابق موقع فركسينا توم واليك كلامه : وأما جبل القلال فانه كان جبلا خراباً وفيه ماء وأرض فوقع اليـه قوم من المسلمين فعمروه وثاروا فى وجوه الافرنجة لايقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره فى الطول يومان . ثم أتى على ترجمة هذا الفصل بالفارسية : جبل القلال كوهى بوده است خراب ودر آنجا اب وزمين بسيار قومى از مسلمانان آنجا مقام كرفتند وآبادان كردند وثغر فرنك است وفرنك برايشان دست نيابدودرازى اين كوه دو روزه راه باشد

ومن عادة ابن حوقل فى رحلته أن يعلق بعض الشرح على كلام الاصطخرى الا أنه فى هذا المقام كانت عبارته مختصرة جداً والملاحظة المهمة التى يلاحظها القارىء فى كلامه ان جبل القلال هـذا تابع للأندلس وذلك ان علماء العرب يطلقون لفظة الأندلس على جميع بلدان الجنوب الغربى من اوربة التى دخلت فى طاعة المسلمين (انظر الى ترجمتنا لجغرافية أبى الفداء صفحة ٢٣٤ وصفحة ٣٠٨) وهكذا كانت بلاد بروفنس فى القرن الثامن وفيما بعده فى القرن الذى نحن الآن بصدده معدودة من الأندلس

وهكذا أمكنهم أن يجعلوا جبل القلال من الأندلس وفيه كان المسلمون واقفين فى وجه الافرنج . فالمكان الذى وصفوه لاينطبق الا على فركسينا توم اذ لو أردنا أن نقول ان ابن حوقل والاصطخرى أرادا بجبل القلال جزيرة صغيرة غفلا من الاسم واقعة بازاء سواحل تونس أو سواحل طرابلس لكان الوصف الذى وصفه هذان الرحالتان لهذا المكان خالياً من كل معنى (ثم ذكر رينو كلام ابن حوقل بنصه)

بقى علينا أن نفسر كلمة قلال التى أضيف لها ذلك الجبل فهذه اللفظة تحتمل تأويلات مختلفة ففى الاطالس التى وجدناها فى مخطوط الخزانة الامبراطورية الحاوى للرواية الفارسـية من كتاب الاصطخرى نجد لهذا الجبل شكلا هرمياً وأما فى الاطالس التى فى المخطوط العربى فاننا نجد هذا الجبل يرتفع تدريجاً فيكون اسم جبل القلال مطابقاً له

ولم يبق شئ من شجر الدردار إلى هـذا الوقت ، ولكن المسيو جرمون Germond كاتب العدل الحالى فى سانتروبيز الذى بحث بحثاً دقيقاً فى هـذه المسألة

....

أقول ان أخبار وقائع العرب الذين احتلوا هذا الجبل قد رنت فى أناصى آسية فكتاب العجم سموه كولاتلال كلمة تفيد معنى جبل القلال واننا نجد تحت نمرة ٣٨٤ من المخطوطات الفارسية من الخزانة الامبراطورية هذه الكلمات :

كولا قلال جزيرة است ودر كوهى است ودر روزكار قديم خراب بوده است ونامسكون جون اسلام قوت كرفت ازن مسلمانان انجا افادانجا مقام ساختند وساكن شدند واكنون در روى فرنك باشند وميان ايشان وكافران پيوسته جنك باشند

ومعناه جبل القلال جزيرة اوشبه جزيرة واقعة فى وسط سلسلة جبال كان هذا الجبل فى الماضى مهملا غير مسكون فلما انتشر الاسلام جاء بعض المسلمين الى هذا المحل واستوطنوه وهم الآن هناك واقفون فى وجه الافرنجة الذين يحيطون بهم ولا يزالون معهم فى جلاد مستمر

ثم قد وجد فى كتاب فارسى من قبيل عجائب المخلوقات للقزوينى واسمه كاسمه وموضوعه كموضوعه الجملة الآتية : قلال كوهى است ميان دريان روم خراب بودا باداں كردند ودر وجه مصالح افرنجه نهادند واكراين كولا نبودى اسلام برنج امدى

أى جبل القلال جبل واقع فى وسط بحر الروم وكان خرابا واقد سكن فيه اناس وأووا الى هذا الجبل فى جهادهم للافرنج ولولا هذا الجبل لكان على الاسلام خطر عظيم

هذا كلام رينو بنصه ويتخلص منه ان جبل القلال ليس بجزيرة بل شبه جزيرة واذا رجعنا الى جزيرة مقاطعة الفار Le Var على حدود ايطالية وجدنا أن المحل الذى يحمل فيه هذا العالم جبل القلال شبه جزيرة . ثم انى قد راجعت ماقاله رينو فى كتابه فتوح المسلمين بفرانسة من صفحة ١٥٧ الى صفحة ٢١٠ فرأيت ان وصف جبل القلال فى كتاب ابن حوقل من حيث امتناعه ينطبق تماماً على فركسيناتوم وأما قوله ان العرب يجعلون هذا الجبل من ضمن الاندلس لانهم يسمون بهذا الاسم كل البلاد الواقعة فى جنوبى اوربة الى الغرب فأظن انه غير مصيب بل السبب فى ذلك هو ان جبل القلال كان تحت حماية خلفاء قرطبة وقد ذكر هذا رينو نفسه فى كتابه الآنف الذكر صفحة ١٨٧ فقال : ان أوتون كان أنشأ علاقات مع أعظم ملوك عصره لاسيما خليفة قرطبة الذى كان هو الحامى للمستعمرة العربية فى فركسيناتوم ويظهر من كتاب رينو ان فركسينة كانت عاصمة الممتلكات الاسلامية فى فرنسة وسويسرة وايطالية الشمالية . وهذه الأهمية التى أشار اليها ابن حوقل والاصطخرى لم تكن لجزيرة سردانة وعلى كل حال فانى أظن الآن ان جبل القلال هو فركسيناتوم ويبقى مع هذا مجال للبحث للوصول الى الاقتناع العلمى المبنى على الحجج القاطعة . انتهى كتاب محمد الفاسى رئيس جمعية طلبة شمالى افريقية فى باريز .

يظن أنه كان توجد غابة دردار فى قعر الخليج على شاطئ البحر ، وأنه كان توجد قرية رومانية اسمها فركسينيتو احتلها العرب ثم هدموها واختاروا قمة من الجبل لانشاء معقل لهم سموه فركسينيت Fraxinet ومن رأي المسيو جرمون أن ذلك المعقل كان أشبه بمخفر يقصدون منه الاشراف على سهول بروفنس السفلى وذلك لأن المكان لايزيد محيطه على ثلاثمائة قدم ولا يتسع لأكثرمن مائة رجل لاغير . ويظن المسيو جرمون أن المعقل الأصلى الذى كان العرب يعولون عليه هو على نصف فرسخ من هناك ، بقرب البحر ، فوق جبل يقال له اليوم « سيدة ميرمار » Notre Dame de Miremar حيث توجد آثار مهمة وخنادق عميقة . وأما المسيو بوش صاحب تاريخ بروفنس فيظن أن العرب قد أطلقوا اسم فركسينيت على حصون كثيرة شادوها فى دوفينى وسافواى وبيمونت . واننا نرى رأى بوش هذا صواباً لكثرة وجود هذا الاسم فى هذه النواحى

ولما انتهى العرب من بناء حصنهم بدأوا بشن الغارات فى النواحى القريبة منهم وصادف ذلك تلك المحاربات الداخلية التى كان حامياً وطيسها بين زعماء البلاد فصارت كل فئة تجتهد أن تجذبهم الى نفسها ، ثم عند ما نمت شوكتهم عدوا أنفسهم سادة لتلك الأرض واستولى الرعب على قلوب الجميع من عاديتهم وأصبح لايرتفع فى وجههم رأس ولا ترتقى الى مصارعتهم همة . ومن جملة الأدلة على ذلك أنه وجدت فى قبر القديسة مادلينه فى فيزلاى Vezelay من بورغونية كتابة تفيد أن جسد القديسة نقل من مدينة اكس فى بروفنس الى هناك ، خوفاً من العرب . وكان وجود هذه الكتابة قد انكشف سنة ١٢٧٩ . راجع فى ذلك تاريخ هينو Hainut تأليف جاك دوغويز DeGuyse وتاريخ بروفنس تأليف بوش

وكان العرب يتقدمون يوماً فيوماً نحو جبال الألب تعلقاً وتسلقاً حتى وقفوا فى أعلاها . وكانت مملكة آرل خاضعة للويس بن بوزون المتقدم الذكر . وكان لويس هذا سار بجيش الى ايطالية لمقاتلة بيرانجة ملك لونباردية فترك بلاده بدون حامية تقريبا وصارت ثغوره عورة وكان النرمنديون يعيثون فى قلب فرنسة وكادوا احدى المرار

يستولون على باريز . وجاءت فرقة من البرابرة الوثنيين من الشرق وهم المجر فعاثت وخربت جانباً من ألمانية ثم من ايطالية وأوشكت أن تدخل إلى فرنسة

وفي سنة ٩٠٦ اجتاز العرب مضايق دوفيني Dauphiné وقطعوا جبل سنيس Mont Cenis حتى انتهوا الى دير نوفاليز على حدود بييمونت ، في وادي سوزة . وكان رهبان الدير قد تمكنوا من الفرار الى مدينة توزينو ومعهم ذخائر القديسين وما في الدير من أشياء ثمينة ، ومن جملتها خزانة كتب نفيسة فلما وصل العرب لم يجدوا في الدير الا راهبين بقيا كحراس فيه ، فنهب العرب الدير والقرية ، واحرقوا الكنائس

جاء ذلك في تاريخ دير نوفاليز الوارد في مجموعة موراتوري : وفيه أنه كانت هناك كنيسة صغيرة باسم القديس هلدراد Heldrad من رجال اوائل القرن التاسع فأحرقوها وفر كثير من الاهالي الى الجبال بين سوزة وبريانسون Briançon واعتصموا بدير أولكس Oulx فاقتص العرب آثارهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً حتى سمي ذلك المكان بساحة الشهداء (راجع مجموعة دير اولكس التي نشرها ريفانتلا في تورينو سنة ٧٥٣) وكان الاهالي قد اجتمعوا وثاروا بالعرب، وقبضوا على أناس منهم وساقوهم الى تورينو، واعتقلوهم في دير القديس اندراوس . ولكن هؤلاء الاسرى حطموا الأصفاد التي كانوا مقيدين بها واحرقوا الدير وافلتوا وكادوا يحرقون جانبا من المدينة . ثم ان العرب قطعوا المواصلات بين فرنسة وايطالية ، واحتلوا جميع مضايق جبال الالب ، فصار مرور النـاس عائداً الى اذنهم . وسنة ٩١١ كان رئيس اساقفة اربونة يريد السفر الى رومة لمهم مستعجل فلم يقدر على السفر خوفاً من العرب . وكانوا لايسمحون لاحد ان يمر بدون ان يأخذوا منه رسماً معلوماً. ثم شرعوا يشنون الغارات على سهول بييمونت ومونفرات Montferrat . وفي سنة ٩٠٨ نزل بعض قرصـان العرب في سواحل لنغدوق بقرب ايغمورط ونهبوا دير الترتيل الذي كانوا هدموه في زمان شـارل مارتل ثم اعيد بناؤه

وكان صعد على عرش قرطبة سنه ٩١٢ عبد الرحمن الثالث الملقب بالكبير والذي تولى الملك خمسين سنة وجمع تحت حكمه بلاد الاندلس قاطبة وكان من ايمن ملوك الدهر

نقية اوصل الاندلس الى اعلى ذرى الهناء والسعادة والمجد ، وهو اول من تلقب من امرآئها بالخليفة امير المؤمنين

وكان حنشو غرسية ملك نابار واوردونة ملك ليون تحالفا مع ابن حفصون الثائر على المسلمين ، وبالاتحاد مع مقاتلة الفرنسيس وقفوا فى وجه جيوش عبد الرحمن . الا ان عبد الرحمن سنة ٩٢٠ ارسل عمه المسمى ايضاً عبد الرحمن ، والملقب بالمظفر ، فهزم جيوش الاعداء وقطع جبال البيرانة واكتسح جانباً عظيماً من غشقونية ووصل الى ابواب مدينة طلوزة ثم اصيب فى رجوعه بفشل اذهجم عليه غرسية بن حنشو أو سانجه كما يقول العرب واسترجع منه جميع الغنائم التى غنمها [١]

---

(١) جاء فى نفح الطيب : وأخبار الناصر طويلة جداً وقد منح الظفر على الثوار واستنزلهم من معاقلهم حتى صفا له الوقت وكانت له فى جهاد العدو اليد البيضاء فمن غزواته أن غزا سنة ثمان وثلاثمائة الى جليقية وملكها اوردون ابن اذفونش فاستنجد بالبشكنس فهزمهم ووطىء بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب حصونهم ثم غزا بنبلونة سنة اثنتى عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقل وخرب الحصون وأفسد العمائر وجال فيها وتوغل فى قاصيتها والعدو يحاذيه فى الجبال والأوعار ولم يظفر منه بشىء ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوار عليه وكان استمد بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الثائر من النصارى أهل ألبة وفتح ثلاثين من حصونهم

وبلغه انتقاض طوطة (ملكة الباشكنس) فغزاها فى بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع الى قرطبة . ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين الى جليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون . وقعد بعدها عن الغزو بنفسه ، وصار يردد البعوث والطوائف الى الجهاد . وبعث جيوشه الى المغرب ، فملك سبتة وفاساً وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره

ولما هلك سانجة بن فرويلة ملك الباشكنس قامت بأمرهم بعده أمه « طوطة » وكفلت ولده ، ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحى بنبلونة ورد عليها الغزوات وكان قبل ذلك سنة اثنتين وعشرين غزا الى خشتمة ثم رحل الى بنبلونة ، فجاءته طوطة بطاعتها ، وعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل الى ألبة وبسائطها فدوخها وخرب حصونها ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذ ردمير بن اردون فتحامى عن لقائه ودخل خشتمة فنازله الناصر فيها وهدم برغش وكثيراً من معاقلهم وهزمهم مراراً ورجع الخ .

وجاء فى كتاب أخبار مجموعة : وأما عبد الرحمن بن محمد الأمير فانه ولى الخلافة والفتنة قد طبقت آفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد، لم يقابل به أحداً ممن خالفه

فامتد الصريخ فى بروفنس ودوفينى وبلاد الالب ، من اعمال غزاة العرب ، وحاول بعضهم ان يقاوموهم بالسلاح فهلكوا لعدم اجتماع كلمتهم . وكانت مرسيلية أيضاً قد نالها عيثهم ، وخرب العرب كنيستها العظمى ، وكذلك أغاروا على اكس . وروى بوش فى تاريخ بروفنس وغويز فى تاريخ هيمو ان العرب سلخوا جلود بعض من وقعوا فى ايديهم احياء [1]، وفر مطران اسمه «اودول ريكوس» الى مدينة «رنس» فى الشمال. وكان العرب يسبون نساء البلاد ويبنون بهن بما نشر سلالتهم فيها ، ولاشك أنه قد انضم اليهم أناس من ابناء البلاد ممن لا يبالون على اي جنبيه وقع الامر

وبلغ من شدة الذعر أن الاغنياء صاروا يجلون الى جهة الشمال فرارا من بطش العرب وجاء فى سيرة القديس ميول Mayeul فى مجموعة البولنديين ان القديس الذى كان أهله اغنياء من ابنيون فر من وجه العرب الى برغونية . واحرق العرب كنائس سيسترون Sisteron وغاب Gap وقتلوا فى انبرون Embrun القديس بنديكتوس رئيس الاساقفة ومطرانا آخر معه . وجاء فى تاريخ خطط الالب العليا تأليف المسيو

أو خرج عليه الا غلبه ، واستولى على مافى يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حماتها واستذل رجالها وهدم معاقلها ، وضرب المغارم الثقيلة على من استبقى من أهلها ، وأذلهم بعسف العمال غاية الاذلال ، حتى دانت له البلاد وانقاد له أهل العناد ، فمات ابن حفصون فى حصاره ، وقتل سليمان ابنه محارباً له ، واستنزل سائر بنيه وأهله وأمنهم ، وساروا فى جنده

وملك « ببشتر » وبناها ، وحصنها ، وهدم كل حصن غيرها . وذكر أنه انما استبقاها عدة لنفسه واولاده ، ليلجأ اليها ، لما كانوا يحدثون فى الآثار من أن فتناً تهيج فى الاندلس بخوارج يخرجون على أهلها يخربون البلاد ويقتلون الرجال ويسبون النساء والأولاد حتى يعم الفساد جميع أقطارها فلا يبقى فيها الا من اعتصم بالمعاقل أو لجأ الى البحور ، وهو عندهم الفساد المتصل بالبلاء الأعظم الذي لاصلاح بعده ولا بقاء معه والله أعلم . وهو المستعان . واتصل ملك عبد الرحمن خمسين سنة فى عز منيع وسلطان قاهر . وافتتاح البلدان شرقاً وغرباً الخ .

قلت : وسنأتى بخبر الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى على أتم وجه ان شاء الله فى الأجزاء التالية التى فيها الكلام عن نفس الاندلس

(١) نحن ننقل روايات مؤرخى الافرنج فى القرون الوسطى على علاتها وان كنا نعلم ما فيها من المبالغات ولاسيما ما كان منها مكتوباً بأقلام القسيسين الذين يخلطون التاريخ بالدعاية

لادوسيت Ladoucete خبر ثلاثة أبراج محصنة فى انبرون كان العرب نزلوا بها وبواسطتها ملأوا تلك الناحية خوفاً وكان القديس ليبرال قد انتخب خلفا للقديس بندكتس فاراد ان يدخل انبرون ولكنه لم يجرؤ على ذلك بسبب وجود العرب هناك ورجع من حيث اتى

وكان من عادة اهالى فرنسة واسبانية وانكلترا ان يذهبوا الى رومة ، ولو مرة فى العمر ، لزيارة قبور الرسل . ولم يكن بد من علاقات الاساقفة والقسيسين برومة كما لا يخفى ، ولكن معابر الالب صارت كلها الى ايدى العرب ، وصار هؤلاء يعتدون على السابلين. وبرغم ان الناس كانت تجتمع قوافل وتسير بالاسلحة لم تكن تمضى سنة بدون ان تحصل فى تلك المعابر وقائع دموية حسبما جاء فى مجموعة مؤرخى فرنسة

وفى تلك الايام وصل المجار الى فرنسة ، وملأوا البلاد عيثا وتدميرا ، ورأى الاهالى فيهم تصديق نبوة حزقيال عن ياجوج وماجوج. ولما كانت سنة الالف للمسيح ظن الناس انها قد ازفت الساعة ، وسأل مطران فردن Verdin احد القسيسين عن صحة هذه المسألة وهل المجارهم ياجوج وماجوج أم لا ؟ فطمأن القسيس خاطر المطران قائلا له : إن من اشراط الساعة أن يأتى ياجوج وماجوج ومعهم شعوب اخرى ، والحال ان المجار جاءوا وحدهم ، فلا تنطبق هذه النبوة عليهم ، على انه من المحقق انهم فى العيث والتدمير بذوا الاولين والآخرين

ثم ان بلاد بييمونت ومونفرات كانت ميدانا لغارات العرب. روى مؤرخ دير نوفالزه أن أحد أعمامه ، وكان من قواد الجند ، ذهب من « مويين » الى «فارسل» فداهمته عصابة عربية فى احدى الحراج بقرب البلدة فتقاتل الفريقان وجرح عدد منهما ووقع بعض المسيحيين أسرى فاخلى العرب سبيل بعضهم واستبقوا القادرين منهم على الفدية ، وبقى عم الراوى وخادمه فى ايديهم. وكان والد الاسير المذكور مارا من هناك فعلم بالخبر والتزم ان يجول فى المدينة وان يقترض مبلغا من المال ليفك به ابنه مع خادمه. وروى هذا المؤرخ ان العرب كانوا وصلوا الى حدود ليغورية (على خليج

جنوة) وذكر المؤرخ الشهير ليوتبراند (١) الذى عاش فى الثلث الاول من القرن العاشر ان العرب اغاروا على مدينة آكى Aqui احدى مدن مونتفرات المشهورة بحماماتها المعدنية ولكنهم انهزموا فى تلك الواقعة ، ويقول المؤرخ نفسه ان بعض فرسان العرب دخلوا مدينة جنوة وقتلوا ونهبوا وسبوا كثيرا من النساء والاولاد

وكان الاساقفة الذين فروا من وجه العرب فى بروفنس والرهبان وغيرهم قد لجأوا الى بلاد فاليه Valais من سويسرة فجاء العرب ودخلوا هذا الوادى واكتسحوه

وكان هنالك دير على اسم الشهيد القديس موريس (٢) كان الامبراطور شارلمان وغيره من الملوك اولوه مزيد العناية فجعله العرب دكا، على مافى تاريخ غالية كرستيانية Gallia Christiana وذهب بعض المؤرخين الى ان المسلمين كانوا هدموا هذا الدير سنة ٩٠٠

وجاء فى مجموعة الدون بوكه ان العرب استولوا على ناحيـة تارنتيس وان قافلة كانت ذاهبة من فرنسة الى ايطالية ، فوقعت فى يدهم واضطرت الى الرجوع بعد ان قتل عدد منها

ولما استولى العرب على فاليه تقدموا الى أواسط كورة غريزون (٣) وكان هنالك دير شهير اسمه دير دى زانتيس Disentis بناه احد تلاميذ القديس كولومبان فنهبه

....

(١) ليوتبراند Liutprand مؤرخ المانى من أشهر المؤرخين ولد سنة ٩٢٢ وهو من أسرة شريفة فى لونباردية نشأ فى معية الملك هوغ فى بافية وسنة ٩٤٥ بعد خلع الملك هوغ دخل فى خدمة خلفه برنغار وتوفى سنة ٩٧٠ وكتب كتابين باللاتينية أولهما يسمى معالى الامبراطور اوثون الكبير

(٢) سان موريس بلدة فى وادى الفاله على السكة الحديدية المؤدية الى نفق السپلون الى ايطالية تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية نحواً من ساعتين. تنسب هـذه القصبة الى دير القديس موريس الذى فيها وهذا الدير قد بناه سجيسموند دوق بورغونية فى القرن السادس للمسيح حسبما روى لى القسيس القيم على مكتبة الدير وذلك عندما زرت هذا الدير مؤخراً منقباً عن آثار العرب هناك كما سيأتى الكلام عليه

(٣) Grisons من مقاطعات سويسرة مركزها كوار

العرب وجردوه من كل حلاه . وكذلك فعلوا بكنيسة « كوار ». روى ذلك المؤرخ اشبريخر Sprecher .وقيل ان المطران فالدو Wualdo شكا سنة ٩٤٠ من غارات العرب المتواصلة وان آثار تلك الغارات كانت باقية الى سنة ٩٥٢ وان الامبراطور اوتون اقطع المطران المذكور إملاكا على سبيل التعويض بموجب مرسوم مؤرخ فى سنة ٩٥٦.ورد ذلك فى مجموعة تاريخية المانية طبعت فى كوار . وكانت سويسرة يومئذ تابعة لمملكة بورغونية

وكانت الحرب فى تلك الايام مشتعلة بين ملوك اشتورية ونابارة من جهة ، وخليفة قرطبة من جهة اخرى ، وتواقف الفريقان عند زمورة ، فانهزم المسلمون فى تلك الواقعة وقتل منهم نحو من مائة الف(١) ولكن عبد الرحمن الناصر كان يقدر أن

....

(١) هذه الوقعة شهيرة ويقول ابن خلدون ان عبد الرحمن الناصر كان كثير الجهاد بنفسه والغزو الى دار الحرب الى أن هزم عام الخندق سنة ٣٢٣ وأما ابن الاثير فيجعل هذه الواقعة سنة ٣٢٧ ويقول انه فى تلك السنة عصى أمية بن اسحق بمدينة شنترى على عبد الرحمن الأموى لأنه قتل أخاه فالتجأ الى رودمير ملك الجلالقة وغزا عبد الرحمن بلاد الجلالقة فانهزمت الجلالقة وقتل منهم خلق كثير ثم خرج الجلالقة وظفروا بالمسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأراد رودمير اتباعهم فمنعه أمية وخوفه ورغبه فى الغنيمة وعاد عبد الرحمن فجهز الجيوش الى بلاد الجلالقة فألحوا عليهم بالغارات وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين . انتهى

أما فى أخبار مجموعة فانه يقول : ان عبد الرحمن الناصر في آخر أمره مال الى اللهو واستولى عليه العجب واستمد بغير الكفاة وغاظ الأحرار باقامة الأنذال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد. فقلده عسكره وفوض اليه جليل أموره والجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم الى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه وحال نجدة حال مثله فى غيه واستخفافه وركاكة عقله فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم فى الغزوة التى غزاها عام ستة وعشرين وثلاثمائة وسماها غزاة القدرة لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها فهزم فيها أقبح هزيمة واتبعهم العدو أياما يأسرونهم ويقتلونهم فى كل محلة فلم يكد ينجو منهم الا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم وتخلصوا الى بلدانهم فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه اه . وذكر المسعودى في مروج الذهب هذه الغزاة فقال : وكان عبد الرحمن فى مائة ألف أو يزيدون فكانت وقعة بينه وبين ردمير ملك الجلالقة فى شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بعد الكسوف الذى كان فى هذا الشهر وكانت للمسلمين عليهم ثم أنابوا بعد أن حوصروا واولجوا الى المدينة فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق

يجمع جميع قوى المسلمين فى الاندلس فلم تكن هزيمة كهذه لتكسر من شوكته ، وكان فى استطاعته وقتئذ ان يفحش النكاية بالمسيحيين لولا اشتغاله بالفتوحات فى افريقية ولولا ظهور الدولة الفاطمية التى اخذت تجاذب الدولة الاموية الحبل ، فكان هذا من حسن حظ المسيحيين

وكانت مدينة فريجوس فى مقاطعة الفار بلدة عامرة ومرسى عظيما للسفن ، فأغار عليها العرب واجتاحوها اجتياحاً شديداً حتى لاذ أهلها بالفرار وتركوها كجوف حمار ، واخذ المسيحيون الذين فى السواحل كلها ينسحبون الى الجبال ، وكان فى ذلك الوقت الكنت هوغ Hugues ملكا على بروفنس فأعلن عزمه على طرد المسلمين من تلك الاطراف ، ولما كان اهم معقل لهم هنالك هو حصن فراسينت الذى منه كانت تنبعث غاراتهم الى داخل البلاد ، اجمع هوغ ان يهاجم هذا الحصن . ولما كان مصاهراً لامبراطور القسطنطينية أرسل اليه يطلب منه انجاده . باسطوله ، وكان الروم يملكون نفاطات يقال لها النار الاغريقية ، فكانت تحرق المراكب بمجرد ما تصيبها. ففى سنة ٩٤٢ زحف هوغ على حصن فركسينت بجيش جرار من البر. وجاء الاسطول الرومى من البحر فاحرق مراكب العرب التى فى الخليج كما ان جيش هوغ تمكن من الحصن والتجأ العرب الى الجبال المجاورة ولكن جاء الخبر الى هوغ وهو فى هذه الحرب مع العرب بان بيرانجة Berenger الذى كان ينازعه مملكة ايطالية ، وكان قد فر الى المانية ، رجع الى ايطالية يحاول ان يتنسم ريح الدولة ثانية فنسى هوغ الخطر الواقع على بلاده

خمسين ألفا وقيل ان الذى منع رودمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن اسحق فقد خوفه الكمين ورغبه فى ما كان فى معسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ثم ان أمية بعد ذلك استأمن الى عبد الرحمن وتخلص من رودمير فقبله عبد الرحمن أحسن قبول وقد كان عبدالرحمن بعد هذه الوقعة جهز عساكر مع عدة من قواده الى الجلالقة وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين فى الوقعة الأولى وكانت للمسلمين عليهم الى هذه الغاية وردمير ملك الجلالقه الى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة انتهى كلام المسعودى المعاصر لتلك الوقائع .

من العرب وأسرع الى مهادنتهم بشرطان يقطعوا الطريق فى معبر سان برنار وسائر معابر الالب على بيرانجة . روى ذلك المؤرخ ليوتبراند الذى بهذه المناسبة أفحش الطعن فى هوغ وقال انه جاء بها صلعاء لاسبيل للعذر فيها، وبلغ من حدته أنه أخذ يخاطب معبر سان برنار فيقول له شعراً معناه : انك تسهل هلاك الاتقياء وتجعل نفسك حصنا واقيا للطغاة الذين يقال لهم المورو افلا تخجل ايها التعس من أن تبسط ظلك على أناس يسفكون الدم البشرى ويعيشون من قطع الطريق ؟ وماذا أقول لك ، لعمرى جدير بك أن تنقض عليك صاعقة أو أن تكسر تكسيراً أو أن تفنى فناء أبديا ! الخ

ومن بعد هذه الحادثة ازدادت جرأة العرب ونفحوا عرفهم واستقرت قدمهم فى البلاد وأصبحوا كأنهم سيلبثون أبدياً فى قلب أوربة فأخذوا يتزوجون من أنفس الاهالى ويحرثون ويزرعون كسائر الفلاحين وكان امرآء النواحى يكتفون بان يأخذوا منهم إتاوة خفيفة ، وربما اعتضدوا بهم فى بعض الأحايين . أما الذين كانوا فى أعالى الجبال فقد كانوا يتقاضون المارين الاموال الفادحة ، ويقتلون من يمتنع عن دفع مايطلب منه ، وأما معبر سان برنار الكبير الذى كان يسمى من قبل بجبل المشترى فقد كان من قديم الدهر بموقعه بين فاله Valais ووادى أوسط Aoste هو واسطة الاتصال بين سويسرة وايطالية. ولما استولى عليه العرب وعلى غيره من المعابر تمكنوا من سائر النواحى المجاورة

وكانت مدينة نيس (أونيقة) تابعة لمملكة آرل وكانت أيضا تحت طائلة العرب ويظهر أن جماعة من المسلمين كانوا يسكنون فى نيس ، لأن دورانت يذكر فى تاريخ نيس أنه كان فيها ناحية للمسلمين Canton Des Sarrazins

وقد احتل العرب أيضا مدينة غرانوبل Grenoble مع الوادى المريع المسمى وادى غرازيفودان Graisivaudan وذهب مطران غرانوبل ومعه ذخائر القديسين وكنوز الكنيسة والتجأ الى دير دونات Donat فى فلانس الى الشمال. ولا يعلم تماما فى اية سنة دخلوا

غرانوبل وانما من المحقق أن العرب فى سنة ٩٥٤ كانوا استولوا على هذه البلدة لأنه وجدت كتابة منقوشة على حجر تاريخها سنة ٩٥٤ تدل على وجود المسلمين فى غرانوبل . والغالب على الظن ان مسلمى بيمونت كانوا قد اتخذوا لانفسهم عدة معاقل كانوا يعتصمون بها عند الحاجة. وقد ذكر مؤرخ دير نوفاليزة حصنا من هذا النمط كان يحتله العرب باسم فراسنيدلوم Frascenedellum وهو مكان بقرب كازال على نهر البو Po وكان هذا المحل يسمى أيضاً فركسيناتوم ، وقيل بل هذا الحصن هو الذى يسمى الآن فنسترال Fenestralle

وعلى كل حال فلينظر القارىء الى مؤرخ معاصر شاهد الحوادث بعينه وهو مؤرخ دير نوفاليزه، فقد قال: ان العرب كانوا يسبون النساء والاولاد والخيل وغير ذلك وكان قد دخل معهم أفاق من أهل البلاد اسمه ايمون Aymon طمعاً فى الغنائم فوقعت فى أيديهم مرة امرأة بارعة فى الجمال فاستأثر بها ايمون لنفسه فجاء أحد زعماء العصابة العربية وانتزع تلك الحسناء من يد ايمون بالقوة فغلت مراجل الغضب فى صدر ايمون وثار للانتقام فذهب الى الكنت روتبلدس [1] الذى كان صاحب السيادة فى بروفنس العليا وكاله بالسر الخفى فى قضية طرد العرب من البلاد. وكان للعرب سعاة وجواسيس فى كل محل فاجتهد ايمون أن يكتم مسعاه بكل ماأمكنه حتى تمكنوا من استنفار الناس بدون أن يشعر العرب ، واجتمع الامراء والزعماء وقادوا الأهالى وهاجموا العرب وأخمدوا جمرتهم ورفعوا نيرهم عن اعناق الاهلين . قال هذا المؤرخ وإن عائلة ايمون هذا كان لايزال منها بقايا الى زمانه

وفى سنة ٩٥٢ كان المجار قد اكتسحوا الالزاس ، وصارت جميع بلاد جبل جوراه Jura تحت خطر احتلالهم ، ففكر كونراد الذى كان اميرا على بورغونية وسويسرة وفرنشكونتى ودوفينى فى تدبير حيلة للتخلص من المجار والعرب معا ، فكتب الى العرب كتابا يقول لهم فيه ان لصوص المجار قد سمعوا بخصب الاراضي التى فى أيديكم وهم

---

(١) Rotbaldus يقول رينو انه قد يكون روتبلدس الثانى كونت فوركالكية الذى كان يعيش فى نواحى سنة ٩٤٥ على ما فى تاريخ بروفنس للمسيو بوش .

عامدون الى انتزاعها منكم ، فتعالوا الىّ لنزحف اليهم معا ونبيدهم . وفى الوقت نفسه كتب الى المجار قائلا لهم : لماذا ينازع بعضنا بعضا ؟ ان المسلمين هم الذين بايديهم أخصب البقاع ، فتعالوا إلىّ لنزحف اليهم ونطردهم وحينئذ أنا اجعلكم فى مكانهم . قال هذا وعين للفريقين مكانا للقاء فحضر الفريقان وألتحمت الحرب بينهما من نفسها وكان السكنت قد حشد عساكره وكمن لهم جميعا فلما اشتبكوا فى الملحمة انقض عليهم بجيشه فذبحهم ولم ينج منهم الا القليل فارسل بقية السيف الى آرل وبيعوا فى أسواقها ارقاء

جاء هذا الخبر فى مجموعة الدون بوكه ولم نعلم تماما فى أى مكان حصلت هذه المعركة . وكان مركز العرب الاصلى فى بروفنس وكان المجار فى الالزاس وفرنشكونتى فالمظنون ان هذه الوقعة حصلت فى نقطة متوسطة كأن تكون مثلا فى السفواى وقد ثبت ان العرب أقاموا طويلا فى السفواى وكانت تسمى موريين Maurienne حتى ذهب بعضهم الى أن هذه اللفظة مشتقة من لفظة المورو التى تطلق على المسلمين المغاربة . ولكن هذا الزعم هو خطأ لأن هذه اللفظة معروفة منذ القرن السادس للمسيح . وكيف كان الحال فقد أقام العرب طويلا بسفواى . وقد علمنا أن المطران بيلية Billiet أسقف سان جان دومورين قام بمباحث دقيقة فيما يتعلق بتاريخ بلاد سفواي فعثر على أسماء كثيرة تدل على وجود العرب هناك لا سيما فى جوار مودان Modane اذ يوجد واد يقال له وادى السرازين وقرية اسمها فريناي Freney وقد ذكر بوش مؤرخ بروفنس ما يؤيد هذا القول .

وكان المسلمون يجولون فى جميع أنحاء سويسرة بلا معارض كأنهم فى ديارتهم وقد تقدموا الى أن صاروا على أبواب مدينة سانغال وعلى ضفاف بحيرة كونستنز وكانوا يعتدون على الرهبان الذين كانوا هناك فلا يخرج منهم أحد إلا رشقوه بسهم، وكانوا قد ألفوا سكنى الجبال والسير فى الأوعار ، حتى قال أحد الكتاب المعاصرين انهم صاروا أشبه بالمعزى فى خفة أقدامهم وسهولة سيرهم فى حروف الجبال . وكانوا قد بنوا أبراجاً فى أماكن متعددة يقال ان آثارها لاتزال موجودة . وكانوا قد ألحقوا أضرارا لا تحصى

بالمسيحيين. وذكر مؤرخ دير سانغال Saint - Gall فى كتاب داخل فى مجموعة برتز أنه كان يوجد رئيس للدير المذكور اسمه «فالتون» قد جمع عصابة من الرجال الأشداء وسلحهم بالحراب والفؤوس وهاجم هؤلاء البرابرة بغتة، فقتل أكثرهم ومن نجا منهم قبض عليه، وساقوا الاسرى الى الدير، فأبى هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا، فماتوا جوعا !

وفى أثناء ذلك تغلب الألمان على المجار، وكسروا شرتهم، فنشقت سويسرة نسيم الفرج. ولكن البروفانس والدوفينى وجانبا من جبال الالب بقيت تحت طائلة العرب الذين كانت ترد اليهم الامدادات من البحر. وكانت هذه البلدان لاتستريح ماداموا فيها. وكان الرجل العامل المدبر اذ ذاك، بين ملوك أوربة، أوتون ملك جرمانيـة الذى لقب فيما بعد بالامبراطور والذى استحقت له خلاله المجيدة لقب «الـكبير» فدخل اوتون فى علاقات مع خليفة قرطبة الذى كان أشبه بالحامى لمستعمرة فراكسينيه العربية، فعزم اوتون لأجل الدفاع عن حقوق النصرانية أن يبعث بسفارة الى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وكان قدجاء الى اوتون كتاب من عبدالرحمن لايخلو من عبارات فيها غض من الدين المسيحى، بحيث اعتمد أوتون بخاصة أن يجعل فى سفارته الى قرطبة عالماً لهوتياً يمكنه الاعتماد عليه فى الأخذ والرد مع علماء المسلمين، فوقع الاختيار على راهب من دير غورز Gorse بقرب متس كان يقال له جان وكان بلغ من تضلعه فى علم اللاهوت أن حاول اقناع الخليفة عبد الرحمن بالتنصر.

وقد كانت هذه السفارة فى سـنة ٩٥٦ والمؤرخون من المسلمين ومن النصارى متفقون على ما بلغته قرطبة لذلك العهـد من العظمة والمجـد فقد كانت فيها العلوم والمعارف والصنائع والفنون والسياسة، والـكياسة قـد أدركت الأمد الأقصى فى وقتها، وكانت أوربة المسيحية مدهوشة بعظمة قرطبة وكان عبد الرحمن مقصداً لجميع ملوك العصر، وكان يراسله البابا وامبراطور القسطنطينية وملوك اسبانيـة وفرنسة والمانية وبلاد الصقالبة، وكان ملوك المسيحيين ـ بحسب قول مؤرخى العرب ـ يبسطون

أيدى الخضوع للخليفة ، ويعـدون شرفا عظيما لهم أن يرسل الخليفة يده لسفرائهم ليقبلوها وذلك لجلالة قـدره فى أعينهم ولطف منزلته فى أنفسهم وكان عبد الرحمن الناصر عندما تقدم عليه وفود هؤلاء الملوك لاسيما وفد ملك الروم ، يبالغ فى الاحتفال ويتكلف الكلف الثقال ويأمر باستقبالهم بالعساكر والأعوان وباظهار جميع عظمة الخلافة فكانوا يفرشون لهم الشوارع التى يمرون بها بفاخر البسط والديباج وكانت الألوف من حرس الخليفة الخاص وأمامهم الأمراء وعظماء الدولة يصطفون على الجانبين ومنهم بطانة تحيط بعرش الخليفة وبعد ذلك يقوم الأئمة ويخطبون فى هذا الحفل بما يناسب المقام من وصف عز الاسلام واظهار مناقب الامام ثم يتلوهم الشعراء بالقصائد الطنانة التى تزيد من ابتهاج الحاضرين وحماسة السامعين (١)

---

(١) وصف ابن خلدون كيفية استقبال عبد الرحمن لرسل صاحب القسطنطينية ، قال : ركبت فى ذلك اليوم العساكر بالسلاح فى أكمل شكة وزين القصر بأنواع الزينة وأصناف الستور وجمل سرير الخلافة بين مقاعد الابناء والاخوة والأعمام والقرابة ، ورتب الوزراء والخدمة فى مواقفهم ، ودخل الرسل فهالهم ما رأوه وقربوا حتى أدوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا فى ذلك المحفل ويعظموا من أمر الاسلام والخلافة ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازه وذلة عـدوه ، فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم هول المجلس فوجموا وشرعوا فى القول فأرتج عليهم . وكان فيهم أبو على القالى وافد العراق كان فى جملة الحكم ولى العهد وندبه لذلك استئثاراً فعجز .

فلما وجموا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطى ، من غير استعداد ولاروية ولاتقدم له أحد بشىء من ذلك فخطب واستحضر وجلى فى ذلك القصد ، وأنشد شعراً طويلا ارتجله فى الغرض . ففاز بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، وأعجب به الناصر ، وولاه القضاء بعدها وأصبح من رجالات العالم . وأخباره مشهورة . وخطبته فى ذلك اليوم منقولة فى كتب ابن حيان وغيره .

ثم انصرف هؤلاء الرسل، وبعث الناصر معهم هشام بن هديل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الاجابة . ورجع بعـد سنتين ، وقد أحكم من ذلك ماشاء ، وجاءت معه رسل قسطنطين . ثم جاء رسول من ملك الصقالبة ، وهو يومئـذ دفوه ، ورسول آخر من ملك الالمان ورسول آخر من ملك الافرنجة وراء البرت، وهو يومئـذ أوفوه ، ورسول آخر من ملك الافرنجة بقاصية المشرق ، وهو يومئذ كلدة ، واحتفل الناصر بقدومهم وبعث مع رسول الصقالبة ربيعاً الأسقف الى ملكهم

أما سفارة الراهب غورز من قبل ملك فرنسة ، فانها وان لم تكن محفوفة بجميع تلك الاهمية فلم تكن خالية من الاحتفاء والاحتفال . ولقد بقي لنا عنها رحلة بقلم أحد تلاميذ الراهب المذكور يمكننا أن نلخص منها مايلي :

سافر الراهب جان ومعه راهب ثان لاغير . وكانت الهدايا التي لابدمن استصحابها هي من مال الدير الذي ينتسب اليه الراهب . فسار الراهب ماشياً على قدميه الى «فيين» Vienne على نهر الرون ، ومنها ركب في النهر الى البحر ، وركب فيه الى برشلونة التي كانت اذ ذاك تابعة لمملكة فرنسة . وانما كانت أول مدينة تخص الخليفة من الثغور هي طرطوشة [1] فلما وصل سفراء ملك افرنجة الى طرطوشة وأذن لهم عاملها بالمسير الى قرطبة تقدموا في البلاد ، وقطعوا جانبا عظيما من جزيرة

....

دوفوه ، ورجع بعد سنتين .

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة جاء رسول أوردون ، يطلب السلم ، فعقد له ، ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب ادخال فردالند قومس قشتيلة في عهده فأذن له في ذلك ، وأدخل في عهده . وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة ، ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتيلة فردلندالمذكور ومال الى أوردون بن رودمير، وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكينس ، فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رودمير الملك واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه . وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدومهم وعقد الصلح لشانجة وأمه ، وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه ، وخلع الجلالقة طاعة أوردون ، وبعث الى الناصر شكره على فعلته وكتب الى الأمم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فردلند (قومس قشتيلة) في نكثه ووثوبه ويعيره بذلك عند الأمم . ولم يزل الناصر على موالاته واعانته الى أن هلك . ولما وصل رسول كلدة ملك الافرنجة بالمشرق كما تقدم وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغباً في الصلح فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب . انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار . وسنستوفي ان شاء الله وصف الناصر وأبهة خلافته وعظمة قرطبة في ايامه في الاجزاء التالية المتعلقة بالاندلس فان محل ذلك هناك لاهنا وانما نقلنا هذا الفصل عن ابن خلدون تأييداً لما ذكره المستشرق رينو من هذا الباب

(١) وهكذا ذكر المسعودي في مروج الذهب وكان المسعودي من معاصري أيام الناصر عبد الرحمن.

الأندلس ، وهم فى ضيافة العرب بالمعهود من كرمهم . فوصلوا الى قرطبة لم يتكلفوا انفاق درهم واحد . وهناك استقبلوا براً وترحيباً وانزلوا فى محل على مسافة ميلين من قصر الخلافة

ثم ان الخليفة علم بمهمة الراهب ، وما هو مكلف تبليغه من قبل ملك فرنسة ، فأراد أن يتجنب الباحثات الدينية . وقال انه لم يكن لائقا بمقام اثنين مثل الخليفة والملك أن يدخلا فى مجادلات كهذه وانه لايسع الخليفة أن يسمع كلاماً فيه نيل من الرسول (ﷺ) ولايجوز له ذلك بحسب الشريعة (١) واقترح الخليفة أن يعد كتابه الى الملك أوتون كأنه لم يكن . ولكن جميع هذه الملاحظات لم يقبلها ذلك الراهب ، وأصر على رأيه ، وجاء مطران قرطبة ينصحه بترك هذا العناد ، فأخشن له الجواب وأخذيقرعه على هوادته وتساهله وتساهل جماعته فى أمر الدين المسيحى ، وكيف انهم قد رضوا بختان أولادهم وبالامتناع عن أكل الخنزير مسايرة للمسلمين . ولما علم الخليفة بتصلب هذا الراهب وانه راكب رأسه لاينثنى عن عزمه أبى أن يقبله وأرسل اليه قائلا انه كان قد بعث الى الملك أوتون أحد الأساقفة سفيرا عنه فانظره ثلاث سنوات ولذلك هو يريد أن يمسك سفير أوتون لديه لا ثلاث سنوات فقط بل تسع سنوات لأنه يرى نفسه أكبر من أوتون بثلاث مرات. فأجاب الراهب بأنه لا يقدر أن يخرج عن الأوامر التى فى يده من أوتون وتقرر عند ذلك أن يرسل الخليفة رسولا آخر يسأله عما اذا كان لايزال مصما على رأيه فى كيفية سفارة الراهب وأخذ الخليفة ينتدب للرسالة الى أوتون من عنده ممن يصلح لذلك ، فكان المسلمون يستعفون من تلك السفارة لأنه من المعلوم أن على المسلمين واجبات دينية يصعب عليهم القيام بها فى بلاد النصارى ومن أجل ذلك كان أكثر سفراء ملوك الاسلام الى ملوك النصارى مسيحيين ، وكثيرا ما كانوا أساقفة أو قسيسين ، ففى تلك النوبة انتدب لهذه السفارة رجل مسيحى اسمه «رسيموندس» كوفىء فيما بعد على المهمة التى قام بها

---

(١) قال رينو تحت هذه الجملة انه ورد فى قانون الدولة العثمانية أن كل من يقذف بالله وصفاته أو بنبيه الكريم أو بكتابه العزيز يعاقب بالقتل ولايستتاب ولا يمهل

بجعله اسقفاً وكان يحسن الاتينية والعربية معاً.ويظن بعضهم أن الأسقف رسيموندس هذا هو نفس رمندس الذى كانا مطراناً اسبانيولياً وكانت بينه وبين المؤرخ ليوتبرند علاقة ومودة وقـد جعل هذا تاريخه باسمـه

وفى تلك المدة كان أوتون مشغولا باطفاء فتنة أثارها عليه ابنه وصهره فلما وصل السفير الاسبانيولى من قبل الخليفة أجابه الملك الى كل مااقترحه ، وقفل الرسول الى قرطبة وقد دبر الأمور كما شاء الخليفة . ورضى الخليفة من بعدها أن يستقبل الراهب ، وكان الخليفة يعلم تقشف الراهب ومذهبه فى لبس الخشن وبعده عن مظاهر الأبهة ، فبعث اليه بأنه يريد أن يستقبله كسفير من قبل الملك ، وأنه لابد له اجلالا لقدر مرسله من قبول حالة السفارة وأنه ينبغى له أن يدخل على الخليفة بملابس لائقـة فأجابه الراهب بأنه لايجد لبسا أبهى ولاأفخر من ثوب رهبانيته ، فظن الخليفة أنه قد يكون الراهب عاجزاً عن شراء الملابس اللازمة ، فبعث اليه بعشر أقات فضة ، وكانت الأقة اثنتى عشرة أوقية ، ولـكن الراهب تصدق بهذه الفضة على الفقراء . فأرسل الخليفة اليه قائلاً انه يقبله ويحتفل به ولو جاءه فى كيس خيش

وفى اليوم المعين للاستقبال اصطفت العساكر على الجانبين ، ووقف العبيـد الصقالبة قابضين على الحراب ، ووقف آخرون بالقسى . وكانت هناك الفرسان تلعب فى الميدان وفى هذه الحالة دخل الراهب السفير ، وقد فرشت أمامه مداخل القصر بالبسط والديباج، فما زال يتقدم الى أن وصل الى البهو الذى فيه الخليفة، فوجد الخليفة جالساً على سرير الخلافة متربعا على عادة الشرقيين . فعند وصوله اليه أعطاه باطن يده تمييزا له عن غيره فقبلها الراهب، ثم أمر له بالجلوس وبعد المراسم المعتادة فى المجاملة شرع الخليفة يتكلم عن الملك اتون ومابلغه من المقام السامى بين الملوك وأثنى عليه مزيد الثناء.

ثم انه لما كان عبد الرحمن قد بلغه كون ابن الملك أوتون ثار على أبيه أنحى بشىء من اللائمة على الملك قائلا : انه لاينبغى للملوك أن تقبل أقل انتقاص من سلطتها ولا ترعى فى ذلك عاطفة اشارة الى شىء كان وقع مع عبد الرحمن نفسه ، فانه عصى عليه أحد أولاده فانتهى الأمر بأن أمر بقتله

ثم دار الكلام على موضوع الرسالة التى جاء بها الراهب سفيراً ؛ فمؤرخو العرب أو بالأقل المؤرخون الذين عرفناهم ، لم يكونوا يذكرون شيئا عن قضية احتلال العرب لسواحل بروفنس وبثهم الغارات الى الداخل ، مما يدل على أنهم لم يكونوا يأبهون لهذه الحادثة (١) على أن المؤرخ ليوتبرند الذى عاش فى ذلك العصر يؤكد أن تلك المستعمرة العربية فى جبال الألب كانت تحت حماية الخليفة نفسه ، وصاحب الرسالة التى نحن بصددها عن رحلة الراهب سفيراً من قبل الملك اوتون الى الخليفة عبدالرحمن هو نفسه يقول ان موضوع تلك السفارة لم يكن سوى التوسط لدى الخليفة لوضع حد لغارات العرب فى فرنسة وايطالية . ومن المؤسف أن الرسالة ناقصة والكلام منقطع فى أهم نقطه من الموضوع ولم يعثر الى الآن على نسخة تامة لتلك الرسالة .

هذا وفى سنة ٩٦٠ تم طرد العرب من جبل سانبرنار وليس عندنا معلومات عن تفاصيل الوقعة . ويظهر أن القديس برنار دومنتون Dementhone الذى بنى ملجأ فى أعلى هذا الجبل ، حتى نسبت الى اسمه سلسلة تلك الجبال كلها ، كان هو نفسه فى هذه المعركة .

ومات عبد الرحمن الثالث (أى الناصر) سنة ٩٦١ فخلفه ابنه الحكم الثانى ، وكان ملكاً محبا للعلوم والمعارف جانحاً الى السلم ، ففى أيامه ازداد عكوف الناس فى الاندلس على العلوم والصناعات وبلغوا منها شأواً مدهشا وغلبت الكياسة والرقة ودماثة المدنية على أولئك الأقوام الذين كانوا فى مبدأ أمرهم على جانب عظيم من الخشونة والجفاء فأما فى زمن الحكم فقد صارت الدولة للعلم وترقى به حتى النساء اللائى كان منهن العالمات والفاضلات وصاحبات المكانة فى دار الخلافة . وكان الحكم فى أوائل أيامه ، استجلابا لثقة المسلمين به ، قد غزا جليقية واشتورية

(١) قد تقدم لنا في حواشى هذا الكتاب ترجمة رسالة من قلم رينو يقول فيها : انه لما حرر هذا التأليف لم يكن اطلع على رحلتى الاصطخرى وابن حوقل فلما اطلع عليهما علم أن العرب لم يغفلوا هذه الحادثة بل كانت عندهم ذات بال

وكتالونية ودوخها ولكن المسيحيين طلبوا منه الصلح فأجابهم اليه ، ولما أخذ وزراؤه وقواده يحثونه على نقض هذا الصلح لما عند المسلمين من حب الجهاد ، أجابهم بهذه الآية البديعة من القرآن : (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا) نعم انه اشترط على كنت برشلونة وسائر أمراء الكتلان دك حصونهم القريبة من ثغوره وأخذ منهم موثقا بأنهم لن يمالئوا أحداً من ملوك المسيحيين الذين يدخلون معه فى حرب (١)

---

(١) قال ابن خلدون : ولاول وفاة الناصر طمع الجلالقة فى الثغور فغزا الحكم المستنصر بنفسه واقتحم بلد فردنرد بن غنتشاب فنازل شنت اشتابين San Estevan وفتحها عنوة واستباحها وقفل فبادروا إلى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزى غالباً مولاه بلاد جليقية وسار الى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلالقة ، ولقيهم فهزمهم واستباحهم ، واوطأ العساكر بلد فردلند ودوخها . وكان شانجة بن رومير ملك البشكنس قد انتقض فأغزاه الحكم التجيبي صاحب سرقسطة فى العساكر ، وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم ، وامتنعوا بقورية وعاثوا فى نواحيها ، وقفل . ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحي بن محمد التجيبي الى بلاد برشلونة ، فعاثت العساكر فى نواحيها . وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالباً الى بلاد القومس فعاثا فيها وقفلا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور فى كل ناحية . وكان من أعظمها فتح قلهوية من بلاد البشكنس ، على يد غالب ، فعمرها الحكم واعتنى بها . ثم فتح قطوبية على يد قائد وشقة وغنم فيها من الأموال والسلاح والاقوات والأثاث وفى بسيطها من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبي مالا يحصى .

قال : وفى سنة أربع وخمسين سار غالب الى بلد ألبه ، ومعه يحي بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فابتنى حصن عرماج ودوخ بلادهم وانصرف . وظهرت فى هذه السنة مراكب المجوس فى البحر الكبير وأفسدوا بسائط اشبونة ، وناشبهم الناس القتال ، فرجعوا الى مراكبهم . وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ، وأمر قائد البحر عبد الرحمن رماحس بتعجيل حركة الاسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل .

ثم كانت وفادة اردون بن اذفونش ملك الجلالقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير، وهو ابن عمه ، وهو المملك من قبل اردون وحمل النصرانية على طاعته واستظهر اردون بصهره فردلند قومس قشتيلة توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره ابوه الناصر ، فبادر الى الوفادة على الحكم مستجيراً به فاحتفل لقدومه وعى العساكر ليوم وفادته وكان يوماً مشهوداً ، وصفه ابن

وكان العرب لايزال منهم جماعات محتلة لبروفنس ودوفيني ولا تزال الناس هناك تخشى عاديتهم ، وكان الملوك فى منازعاتهم يستعينون بهم فيكون الترجيح بواسطتهم .

حيان كما وصف أيام الوفادات قبله ، ووصل الى الحكم وأجلسه ووعده بالنصر من عدوه ، وخلع عليه ، وكتب بوصوله ملقياً بنفسه وعاقده على موالاة الاسلام ومقاطعة فردلند القومس ، وأعطى على ذلك صفقة يمينه ورهن ولده غرسية، ودفعت الصلات والحلات له ولأصحابه وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ويقبضوا رهنه . وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن ردمير ببيعته وطاعته مع قوامس أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم ، يرغب فى قبوله ويمت بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين .

ثم بعث ملكا برشلونة وطوكونية وغيرهما يسألان تجديد الصلح واقرارهما على ما كاناعليه وبعثا بهدية وهى عشرون صبياً من الخصيان الصقالبة ، وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أذرع صقلبية ومائتاسيف فرنجية . فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التى تضر بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم ، وأن ينذروا بما يكون من النصارى فى الاجلاب على المسلمين .

ثم وصلت رسل غرسية ابن شانجة ملك البشكنس فى جماعة من الأساقفة والقوامس يسألون الصلح ، بعد أن كان توقف وأظهر المكر ، فعقد لهم الحكم . فاغتبطوا ورجعوا .

ثم وفدت على الحكم أم لذريق القومس بالقرب من جليقية ، وهو القومس الأكبر فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته واحتفل لقدومها فى يوم مشهود مشهور ، فوصلت وأسعفت ، وعقد السلم لابنها كما رغبت ، ودفع لها مالا تقسمه بين وفدها دون ماوصلت به هى وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلات لسفرها وانطلقت .

ثم أوطأ عساكره أرض العدوة ، من المغرب الأقصى والاوسط ، وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة فبثوها فى أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم . ووفد عليه من بنى الحرز وبنى ابى العافية ، فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بنى ادريس من ملكهم بالعدوة فى ناحية الريف وأجازهم البحر الى قرطبة ثم جلاهم الى الاسكندرية .

وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جامعاً للكتب فى أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . قال أبو محمد بن حزم أخبرنى تليد الخصى ، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان ، أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربعة واربعون فهرسة وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين لاغير . وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقاً جلبت اليه بضائعه من كل قطر

وكان أوتون ملك الألمان بعد أن قهر المجار واستصفى جميع ألمانيا اجبر البابا على تتويجه بتاج الامبراطورية وتغلب على برانجة ملك لونباردية ، وخرج هذامن مملكته شريداً فقام ابنه ادالبرت للمطالبة بملك أبيه . وروى بعض المؤرخين مثل البريك المنقول تاريخه فى مجموعة لايبنتز أن ادالبرت استعان بمسلمى فركسينت .

وفى سنة ٩٥٦ تم اجلاء العرب عن غرينوبل . وقد تقدم أن أساقفة هذه المدينة كانوا هجروها الى ساندوناث من جهة فالانس ، فقام أحدهم ايزاردن وجمع أكابر البلاد وقوادها واستنفرهم لقتال المسلمين . وكان هؤلاء يملكون اخصب النواحى وأجود الأراضى فتقرر أن كل انسان يكون نصيبه من هذه الأراضى بقدر بسالته واقدامه . فلما تمكن الأهالى من اجلاء العرب عن غرينوبل ووادى غرازيفودان تقاسم المقاتلون للعرب تلك البقاع التى كانت بيدهم بحسب درجة انغماسهم فى الحرب . ومن ذلك جاءت ثروة بعض العائلات القديمة فىمقاطعة دوفيني ومن جملتها عائلة اينارد Aynard التى يقال ان أصل ثروتها من تلك الحرب الصليبية . وبعد أن استصفى الأسقف إيزورن تلك البلاد ومحا آثار العرب فيها أعلن عن نفسه أميراً على

....

قال أبو محمد بن خلدون : ولما وفد على أبيه أبو على القالى ، صاحب كتاب الأمالى ، من بغداد أكرم مثواه وحسنت منزلته عنده ، واورث أهل الأندلس علمه ، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه . وكان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل اليهم الأموال بشرائها حتى جلب منها الى الأندلس مالم يعهدوه . وبعث فى كتاب الأغانى الى مصنفه أبى الفرج الاصفهانى ، وكان نسبه فى بنى أمية ، وأرسل اليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة منه قبل أن يخرجه الى العراق . وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الابهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك .

وجمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبطوالاجادة فى التجليد ، فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن منالكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده،الا مايذكر عن الناصر العباسى ابن المستضىء.ولم تزل هذه الكتب بقصرقرطبة الى أن بيع أكثرها فىحصار البربر وأمر باخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالى المنصور ابن أبى عامر ، ونهب مابقى منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوه .

انتهى كلام ابن خلدون بيعض اختصار .

غرينوبل وعلى الوادى. وحفظ خلفاؤه تلك الامارة مدة طويلة وبقى جانب من امتيازاتهم الى زمن الثورة الافرنسية .

فالقارى يرى أن أمور المسلمين فى تلك الاصقاع كانت قد أخذت تتراجع الى الوواء ، وأن ذلك التقهقر كان يزيد طمع الأهالى فى التخلص منهم تماماً ؛ ففى سنة ٩٦٨ نادى الامبراطور أوتون بهـذه العزيمة وأجمع أن يستأصل شأفتهم من هـذه النواحى ، الا انه مات قبل أن يحقق وعـده . وكان فى ذلك العصر رجل لايذكر اسمه الا مقروناً بالتجلة والاكرام سواء عند الملوك أوبين الشعوب وهو القديس مايول Mayeul الذى كان قسيساً فى بلدة كلونى Cluny فى بورغونية، وكان قد بلغ من شهرته بالفضائل أن تحدث الناس بانتخابه لمقام البابوية ، وكان هذا القديس ذهب الى رومة لزيارة كنائسها وفى ايابه من رومة جاءت طريقه على بلاد البييمونت قاصداً الرجوع الى ديره من جهة جبل جنيفر Genevre وأودية دوفينى ، وكان المسلمون اذ ذاك محتلين البلاد الواقعة بين غاب Gap وامبرون Embrun ومركزهم فى الأعالى المشرفة على وادى دراك Drac بازاء جسر أورسيير (ولايزال هذا المكان معروفا الى اليوم)

فلما وصل القديس مايول الى ذيل الالب وجد هناك عدداً كبيراً من الزوار القافلين من رومة والمسافرين قد علموا بمجيئه فانتظروه ليسيروا معه اذ لم يكونوا يرجون أن تنتدح لهم فرصة خير من هذه لاجتياز جبال الالب . فتقدمت قافلة القديس . وفيها هذا الجم الغفير . وما وصلوا الى ضفاف الوادي سائرين فى طريق منحصرة بين الجبل والنهر ، حتى انهال عليهم العرب برشق من السهام من عل . وكان العرب نحواً من الف مقاتل ولم يكن للمسيحيين مفر ، فأحيط بهم ووقع أكثرهم فى الاسر . وكان من جملة الاسرى القديس مايول ، وقد جرح فى يده وهو يذب عن أحد رفاقه ؛ فسيق الاسرى الى مكان على حدة ، وكان أكثرهم فقراء لايطمع الانسان من ورائهم فى مغنم فدنا العرب من القديس وسألوه عن درجة يساره فأجابهم القديس بأنه من قوم أغنياء ولـكنه خرج من جميع أملاكه ووقف نفسه على عبادة ربه وهو الآن راهب فى دير ذى أملاك وأراض واسعة فتساوموا معه على

فدية تبلغ مايساوى ألف ليرة من الفضه أو ثمانين ألف فرنك من المعاملة الحاضرة. وطلب العرب من القديس أن ينفذ رفيقه الى دير كلونى ليحمل اليهم المال وضربوا له موعداً قالوا له ان فات هذا الموعد ولم يروا المال فانهم يقتلون القديس وسائر الأسرى. فكتب القديس الى الدير قائلا : الى آباء كلونى والاخوان الذين فيه مايول المسكين أسير مكبل بالقيود الخ . فلما وصل هذا الكتاب ارتفع البكاء والعويل من كل جانب وأسرعوا بجمع الأموال واستجادوا أكف ذوي الحمية وجردوا الكنيسة من زخرفها ، وأرسلوا كل ما وقع فى أيديهم من المال لفكاك القديس ومن معه من الأسرى . فوصل المال قبل انقضاء الأجل وأطلق المسلمون سراحهم.

وكان القديس فى أثناء وقوعه فى الاسر قد حاول أن يرشد المسلمين قائلا لهم : ان الذى يعتقدون به لايقدر أن يخلصهم من العذاب ولا ينفعهم بشيء. فعند ماسمعوا منه هذا الكلام هاجت حفيظتهم وشدوا وثاقه وصاروا به الى أحد الكهوف وحبسوه فيه ثم انهم عادوا فسكنوا ورجعوا الى معاملته بالحسنى . وكان اذا اشتهى الطعام جاء أحدهم وغسل يديه وأصلح له طعاماً شهياً ووضعه بين يديه بكل أدب . وكان مع القديس نسخة من التوراة ، فجاء أحد المسلمين ومد يده اليها بدون احترام ، فلامه رفاقه وقالوا له : ان هذا كتاب مقدس ونحن معاشر المسلمين نقدس جميع الكتب السماوية . وبهذه المناسبة قال أحد كتاب ذلك العصر : ان المسلمين يحترمون مثلنا انبياء العهد القديم ويرون المسيح نبياً كبيراً وانما يجعلونه على كل حال أصغر من محمد بقولهم ان محمداً كان خاتم الرسل وهم يقولون ان محمداً هو من سلالة اسماعيل ابن ابراهيم.

وقد وقعت حادثة القديس مايول هذه فى سنة ٩٧٢ فصار لها دوى عظيم فى الاقطار وضج لها المسيحيون الصغار والكبار وهبوا طالبين الأخذ بالثأر وكان فى نواحي سيسترون Sisteron فى قرية يقال لها نويه Noyers رجل نبيل يقال له بوبون Bebon. كان قد استنفر الناس مراراً لتخليص هذه البلاد من العرب فانتهز هذه الفرصة التى كان فيها الناس غضاباً من أجل حادثة مايول فجمع كلمة الفلاحين والأعيان وسكان البوادى والحواضر ممن يغضبون للدين والوطن ثم بنى حصناً فى نواحى

سيسترون بازاء حصن كان ينزله المسلمون يريد بذلك مراقبة حركاتهم حتى ينقض عليهم فى أول غرة و يتقحم أول ثلمة .وحاول المسلمون أن يعرقلوا مساعى بوبون هذا فلم يفلحوا وكان الحصن الذى فيه المسلمون على رأس جبل يقال له « بيترة انبيه » Petra - Empia و بينما الفريقان يداور كل منهما الآخر اذ اغتصب قائد حصن العرب امرأة الحرسى الموكول اليه باب الحصن فانتقم البواب المذكور عن هذه الفعلة بان عرض على بوبون أن يفتح له الباب على حين غرة فيدخل الى الحصن و يفتك بمن فيه . وهكذا تم وجاء بوبون ومعه رجاله فوجدوا الباب مفتوحاً فدخلوا وذبحوا المسلمين وهم غارون ومنهم من عرض على المسيحيين ان يتنصر فهؤلاء عفوا عنهم واستحيوهم ومن جملتهم القائد وقد جعلت الكنيسة بوبون هذا فى مصاف القديسين كما يستفاد من المجموعة البولندية [١]

وفى الوقت نفسه كان أهالى غاب[٢] قد ثاروا بالعرب ووثبوا عليهم واستأصلوهم .

وجاء فى كتاب قديم يتعلق بهذه البلدة أن الذى جمع كلمة الاهلين وثار بهم على العرب هو رجل يقال له غليوم فكبسوا العرب بياتا فى جميع المواقع التى كانوا يحتلونها ، واستأصلوا عرقاتهم وكانت مكافأة الذين قاموا بهذه الحرب أن أخذوا نصف البلدة ونصف الأراضى وتركوا النصف الآخر للمطران والكنائس . وهكذا تحررت بلاد الدوفينى وأصبح خلاص مملكة بروفنس بعد ذلك قريبا .

وان من المؤسف أن لاتكون لدينا على هذا الحادث المهم معلومات مفصلة ، وغاية ما علمناه أن غليوم كونت بروفنس هو الذى تولى كبر تلك الحرب . ومن يدرى فقد يكون هو نفسه غليوم الذى عنى آثار العرب فى «غاب» فان غاب كانت من توابع بروفنس . وكان غليوم كونت بروفنس محبا للعدل محافظا على الديانة براً برعيته فأحبه رعاياه حباً جماً . ولما استنفر أهالى بروفنس ودوفينى السفلى ونيس لقتال العرب لبوا

---

(١) هى مجموعة حياة القديسين منسوبة الى راهب يسوعى اسمه بولاند. وقد بدأ هو بها وأكملها غيره فصارت تسمى مجموعة البولنديين .

(٢) قصبة هى مركز مقاطعة الألب العليا كان العرب استولوا عليها طويلا .

نداءه ، فلما اجتمع اليه الجم الغفير منهم قصد أن ينهد الى العرب فى فركسينت ، وعند ما علم العرب أن أهالى البلاد ضيقوا عليهم من كل جانب نزلوا من جبالهم مجتمعين ودافعوا عن أنفسهم صفاً وأول معركة وقعت معهم وقعت فى نواحى دراغينيان Dragengman فى مكان يقال له تورتور Tourtour حيث يوجد الى الآن برج مبنى منذ ذلك اليوم ، تذكارا لتلك المعركة ، فانهزم المسلمون والتجأوا الى حصن منيع . ولكن المسيحيين أخذوا بخنقهم حتى اضطروهم أن يغادروا الحصن ليلا ويلجأوا الى الحراج المجاورة ، فتأثرهم أهالى البلاد وتغلبوا عليهم ، فقتل أكثرهم ، وأخذ الباقون أسرى[1] وجميع من وقع فى الاسر أو استسلم من المسلمين عفوا عنه كما أنهم لم

(١) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخى فرنسة وقال من الجائز أن يكون بعض المسلمين فروا الى البحر وذهبوا إلى الأندلس أو إلى صقلية أو إلى سواحل افريقية . وقد قال دربلو D'Herbelot فى «المكتبة الشرقية» تحت اسم المعز وكذلك كاردون Cardonne فى تاريخ مغاربة افريقية انه فى ذلك الوقت أى نواحى سنة ٩٧٠ كان المسلمون مالكين لجزيرة سردانية وأن الخليفة المعز قبل أن فتح مصر كان أقام بسردانية مدة سنة وقد وافق على هذه الرواية ميمو Mimaut صاحب تاريخ سردانية وزعم «دلبين» Delbene أن المسلمين كانوا استولوا على كورسكة أيضا وهى التى يقول لها العرب قرسقة .

ويقول دلبين انه كان لهم أمير يقال له «موجه» Mugat جرد عليه كونت بروفنس جيشاً انضم اليه الجنويون . ولاشك أن دلبين يريد أن يتكلم عن الأمير مجاهد الذى كان أغار على سرادنية وكان البيزانيون أو البيازنة (كما يقول العرب) ولكن قصة مجاهد هذا وغارته على سردانية متأخرة عن هذا التاريخ بنحو من ثلاثين سنة . انتهى كلام رينو .

قلت مجاهد العامرى من مماليك الملك الغازى الشهير المنصور بن أبى عامر ، كان بعد ذهاب دولة المنصور قد تقلبت به الأحوال ، فاستولى على دانية وشن الغارة على سردانية . ترجمه ابن عميرة فى بغية الملتمس فقال : مجاهد بن عبدالله العامرى . أبو الجيش الموفق ، مولى عبد الرحمن الناصر بن المنصور محمد . كان من أهل الأدب والشجاعة والعلوم وأهلها . نشأ بقرطبة وكانت له همة وجلادة وجرأة ، فلما جاءت أيام الفتنة وتغلبت العساكر على النواحى بذهاب دولة ابن أبى عامر قصد هو فى من تبعه الجزائر التى فى شرق الاندلس ، وهى جزائر خصب واسعة ، فغلب عليها وحماها (يريد بهذه الجزائر ميورقة ومينورقة ويابسة) ثم قصد منها فى المراكب الى سردانيه (جزيرة من جزائر الروم كبيرة) فى سنة ست أو سبع واربعمائة فغلب على أكثرها وافتتح معاقلها .

يقتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين وادعين فى القرى المجاورة . ومن هؤلاء من تنصر واندمج فى الأهالى ، ومنهم من بقى مسلما ولكنه أصبح رقيقا مستخدماً إما فى

ثم اختلفت عليه اهواء الجند وجاءت امداد الروم ، وقد عزم على الخروج منها طمعاً فى تفرق من يشغب عليه ، فعاجلته الروم وغلبت على أكثر مراكبه ، فأخبرنى أبو الحسن نجبة بن يحي قال : أنبأنا شريح بن محمد عن أبى محمد بن حزم قال ان أبا الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى قال : كنت مع أبى الجيش مجاهد فى سردانية فدخل بالمراكب في المرسى نهاه عنه ابو خروب رئيس البحريين ، فلم يسمع كلامه ، فهبت ريح فجعلت تقذف مراكب المسلمين مركباً مركباً الى الريف ، والروم وقوف لاشغل لهم الا القتل والاسر للمسلمين ، فكلما سقط مركب بين أيديهم جعل مجاهد يبكي بأعلى صوته ، لايقدر هو ولاغيره على أكثر من ذلك ، لارتجاج البحر وزيادة الريح

الى أن يقول : قد كنت حذرته من الدخول ههنا فلم يقبل ، قال فبجريعة الذقن ماتخلصنا فى يسير من المراكب . هذا آخر خبر ثابت بن محمد .

ثم عاد مجاهد الى الجزائر الأندلسية التى كانت في طاعته واختلفت به الأحوال حتى غلب على دانية ومايليها ، واستقرت اقامته فيها . وكان من الكرماء على العلماء ، باذلا للرغائب فى استمالة الأدباء ، وهو الذى بذل لأبى غالب اللغوى تمام بن غالب ألف دينار على أن يزيد فى ترجمة الكتاب الذى ألفه في اللغة مما ألفه لأبى الجيش مجاهد على ماذكرنا فى باب التاء . وفيه يقول أبو العلاء صاعد ابن الحسن اللغوى وقد استماله على البعد بخريطة مال ومركب أهداهما اليه قصيدة أولها :

أتتنى الخريطة والمركب   كما اقترن السعد والكوكب
وحط بعينائه قلعة   كما وضعت حملها المقرب
على ساعة قام فيها الثناء   على هامة المشترى يخطب

الى أن قال

مجاهد رضت إباء الشموس   فأصحب مالم يكن يصحب
فقل واحتكم فسمع الزمان   مصيخ اليك بما ترغب

وقد ألف فى العروض كتاباً يدل على قوته فيه. ومن أعظم فضائله تقديمه للوزير الكاتب أبى العباس أحمد بن رشيق وتعويله عليه ، وبسط يده فى العدل وحسن السياسة . وكان موته بدانية فى سنة ٤٣٦ .

وجاء فى معجم البلدان لياقوت ان المسلمين غزوا سردانية فى سنة ٩٢ فى عسكر موسى بن نصير والذى قرأته فى التواريخ أن عبد الله بن موسى بن نصير هو الذى فتح ميورقة واخواتها ولعله غزا سردانية .

أراضى الأديار أوفى أراضى الزعماء . وقد بقيت لهذه الأمة بقايا معروفة مدة طويلة كما سيأتى الكلام عليه .

أما سقوط حصن فركسينت فقد وقع فى سنة ٩٧٥ وكانت مدة بقاء هذا الحصن فى أيدى المسلمين أكثر من ثمانين سنة . ولما كان هو المركز الأصلى لجميع العرب المنتشرين فى داخل فرنسة وشمالى ايطالية وفى سويسرة ، فلا بد من أن ذلك الحصن كان ملآن بالأموال والنفائس ، فوزع الكونت غليوم صاحب بروفنس تلك الأموال على الذين امتازوا بقتال العرب ؛ وأشهرهم « جيبلين غريما لدى » الذى كان من أهل جنوة فانه كوفئ على اقدامه بالاراضى التى كانت فى منتهى خليج سان تروبيز . وممن يذكر بين المشاهير الذين جالدوا حق الجلاد بهذه الحرب مسيحى آلت اليه السيادة على مدينة كاستلان Castallane فى مقاطعة الالب السفلى . وربما

وجاء فى تاريخ ابن عذارى المراكشى المسمى بالبيان المغرب ، أن المسلمين غزوا سردانية فى سنة ٢٠٦ وعليهم محمد بن عبد الله التميمى فأصابوا وأصيب منهم ثم قفلوا .

وقد اطلعت فى مدينة جنوة على تاريخ بالطليانى لجمهورية جنوة لمؤلف يقال له « فريدريسى دونافر » De Naver جاء فيه انه فى سنة ١٠١٦ ذهب أسطول جنوى إلى سردانية وتغلب على قوة مجاهد الأمير العربى الذى كان استولى عليها ، وانه فى سنة ١٠٣٤ وصل الأسطول الجنوى الى افريقية واحتل الجنوية عنابة . وانه فى سنة ١٠٨٧ ذهبت الأساطيل الجنوية والبيزانية ، ومعها اسطول امالفى (بقرب نابولى) بأمر البابا فكتور الثالث ، واجتاحت سواحل تونس وطرابلس واضطر أمير افريقية أن يدفعهم عنها بفدية تبلغ نصف مليون بحسب المعاملة فى زمن صاحب التاريخ وسلم اليهم الأسرى المسيحيين الذين كانوا عنده .

ومما جاء فى تاريخ جنوة هذا أنه فى مدة ١٣ سنة غزا الجنوية ثمانى غزوات فى بلاد الاسلام ، وان فتح الصليبيين لطرابلس الشام كان على أيدى الجنوية فى ١٣ تموز سنة ١١٠٩ وان أمير ياتشى قائد الجنوية تولى مدينة جبيل ثم انه فى سنة ١١١٠ كانت له اليد الطولى فى حصار بيروت وفتح الصليبيين لها . قال : واشترك الجنويون مع غودفروا دو بويون فى فتح القدس وفتحوا صور وقيسارية .

هذا وجاء فى تاريخ الخلفاء للامام السيوطى أن الوليد بن عبد الملك تولى الخلافة فى شوال سنة ست وثمانين وانه فى سنة ٨٧ فتح سردانية من جملة فتوحات عدها وانه فى سنة ٨٩ فتح جزيرتى ميورقة ومينورقة .

كانت ثروة آل كاستلان الحاضرة راشحة عن تلك الفتوحات . ولا ينبغي أن ننسى أن العرب كانوا أيضا قد أجلوا عن مدينة رييز فى (الألب السفلى) فانه فى كل سنة يحتفل أهالى هذه البلدة بعيد خلاصهم منهم الذي يصادف يوم العنصرة .

وقد استولت الكنيسة أيضاً على كثير من الأراضى التى كانت بأيدى المسلمين . وذلك لأن رجال الدين المسيحى كانوا قد أصيبوا أكثر من سواهم بهذه الغارات العربية وتهدم كثير من أديارهم فلذلك كانوا هم دائماً فى طليعة الحركة لاجلاء العرب ، فنال أساقفة فريجس ونيس نصيباً كبيراً من الأراضى التى كانت بأيدى المسلمين . وفى طولون وقع نزاع بين الأهالى على الأراضى التى كانت للمسلمين لأنه كان قد طال حكم العرب لتلك البلدة فدثرت آثار التملك القديم واصبحت الحدود مجهولة . فجاء الكونت غليوم من آرل وأجرى التقسيم بين الاديار والأهالى والامراء ، وأرضى الجميع . ولذلك بقى لغليوم هذا اسم كبير فى التاريخ ، وأطلقوا عليه لقب أبى الوطن .

فقد تقرر اذاً أن سقوط حصن فركسينت فى أيدى المسيحيين وقع فى سنة ٩٧٥ وانه من ذلك الوقت لم يبق للمسلمين شيء فى أرض فرنسة . نعم ان بعض المؤرخين ومنهم داليين المار الذكر يزعم بقاء المسلمين فى جبال الالب مستمراً الى مابعد سنة ٩٨٠ بل الى مابعد سنة الألف ، ولكننا لانثق بهذه الرواية ، ونظن أنه ان كانت قد بقيت عصابات عربية فى جبال الالب من بعد تاريخ سقوط فركسينت فلا تكون عصائب محاربة بل تكون عصائب مستسلمة وقد ارتدت عن الاسلام الى النصرانية أو صار رجالها فى حكم الرقيق . وبالاختصار فمن بعد ذلك العهد لم يبق على أتباع الانجيل خطر من أتباع القرآن الا ان كان من قبيل وقائع قرصانية كان لا بد لأجل التخلص منها من مطاردة البرابرة الى نفس بلادهم .

وفى سنة ٩٧٦ مات الخليفة الحكم الثانى فى قرطبة وكان ابنه بليداً فتقلد الامور الحاجب الملقب بالمنصور وكان آية باهرة فى البسالة والاقدام وحسن التدبير بلى منه النصارى بباقعة لا نظير لها فاعاد للاسلام رونقه الأول وبث الغارات فى أطراف بلاد

النصرانية حتى أوقع الذعر فى جميعها وعادت النصرانية على شفا خطر عظيم . وكان المنصور عندما تسلم الزمام قد بدأ بترتيب أمور الولايات الافريقية ، حيث أدخل فى الطاعة جميع أهلها وجند منهم الجيوش الجرارة واستنفر أيضا أهل الأندلس منتخباً منهم أشجع الشبان وأخذ يشوقهم الى القتال و يمرنهم عليه . وكانت غزوات المنصور كلها فى فصل الصيف ، ما عدا غزاة واحدة ، وذلك لأن رجال افريقية كانوا لا يتحملون برد الاصقاع الشمالية . وبلغ عدد غزواته فى مدة سبع وعشرين سنة ستا وخمسين غزوة ، لم تنهزم له فيها راية ولا ولى جيشه مدبرا [1]

وكان المسلمون فى الغالب فرسانا فاذا قصدوا الى بلاد النصارى وهزموا لهم جيشاً ذبحوا الرجال وسبوا النساء والأولاد وباعوهم رقيقا ، فكنت ترى بعد كل غزاة من غزوات المنصور أسواق قرطبة واشبيلية واشبونة وغرناطة مكتظة بالرقيق من ذكور واناث ، وكان تجار الرقيق يأتون بهذه الخلائق الى افريقية ومصر وسائر بلاد الاسلام فتنتشر فيها . وكان المنصور يرى جهاده فى بلاد النصرانية أفضل قرباته الى الله تعالى ، وكان يستصحب فى جميع اسفاره التابوت الذى يريد أن يوضع فيه عند موته . وكان من عادته أن ينفض الغبار الذى يعلق بثيابه فى أثناء غزواته ويجعله فى ذلك التابوت ، ليصنع منه لبنة يضعها تحت رأسه عند الموت . فجال غزاة المسلمين تحت راياته المنصورة فى قشتالة وليون ونافاره وآراغون وكتلونية الى أن وصلوا الى غاشقونية وجنوبى فرنسة

وجاست خيل المنصور فى أماكن لم يكن خفق فيها علم اسلامى من قبل ، وسقطت مدينة شانتياقب من جليقية وهى أقدس معهد مسيحى فى اسبانية فى أيدى المسلمين ، واحرقت تلك المدينة . وأخذت اجراس الكنيسة الكبرى المعروفة بكنيسة

---

(١) لى من قصيدتى الأندلسية التى نظمتها بعد وصولى الى قرطبة :

وسائل عن المنصور نجل ابن عامر ... يجاوبك عنه كل قوس موتر
غزا فى العدى ستاً وخمسين غزوة ... فآب بها طراً بنصر مؤزر

القديس يعقوب الى قرطبة حيث عمل منها قناديل وعلقت فى الجامع الأعظم . ولأجل أن يزيد المنصور من اذلال المسيحيين أجبرهم على حمل الاجراس المذكورة على ظهورهم من شانتياقب الىقرطبة وهى مسافة ثمانمائة كيلو متر ولا ينكر أنالمسيحيين عادوا عند ما دخلوا قرطبة فاسترجعوا هذه الأجراس وحملوها على ظهورهم من قرطبة الى شانتياقب ، وتلك الايام نداولها بين الناس .

وفى أيام المنصور (١) كاد الأمل ينقطع من بقاء النصرانية فى اسبانية ، فاتحد

(١) سنأتى فى الأجزاء التالية على كل مايتصل بنا من أخبار المنصور بن أبى عامر الذى يقدر أن يضعه المؤرخون فى الصف الأول من رجال العالم ، لأن محل هذه الترجمة هو فى تاريخ الاندلس لافى تاريخ فرنسة ، ولكن من حيث ان المستشرق رينو أشار الى غزوات المنصور الشهيرة لم نشأ أن نخلى هذا الجزء أيضاً من شىء من ترجمته ، فنقول :

جاء فى نفح الطيب مايلى: ومن ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الاندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا « وللكعبة المثل الأعلى » فبها يحلفون واليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب أحد الحواريين الاثنى عشر وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أسقفاً ببيت المقدس فجعل يستقرى الأرضين داعياً لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ، ثم عاد الى أرض الشام فمات بها ، وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره . ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام فى قصدها ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها فخرج المنصور اليها من قرطبة غازياً بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهى غزوته الثامنة والأربعون ، ودخل على مدينة قورية فلما وصل الى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة ، فى رجالهم وعلى أتم احتفالهم ، فصاروا فى عسكر المسلمين وركبوا فى المغاورة سبيلهم ، وكان المنصور تقدم فى انشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الاندلس وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين وحمل الأقوات والأطعمة والعدة والأسلحة استظهاراً على نفوذ العزيمة ، الى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويرة فدخل فى النهر الى المكان الذى عمل المنصور على العبور منه ، فعقد هنالك من هذه الاسطول جسراً بقرب الحصن الذى هنالك ، ووجه المنصور

ملوك النصارى بأجمعهم أصحاب ليون ونابار وقشتالة وسائر المقاطعات المسيحية ، ونبذوا كل ما كان بينهم من خلاف . وصاروا عصبة واحدة ، وتسلح الأساقفة والقسيسون

....

ما كان فيه من الميرة الى الجند فتوسعوا فى التزود منه الى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شانت ياقب فقطع أرضين متباعدة الأقطار وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الاخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك الى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لامسلك فيه ولا طريق لم يهتد الادلاء الى سواه ، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه فقطعه العسكر وعبروا بعده وادى منية وانبسط المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة وأرضين ، وانتهت مغيرتهم الى دير قشان وبسيط يلنبو على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلايه وغنموه وعبروا بساحته الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحى ، فسبوا من فيها ممن لجأ اليها . وانتهى العسكر الى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجاً فى معبرين أرشد الأدلاء اليهما ثم نهر ابلة ثم أفضوا الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى فى الفضل يقصد نساكهم له من أقاصى بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما فغادره المسلمون قاعاً ، وكان النزول بعد على مدينة شانت ياقب البائسة ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه . وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن لم تغن بالامس وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط . وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال ، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله ، فجعل فى طريقه القصد على عمل برمند بن اردون يستقريه عائثاً ومفسداً حتى وقع فى عمل القوامس المعاهدين الذين فى عسكره فأمر بالكف عنها ومر مجتازاً حتى خرج على حصن بليقية من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم ، وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية

وكان مبلغ ما كساه فى غزاته هذه لملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين الفين ومائتين وخمساً وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى وواحداً وعشرين كساء من صوف البحر وكسائين عنبريين وأحد عشر سقلاطونا وخمسة عشر مريشاً وسبعة أنماط ديباج وثوبى ديباج رومى وفروى فنلك ،

وساروا فى مقـدمة الجيوش بحسب رواية مؤرخى النصارى على ما فى مجموعة الدون بوكه . واجتمعت جيوش جرارة من المسيحيين على حدود قشتالة القديمة ، وحشد المنصور جميع ما عنـده من قوة وكانت الوقعة هى التى ستكون الفاصلة بين الفريقين ، وتلاقى الجمان على نهر دويره فـكانت المعركة من أهول ما يتصور العقل ويقيت طول النهار وسالت الدماء كالأنهار ولم ترجح فئة على الاخرى ، ولـكن المسيحيين كان أكثرهم فى زرد الحديد فـكان التلف منهم أقل . ولما خيم الظلام رجعت كل فئة الى مخيمها وانتظر المنصور مجيء قواده وأعوانه للتشاور معهم فلم يحضر منهم أحد فسأل عن سبب تأخرهم فقيل له انهم سقطوا صرعى فى المصاف ، فعلم المنصور أن العاقبة وبيلة والتاث جسمه وامتنع عن أخذ أى علاج ، ومات بعد أيام قلائل ، فدفنوه فى الثياب التى كانت عليه يوم المعركة وفى التابوت الذى كان يحمله معه ليدفن فيه . ولايزال قبره معروفاً فى مدينة سالم (١)

وواف جميع العسكر قرطبة غانماً وعظمت النعمة والمنة على المسلمين ولم يجدبشنت ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر فسأله عن مقامه ، فقال : اونس يعقوب . فأمر بالـكف عنه . قال : وحدث شعلة قال: قلت للمنصور ليلة أطال سهره فيها : قد أفرط مولانا فى السهر وبدنه يحتاج الى أكثر من هذا النوم وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب ، فقال : ياشعلة الملك لاينام اذا نامت الرعية ولو استوفيت نومى لمـا كان فى دور هـذا البلد العظيم عين نائمة . انتهى ما نقلته من الـكتاب المذكور

(١) جاء فى نفح الطيب نقلا عن ابن سعيد أن المنصور رحمه الله توفى فى غزاته للافرنج سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وحمل فى سريره على أعناق الرجال وعسكره يحف به وبين يديه الى أن وصل الى مدينة سالم انتهى

وجاء فى النفح من جملة مناقبه أنه خط بيده مصحفا كان يحمله معه فى أسفاره وغزواته يدرس فيه ويتبرك به ، ومن قوة رجائه انه اعتنى بجمع ماعلق بوجهه من الغبـار فى غزواته ومواطن جهاده فـكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل فى كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصييرها فى حنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه ، توقعاً لحلول منيته ، وقد كان اتخذ الاكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته . وكان يسأل الله أن يتوفاه فى طريق الجهاد فـكان كذلك انتهى .

قلت : وقبره معروف فى مدينة سالم والاسبانيول يلفظونها مدينة سالى أو ثالى بالثاء

وكان المنصور طول استيلائه على الدولة جامعاً بين مجد السيف ومجد القلم ، فازدهرت فى أيامه العلوم والصنائع وتقدمت الزراعة وازداد العمران وبلغت الاندلس لعهده من السعادة مبلغاً لم تعرفه من قبل . وفى أيام المنصور انتشرت مبادئ الفروسية «Chevallerie» والمبالغة فى حفظ الشرف والرفق بالمرأة وبأى ضعيف ونجدة الملهوف ايا كان . وهـذا أمر لانزاع فيه الا ان المسيو فياردو Veiredot فى كتابه المسمى « مشاهد الاخـلاق العربية فى اسبانية فى القرن العاشر » قد تجاوز الحد فى زعمه أن العرب لعهد المنصور ، هم الذين قرروا نظام الفروسية كما كان معروفاً عند فرسان المسيحيين فيما بعـد ، وقد كان واجباً على المسيو فياردو أن يأتى بالبرهان على ماقاله لأن الذى بأيدينا من تواريخ الذين عاشوا فى ذلك العصر ليس فيه شىء مما قرره المسيو فياردو (١)

وكانت وفاة المنصور سنة ١٠٠٢ فقام بالأمر بعده ابنه عبـد الملك ولـكنه مات سنة ١٠٠٨ وبموته انقضت أيام الاسلام الزاهرة فى اسبانية (٢)

ثم نشبت الحرب الداخلية فى قرطبة وأخذت الحكومات تهدم بعضها بعضاً وفترت الحمية الاولى وبدأ الاسلام يتقهقر ويستسرّ بدره منذ ذلك الوقت . وقد كان فى استطاعة المسيحيين من شمالى الاندلس أن يسترجعوا بلاد آبائهم وأجدادهم من ذلك الحين الا أنهم هم أنفسهم أيضاً كانوا منقسمين وكانت العداوة بين نابار وغاليسية كما كانت بينهم وبين المسلمين ، وكان المسيحيون يدخلون فى حروب المسلمين بعضهم

(١) ذهب كثير من المؤرخين الى أن نظام الفروسية الذى كان معروفاً فى اوربة فى القرون الوسطى رشح الى الاوربيين من عرب الاندلس ولنجيب بك غالى من أفاضل المصريين الأقباط كتاب نفيس فى هذا الموضوع معزز بالأدلة والشواهد

(٢) جاء فى النفح : ولما توفى المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر أبو مروان فجرى على سنن أبيه فى السياسة والغزو وكانت أيامه أعياداً دامت مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع تشبيهاً بسابع العروس ولم يزل مثل اسمه مظفراً الى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة فى المحرم وثارت الطوائف فى ممالكهم وتحركت الجلالقة لاسترجاع معاقلهم وحصونهم انتهى

مع بعض منحازين الى احدى الفئتين المتقاتلتين حسبما تقتضى مصلحتهم ، وربما كان مع كل من الفئتين فئة من المسيحيين ؛ وكان الاساقفة بأنفسهم يخوضون غمرات هذه الحروب . وفى سنة ١٠٠٩ انضم المسيحيون فى الفتنة التى وقعت فى قرطبة الى احدى الفئتين ونصروها على الفئة الأخرى فاستعانت الفئة التى دارت عليها الدائرة بمسيحي كتالونية الذين زحفوا الى قلب الاندلس ، ولكنهم فقدوا فى أثناء الحرب ثلاثة من اساقفتهم ورجلا من أبطالهم اسمه ارمانجو كونت إيرجل (١)

---

(١) بعد وفاة عبد الملك المظفر بن المنصور قام بالأمر أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وجرى على سنن أبيه وأخيه ، فى الحجر على الخليفة هشام الأموى والاستبداد والاستقلال بالملك دونه ، ثم بدا له الاستئثار بما بقى من رسوم الخلافة فطلب من هشام أن يوليه عهده ، ولما لم يكن لهشام أدنى ارادة معه أجابه الى ماطلب وأحضروا لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد ، فكان يوماً مشهوداً ، فكتب عهده من انشاء أبى حفص بن برد ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم ، وتسمى عبد الرحمن بن المنصور بولى العهد

وكانت هذه هى الغلطة الكبرى التى بدأ بها انقراض دولة المنصور ودولة بنى أمية ودولة الاسلام كلها فى الأندلس لأن هذا الاعتداء أغضب الكثيرين ، وبدأت به الحرب الأهلية التى شغلت المسلمين بعضهم ببعض وتركت الثغور عورة ، واوجدت ملوك الطوائف يقتتلون ليلا ونهاراً بمشهد من عدو الامة .

وجاء فى النفح ان أهل الدولة نقموا على عبدالرحمن (ولى العهد) مافعله مما كان فيه حتفه وانقراض دولته ودولة قومه وكان أسرع الناس كراهة لذلك الأمويون والقرشيون ، فغصوا بأمره وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضرية الى اليمنية ، فاجتمعوا لشأنهم وتمشت من بعض الى بعض رجالاتهم وأجمعوا أمرهم فى غيبة من المذكور ، فى غزاة من صوائفه ببلاد الجلالقة ، ووثبوا بصاحب الشرطة بقرطبة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة ، وخلعوا هشاماً المؤيد الذى ولى عهده عبد الرحمن بن المنصور ، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمهدى بالله ، وطار الخبر الى عبد الرحمن بمكانه من الثغر فانفض جمعه وقفل الى الحضرة وقد تسلل عنه جنده ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدى وأغروه بعبد الرحمن لسوء سيرته فاعترضه من قبض عليه واحتز رأسه وحمله الى المهدى . وذهبت دولة العامريين كان لم تكن

والحاصل أن مسلمى اسبانية كانوا قد أخذوا ينكصون وتنحص أجنحتهم ولم يبق أدنى خطر منهم على فرنسة ، وأخذت هذه المملكة تتقوى وتتقدم الى الأمام .

....

قال : وكان رؤساء البربر وزناتة قد لحقوا بالمهدى الخليفة الجديد لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن ، إلا أن الامويين كانوا حاقدين عليهم لما كان من مظاهرتهم للعامريين ، فلم يلبثوا أن سخطتهم القلوب وخزرتهم العيون ونهبت العامة دورهم وشكوا أمرهم الى المهدى فلم تنفع شكواهم ، فتمشت رجالاتهم وأسروا نجواهم ، وبايعوا هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر ، فعوجلوا عن مرامهم ذلك وثار بهم السواد الأعظم وأزعجوهم عن المدينة ، وتقبضوا على هشام وأخيه أبى بكر وأحضروهما بين يدى المهدى ، وضربت أعناقهما

وفر سليمان ابن أخيهما واجتمع فى البربر فى ظاهر قرطبة ، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ونهضوا به الى طليطلة فاستجاشوا بالنصارى ، وزحف ابن اذفونش فى جيش انضم الى البربر ووصلوا الى قرطبة وهزموا المهدى ومن معه ، وقتل فى ذلك اليوم مايزيد على عشرين الفاً . ودخل المستعين قرطبة ختام سنة أربعمائة ، ولحق المهدى بطليطلة واستجاش هو أيضاً بابن اذفونش فزحف معه الى قرطبة وهزموا المستعين والبربر أصحابهم ، ودخل المهدى قرطبة وملكها ثانية

وخرج المستعين مع البربر وتفرقوا فى البسائط ينهبون ولا يبقون على أحد ، ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدى ومعه ابن اذفونش لقتالهم فكروا عليهم وانهزم المهدي وابن اذفونش ومن معهما من المسلمين والنصارى ، ودخل المستعين قرطبة ثانى مرة ، ولكنه لم يدخلها هذه المرة خليفة بل اخرج هشاماً الخليفة القديم وبايع له وقام بأمر حجابته ، ظناً منه أن ذلك يحسم الفتنة ، وقام أهل قرطبة وأغروا أهل القصر بالمهدى وقتلوه ، ظنا بأن قتله يحسم النزاع ، وصار هشام هو الخليفة ، وقام واضح العامرى بحجابته . فعند ذلك بعث المستعين الى النصارى يستعديهم لمظاهرته فبعث اليهم الخليفة هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك بأن يسلموا اليهم الحصون والقلاع التى كان المنصور قد افتتحها من بلادهم وهكذا وقف الاذفونش عن مساعدة المستعين . ولكن المستعين والبربر تغلبوا على أهل قرطبة ودخلوها عنوة ونهبوها وأنزلوا المعرات فى أهلها ، وتولى البربر الأعمال واستقلوا بالبلاد مثل باديس بن حيوس فى غرناطة ، والبرزالى فى قرمونة والغرنى فى روندة ، وهزرون فى شريش .

وافترق شمل الجماعة بالأندلس وسقطت هيبة الخلافة وبدأ دور الانحطاط بخمس دول صغيرة كبنى عباد باشبيلية ، وبنى الافطس ببطليوس ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وبنى هود بسرقسطة ، وابن أبى عامر ببلنسية ، ومجاهد العامرى بدانية والجزائر . انتهى نقلا عن نفح الطيب

وسنة ٩٨٧ انتقـل الملك الى آل كابت Cabet فـكانوا أجـدر به من التأخرين من سـلالة شارلمان ، ثم تنصر النورمنـديون وصاروا عامـلا عظيما من عوامل

....

وقال ابن عذارى فى كتابه « البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب » ان عبد الملك المظفر بن المنصور عند وفاة أبيه كتب الى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة ، فاستوثق له الأمر ولم يرد أحد طاعته ، واجتمع الناس على حبه . وكان مع غلبة النبيذ عليه واستغراقه فى لذاته مراقباً لربه باكياً على ذنبه . وكان من فرط الحياء مع الشجاعة فى غاية بعيدة . وله فى بلاد الروم آثار عظيمة ، غزا سبع غزوات فى مدته وفى السابعة توفى ، قيل مات مسموماً وقيل مات من علة الذبحة . وكان موته بمنزله أم هانى بقربة من أرملاط لاربع خلون من صفر سنة ٣٩٩ فكانت مدته فى الملك ست سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام . وكانت أول غزواته الى بلاد الافرنج سنة ٣٩٣ ودوخ بسائط برشلونة وفتح حصن ممقصر عنوة وأسكنه المسلمين

وقال ابن عذارى انه لما ذهب عبد الملك الى مدينة سالم وافاه هنالك عدة زعماء من وجوه النصارى وفرسانهم ، أرسل بهم ملك القوط يومئذ اذفونش بن اردن المعروف بابن البربرية ، ومعهم آخرون ممن أرسل بهم خاله شانجة بن غرسية زعيم الجلالقة وصاحب قشتيلة وألبة ، وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدي عبد الملك على ماتضمنه شرط سلمهم المنعقد صدر هذه الدولة ، وافين بالعهد حافظين للحرمة، فأحسن عبد الملك قبولهم وأصعد عن مدينة سالم نحو الثغر الاعلى . قال نقلا عن حيان بن خلف انه فى غزاته لأرض برشلونة افتتح ستة حصون . ولـكن الحصون التى دمرها للعدو خمسة وثمانون حصناً .

قال : وفى سنة ٣٩٥ غزا جليقية ، وكان مظفراً ، وسنة ٣٩٦ غزا بنبلونة وسار الى سرقسطة ثم الى وشقة ثم الى بربشتر ، ومنها دخل أرض العدو ودمرها تدميراً ، وسنة ٣٩٧ غزا بلاد قشتيلة من عمل الطاغية شانجـة بن غرسية بن فرلند ، وهى غزاة قلونية الخامسة من غزواته المعروفة بغزاة النصر التى لقى فيها شانجة بجميع النصرانية على اختلافها ، فهزمه عبـد الملك هزيمة عظيمة ، رزق الله المسلمين فيها النصر المبين . وعلى أثرها تسمى عبد الملك بالمظفر ، وصدر له بذلك منشور من الخليفة هشام ، وأضاف الى لقب المظفر لقب سيف الدولة . وسنة ٣٩٨ غزا عبد الملك بالشاتية ، وهى السادسة من غزواته ، واحتل شنت مرتين . ثم غزا غزاته السابعة سنة ٣٩٨ وقال فيها نقلا عن ابن حيان : ومن كبار علل عبد الملك ومنكراتها على الاسلام ومؤذناتها بما جرى عليه بعد من الاثلام ، علته الشديدة بمدينة سالم ، مخرجه اليها سنة ثمان وتسعين ، محتفلا لقصد عدو الله شانجة بن غرسية بن فرلند ، فصدته عن الدخول اليه بجموع المسلمين واشتدت به

القوة النصرانية وسكنوا وركنوا وتركوا العيث والدعارة . وكذلك تنصر المجار وأصبحت أوربة كلها مسيحية . وفى ذلك الوقت بدأت الناس تطالب الملوك بحقوقها وتنبهت الجماعات وناقشت السلطة الحساب وتأسس مايسمى بالحرية البلدية مما أدى فى آخر الأمر تدريجا الى الحالة الاجتماعية التى جعلت أوربة فى مقدمة العالم المتمدن ، واورق من ذلك الوقت غصنها واخضر رعيها وأفلح سعيها . على أن سواحل فرنسة لم تسلم من غارات المسلمين الى مابعد ذلك بمدة طويلة ففى سنة ١٠٠٣ نزل مسلمون اندلسيون فى أرض أنطيب أوعين الطيب Antibes وأخذوا بعض رهبان أسرى . وفى سنة ١٠١٩ غزا منهم أناس مدينة أربونة فاجتمع عليهم الأهالى وكشفوهم ثم قتلوهم وأسروا منهم عشرين رجلا كانوا فى غاية الطول والعظم ، فارسلوهم الى دير سان

مدة تفرق عنه فيها أكثر المطوعة ، وصارت على الاسلام مصيبة بما أوهنت من بطش عضده ونقصت من حفيل عدده ، ورام مع ذلك كله الاقتحام على أعداء الله فى حل تقوهه طمعاً فى اتمام غزوه فكانت آخر صائفة نفذت من الحضرة ، اذ هلك عبد الملك والقت بركها الفتنة

قال : لما دفن المظفر رحمه الله تأهب أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول (اسم غلب عليه من قبل امه بنت شانجة النصرانى الملك تذكراً منها لاسم أبيها فكانت تدعوه فى صغره بشنجول وكان أشبه الناس بجده شانجه) فنظر فى الأمور نظراً غير سديد وأنفق الأموال فى غير وجهها ، ثم لما مضى لوقته شهر ونصف تصنع للخليفة هشام بن الحكم ، وطلب منه أن يوليه العهد من بعده ، وأن يتسمى بولى عهد المسلمين . ففعل ذلك هشام لضعفه وسوء نظره ونقصان فطرته ، فولاه عهده ، فكان ذلك سبب انحراف أكابر الأندلس عن عبد الرحمن ، لما تبين لهم من سخف عقله وسرعته الى نقل المملكة عن خلفائها اليه دون غزاة ولا نصرة فى حرب

وقد شرح ابن عذارى فتنة قرطبة التى أدت الى انهيار الاسلام فى الاندلس مع أسبابها وتفاصيلها بما لم يشرحه مؤرخ قبله ولا بعده . وسنأتى على ذلك فى الأجزاء التالية . وقد ذكر فى عرض كلامه على استجاشة مسلمى قرطبة بالاسبانيول بعضهم على بعض أن رجلا نصرانياً وقف فى أعظم شوارع قرطبة فقال قولا نال منه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكلمه أحد بكلمة ، فقال رجل من المسلمين غيرة للنبى : ألا تنكرون ماتسمعون أما أنتم مسلمون ؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة : امض لشغلك . وكان الافرنج اذا سمعوا الأذان للصلاة قالوا قولا لايذكر فلا يعترض عليهم أحد بشىء انتهى

مارسيال فى ليموج ، فاستخدم منهم رئيس الدير اثنين وفرق الباقين على أصحابه . وجاء فى مجموعة الدون بوكه خبر يفيد أن هؤلاء لم تكن لغتهم عربية .

وفى سنة ١٠٤٧ نزل مسلمون اندلسيون فى جزيرة لارين Lerins (١) واستاقوا عدداً من الرهبان أسرى فذهب رئيس دير سان فكتور فى مرسيلية الى الأندلس لافتكاكهم . وكان بعض امراء الأندلس شرعوا يشنون الغارات البحرية على بلدان المسيحيين واشهر هؤلاء مجاهد العامرى الذى استولى على دانية وجزر الباليار والافرنج يسمونه موجيت Mujet أو موزكتوس Musectus وكان اسمه يلقى الرعب فى سكان كورسكة وسردانية وبيزة وجنوه. وبقيت غارات المسلمين على سواحل فرنسة تتوالى ولا تغيب طويلا الى أن اشتدت قوة فرنسة البحرية ولم تنته تماماً الا بفتح فرنسة لجزائر الغرب (٢) وكانت مدينة ماغلون مقصداً لغزاة المسلمين حتى أطلق عليها لقب بورسارازين Port - Sarrazin ومن هذا القبيل مدينة مارتيخ عند مصاب نهر الرون التى فيها ابنية يقال انها من أيام العرب ومثلها جزر هييار Hyeres التى قبالة ساحل الفار وقد جاء فى احصاء لمقاطعة مصاب الرون بقلم المسيو تولوزان انه وجدت أوراق قديمة فى مارتيغ تتعلق باقامة المسلمين فى تلك البلاد وكذلك وجدت أوراق قديمة فى فوس يظهر منها أن المسلمين سكنوا فى جزائر هييار المارة الذكر . على أن المسلمين بدأوا بالتقهقر البحرى فى أواسط القرن الحادى عشر ، ففى سنة ٩٦١ كان الروم استردوا جزيرة اقريطش ،وفى سنة ١٠٥٠ أجلى المسلمون عن جنوبى ايطالية وفقدوا ملكهم فى صقلية ، وتجاوز المسيحيون البحر ونزلوا فى بعض سواحل افريقية حيث خفقت لهم أعلام مدة طويلة ، ثم لم يلبث الاسبانيول أن استرجعوا طليطلة وقرطبة واشبيلية وغيرها . ثم زحف من أوربة الى آسيا الصليبيون بجيوش لا تحصى فوقفوا المسلمين عند حدودهم بل غزوهم فى عقر دارهم وفقد المسلمون كل أمل فى

---

(١) أمام سواحل فرنسة الجنوبية عدة جزر بهذا الاسم أشهرها سانت مارغريت وسان اونورا

(٢) ان هذا الفتح وقع قبل نشر رينو كتابه بخمس سنوات

التجاوز على فرنسة والجنوب الغربى من أوربة . وفى سنة ٩٦٠ كان الكاتب العربى ابن حوقل يصف مسلمى الأندلس بالجبن والطيش وفقد الصلابة والحزم . وكذلك ابن سعيد الذى كان يكتب فى القرن الثانى عشر قد تعجب كيف أن المسيحيين لم يطردوا مسلمى الأندلس تماماً فى ذلك الوقت (١)

(١) قال ابن حوقل فى المسالك والممالك : وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحلة ، وتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة فى الاحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، الى أسباب التملك الفاشية فى أكثرهم ولما هم به من رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ، ويسار ملكهم بقلة شغله وسقوط تكلفه بشىء يحذره وحال يخافه ، اذ لاخوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته ، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله . ومما يدل بالقليل منه على كثيره ان سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضريبتها فى كل سنة مائتا الف دينار ، يكون عن صرف سبعة عشر بدينار ثلاثة آلاف الف درهم وأربعمائة الف درهم . هذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالى والرسوم على بيوع الأسواق

ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال انتهى

وجاء فى المسالك والممالك لابن حوقل عند الكلام على بحر الروم مايؤيد قول رينو من ادبار أمر المسلمين منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، وذهاب ما كان فيهم من حماسة فى القرون الثلاثة الاولى ، واستيلاء الرخاوة عليهم حتى أصبحوا لايمنعون ذمارهم ولا يقدرون أن يحموا جارهم

قال ابن حوقل : وليس فى البحار أعمر حاشية من هذا البحر ، لأن العمارات فى الجانبين ممتدة غير منقطعة ولا ممتنعة وسائر البحار تعترض فى شطوطها المفاوز والمقاطع . وقد ألح الروم فى وقتنا هذا على المسلمين الذين على سواحله بالغارات واختطاف مراكبهم من كل جهة ولا غياث لهم ولا ناصر ، والملك فيهم حقير ذليل وهو جامع مانع والعالم يسرق ولا يشبع ، ويفتى بالتأويل على مايختار ولا يخاف معاداً ولا مرجعاً ، والتاجر فاجر لايعاف حراماً ولا مطعماً ، والزاهد ذئب أدرع فى كل بلية يشرع وبكل ريح يقلع ، فالثغور والجزائر الى الأعداء مسلمة ، والأرض الى الله من أربابها متظلمة انتهى

ومما يدلك على ماوقع فى نفوس المسلمين من هذه الجهة الشاهدان الآتيان : روى مؤرخو العرب أنه لما قفل موسى بن نصير الى الشام بعد فتحه الأندلس ، سأله الخليفة عن الشعوب المختلفة التى مارسها ، فأجابه ان الافرنج فيهم العدد والشدة والاقدام والثبات. ويستغرب أن يكون موسى بن نصير وصف الافرنج بهذا الوصف وهو لم يباشر معهم حرباً . وعلى فرض أنه وصل الى جنوبى فرنسة كما يزعم مؤرخو العرب ، فانه لم يكن قد لقى الافرنج بل لقى القوط الذين كانوا أصحاب الحكم فى البلاد الجنوبية من فرنسة ولكن مسلمى الاندلس عندما تلاقوا مع رجال شارل مارتل وشارلمان علموا من هم الافرنج فى صلابة العود وعلموا من هم الفرنسيس فى حب المجد والاقدام على الأخطار . وقد روى المؤرخ الاسبانيولى كوندى كلام موسى ابن نصير هذا وأضاف اليه بزعمه قول موسى ان الافرنج اذا انهزموا فليسوا بشيء(١)

قلت : كان هذا كلام ابن حوقل فى الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة مما يدل على ان المرض قديم . وانه لاعجب اذا آلت الحال الى ماآلت اليه فيما بعد . لكن المسلمين هبت لهم ريح فى القرن التاسع للهجرة وعاد بحر الروم كما بدا تحت سلطتهم وذلك فى أيام السلطان سليمان العثمانى وخير الدين بربروس وعمال السلطان على جزائر الغرب وبقيت لهم تلك الصولة مدة طويلة الى أن انتكث حبلها فى القرون الأخيرة . وما زالت الأيام مداً وجزراً مذ خلق الله العالم

(١) قلت : ان كلام مؤرخى العرب عن الافرنج هو أنهم مع شجاعتهم أقل صبراً فى الحروب من الجلالقة ، أى من الاسبانيول سكان شمالى اسبانية ، قال ابن حوقل : وثغور الجلالقة ماردة وتفزه ووادى الحجارة وطليطلة ومدينة الجلالقة مما يلى ثغور الاندلس يقال لها سمورة وعظيم الجلالقة بمدينة يقال لها ليون فيها سلطانهم وعدتهم بعد سموره ومدينة لهم يقال لها أوبيط (Oviedo) وهى بعيدة عن بلد الاسلام وليس فى أصناف الكفر الذين يلون الأندلس أكثر عدداً من الافرنج ، غير أن الذين يلون المسلمين منهم فئة ضعيفة شوكتهم قليلة ، وفيهم اذا ملكوا طاعة وحسن نصيحة ومحاسن كثيرة ، واليهم يرغب أهل الأندلس عن الجلالقة ، والجلالقة أصدق محاسن وأقل طاعة وأشد قوة وأكثر بأساً وبسالة ، وفيهم غدر ، وهم فى عرض طريق الافرنجة انتهى

وجاء فى صبح الأعشى عن الجلالقة انهم امة يغلب عليهم الجهل والجفاء ، ومن زيهم أنهم لايغسلون ثيابهم بل يتركونها عليهم الى أن تبلى ، ويدخل أحدهم دار غيره بغير اذن . وهم أشد من الفرنج

والشاهد الآخر هو مايرويه العرب من وجود كتابة منقوشة على تمثال فى مدينة أربونة معناها : ياأولاد اسماعيل لا تتجاوزوا هـذا المكان فانكم ان تجاوزتموه ولم ترجعوا على أعقابكم هلكتم . هكذا روى المقرى فى نفح الطيب فى النسخة الخطية التى فى المكتبة الملوكية [1]

ثم ذكر القلقشندى مدينة سموره وقال انها قاعدة جليقية وقال : ان المسلمين كانوا ملكوها ثم استرجعها الجلالقة زمن الفتنة ، أى زمن فتنة شنجول العامرى الذى باعتدائه على الخلافة مع عدم أهليته الشخصية جر على الاسلام من الفرقة ما انتهى أخيراً بضياع الأندلس

(١) الذي وجدناه فى نفح الطيب للمقرى هو هذا : وقيل انه أوغل (يعنى موسى بن نصير) فى أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا هى : يابنى اسماعيل انتهيتم فارجعوا . فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الا لمعنى كبير فشاور أصحابه فى الاعراض عنه ، وجوازه إلى ماوراءه . فاختلفوا عليه فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية انتهى
قلت : وقد تقدم هذا الخبر وهو أشبه بالاساطير

القسم الرابع

الصفة العامة لغارات العرب هذه والنتائج التي ترتبت عليها

مرادنا أن ننظر الى هـذه الغارات العربية من حيث المجموع وأن نشير الى بعض حقائق لم يتسن لنا حتى الآن ان نتبسط فيها .

وكذلك نريد أن نذكر الشعوب المختلفة التى ضربت بأسهم مذكورة فى هذه الغارات . ولا نزاع فى أن النهضة الأولى قـد كانت للعرب ، وأن جميع الغزوات الـكبرى كان يرأسها قواد من هذه الأمة ، وان الاسم العربى هو الذى كان غالباً فيها ، وانه كان بمنزلة القطب من الرحى ، وان المراد بلفظـة « سارازين » عنـد كتاب الاوربيين هو العرب لاغير .

فمن أين جاءت لفظـة سارازين هـذه ؟ الجواب جاءت من اللفظـة اللاتينيـة « ساراسنوس » التى أصلها اللفظة اليونانية « سراكنوس » وهذه اللفظة معروفة منذ القرون الأولى من التاريخ المسيحى ، والناس تقصد بها العرب الرحل الذين فى جزيرة العرب وبين دجلة والفرات وسورية وبلاد العجم . قد ذهب الناس مذاهب شتى فى مأخذ هـذه اللفظة ، واكثر الآراء اتفقت على انها مشتقة من « شرقى » لاسيما ان بطليموس الجغرافى الفلـكى اليونانى الذى كان بمصر يتكلم فى جغرافيته عن شعب يقطن فى بلاد جزائر العرب يقال له مغاربة Machurebe فمن هنا ظهر انه أريد بكلمـة « شرقيين » التى جاءت منهـا كلمـة « سارا كينو » العرب الذين بقوا فى آسية ، كما ان الذين جلوا منهم الى افريقية تسموا مغاربة وذلك كما هى الحال اليوم .

وقد ذهب بعض علماء المسيحيين فى القرون الوسطى الى ان « سرازين » مشتقة من « سارة » بنت ابراهيم الخليل . وهذا غير وارد ، لأن سارة هى ام اسحق لا أم اسماعيل جد العرب .

ومن الأسماء التى يطلقها المسيحيون على العرب فى القرون الوسطى الاسماعيلية (١)

(١) من الغريب أن لفظة اسماعيلية لم تتناول العرب وحدهم بل صارت تطلق فيما بعد على جميع المسلمين . وقد كان فى بلاد المجار طائفة من المسلمين فى القرن الثانى عشر والثالث عشر للمسيح انقرضت الآن وكان يقال لها الاسماعيلية ، وهذه الطائفة معروفة فى تاريخ المجار ويظهر انه لقلة عددها أخذت تذوب تدريجاً فى سواد الامة المجرية ، كما ان بعض ملوك المجار القدماء ضيقوا على هؤلاء المسلمين مراراً ليحملوهم على النصرانية وهكذا تلاشوا من هناك .

وقد ذكر ياقوت الحموى هذه الطائفة فى معجم البلدان تحت لفظة باشغرت فقال : وأما أنا فانى وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغودرية شقر الشعور والوجوه جداً يتفقهون على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه فسألت رجلا منهم استعقلته ، عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية فى مملكة أمة من الفرنج يقال لهم الهنكر ، ونحن مسلمون رعية لملكهم فى طرف من بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكون بليدة ، الا أن ملك الهنكر لايمكننا أن نعمل على شىء منها سوراً خوفاً من أن نعصى عليه ، ونحن فى وسط بلاد النصرانية ، فشمالينا بلاد الصقالبة وقبلينا بلاد البابا وفى غربينا الأندلس وفى شرقينا بلاد الروم قسطنطينية وأعمالها . قال : ولساننا لسان الافرنج وزينا زيهم ونخدم معهم فى الجندية ونغزو معهم كل طائفة ، لأنهم لايقاتلون الا مخالفى الاسلام . فسألته عن سبب اسلامهم مع كونهم فى وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون انه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار وسكنوا بيننا وتلطفوا فى تعريفنا ما نحن عليه من الضلال وأرشدونا الى الصواب من دين الاسلام ، فهدانا الله والحمد لله فأسلمنا جميعاً وشرح الله صدورنا للايمان ، ونحن تقدم الى هذه البلاد ونتفقه ، فاذا رجعنا الى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم . فسألته لم تحلقون لحاكم كما تفعل الافرنج ؟ فقال : يحلقها منا المتجندون ويلبسون لبسة السلاح مثل الافرنج أما غيرهم فلا . قلت : فكم مسافة مابيننا وبين بلادكم ؟ فقال : من هنا الى القسطنطينية نحو شهر ونصف ، ومن القسطنطينية الى بلادنا نحو ذلك انتهى .

قلت : إن قوله الافرنج مبنى على كون الشرقيين يسمون جميع نصارى اوربة افرنجة ، والا فالمجار ليسوا من الافرنج فى شىء . ثم انى قد سألت علماء التاريخ من المجار عن قضية هؤلاء المسلمين

اى ابناء اسماعيل ، وهذه هى نسبة موافقة للواقع ، لأن قسما كبيراً من قبائل العرب متسلسل من اسماعيل ، ومحمد من هذه السلالة ولكن العرب لا يعترفون بأن اسماعيل كان ابن أمة وان اسحق يمتاز عليه ، وهم ينسبون الى اسماعيل كل ماورد فى التوراة عن اسحق . ومما استعملوه فى القرون الوسطى من الأسماء التى كانت تطلق على العرب لفظة « هجارنة » أى سلالة هاجر . وهذا الاصطلاح ، أى هجارنة ، مجهول عنـد العرب . ثم ان أعظم شعب اشترك مع العرب فى هـذه الغزوات هو الشعب

الذين وجدوا فى بلادهم فى القرن السابع للهجرة ، فأجابنى الجنرال « تيودور كاوك » معلم التاريخ فى جامعة بودابست بما خلاصته : انه كان يوجد مسلمون أصلهم من البلغار فى بلاد المجار عاشوا فى أيام الملوك المجار من عائلة اربارد من سنة ٨٩٦ للمسيح الى سنة ١٣٠١ وكان يقال لهم الاسماعيلية . وكانوا فى القرن الحادى عشر يعيشون جماعات فى جنوبى بلاد المجار ، وكان منهم حراس لقلعة بست ، وكان منهم فى القرن الثالث عشر لافى مدينة بست فقط بل فى جميع هكاريا ، وكان أكثرهم من طبقة التجار . وفى سنة ١٠٧٧ صدر أمر الملك « لاديسلاوس » بتنصير الاسماعيلية ، ولكن بقى منهم كثيرون فى الباطن على دين آبائهم . وفى سنة ١٠٩٥ صدر أمر الملك « كولومان » بأن لايكون فى القرية من الاسماعيلية أكثر من النصف ، وبأن يزوجوا بناتهم من المسيحيين . وفى أيام الملوك الذين بعده كان الاسماعيلية يؤثرون الخدمة العسكرية . وكان الملك غيزه الرابع أرسل الى الامبراطور الالمانى « فردريك بربروسة » سنة ١١٦١ جيشاً لمعونته فيـه خمسمائة من الاسماعيلية المذكورين . وفى سنة ١٢٢٦ للمسيح كان اجتماع ياقوت الحموى بأناس من هؤلاء الاسماعيلية فى مدينة حلب . وفى سنة ١٢٢٢ وقع اضطهاد على الاسماعيلية واليهود . وفى المدة التى بين سنة ١٢٣٥ وسنة ١٢٧٠ كان الاسماعيلية صيارف يقرضون ملك المجار أموالا . وما زالوا الى سنة ١٢٤٢ معروفين كمسلمين . ومن ذاك الوقت أخذوا يندمجون فى الشعب المجرى . وفى سـنة ١٢٦٦ كان لايزال منهم قرية اسمها تمركنى Temerkeny وفى زمان لورفيك الـكبير كان لايزال بعض عائلات مسلمة من بقايا الاسماعيلية

وسنذكر شيئاً أوسع من هذا عن الاسماعيلية (أى مسلمى المجار) فى رحلتنا الى بلاد المجر وبوسنة . وانما كان مرادنا هنا أن نذكر كون الافرنج لايقتصرون على العرب بلقب اسماعيلية بل قد يعنون بذلك كل المسلمين من عرب وعجم فانه مما لاشك فيه أن المسلمين الذين كانوا فى بلاد المجار لم يكونوا عرباً بل كانوا من المجار أو الباشقرد وعلى كل حال من أصل تتارى

الساكن فى جبل الأطلس ونواحيه المنتشر من مصر الى الأوقيانوس الاطلنطيكى . ومن البحر المتوسط الى السودان ، والذى يقال له البربر . يعرفهم الانسان بلونهم النحاسى وانوفهم الحادة وشفاههم الرقيقة ووجوههم المستديرة . والمظنون ان هذه الأقوام التى يقال لها البرابر قد وجدت فى افريقية قبل أن وجد الفينيقيون فى قرطجنة . وهم من قديم الزمان معتصمون بجبالهم لا يخضعون لسلطة أجنبية . وكان اليونان والرومان يقولون عنهم البرابرة فبقى عليهم اسم بربر الى الآن . وقد اندمج هؤلاء البربر مع غيرهم من الافريقيين ومع بقايا الشعب القرطجنى وبقايا الرومان والفاندال ، وتألف منهم شعب واحد يقال له الشعب المغربى Maure أو الشعب الافريقى Afri ou Afrecaia

وقد كان بين الأقوام الذين اشتركوا مع العرب فى غزو فرنسة من هم من سلالة جرمانية أو صقلبية . وذلك أنه فى القرنين الرابع والخامس للمسيح تقدم أسلاف الذين كانوا ساكنين فى شمالى البحر الأسود ونهر الدانوب ، زاحفين الى قلب أوربة والى جنوبيها ، بأسماء مختلفة ، كصقالبة وخرواطيين وسربيين ومورافيين وبوهيميين وتديروا بولونية وبوهيمية وسربية ودالماسية ، وقسما من بلاد اليونان . وكانوا فى أثناء زحفهم يقتتلون مع الأمم السكسونية والأمم الهونية التى منها المجار . وكان الفريقان فى حروب دائمة مع شارل مارتل وأولاده وأحفاده ، لأن ممالك هؤلاء كانت دائماً عرضة لغارات هؤلاء البرابرة . ولم تنقطع هذه الحروب المصطلمة الا بعد أن دخل الجرمانيون والسلاف فى النصرانية . وقد كان البرابرة المذكورون يستعملون الأسرى الذين يقعون فى أيديهم كالحيوانات بلا فرق ، وكان أهالى هولندة يبيعون أسراهم كالعبيد ، وانتشرت هذه العادة فى فرنسة والبلاد المجاورة لها ، ولم تنقطع الا بعد أن دخل هؤلاء البرابرة فى النصرانية [1] وتهذبوا

(١) استشهد رينو على مسألة الرقيق وبيعه فى أوربة بمجموعة الدون بوكه وبجغرافية ابن حوقل وبالمقرى . وقد رأينا أن ننقل عبارة ابن حوقل عن « المسالك والممالك » قال : وبالأندلس سلاع

ومن المعلوم أن تجارة الرقيق امتدت جداً بعد أن افتتح المسلمون الشام ومصر وافريقية والأندلس ، لأن العرب كانوا يعرفون الرق ويحملون عبيدهم على جميع الأشغال اليدوية وعلى الحوث والزرع ، أما فى الشرع الاسلامى فالرقيق لايهان أصلا، وكل عبد تظهر كفايته فى شغل من الأشغال يقدر أن يرقى إلى مايرقى اليه الحر بدون فرق وكان التجار يذهبون الى بلاد الجرمانيين والسلاف وأحياناً الى نواحى بحر الادرياتيك والبحر الأسود ويأتون بأصناف الرقيق . ولم يزل أهالى القوقاس يبيعون من أولادهم الى اليوم ، فكانت هذه الشعوب تبيع من أولادها الى التجار ، وكان يأتى منهم قسم الى فرنسة لابالبيع والشراء بل بواسطة السبى فى الحروب .

ولما كان المسلمون غيراً فى قضية الحريم صاروا يخصون هؤلاء العبيد ليمكنهم استخدامهم فى داخل الأحاريم بدون خوف فتنة . وهكذا تولدت فى فرنسة مهنة

كثيرة ترد إلى مصر والمغرب وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان من سبي افرنجة وجليقية والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس ، لأنهم بها يخصون ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد . وجميع مايسبى الى خراسان من الصقالبة باق على حالته ومقر على صورته ، وذلك ان بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتداً على القسطنطينية وأترا بزوندة يشق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون والنصف الشمالى يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وافرنجة وانكبيردة (لونبارديه وتوابعها) وقلورية (كالابره) وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله انتهى

وأما فى نفح الطيب فيقول عن الاسبانيول انهم : يحاربون بالافق الشرقي امة يقال لهم الفرنجة ، هم أشد عليهم من جميع من يحاربونه ، اذ كانوا خلقا عظيما فى بلاد واسعة جليلة متصلة العمارة آهلة تدعى الأرض الكبيرة ، هم أكثر عدداً من الجليقيين وأشد بأساً وأعظم امداداً يحاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم اياهم فى الديانة ، فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلهم هنالك كثرة وتخصيهم للفرنجة يهود ذمتهم الذين بأرضهم وفى ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل خصيانهم من هنالك الى سائر البلاد . وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك فصاروا يخصون ويستحلون المثلة . انتهى

قلت : والخصاء ممنوع شرعاً

جديدة هي مهنة الخصى ، وتأسس لذلك معمل كبير في فاردون Verdun في بلاد اللورين ·

وكان الصبيان الذين ينجون من خطر هذه العملية القاسية يباعون في أسواق الأندلس بأثمان عالية . وكانوا يتهادون الخصيان من الصقالبة كما يتهادون الخيل أو الحلى الثمينة ·

وقد روى أحد كتاب العرب أنه في سنة ٩٦٦ أراد أمراء كتلونية من الافرنج أن يتزلفوا الى خليفة قرطبة فقدموا له هدايا من جملتها عشرون خصياً صقلبياً . والعرب يصفون جميع الرقيق الجرماني والصقلبي والسلافي بلفظة صقلبي Saclabi ونظن أنه من هذه اللفظة جاءت كلمة اسكلاف Esclave بمعنى عبد · وكان أكثر حرس خلفاء قرطبة وأمراء الأندلس من الصقالبة · وكان منهم كثير في صقلية ، ولهم في مدينة بلرم حارة منسوبة اليهم . وكان منهم عدد كبير في افريقية · وقد يصل الصقالبة الى أعلى المناصب ، ولذلك لايمكنك أن تقرأ تاريخاً لدولة عربية ليس فيه ذكر للصقالبة، اذ بدون ذلك يكون التاريخ مغلقاً لا يتحصل فهمه · (١)

ولم يكن بين العرب والبربر أناس من شمالى أوربة ومن أصل وثنى فقط ، بل وجد لهم أنصار ويا للخجل قد ولدوا في حجر النصرانية ، من أهل ايطالية وأهل فرنسة . وقد كان اليهود يستثمرون بؤس الأهالى ويشترون الأولاد من ذكور واناث ويأتون بهم الى مراسى البحر حيث كانت ترد سفن اليونان والبنادقة وتحملهم الى بلاد الاسلام . وكانت هذه التجارة القبيحة قد وصلت الى قلب عاصمة النصرانية . وقد جاء في مجموعة موارثورى أنه في سنة ٧٥٠ اضطر البابا زخريا أن يشترى بماله من أيدى البنادقة عدداً كبيراً من الأولاد ذكورا واناثا كانوا يريدون الخروج بهم من رومة ثم ان البابا الذي خلف زخريا اضطر أن يحرق مراكب كثيرة لليونان آتية لحمل

---

(١) لواردنا التعرض لموضوع الصقالبة ومن نبغ منهم في الاسلام ومن وصلوا الى الدرجات العلى لطال الأمر جداً وقد يستحق ذلك تاريخاً مستقلا

الرقيق . وقد جاء فى تاريخ الصليبيين للمسيو ميشو أن هذه التجارة كانت جارية فى أوربة حتى القرن الثالث عشر ، ولكن بشيء من الاحتياط . وكان أسارى المسيحيين والسبي منهم يستخدمون فى جيوش المسلمين . وكان السبي من أعظم مقاصد هؤلاء فى الغزو ، فكلما حصلت معركة رأيت أسواق الأندلس وافريقية غاصة بالأسرى المسيحيين ، فأما الأطفال والاولاد فكانوا يربون فى الاسلام وفى اللغة العربية ، وكانوا لا يقدرون أن يرتدوا عن الاسلام اذا بلغوا . وأما الأرقاء الذين بلغوا سن الرشد فلم يكونوا يجبرون على الاسلام لانه جاء فى القرآن « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » على أن كثيراً من المسيحيين البالغين كانوا يخدمون فى جيوش المسلمين عن طيب خاطر

وأضف الى هؤلاء قسما من أهالى البلاد التى افتتحها المسلمون ، فان العرب والبربر عندما افتتحوا الاندلس وجدوا أعوانا لا يحصى عددهم من المسيحيين واليهود ، ولما لم يكن جيش العرب كافياً لحفظ جميع هذه الفتوحات كانوا كلما دخلوا بلدة عهدوا إلى اليهود بحراستها [1] ولما دخل العرب الى أرض فرنسة وما جاورها من البلاد لم يخل الامر من أنهم وجدوا من أهل البلاد رجالا ممن لايعرفون الحمية الدينية ولاالوطنية، وممن دأبهم أن يستفيدوا من المصائب العامة ، فمشوا بين أيدى العرب فى غزواتهم وفتوحهم وحطبوا فى حبالهم . ولقدرأينا كيف أن « مورونت » دوق مرسيلية وغيره من سادة البلاد تمالأوا مع العرب على أبناء بلادهم . فاذا كان هذا شأن الكبار فما ظنك بالصغار ؟ ولا شك أن العرب فى فتوحاتهم فى مقاطعات دوفينى وبيمونت وسفواى وسويسرة كانوا قد وجدوا من الاهالى أعضاداً لهم سراً وعلنا،وكان مؤرخو

---

(١) جاء فى نفح الطيب ان مغيثاً مولى الوليد بن عبد الملك جمع يهود قرطبة فضمهم الى مدينتها استنامة اليهم دون النصارى للعداوة بينهم وقال : انهم لما فتحوا غرناطة ضموا اليهود الى قصبتها وصار ذلك لهم شنشنة فى كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ويمضى معظم الناس لغيرها واذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ مافتح . انتهى

ذلك العصر لا يصرحون بذلك حياء ، ويجتزئون بالاشارة الى خيانة بعض المسيحيين . ولكن الحقيقة أنه لولا تلك الخيانة لم يكن المسلمون ليستقروا فى تلك البلاد القاصية المنقطعة عن أوطانهم الاصلية ، وهم فى قلة من العدد ، فى زمن كانت فيه المواصلات غير ما هى الآن .

نعم ان العرب كانوا يجدون من أهالى البلاد ردءاً لهم ، وقد رأينا فى تاريخ دير نوفاليس كيف أن المسلمين قاتلوا الاهالى بقرب فرسل Verceil وتغلبوا عليهم وساقوا عدداً منهم أسرى ثم دخلوا المدينة وعرضوا الاسرى للبيع ، كما تعرض السلع ، وصار كل من أراد يدفع فى الاسير ثمناً الى آخر القصة .

أما من جهة اليهود وسياستهم فى جنوبى فرنسة ، لذلك العهد ، فقد قرأنا فى سيرة القديس تيودار Theodard رئيس أساقفة اربونة انه لما دخل المسلمون بلاد اللانغدوق انحاز اليهود اليهم وفتحوا لهم أبواب مدينة طلوزة ، وان شارلمان — تأديباً لليهود على خيانتهم — أمر بأنه كل سنة فى الأعياد الكبرى الثلاثة يؤتى بيهودى ويصفع على باب الكنيسة العظمى . وقد بقيت هذه العادة مدة طويلة ثم تبدلوا بها دفع مبلغ من الدراهم . ولنا اعتراض على هذه الرواية من جهة أن العرب لم يدخلوا طلوزة فعلا فلعل هذه الحادثة وقعت فى فتح مدينة أخرى . واذا تركنا قضية أنساب الغزاة ورجعنا الى لغاتهم فاننا نجد أنهم لم يكونوا بأجمعهم يتكلمون بالعربية ، فقد روى ابن القوطية أن بعضهم كان يتكلم بالبربرية ، وانه سنة ١٠١٩ عندما غزا المسلمون اربونة كان الغزاة ذلك اليوم من الذين لايعرفون العربية ، وكذلك لم يكن جميع الغزاة مسلمين ؛ بل كان فيهم يهود ووثنيون وأحياناً مسيحيون . وقد كان فى البربر عبدة أوثان ومجوس ، ولم يدخلوا جميعاً فى الاسلام الابعد فتح افريقية بمدة طويلة (١) . ومن الغريب أن المسيحيين فى القرون الوسطى كانوا يسمون غزاة العرب بالوثنيين ، مع

---

(١) ومن الغريب أنه فى أخريات هذه الأيام قام أناس من الفرنسيس يريدون أن يثبتوا كون البربر ليسوا جميعاً بمسلمين . تقصد هذه الفئة أن تأفك البربر عن الاسلام . فالمؤرخ المستشرق رينو يشهد كما ترى بأن البربر أسلموا قاطبة وان كانت هذه القضية لاتفتقر الى شهود

أنه لايوجد أبعد عن الوثنية من المسلمين ، ومن شدة توحيدهم للبارى تعالى يكرهون جميع شعائر الوثنية ويحرمون تصوير المخلوقات الحية ، نظير اليهود ،ولكن شدة حرمة المسلمين لمؤسس ديانتهم جعلت العوام فى أوربة يعتقدون أن المسلمين يعبدونه ، كما أن المسيحيين فى القرون الوسطى كانوا يطلقون لقب وثنى على كل من ليس مسيحياً وقدجاءفىالتاريخ المنسوب إلىالمطران توربين Turbin أنه يوجد فىاسبانية على شاطىء البحر تمثال من نحاس صنعه محمد نفسه وان المسلمين يسجدون له . وكذلك فيلومين Philomane فى تاريخه لفتح شارلمان بلاد لانغدوق يتكلم عن تمثال لمحمد من الفضة المذهبة كان المسلمون فى أربونة فى أثناء استيلائهم عليها يعتقدون أنه ملجأ لهم . وكذلك جاء فى رواية تمثيلية اسمها لعب القديس نقولا كان لها شهرة فى القرون الوسطى أن أحد أمراء المسلمين فى افريقية كان يعبد صنما اسمه ترفاغنت Tervagant وانه عند ما كان يحصل على مراده كان يغطى خدود الوثن بأوراق الذهب . ثم ان فى قصيدة افرنسية تذكر وقائع رولان الشهير أن مسلمى سرقسطة كان عندهم مغارة جعلوها هيكلا لآلهتهم ، وكان فيها تماثيل من ذهب كل تمثال فى يده صولجان وعلى رأسه تاج ، وان المسلمين كانوا يجتمعون فى تلك المغارة للعبادة (١)

وكان اسم « ترفاغنت » ينقلب أحياناً الى ترماغنت وكان يرد معه اسم ابولين Apolin وأسماء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، فتدور فى أقاصيصنا القديمة ، مثل قصة

---

(١) بمثل هذه الخرافات خدع رجال الكنيسة أهل أوربة مدة تزيد على ألف سنة . ولم يكن العوام فى القرون الوسطى وحدهم يصدقونهم بل كان أسيراً لهذه الأوهام أو لبعضها كثير من الخواص . ولا تزال الى ساعتنا هذه فى أوربة برغم ترقيتها وانتشار المعارف فيها أوهام وأفكار مخلوطة عن المسلمين تضحك الثكالى نسمع منها ونقرأ كل يوم بل كل ساعة

وقد نقلنا عن المسيو درمنغهم الافرنسى فىالسيرة النبوية فى الطبعة الثانية من حاضر العالم الاسلامى هذه الأقوال المضحكة التى يهزأ بها رينو هنا . وقد شدد درمنغهم نفسه عليها النكير ولكن رجال الكنائس لايزالون الى يوم الناس هذا ينشئون أبناء ملاتهم فى مثل هذه الترهات البسابس ويقلبون لهم حقائق الاسلام عمداً تنفيراً لهم منه كما فعل سلفهم فى القرون الوسطى

لا فيوكت (البنفسجة) التى نشرها فرنسيسك ميشال ، وزعموا أن هذه الأسماء هى أسماء آلهة اسلامية !

وقد بلغ من تعصب أجدادنا وتحاملهم على المسلمين أنه فى الرواية المسماة بلعب القديس نيقولا كان يوجد تمثال لذلك القديس كانوا يسمونه محمداً باعتبار أن لمحمد تمثالا ، وأنهم كانوا يسمون هيكل الأوثان محمدية Mohamarie فانظر الى غرابة تصاريف الأقدار ، وقابل بين هذه الخرافات وبين الحقيقة ، وتأمل كيف صنع محمود الغزنوى عند ما غزا الهند سنة ١٠٢٥ م ، واستولى على صنم أصر على كسره ، وعرض عليه الهنود مقدار وزنه ذهباً فأبى الا أن يكسره وأن يضعه على أسكفة باب المسجد فى عاصمته ، حتى تدوسه الأقدام (١) . وليست هذه الحادثة نذة فى بابها ، فتأمل فى كتابنا المسمى « خلاصة التواريخ العربية عن الحروب الصليبية » تجد من أمثالها كثيراً

ماذا كان السبب ياترى فى ذهاب آبائنا فى الوهم والخطأ الى هذا الحد ؟ الجواب ان بعض العلماء ذهبوا الى كون أسماء ترفاغنت وابولين وماأشبه ذلك كانت آتية من بلاد النورمانديين أهالى شمالى أوربة الذين كانوا يعبدون الأصنام ، فالعامة فى أوربة خلطوهم بالمسلمين بزعمهم أن كل من ليسوا مسيحيين وثنيون ! وكذلك كان البربر الذين جاءوا مع العرب متمسكين ببعض شعائر وثنية كانوا يمارسونها ظنت العامة أن هذه الشعائر كان يمارسها العرب أيضاً . ولا يجوز أن ننسى انه فى هذه الكتب التى تتهم المسلمين بالوثنية وتزعم هذا الزعم الغريب أنهم ينحتون تماثيل من حجر أو خشب أو معدن ويعبدونها وقد ورد أن المسلمين اذا وجدوا تلك التماثيل لم تنفعهم انقضوا عليها وحطموها وجعلوها جذاذاً

على أن الاسم العربى والدين الاسلامى كانا هما السائدين فى هذه الفتوحات الاسلامية فى أوربة ، فليس عندنا شىء من الآثار عن البربر أو الصقالبة الذين كانوا مع العرب فى مغازيهم . وكل ماعندنا عن هذه الفتوحات انما هو من رشحات أقلام العرب المسلمين.

(١) الصنم المذكور هو صنم سومانات وقصته شهيرة

أما أسباب هذه الفتوحات العربية ، والعلل الأصلية فى اقتحام هـذه الغمرات ، فهى متعددة ، فمنها ما يرجع الى حب الغنائم وكسب الأموال ، ومنها ذوق خاص بالضرب فى الآفاق ، ومنها ما هو محض تجرد لنشر الدين الاسلامى ورجاء ثواب هذا العمل المبرور عند الله فان القرآن يحث على الجهاد فى سبيل الله (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) فالمسلمون الذين كانوا يقدرون على حمل السلاح كانوا يجاهدون بأنفسهم ، والذين لم يكونوا قادرين على القتال كانوا يجاهدون بأموالهم . جاء فى القرآن « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » وكل مسلم يموت وهو يقاتل فى سبيل الله فانه يموت شهيداً (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فالمسلمون يسمون شهيداً كل من بذل دمه فى سبيل الاسلام ، كما أن المسيحيين يسمون شهيداً كل من مات لأجل النصرانية .

ثم ان الشرع الاسلامى يفرض على المسلمين أن يدعوا غير المسلمين الى الاسلام ، أو الى دفع الجزية ، وذلك قبل اعلان الجهاد ومباشرة الحرب ويجوز أن يكون قد حصل هذا الاعلان عند دخول العساكر الاسلامية الى فرنسة ولكن الأهالى لم يجيبوا دعوة الاسلام فاضطر أمراء المسلمين الى تجريد الحسام . وكان المسلمون فى أوائل الفتح يتقلدون السيوف ويتأبطون الرماح ويتنكبون القسى ، وكانوا كلهم متعممين ، ثم انهم بتغير الأوقات صاروا يتشبهون بالنصارى فى أزيائهم وأسلحتهم ، ويلبسون الدروع ويغوصون فى الزرد وطالما كانوا يقتنون سيوف مدينة « بوردو » لشهرتها فى ذلك الوقت ، وتركت عساكرهم العمائم وصاروا يلبسون على رءوسهم الكمة الهندية . وكان أمراء الفرنسيس فى كتالونية أهدوا الخليفة عشر أدراع سلافية ومائة سيف افرنسى ، وأنعم الخليفة على حاجبه يوم توليته اياه الوزارة بمائة فارس افرنجى متقلدين السيوف والحراب غائصين فى الحديد على رءوسهم الكمم الهندية . وبالاختصار كان المسلمون قد اقتدوا فى شكتهم وأعلامهم وسروج خيولهم باوربة المسيحية . ولكن بدون شك

كانوا يسترجحون فى التسلح جانب الخفة ، ويتجنبون السلاح الثقيل الذى كان يعول عليه الأروبيون [١] .

أما الغنائم فكانت عبارة عن الحجارة النفيسة والنقود المضروبة والمنسوجات والأدوات والأسرى والسبى . وكان السبى أفضل جزء من الغنائم . وكان الأمير يستأثر بالخمس بحسب الشريعة ، وينفقه فى اعانة الفقراء وأبناء السبيل ، وكان الباقى يوزع على الجند . وللفارس ضعفا ماللراجل . وكان يوجد دائما فى ساقة الجيش تجار يشترون كل ما يقع فى أيديهم من صامت وناطق

أما الأسرى فليسوا كأسرى هذه الأيام ، فكان المسيحى اذا وقع أسيراً كبلوه واذا انتهت قسمة الغنائم عرف الأسير ذلك الرجل المسلم الذى خرج هو فى نصيبه فيصير

(١) جاء فى الاحاطة في أخبار غرناطة تأليف لسان الدين بن الخطيب كاتب الأندلس الأكبر فى وصف ملابس أهل الأندلس وأسلحتهم مايلى : وجندهم صنفان أندلسى وبربرى والأندلسى منهم يقوده رئيس من القرابة (أى قرابة السلطان) أو حصى (الحصى الرجل العاقل) من شيوخ الممالك وزيهم فى القديم شبه زى أقيالهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج من اسباغ الدروع وتعليق الترسة واتخاذ عراض الأسنة وقرابيس السروج واستركاب حملة الرايات كل منهم بصفة تختص بسلاحه وشهرة يعرف بها ثم عدلوا الآن عن هذا الذى ذكرنا الى الجواشن المختصرة والبيض المرهفة والدرق العربية والسهام الملطية والاسل العطفية . (ثم قال) : والعمائم تقل فى زى أهل هذه الحضرة الا ماشذ فى شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند العربى منهم . انتهى . ولا يخفى أن لسان الدين كان يصف الأزياء فى حضرة غرناطة فى زمانه وهو القرن الثامن للهجرة

وجاء فى نفح الطيب نقلا عن ابن سعيد فى المغرب : وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما فى شرقى الأندلس فان أهل غربها لاتكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً اليه الا وهو بعمامة وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان فى ذلك الأوان واليه الاشارة وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة وهو حاسر الرأس وشيبه قد غلب على سواد شعره وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة فى شرق منها أو فى غرب وابن هود الذى ملك الأندلس فى عصرنا رأيته فى جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة وكذلك ابن الأحمر الذى معظم الاندلس الآن فى يده وكثيراً مايتزيى سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم فسلاحهم كسلاحهم وأقبيتهم كأقبيتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم انتهى

له مملوكا يتصرف به كيف شاء ، ويصير هو وجميع ما يعمله ملكاً لسيده ، ويتوارثه الأبناء عن الآباء ، ويعود أولاده أيضاً أرقاء نظير والدهم . واذا كان سيده غيوراً على الاسلام عرض على ذلك الأسير المسيحى اتخاذ الاسلام ديناً فاذا أسلم فقد يعتقه وان لم يعتقه افتكه بعض الصالحين ومحبي الخير من المسلمين ، لأن تحرير الرقاب هو من أفضل القربات عند المسلمين . وهو بعد تحريره يصير فى المجتمع الاسلامى نظير سائر الأحرار ويبلغ من درجات العلياء مايقسم لهحظه ونصيبه ويطلق عليه اسم مولى وهو اسم يتضمن معنى السيد ومعنى المملوك معاً ؛ وهنالك طبقة أخرى وهى طبقة العبيد الذين يعتقهم سادتهم ولكن على شرط أن يؤدوا الى سادتهم شيئا معلوماً كل سنة (١) .

وان كان الأسير المستعبد أبى أن يتحول عن دينه الى الاسلام فقد كانوا يستعملونه فى حرث الأرض أو فى حمل الأثقال . وقد وجد مسيحيون كثيرون قبلوا الاسلام ، وآخرون بقوا متمسكين بنصرانيتهم ، وكلهم كانوا يمتازون بالخدمة وكان يعول عليهم فى الحروب وقد كان منهم كثير فى الحرس الخاص للخلفاء والملوك لاسيا فى قرطبة . ولم يكن أسرى المسيحيين الذين بقوا متمسكين بدينهم ليلبثوا عبيداً بدون أمل فى

---

(١) الولاء هو حالة العبد بعد عتقه بالنسبة الى سيده ومن العبيد من يتفق مع سيده على أنه يعتقه ثم يأخذ العبد بدفع ثمنه تقسيطاً ، ويسمى هذا العبد مكاتباً ، قال ابن الاثير : الكتابة أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه اليه منجماً فاذا أداه صار حراً قال وسميت كتابة بمصدر كتب لانه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه ويكتب مولاه له عليه العتق . وقد كاتبه مكاتبة والعبد مكاتب . قال : وانما خص العبد بالمفعول لان أصل المكاتبة من المولى وهو الذى يكاتب عبده . قال ابن سيده : كاتبت العبد أعطانى ثمنه على أن أعتقه ، وفى التنزيل العزيز « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً » معنى الكتاب والمكاتبة أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه عليه ويكتب عليهأنه اذا أدى نجومه فى كل نجم كذا فهو حر ، فاذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاؤه لمولاه الذى كاتبه

الحرية ، بل كان أمراء المسلمين وأغنياؤهم ممن يصير اليهم بعض هؤلاء الأسرى اذا وقعت لهم حوادث جاء التوفيق فيها لهم رفيقا أرادوا شكر الله تعالى على نعمته فحرروا من عندهم من الأسرى وسنة ٩٩٧ علم المنصور بن أبي عامر بأن الله كتب لجنوده النصر فى واقعة كبيرة فى افريقية فشكراً لله تعالى أسرع الى تحرير ألف وثمانمائة أسير مسيحى من ذ كور واناث (١) . وكان المسيحيون يجمعون أموالا ويذهبون الى

(١) قال الاستاذ العلامة حجة الاسلام السيد رشيد رضا فى كتابه الذى صدر جديداً باسم « الوحى المحمدى » ان العلماء اتفقوا على شرعية عتق الكافر وأنه قربة ولكنهم اختلفوا فى عتقه فى الكفارة

ولقد رأينا أن ننقل الى هذا الكتاب خلاصة ما أورده الاستاذ المشار اليه فى كتاب « الوحى المحمدى » بشأن الرقيق فى الاسلام فان الناشئة العصرية لاسيما المتخرجين فى المدارس الاوربية لايعلمون عن الرق فى الاسلام مايلزم أن يعلموه واذا سألوا الفقهاء الجامدين عن هذا الباب زادوهم خبالا فلهذا اخترنا أن نفقهم على حكم الاسلام فى قضية الرقيق محرراً بقلم الاستاذ الحجة . قال لله دره:

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه فى أشق الاعمال ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية وظل الرقيق مشروعاً عند الافرنج الى أن حررت الولايات الاميركية المتحدة رقيقها فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله فى أواخر القرن التاسع عشر ولم يكن عمل كل منهما خالصاً لمصلحة البشر وجنوحاً للمساواة بينهم ، فان الاولى لاتزال تفضل الجنس الابيض الاوربى المتغلب على الجنس الأحمر الوطنى الاصلى بما يقرب من الاستعباد السياسى المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، كما أن انكلترة تحتقر الهنود وتستذلهم ولكن النهضة الهندية فى هذا العهد قد خفضت من غلواء الانكليز.

فلما ظهر الاسلام كان مما أصلحه من فساد الامم ابطال ظلم الرقيق وارهاقه ووضع الأحكام لابطال الرق بالتدريج السريع ، اذ كان ابطاله دفعة واحدة متعذراً فى نظام الاجتماع البشرى من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الأرقاء . فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب فى الارض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجدها فيحور الى سادته يرجو منهم العود الى خدمتهم كما كان . وكذلك جرى فى السودان المصرى فقد جرب الانكليز أن يجدوا للارقاء رزقاً بعمل يعملونه مستقلين فيه ، فلم يمكن ، فاضطروا الى الاذن لهم بالرجوع الى خدمة الرق السابقة بشرط أن لايكون مسموحاً للمخدومين ببيع الأرقاء والاتجار بهم . وقد شرع الله تعالى لأبطال

اسبانية وافريقية لافتكاك الأسارى ، هذا يفتك أباه وهذا أخاه وهذا صديقه وهلم جراً . ومن هناك تأسست رهبانيات بقيت مدة قرون فى أوربة لم يكن لها عمل الالافتكاك الأسارى من بلاد المسلمين . وقد سجل التاريخ من مآثر هذه الجمعية

....

الرق طريقتين : عدم تجديد الاسترقاق فى المستقبل ، وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذى لاضرر ولا ضرار فيه

الطريقة الأولى : منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الأقوياء للضعفاء الا استرقاق الأسرى والسبايا فى الحرب التى اشترط فيها دفع المفاسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة ، وهى شروط لم تكن قبل الاسلام مشروعة عند المليين ولا عند أهل الحضارة ، فضلا عن المشركين الذين لاشرع لهم ولا قانون . ولست أعنى بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الأمم تفعله معاملة لهم بالمثل ، بل شرع لأولى الأمر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر فى امضائه أو ابطاله ، بأن خيرهم فى أسرى الحرب الشرعية بين المن عليهم بالحرية والفداء بهم . وهو نوعان : فداء المال ، وفداء الأنفس اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم . وذلك قوله تعالى الذى أوردناه فى قواعد الحرب « فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء » ولما كنا مخيرين فيهم ، بين اطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم ، جاز أن يعد هذا أصلا شرعياً لابطال استئناف الاسترقاق فى الاسلام . فان ظاهر التخيير بين هذين الأمرين أن الأمر الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز لولم يعارضه أنه هو الأصل المتبع عند جميع الامم فمن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن أرحم بهم وأعدل ، كما يعلم مما يأتى ، ولكن الآية ليست نصاً فى الحصر ولا صريحة فى النهى عن الاصل فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقاً غير قطعية ، فبقى حكمه محل اجتهاد أولى الامر ، إذا وجدوا المصلحة فى ابقائه أبقوه . واذا وجدوا المصلحة فى ترجيح المن عليهم أو الفداء بهم عملوا به

وانما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين — أى المن على الاسرى والفداء بهم — فى حالات قليلة لا تدوم كأن يكون المحاربون للمسلمين قوماً قليلى العدد ، كبعض قبائل البدو ، يقتل رجالهم كلهم أوجلهم فاذا ترك النساء والاطفال والضعفاء من الرجال لانفسهم لا يكون لهم قدرة على الاستقلال فى حياتهم ، فيكون الخير لهم أن يكفلهم الغالبون ويقوموا بشؤونهم المعاشية ، ثم تجرى عليهم أحكام الطريقة الثانية فى تحريرهم . وقد يتسرون بالنساء فيكن أمهات أولاد وربات بيوت حرائر أو محصنات من الفواحش مكفيات أمر المعيشة على الاقل . وقد سن النبى صلى الله عليه وسلم لأمته ترجيح المن على الاسارى والسبايا بالعتق ، قولا وعملا ، فى غزوة بنى المصطلق وغزوة فتح مكة وغزوة حنين كما هو مفصل فى كتب السيرة النبوية وغيرها ، اذ لم يكونوا أسروا

ما هو فوق الوصف . ومن ذلك عمل ايزان رئيس دير القديس فيكتور فى مرسيلية الذى ذهب فى سنة ١٠٤٧ الى الأندلس برغم ضعف جسمه وكثرة أمراضه ، وافتك عدداً من أسارى المسيحيين وجاء بهم قاصداً فرنسة ، فبينما هم فى البحر هاجمهم قرصان

....

من المسلمين أحداً ، لأن المسلمين قد أثخنوهم وظهروا عليهم . فعلم منها أن روح الشريعة الاسلامية ترجيح جانب الفضل والاحسان عند القدرة ، ومنه عتق الأسرى والسبايا والمن عليهم بالجزية بلا مقابل حاضر ولا خوف مستقبل ، بل لمحض الاحسان

الطريقة الثانية ماشرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوبا وندبا وهو أنواع :

النوع الأولى من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازبة وفيه عشر مسائل :

١ — الحرية فى الاسلام هى الأصل فى الانسان ، كما كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عامله على مصر عمرو بن العاص (وقد اشتكى عليه قبطى) : ياعمرو منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وقد أخذ الفقهاء من هذا الأصل أن الرق لايثبت باقرار المرء على نفسه وجعلوا قول منكره راجحاً على قول مدعيه فيكلف اثباته

٢ — ان الاسلام حرم استرقاق الأحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة بشروطها كما تقدم وجعل ذلك من أعظم الآثام . روى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تعالى : ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » وفى حديث الثلاثة الذى لايقبل الله منهم صلاة « ورجل اعتبد محرراً » أى جعله كالعبد فى استخدامه كرهاً وأنكر عتقه أو كتمه وهو فى سنن أبى داود وابن ماجه

٣ — شرع الله تعالى للمملوك أن يشترى نفسه من مالكه بمال يدفعه ولو أقساطا . ويسمى هذا فى الشرع الكتاب والمكاتبة ، وأصله قوله تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » أمر بمكاتبتهم ان علم المالك أنهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه وأنه خير لهم وأمر باعانة المالك لمكاتبه على أداء ماباعه نفسه به ، ويدخل فيه الهبة وحط بعض الاقساط عنه وجعل فى مال الزكاة المفروضة سهماً تدخل فيه هذه الاعانة وندب غير المالك لذلك أيضاً

ذهب بعض العلماء الى أن الأمرين فى الآية للوجوب : الأمر بالمكاتبة والأمر بالاعانة عليها . والأكثرون على أن الأول للندب والثانى للوجوب . وفى صحيح البخارى بعد ذكر الآية : قال روح عن ابن جريج قلت لعطاء : واجب على اذا علمت ان له (أى لمملوكه) مالا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه الا واجباً . وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا . ثم

فأخذوهم ووقعوا ثانية فى الأسر ، ورجع ايزان يسعى من جديد سعياً حثيثاً ويذهب ويجيء حتى افتكهم مرة ثانية وعندما جاء بهم الى مرسيلية كان الضنى قد بلغ منه مبلغه فما وطيء أرض مرسيلية حتى مات دنفاً .

....

أخبرنى أن موسى بن أنس أخبره ان سيرين سأل أنساً المكاتبة — وكان كثير المال — فأبى ، فانطلق سيرين الى عمر فدعاه عمر فقال له : كاتبه . فأبى . فضربه بالدرة وتلا (فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً) فكاتبه

٤ — اذا خرج الأرقاء من دار الكفر ودخلوا دار الاسلام يصيرون أحراراً وعلى الحكومة الاسلامية تنفيذ ذلك ومستنده فى السنة معروف

٥ — ان من اعتق حصة له فى عبد عتق كله عليه من ماله ، ان كان له مال ، وان كان لغيره حصة فيه فله أحكام . وفى ذلك أحاديث فى الصحيحين وغيرهما ، منها حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أعتق نصيباً أو شقيصاً فى مملوك فخلاصه عليه فى ماله ان كان له مال وإلا قوم عليه فاستسعى به غير مشقوق عليه » وحديث ابن عمر مرفوعاً أيضاً « من أعتق نصيباً له فى مملوك أو شركا له فى عبد فكان له من المال مايبلغ قيمته بقيمة العدل فهو عتيق » والشقيص كالنصيب وزناً ومعنى

٦ — من عذب مملوكه أو مثل به أو خصاه عتق عليه ، فقد روىالامام أحمد أن زنباعاً أبا روح وجد غلاماً له مع جارية له فجدع أنفه وجبه فشكاه الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فسأله فاعترف وذكر ذنبه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » ويؤخذ منه أن الجب والخصاء حرام وموجب لعتق العبد وينفذه الحاكم فكل ماكان يتخذ من الخصيان المماليك ففيه مخالفة للشرع الاسلامي بخصائهم وعدم عتقهم

وفى رواية له (الامام أحمد) أخرجها أبو داود وابن ماجه جاء رجل الىالنبى صلى الله عليه وسلم صارخاً فقال له مالك ؟ قال : سيدى رآنى أقبل جارية له فجب مذاكيرى . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « على بالرجل » فطلب فلم يقدر عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » وفى جامع الأصول من حديث سمرة بن جندب وأبى هريرة أن النبى صلىالله عليه وسلم قال « من مثل بعبده عتق عليه »

٧ — إذاء المملوك بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام ، ولا كفارة لذنبه الا عتقه ، فقد روي أحمد ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلميقول: من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه . وللشيخين والترمذى عن سويد بن مقرن قال : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا الا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك النبي فقال : أعتقوها . وقيل له انه ليس لبنى مقرن خادم غيرها . فرخص لهم باستخدامها

وأما الرقيق من النساء فكن يشتغلن فى قصور الأمراء وحرم الأغنياء ويساعدن زوجات الرجل الذى يملكهن ، واذا امتازت احداهن بجمال أو قسام كانت تعلم وتهذب وتباع بثمن غال أو يتزوج بها مالكها وكثيراً ما كن يرسلن

....

مادامت الحاجة واطلاقها اذا زالت . وروى مسلم وغيره عن أبى مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً بالسوط فسمعت صوتاً من خلفى : اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب قال : فلما دنا منى اذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هويقول : اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود . فألقيت السوط من يدى . وفى رواية فسقط من يدى السوط من هيبته ، فقال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر منك على هذا الغلام (وفى رواية عليه) فقلت يارسول الله هو حر لوجه الله فقال : اما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار

٨ — التدبير عتق لازم وينعقد بقول السيد لعبده أنت مدبر وأنت حر عن دبر منى أى بعد أن أدبر عن هذه الدنيا وكذا أنت حر بعد موتى اذا قصد به التدبير فان اطلق ولا قرينة فبعض العلماء يرجح أنه تدبير تقوية لجانب العتق الذى هو من مقاصد الشرع الأساسية . ومنهم من يرجح جانب الوصية . ومن أحكام التدبير أنه لازم فى الحال لايجوز الرجوع عنه كالوصية وأنه لايجوز للمدبر (بالكسر) بيع المدبر (بالفتح) عند مالك وأبى حنيفة وأن من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق الى باقيه وقال جمهور العلماء ان أولاد الجارية المدبرة تابعون لها فى العتق والرق فاذا عتقت عتقوا معها

٩ — عتق أمهات الأولاد . وهو أن الجارية التى تلد لسيدها ولداً تصير حرة من رأس ماله بعد موته ، فلا تدخل فى ملك الورثة ولا يجوز له بيعها فى حياته عند جمهور السلف والخلف ، وأولهم عمر وعثمان ، ففى حديث عمر عند الامام مالك : أيما وليدة ولدت من سيدها فانه لايبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فاذا مات فهى حرة

١٠ — ان من ملك أحداً من أولى القربة عتق عليه وأعم مافيه حديث سمرة بن جندب مرفوعاً : من ملك ذا رحم محرم فهو حر

النوع الثانى من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات والمراد بها القربات التى تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهى ثلاثة أقسام أحدها واجب حتما على القادر على العتق ككفارة قتل النفس خطأ وكفارة الظهار ، وهو تشبيه الرجل زوجه فى أمه ، وكان طلاقاً فى الجاهلية ، وكفارة افساد الصيام عمداً . ثانيها واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يميناً وحنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة . ثالثها مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

هدايا الى الخلفاء والـكبراء . وذلك كما حصل للأميرة « لمبيجية » ابنة أود دوق اكيتانية التى صارت الى الخليفة فى دمشق واذا تزوج المسلم بأمة صارت بذلك حرة وكان أولادها أيضاً أحراراً ، ولم يكن فرق بينها وبين الزوجة التى هى حرة من الأصل . وان كان ولد للرجل من جاريته أولاد ، ولو لم يكن عقد نـكاح ، ورضى بأن يعترف بهم فانهم يصيرون أحراراً وتصير أمهم حرة أيضاً لـكن مع بقائها تحت سلطة زوجها . ومثل هذه الجارية عند وفاة زوجها تتحرر تماما ويقال لها عندهم أم ولد.وكانت قصور خلفاء دمشق وبغداد وقرطبة ملأى بالنساء اللآئى يقال لهن أم ولد . وكان أولاد هارون الرشيد ، ماعدا واحداً فقط ، كلهم أبناء جوار يقال للواحدة منهن أم ولد . أما اذا كان الأب ولد له أولاد من جاريته ولم يرد أن يعترف بهم فانهم يبقون هم وأمهم عبيداً

النوع الثالث من وسائل الغاء الرق الموجود . جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة (فى الرقاب) بنص القرآن ، هو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه . ومن المعلوم ان زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئات الألوف وألوف الالوف من الدراهم والدنانير فلو نفذت أحكام الاسلام فيها وحدها لأمكن تحرير الرقيق فى دار الاسلام

النوع الرابع منها العتق الاختيارى لوجه الله تعالى . قد ورد فى الكتاب والسنة من الترغيب فى العتق مايدخل تدوينه فى سفر كبير ومما يدل على انه من أعظم العبادات آية البر من سورة البقرة . ومن أشهر أحاديث الترغيب فى العتق قوله صلى الله عليه وسلم :أيما رجل اعتق امرءامسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار . وحديث أبى ذر قال سألت رسول الله أى العمل أفضل قال : ايمان بالله وجهاد فى سبيله . قلت : فأى الرقاب أفضل قال : أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها . ومن أشهرها حديث أبى موسى الأشعرى : أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله أجران

أضف الى هذا وصايا الله ورسوله بالمماليك . ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك فى العقوبات نصف حد الحر وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قول السيد « عبدى أوأمتى » وأمره أن يقول « فتاى وفتاتى وغلامى » وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون . انتهى ببعض اختصار ، ومنه تفهم معالى الشرع الاسلامى وما فيه من المبادىء الانسانية والرحمة بالضعفاء والعمل لتحرير الرقاب بكل وسيلة ممكنة ،

ولنضرب لك مثلا على ما كان يعانيه الأسرى المسيحيون ، فى بلاد الاسلام ، بالحادثة الآتية :

فى أواخر القرن العاشر وقع رجل من احلاس الحرب ، من بلدة طلوزة ، أسيراً فى أثناء ذهابه لزيارة بيت المقدس فصار الى بيت رجل من الأغنياء استخدمه فى حرث الأرض ، فقال لهم انه لايحسن هـذا العمل وانه لا يحسن غـير القتال ، فجعلوه جنديا ، وحضر وقائع كثيرة وآل به التقلب فى البلاد الى أن حضر حرب قرطبة الأهلية سنة ١٠٠٩ مسيحية ، وهناك امتاز بالبسالة ونبه أمره. ولما كان « شنجو » كونت قشتيلة قد خاض غمرات تلك الحرب وشاهد ماشاهده من إقدام هذا الرجل أمر باطلاق سبيله .

أما مصير المسلمين الذين كانوا يقعون فى أيدى الافرنج فلم يكن يختلف كثيراً عن مصير المسيحيين الذين يقعون أسرى فى بلاد الاسلام . ولقـد كان الرق معروفاً بفرنسة ، وكان يأتيها رقيق كثيرون من جرمانيين وسلاف وغيرهم من شمالى اوربة ، فاذا كان يستعبد فيها الأوربيون فبديهى أن يستعبد فيها الاسرى من المسلمين . ولم يكن فرق بين الاسرى فى الاسلام والاسرى فى بلاد الافرنج ، سوى أن الرقيق فى الاسلام اذا تحرر أصبحت له جميع حقوق الأحرار ، بخلاف القاعدة فى اوربة فان طبقة العبيد ولو تحرروا تبقى منحطة عن طبقة النبلاء وتبقى بينهما فواصل . وكان المسلمون يبذلون أيضا الأموال فى افتـكاك أسراهم ، فمنهم من يفـكه أهله ، ومنهم من يفـكه أصحابه ، ومنهم من يفـكه سلطانه . وقد تأسست عند المسلمين جمعيات لفداء الاسرى كما عند المسيحيين ، وذلك أن فك العانى معدود من أفضل الأعمال فى الاسلام وقد سأل محمداً(صلى الله عليه وسلم)سائل عما يجب أن يعمله لينال أفضل الثواب

وتعلم أنه ليس من ضرب تحرير الرق عند الافرنج الذي فيه من الرياء ومن تسلط الأقوياء على الضعفاء ومن استعباد الشعوب القوية للشعوب المهضومة ومن جعل الأجناس البشرية نازلا بعضها عن بعض ما كل أحد يحكم به ان كان منصفاً

فأوصاه النبي بتحرير الرقاب . وقد روى النويرى ولوذريق شيميناس أنه فى زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن بلغ من ظفر جيوش الاسلام انهم بحثوا عن أسرى يفكونهم بالمال المجموع لذلك الغرض فلم يجدوا أسيراً مسلماً يفكونه

وكان يؤتى بأسرى المسلمين الى آرل ومرسيلية وأربونة ، ويباعون فيها ، ويأتى أناس من أبناء ملتهم إلى هذه المدن فيفدونهم فأما المسلمون الذين لم يحصل لهم نصيب الافتكاك من الأسر فكانوا يصيرون الى العبودية ، فيشتغل الواحد منهم فى خدمة مالكه . وأكثر ما كانوا يستعملونهم فى الحرث . وكان يحق لمالك العبد أن يبيعه أو أن يضربه أو أن يعذبه ، وكثيراً ما كانوا يكبلونهم بالحديد لئلا يفروا . ولم يكن للعبيد من المسلمين ، كما لم يكن للعبيد من اليهود ومن الوثنيين ، حق أن يتزوجوا بالمسيحيات ولو كن من الخوادم . ومن كانت منهن متزوجة بغير مسيحى كان لا يؤذن بدفنها فى مقابر النصارى بل هناك ماهو أكثر من ذلك وهو أنه لم يكن يؤذن فى زواج العبد من الأمة ولو كانا من ملة واحدة ، وانما كان للمالك أن يأذن فى مساكنة العبد للأمة فى مكان واحد ، ولكن على شرط أن الأولاد الذين يولدون لها يكونون ملكا للمالك المذكور . ولقد تلاشى الرق من اوربة فى نواحي القرن الثانى عشر إلا أنه بقى جائزاً بحق غير المسيحيين لاسيما المسلمين ، وعلى ذلك شواهد من آثار القرن الثانى عشر والقرون التالية ، ومن جملتها نصوص واردة فى مجموعة القوانين البحرية القديمة تأليف المسيو بارديسو ، غير أن ذوى التقوى كانوا اذا أرادوا أن يشكروا الله تعالى على نعمة أفاءها الله عليهم أعتقوا عبيدهم ثم عمت العادة بأن كل عبد طلب أن يتعمد أى أن يتنصر يصير حراً . وهكذا اندمج العبيد فى سائر الأمة

وكان العبيد من المسلمين يشتغلون فى المزارع من أملاك المتمولين أو أوقاف الأديار والكنائس . وقد مر بنا أن أسارى المسلمين الذين وقعوا فى اليد سنة ١٠١٩ أمام أربونة قد وزعهم المسيحيون على الكنائس وعلى بعض الزعماء . وهكذا وقع للمسلمين الذين كانوا فى فرنسة بعد سقوطهم فى معركة سنة ٩٧٥ ولجميع عساكر المسلمين الذين انفصلوا عن مجموع جيشهم فى أثناء غزواتهم للبلاد الافرنسية .

وكانت هناك أسباب أخرى لزيادة عدد الرقيق المسلم فى فرنسة ، منها الحروب الصليبية فى الشرق ، ومنها الحروب التى كانت تقع بين الافرنج وبين مسلمى الأندلس . وقد ذكر المسيو بارديسو فى كتابه المار الذكر أن منها ما كان آتيا أيضا بطريق التجارة . ومما لانزاع فيه أنه قد بقى استعباد أسرى المسلمين فى فرنسة عادة متبعة دهراً طويلا ، وفى سنة ١١٤٩ أوصى ارنود مطران أربونة بعبيده المسلمين لمطران بيزيه Beziers وفى سنة ١٢٥٠ أوصى روميو فيلنوف Romeo de Villeneuve الذى كان وزيراً عند كونت بروفنس ، قبل موته ، ببيع العبيد المسلمين الذين كانوا فى أراضيه . وكانوا من الذكور والاناث. ذكر هذا المسيو بوش فى تاريخ بروفنس . وبعد ذلك بمئتى سنة ورد ذكر شراء الملك رينه René [(١)] لثلاثة عبيد من المسلمين . وقد اطلعنا على قرارات لمجمع الاساقفة فى طراكونية فى اسبانية المنعقد سنة ١٢٣٩ من جملتها أن يجبر المسلمون الذين بفرنسة على اتخاذ لبس خاص بهم ، وكذلك اليهود ، وقد جاء مثل هذا الاقتراح فى قانون لأسقف بيزيه سنة ١٨٦٣

وكان المتحمسون بالنصرانية يغضبون للسماح بزواج الارقاء فى فرنسة بحيث وجد فى قانون رهبانية جيتو Jéteau مادة تمنع أديار هذه الرهبانية أن يجتمع فيها مسلمون ومسلمات فى محل واحد ، بل كان هناك معاهد دينية ترفض استخدام العبيد المسلمين فى أشغالها

لقد مرّ بنا أن المسلمين الذين كانوا يطلبون المعمودية يصيرون أحرارا وكان هذا حقاً لهم ، ولما كان كثير من هذا الطلب لايقع عن اخلاص أو عقيدة ، وكان بعض هؤلاء المتعمدين إذا حصلوا على حريتهم يعودون الى ضلالهم ، فكان لسادة هؤلاء العبيد الحق فى امتحانهم مدة من الزمن . وعند ذلك صار كثير من المسيحيين الذين لاوجدان لهم يمتحنون عبيدهم من المسلمين امتحانات يقصدون بها منعهم من الدخول فى النصرانية . ومنهم من كانوا وقد تنصر عبيدهم ، يرفضون الموافقة على تحريرهم ويستمرون على ارهاقهم بأشد مايمكن. ولقد أصدر البابا كليمنفوس الرابع سنة ١٢٦٦

---

(١) كان يقال له الملك رينه الصالح وكان من ألقابه دوق أنجو وكان كونتا على بروفنس توفى سنة ١٤٨٠ .

منشوراً أنزل به صواعق الغضب على رئيس دير القديس بندكتس فى ميرنده ، لكونه عذب رجلا مسلماً غنيا كان قد تنصر ، وزعم هذا الرئيس أن تنصره كان غير حقيقى وضبط له أملاكه وحرم منها اولاده

فأنت ترى أنه كان من المسلمين المستعبدين فى فرنسة أشخاص ذوو أملاك ، وكانوا مثل اليهود يقرضون الأموال بالربا ، وكان اذا غضب الشعب على المرابين من اليهود أدخلوا المسلمين أيضا فى دائرة غضبهم . وقد قلنا انه لم يكن للمسلمين حق فى التزوج بمسيحيات ، وان كل مسيحية كانت ترضى بأن يتزوجها مسلم كانت تحرم من حق الدفن فى المقابر المسيحية ، وكان هؤلاء المسلمون يعطلون أشغالهم فى الأعياد المسيحية قسراً

وبالاجمال فعدد المسلمين الذين تنصروا فى فرنسة كان كبيراً (١) وهذه نتيجة

---

(١) فى فرنسة ولا سيما فى المقاطعات الجنوبية منها ، عائلات كثيرة معروفة بأنها من سلالة السرازين . أى المسلمين ، ومنها ماتدل سحناؤها الى اليوم على العروبة . وفى نفس سويسرة عائلات ملقبة بالسرازين ، فى جنيف وفى بازيل . ومن أشهر من انتسب الى أصل عربى فى جنيف العالم العلامة الفيلسوف « ابن أبى زيد » وكان أهل سويسرة يقولون له أبو زيت Abou Zit وأصله عربى من سكان طولوز . وكان أهله من العرب الذين تنصروا ثم اتخذوا مذهب البروتستانت ، فلما صدر أمر لويس الرابع عشر باخراج كل البروتستانتيين من فرنسة ، خرج أبو زيد هذا مع من خرجوا الى جنيف ، ثم نشأ فيها ونبغ فى جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة والتاريخ وغيرها . وكان معاصراً لفولتير وروسو ونيوطن فى انكلترة ، وصديقاً لهم جميعاً ، وكانت له عندهم المكانة العليا وربما استفتوه فى عويص المسائل العلمية . وقد ذكرت جريدة جورنال ده جنيف احدى المرار أن فولتير استفتاه فى مسائل غاب عنه علمها . ومر بفولتير صاحب له قاصداً الى جنيف ، فسأله فولتير : ماشغلك فى تلك البلدة ؟ وكان فولتير ساكناً فى ضواحى جنيف كما لا يخفى بقرية فرناى . فقال له صاحبه : أريد الاجتماع بعالم كبير . فقال له . اذن تريد أن تجتمع بصاحبنا العربى . وأما جان جاك روسو فبينه وبين أبى زيد مراسلات مجموعة فى كتاب . وكان هذا العلامة العربى زاهداً عظيم التواضع معرضاً عن الدنيا ، عرضوا عليه فى جنيف أعلى المناصب فرفضها ، واقتصر على وظيفة قيم لخزانة الكتب العمومية . وفى جنيف اليوم شارع مشهور باسم شارع أبى زيد . وكان سلف أبى زيد هذا أطباء فى طولوز . وقد كتب محرر هذه السطور عن أبى زيد العربى الجنيفى منذ بضع سنوات مقالة فى الجرائد العربية لخصناها عن الجرائد السويسرية وربما نعود الى موضوعه بعد التوسع فى معرفة حياته

طبيعية للحالة التى كانت يومئذ ولكن الفرنسيس الذين مع الأسف اتخذوا الاسلام ديناً كان عددهم أكبر ، فان الغزوات الاسلامية الأولى لفرنسة وسبي المسلمين للذرارى من أهلها وما كان التجار يتجرون به من الرقيق ، كل هذا قد أدخل فى الاسلام عدداً لا يحصى من الافرنج . ومن المعلوم أن المسلمين يتلقون المسيحيين الداخلين فى دينهم بمزيد التساهل ويعتنون بهم ويوفرون حظوظهم وأرزاقهم وبهذا كثر عدد النصارى الذين صبأوا عن دينهم ودخلوا فى الاسلام .

ولنتكلم الآن عن كيفية حكم المسلمين فى فرنسة أيام كانوا سائدين فيها وعن طرز معاملتهم لرعاياهم وعن سياستهم المدنية والدينية والخراجية ، فانهم قد استقروا بعد غزواتهم الاولى فى بروفنس ودوفينى وبيمونت وسفواى وسويسرة ، ولكن استقرارهم الحقيقى لم يكن إلا فى بعض المعاقل الحصينة وفى ضواحيها ، ولم يتفق لهم أن استولوا فى فرنسة على بلاد بأسرها . نعم كانت فى أيديهم معابر الجبال والأنهار ، فكانوا يأخذون من السابلة رسوماً على المرور ، وكان الوادعون منهم يشتغلون بالفلاحة والزراعة ، وربما أدوا الضرائب عن محصولاتهم الى أمير البلاد التى كانوا فيها . أما بلاد بروفنس التى كانت تجاور حصن فركسينت فقد كانت دائما عرضة لعبث عصاباتهم . وفى أوائل فتحهم لجنوبى فرنسة أيام شارل مارتل وابنه بيبن القصير لم يطل الأمر أن وقعت بينهم الحروب التى أدت الى التنفيس من خناق المسيحيين . فكان للقوط فى اللانغدوق امراؤهم وقوامسهم يلون أمورهم وانما لم يكن المسلمون يعطون هؤلاء الأمراء سلطة عسكرية واسعة فكأنهم كانوا يحفظون حق السيطرة لأنفسهم على الحكومات المسيحية المحلية . وقد ذكر ايزيدور الباجى المؤرخ المسيحى الذى عاش فى ذلك العصر أن عقبة أمير الأندلس فى سنة ٧٣٤ كان يلتزم سياسة ترك الشعوب التى تخضع لحكم المسلمين على قوانينها الأصلية ، وقد وقع فى يدنا منشور من الوالى المسلم لمدينة قويمرة فى البرتغال يظهر منه أنه كانت للمسيحيين ادارة خاصة بهم ، ونص هذا المنشور هو مايلى : يكون على مسيحيي قويمرة كونت يلى أمورهم ويحكم فيهم بالسداد ، وكما كانت عادة المسيحيين فى الأحكام وله أن يفصل الخصومات

التى تقع بينهم ، ولكنه لايقدر أن يحكم على أحد بالقتل إلا بعد موافقة قاضى المسلمين وذلك بأن الجانى يؤتى به أمام القاضى ويقرأ نص الحكم عليه بحسب الشريعة المسيحية ، فاذا وافق القاضى أمكن تنفيذ الحكم بالقتل والا فلا . ويكون لكل مدينة من المدن الصغيرة قاض خاص بها يحكم فيها بالعدل ويكف المنازعات ، وان أهان مسيحى مسلماً عومل بشرع المسلمين ، وان سطا مسيحى على عرض مسلمة أجبر على الاسلام وعلى التزوج بالمرأة التى اعتدى على عرضها ، والا فالقتل ، وان كانت المرأة محصناً فان المعتدى على عرضها يقتل بلا مراجعة (١) وقد وجد نص هذا المنشور فى دير لوربان Lorban وطبع فى اشبونة سنة ١٦٠٩

أما من جهة سياسة المسلمين الدينية فى فرنسة فليست عندنا عنها معلومات شافية للغليل ، وكل مانعلم أن المسلمين تركوا للنصارى حريتهم الدينية ، وأن السواد الأعظم من أهل أربونة مثلا بقوا مسيحيين ، وكان عددهم كبيراً . وقد ترك لهم المسلمون كنائسهم وبيعهم مع القسيسين والوفهة الذين يخدمونها . على أنه لم يسمع أن المسلمين فى أربونة وما جاورها من فرنسة مثلا متعوا المسيحيين بالحقوق التى أمتعوهم بها فى قرطبة والمدن التى فى قلب المملكة . نعم ان المسلمين فى قرطبة استولوا على كنائسها الكبرى ، ولكنهم أبقوا للمسيحيين سائر كنائسهم وتركوا لهم أديارهم التى للرهبان والتى للراهبات على السواء ، وتسامحوا معهم فى أمر لم يتسامح فيه المسلمون لا فى افريقية ولا فى آسية وهو قرع المسيحيين للأجراس (٢) فى مواعيد صلاتهم أما فى أربونة وما جاورها من المدن فلم يكن للمسيحيين أساقفة كما فى قرطبة ، ولا كانت لهم أدياز ولم يكن السبب فى ذلك كله من المسلمين بل كانت هناك فوضى كنسية كما

---

(١) كان يجب على المسيو رينو وهو مستشرق عليم بأمور المسلمين أن ينبه على كون المعتدى على عرض المسلمة المتزوجة يجازى بالقتل بحسب الشرع سواء كان مسيحياً أو مسلماً أى ان هذا الجزاء ليس خاصاً بالمسيحيين

(٢) ذكر رينو فى حاشية هذه الجملة أن المسيحيين فى جبل لبنان هم وحدهم الذين فى الشرق يسمح لهم المسلمون بقرع الأجراس

يستدل عليه من كتاب بعث به القديس بونيفاس الى البابا زخريا سنة ٧٤٢ وهذه الفوضى كانت ناشئة عن الانقلابات التى أحدثتها حروب أولاد كلوفيس فيما بينهم . أما فى شمالى اسبانية فقد وقعت الفوضى الكنسية لدى وصول المسلمين الى البلاد. ففى أراغون مثلا ، عندما جاء المسلمون واستولوا على هذه المملكة ، فر الأسقف الى جبال البيرانة ولم تعد الأسقفية الى أراغون الا بعد ذلك بثلاثمائة سنة أي عند ما أجلى المسلمون عن البلاد . ولا يظهر أنه كان فى برشلونة أسقفية لعهد وجود المسلمين فيها ، بل يظهر أن أمراء المسلمين تحاشوا قبول الاسقفيات فى المدن الواقعة فى الثغور . وقد كان المسلمون يتركون للمسيحيين كنائسهم على شريطة أن يكتفوا بالقديم منها ، وأن لا يؤسسوا كنائس جديدة ، وان بنوا شيئاً جديداً منها فلا يكون الا مكان القديم ، وذهب بعض فقهاء الاسلام الى أنه لا يجوز تجديد الكنيسة الجديدة الا بأحجار الكنيسة القديمة . ولم يكن للمسيحيين حق فى الطواف فى الأسواق بالصلبان والأعلام المسيحية ولم يكن أيضا للمسيحيين أن يعارضوا نصرانياً يريد الدخول فى الاسلام . وقدتبين من الأمر المتعلق بنصارى قويمرة فى البرتغال أنه كان على كل كنيسة دفع ضريبة لبيت المال، مقدارها خمس وعشرون قطعة فضية ، وكان على كل دير دفع خمسين قطعة أما الكنائس العظمى فكانت تدفع مائة قطعة

وقد تقدم أن المسلمين فى مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى ، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير . ومع هذا فقد وجدت كتابات للمسيحيين من القرن التاسع تدل على أن مراجل البغضاء كانت تغلى أحياناً بين الفريقين ، وأنه كان محظوراً على المسيحيين اقامة شعائر دينهم علناً بالاحتفال اللازم ، وأن المسلمين كانوا اذا سمعوا قرع النواقيس اشمأزوا ونفروا وربما قذفوا وشتموا . ولكن لا ينكر أن المسيحيين أيضاً كانوا اذا سمعوا الأذان تعوذوا بالله ورسموا اشارة الصليب على صدورهم . وقد أقر بذلك القديس أولوج Euloge الذى كان من المضطهدين سنة ٨٥٠

أما من جهة الخراج فقد تقدم أن السمح (ابن مالك الخولانى) أمير الأندلس كان

هو البادىء بتنظيم الجبايات واستخراج الارتفاعات سواء فى اسبانية أو فى جنوبى فرنسة ، وقبل ذلك كانت أمور الجباية فوضى والحبل منتشراً وقد وزع السمح قسما من الأراضى المأخوذة من المسيحيين على غزاة المسلمين وعلى العائلات الفقيرة ، بعد أن كان بعض ذوى السلطة قد استأثروا بها لأنفسهم من دون الفقراء، وقدضم السمح بقية الأراضى الى بيت المال . وكان الخراج المفروض على أراضى المسلمين هو عشر المحصول بخلاف المسيحيين فقد كانوا يدفعون الخمس ، أى ضعف خراج المسلمين وكان المسيحيون عدا الخمس يدفعون الجزية وهى إتاوة شخصية كان يتقاضاها المسلمون من المسيحيين فى مقابلة محافظتهم على دمائهم وأموالهم وامتاعهم بحريتهم الدينية . أما من أسلم من المسيحيين فكان معفى من الجزية . وكان ملوك الأندلس يضربون رسما على البضائع والسلع ، فالمسلم كان يؤدى اثنين ونصفاً فى المئة ، والمسيحى كان يؤدى خمسة فى المائة ، وكانوا يسمونها زكاة وكانت تنفق فى اعانة الفقراء وافتكاك الاسرى

وكان المسلمون يسمون المسيحيين الذين خضعوا لهم ودفعوا الجزية المعاهدين أو أهل الذمة ، أى الذين لهم على المسلمين ذمة الحماية والمحافظة . أما المسيحيون الذين لم يكونوا خاضعين للاسلام فكانوا يسمونهم أعلاجا واحدها علج ، وكانوا يقولون عجمى لكل من ليس بعربى ، ويسمون مشركا كل من يقول بأن الله ثلاثة أقانيم لأن المسلمين لا يرون فى الثلاثة الأقانيم الا ثلاثة أشخاص .

ويحق للانسان أن يسأل : بأى لسان كان العرب يكلمون الأمم التى تغلبوا عليها ؟ فان من عادة العرب أن لا يحفلوا بغير لغتهم كما أن المسيحيين لذلك العهد كانوا من الجهل والبربرية بحيث لم يكونوا يفكرون فى تعلم العربية . ولم يذكر التاريخ رجلا مسيحياً لأوائل أيام الفتح الاسلامى أتقن العربية غير هارتموت Hertmote رئيس دير سانغال الذى كان يعرف العربية واليونانية والعبرية ، وكان من رجال أواخر القرن التاسع . ولم يبدأ آباؤنا بتعلم العربية إلا فى أيام الحروب الصليبية ، إذ لم يجدوا غنى عن الاطلاع على لغة قوم استولوا على جانب من بلادهم ، فكانوا يذهبون الى اسبانية حيث كانت العربية واللاتينية تعلمان جنباً الى جنب ويقرأون العربية على أهلها . وفى

سنة ١١٤٢ أكمل بطرس رئيس دير كلونى Cluny أول ترجمة لاتينية للقرآن ، وبدأ يكتب الردود على دين الاسلام ، وتبعه فى ذلك مؤلفون كثيرون من النصارى .

على أننا لا نشك فى أنه فى أول دخول العرب الى فرنسة كانت اللغة العربية معروفة فيها ، وكان كثير من الافرنج يحسنون التكلم بها ، وذلك لأن العرب كانوا يأخذون أبناء البيوتات النبيلة رهائن على طاعة أهلهم لهم ، ويرسلون هذه الرهائن الى قلب مملكتهم ، فكان لابد لهم هنالك من أن يتعلموا العربية . وكذلك كان بديهياً أن الأسرى والعبيد من المسيحيين يتعلمون العربية ، فاذا عادوا الى بلادهم كانوا من جملة الافرنج الذين يعرفون هذه اللغة . وأضف الى ذلك المسلمين المستعبدين الذين كانوا فى أرض فرنسة فقدكانوا كلهم يتكلمون بالعربية ، ولا تنس التجار وزوار بيت المقدس الذين رغم جميع تلك الحروب الهائلة لم ينقطعوا عن التجارة ولا عن الزيارة ، وكانوا يختلفون الى مصر والشام وغيرهما من بلاد الاسلام، ومن جملة هؤلاء الانكليزى القديس غيلبود Geillebaud الذى ذهب الى الشرق ووصل الى الشام سنة ٧٣٤ للمسيح ، وقيل انه عند وصوله الى دمشق قبض عليه على ظن أنه جاسوس ، فلما علموا أنه قادم لزيارة بيت المقدس خلوا سبيله ، فطاف فى سورية وفلسطين بدون معارضة ؛ ولكن لم يقع فى أيدينا شىء من المعلومات عما دار من الأحاديث بين الخليفة فى دمشق وبين القديس المذكور

وكان المسيحيون فى ذلك العصر مستسلمين للاقدار يعتقدون أن غزوات العرب لبلادهم انما هى عقاب من الله تعالى للبشر على خطاياهم فكانوا راضين بما قدره الله عليهم لا يحاولون دفع ما نزل بهم ولم ينهضوا فى أوربة لاستعمال الوسائل البشرية الكفيلة بدفع الأذى عنهم الا فى أيام الحروب الصليبية

وكان المسلمون فى غاراتهم يستعملون السبى فيربون الصبيان الى أن يبلغوا رشدهم ، ويجعلونهم جنوداً ، ويربون الصبيات الى أن يبلغن رشدهن فيتخذوهن حلائل . وكانوا فى أى مكان شنوا فيه الغارة وضعوا ذلك نصب أعينهم. تأمل فى كيفية حلولهم بجزيرة اقريطش . فقد تقدم أن خمسة عشر ألفاً من ربض قرطبة أجلوا عن الأندلس

على أثر فتنة الربض المشهورة، فجاءوا الى الاسكندرية ، ومن هناك عزموا على النزول فى اقريطش نظراً لحسن هوائها وجودة تربتها ، ولما وصلوا الى تلك الجزيرة أمرهم قائدهم بأن يبدأوا بالعمارة ، وأحرق السفن التى جاءوا بها ، فصاح رفاقه به قائلين له : كيف يمكننا بعد الآن أن نراسل نساءنا وأولادنا ؟ فأجابهم : اننى أعطيتكم وطناً جديداً وهذا الوطن هو الذي يكفل لكم ايجاد نساء تتزوجون بهن ، وبعد ذلك عليكم أنتم أن تنسلوا الأولاد . ولما جاء المسلمون ودخلوا أرض فرنسة فاتحين لم يكن لهم مقصد سوى نشر دين الاسلام واخضاع فرنسة وكل اوربة لأحكام القرآن . ولكن فيما بعد ذلك دخل فى تلك الغزوات مقاصد أخرى ، كحب النهب أو الأخذ بالثأر . ومن هذا القبيل نزول العرب فى أواخر القرن التاسع فى أرض بروفنس

وقد ذكر المؤرخ ليو تبرند كيفية فتح العرب لصقلية فقال : ان أمير صقلية من قبل امبراطور القسطنطينية كان قد خرج من طاعته ، فأرسل يستنجد أمير العرب فى القيروان ، فشاور هذا أعوانه فيما يفعل ، فأشاروا عليه باصراخه ، ولكن على شرط أن العسكر الاسلامى يأخذ ما يمكنه من الغنائم ويقفل بدون استقرار فى تلك الجزيرة . وذلك لأنهم لمعرفتهم بشدة قرب صقلية من الأرض الكبيرة كانوا يعتقدون أن مقام أمة تخالف أهل تلك الديار فى اللغة والعقيدة لا يمكن أن يكون هناك لا طويلا ولا وطيداً ، وأنه لا مناص من أن يكر اليونان والافرنج فيسترجعوا تلك الجزيرة ولو بعد حين . قيل ان أحدهم سأل يوم عقد تلك الشورى بشأن غزو صقلية ما مقدار المسافة التى تفصل بين الجزيرة والأرض الكبيرة؟ فأجابوه بأن الانسان يقدر أن يأتى ويرجع مرتين أو ثلاثا فى النهار . فسأل وكم المسافة بين صقلية وافريقية ؟ فقيل له مسافة يوم وليلة . فقال : لو كنت طيراً ما رضيت أن أجعل مقامى بهذه الجزيرة والحال هى هذه من جهة المسافة . ذكر ذلك النويرى . والحقيقة أن المسلمين لم يعولوا على البقاء فى صقلية الا بعد أن رأوا أمورها فوضى ، وبعد أن وجدوا أمراء تلك البلاد يستعينون بهم بعضهم على بعض ، لا تجمعهم جامعة قومية ولا تضمهم صارخة وطنية

أما الآثار الحجرية التي تركها المسلمون في فرنسة على أثر غزواتهم فيها فهي قليلة جداً ففي أربونة مثلا حيث بقي العرب نحواً من أربعين سنة ، لم نجد لهم بناءاً خاصاً بهم ، وغاية ما عملوا أنهم زادوا في تحكيم القلاع التي فيها حتى جعلوها من مناعتها لا تؤخذ . ولكن لم يجد المؤرخون هناك كتابات عربية ولا آثاراً يتحققون كونها عربية . وقد قيل عن بناء في مدينة سردانية التي بجوار جبل لويس انه من عمل المسلمين ، ولكن ذلك القول لم يثبت لأنه بناء لا يشابه أبنيتهم المعهودة . نعم يوجد في جنوبي فرنسة كثير من المسكوكات العربية وأكثرها ليس عليه ذكر الملوك الذين ضربت في أيامهم ، ولا ينكر أنه في أواخر القرن التاسع للميلاد كان المسلمون قد قطعوا مراحل بعيدة في المعارف والفنون وأخذوا يتقدمون يوماً فيوماً في المدنية، وفي ذلك الوقت كان نزولهم في بلاد بروفنس ودوفني وسافواي وسويسرة . ولا نزاع في أن مسلمي اسبانية وصقلية بل مسلمي افريقية نفسها كانوا في ذلك العصر أرقى من مسيحيي فرنسة والبلاد المجاورة لها التي كانت غائصة في فتن كقطع الليل المظلم. ولسنا الآن في صدد المدنية الباهرة التي أثلها العرب في الأندلس فمن ذا الذي لا يسمع بعظمة جامع قرطبة الأعظم ، ومن لا يعلم ماشاده العرب من الجسور والمعابر وشقوه من الأنهر والجداول لري الأراضي ، وما بنوه من القصور المنيفة الشامخة ولعمري لم ينحصر فضلهم في الصناعة والفن بل كانت لهم القدم الراسخة في العلوم العقلية والفلسفة وكانوا ترجموا إلى العربية كتب أرسطو وابيقراط وجالينوس وديسقوريدوس وبطوليماووس وغيرهم ، وكشفوا من العلم أسراراً جديدة أضافوها الى ماتلقوه عن غيرهم . فكان تفوق العرب على المسيحيين في ذلك العصر حقيقة ثابتة لامراء فيها وكان المسيحيون يفتقرون اليهم في العلم ويردون حياضهم فيه . وقد روى المؤرخون أن شانجه ملك ليون كان في سنة ٩٦٠ جاءالى قرطبة ملتمساً الاستشفاء ، لدى أطباء العرب ، من مرض كان قد أعياه شفاؤه ، فوجد عند أطباء العرب الراحة التي كان ينشدها وبقي طول حياته يذكر الحفاوة التي استقبل بها والاعتناء الذي رآه في قرطبة بشأنه . وفي تلك الأيام كان راهب اسمه جربرت انتجع اسبانية ،

طلبا للعلوم الطبيعية والرياضية ، فبلغ من العلم مبلغا خيل لعامة فرنسة اذ ذاك أنه ساحر (١) .

أما العرب الذين جاءت عصائبهم ونزلت فى أرض فرنسة وتدرجت الى جبال الألب فلم يكونوا من النمط الأول أى من الذين يريدون أن ينشروا ثقافة أو يؤثلوا مدنية ، وانما كانت غاراتهم كلها منبعثة عن طمع فى النهب وغرام بالكسب . فالنهضة الحقيقية فى أوربة لم تبدأ الا منذ القرن الثانى عشر أى منذ زحف أهل الغرب لقتال أهل الشرق ، ووجدت النصرانية والاسلام فى الصراع وجها لوجه ، فوقع الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين ، وأفاق الفرنسيس والانكليز والالمان من رقدتهم ونفضوا عنهم غبار الخمول ، ووجدوا ضرورة المشاطرة فى المدنية الاسلامية . وكان علم اللغة اليونانية قد درس وصار العلم اليونانى غير معروف الا عند العرب ، فأخذ

(١) فى موضوع آثار العرب فى فرنسة يحسن أن نذكر شهادة طبيب كبير اسمه البروفسور دالماس هو أستاذ الأمراض النسائية بكلية الطب فى مدينة مونبيليه فى جنوبى فرنسة الذى ألقى فى فضل العرب على جامعة مونبيليه محاضرة قيمة حضرها جم من الشبان الشرقيين ، من مصريين وعراقيين وسوريين ، ونشروا عن ذلك مقالة فى جريدة الاهرام وقد بدأ البروفسور دالماس بذكر فتوحات العرب لعهد الخلفاء الأولين ، وقال انهم كانوا يحملون مدنيتهم حيثما ذهبوا واينما حلوا ، وقال : انمدنية العرب لم تنحصر فى فن البناء ونشر الزخرف العربى وتشييد الجوامع فقط بل كانت تتناول الكثير من العلوم والمعارف التى هى أساس العلوم الحديثة ، وخص بالذكر علمى النبات والطب ، وذكر أنه الى العرب يعود الفضل فى تعريف الغرب بالمدنية اليونانية . ثم قال : ان العرب نزلوا ببلدة ماجلون ، ضاحية مونبيليه ، وأقاموا بها مدة من الزمن الى أن أجلاهم عنها شارل مارتل وأحرقها حتى لايعودوا اليها وكانوا فى اثناء وجودهم فيها يبيعون بعض الكتب الطبية ، ثم جاء منهم أطباء وصاروا يمارسون حرفة التطبيب ، ثم ذكر من الأطباء أسماء بعض اليهود الذين تلقوا الطب العربى مثل صموئيل بن طيبون وناتان بن زكريا وأسماؤهما منقوشة على لوحة الاستاذية بمدخل كلية الطب ، وقال : ان بعض الرهبان الذين ترقوا الى درجة البابوية كانوا قد طلبوا العلم بجامعة مونبيليه على أساتيذ من العرب وقال:ان ملك نابار عندمامرض بصدره التجأ الى أطباء العرب،وقال: انه يوجد فىمتحف الجامعة بعض آثار وجدت فىماجلون عليها بعض الآيات القرآنيةوالاشعار العربية وكنت سمعت من المرحوم الاخ أحمد بك شوقى أمير الشعراء الذى درس علم الحقوق فى جامعة مونبيليه هذا الخبر بعينه رواه لى لأول تعارفنا فى باريز سنة ١٨٩٣

المسيحيون من فرنسة وجوارها يؤمون اسبانية لأجل ترجمة التآليف العربية المنقولة عن اليونان ، وذلك الى اللغة اللاتينية التى كانت يومئذ لغة الكتابة والعلم فى أوربة . وقد بقيت هذه التراجم الى القرن الخامس عشر هى عمدة الجامعات والمدارس فى معرفة علوم يونان

ولا مندوحة لنا عن أن نقول كلمتين عن آثار هؤلاء العرب الذين نزلوا فى فركسنيت ، فان الأثر الذى أثروه هنالك من الآبار المحفورة والأسراب المكفورة والحجارة المنحوتة والأبنية المحكمة لا تزال بقاياه بارزة للعيان ، دالة على صبر عجيب وهمة بعيدة ، ولكن لم يوجد على شيء من ذلك الحصن كتابات عربية كما وجد فى الحصون التى من بناء العرب فى الأندلس .

وقد ذكروا أن حصوناً كثيرة على قنن الجبال هى من بناء العرب المذكورين وأنه كانت لهم أبراج كثيرة منتظمة بلبة الساحل الافرنسى والايطالى ، اختاروا لها تلال الجبال لتوقد بها النيران ليلا على حسب عادة العرب الذين كانوا يشبون هذه النيران ايذاناً بوقوع الحرب وطلبا للمدد وجمعاً للقوة . وقد ذكر ذلك المسيو الفونس ده نيس Denys فى كتابه النزهة البديعة فى مقاطعة الفار . وكذلك جاء فى كتب العرب كلام على الأربطة والمراقب التى شادها الأمير عقبة بن الحجاج السلولى ، أمير الأندلس فى جنوبى فرنسة ، فى نواحى سنة ٧٣٤ وقد ذكر ايزيدور الباجى أن السمح ابن مالك الخولانى الذى تولى قبل عقبة امارة الأندلس ، قد بنى هو جانباً من هذه الابراج ، ولكننا لانعلم لماذا ينسبون بناء هذه الابراج كلها الى العرب ولماذا لا يجوز أن يكون أهل البلاد أنفسهم هم الذين بنوها ، أو بنوا بعضها ، احتياطا لانفسهم ومراقبة لاعدائهم (١) . هذا ومما وجد من آثار العرب فى فرنسة الاطالس الحريرية والاسفاط

(١) نقول انه يجوز أن يكون الافرنج قد بنوا شيئا من هذه الابراج فى سواحلهم ولكن مما لا مشاحة فيه أن الابراج التى فى جميع سواحل الاندلس مطردة متسقة على طول تلك السواحل كانت من بناء العرب وان عادة ايقاد النيران فى الابراج ايذانا بالحرب ومدداً للصريخ انما هى عادة فى الغالب عربية . وكان العرب فى أوائل الفتح الاسلامى نشروا هذا النمط من الابراج النارية من

الثمينة من العاج والفضة والكؤوس البلورية والاسلحة النفيسة ، ولا يزال منها جانب فى خزائن الكنائس وفى مخادع الغواة؛والناس تقومها بأثمان غالية مما يدل على مكانة الصنعة العربية فى الانفس.ولكن من المحقق أن أكثر هذه المصنوعات العربية هى من عصر متأخر عن القرن الثامن . ولم يكن مقام العرب بفرنسة خالياً من تأثير فى طرق الزراعة فان هؤلاء القوم لم يحلوا فى مكان الا طبقوا الأراضي بالعمل ، وجروا الاقنية ، ونسقوا من تحتها الجنان شاهدك على ذلك تلك البساتين المنقطعة النظير ، فى مرسية وبلنسية وغرناطة ، ويقال ان العرب الذين نزلوا فى بروفنس هم الذين بدأوا فى أستثمار شجر البلوط ، ولا يزال هناك غابة منه يقال لها غابة المغاربة . وكذلك العرب هم الذين كانوا يستخرجون القطران من أشجار الصنوبر والارز ، ويقلفطون به المراكب . ولهذا تجد أهالى بروفنس لا يقولون للقطران غودرون Goudron كما يقول سائر الفرنسيس ، بل يقولون قطران Quitran (١)

وقالوا ان العرب هم الذين أصلحوا جنس الخيل فى فرنسة . وذلك انهم كانوا يأتون على سفنهم بالجياد العراب ليتسنى لهم عليها بث الغارات فى داخل البلاد ،فبقى جنسها فى فرنسة من ذلك الوقت والآن يوجد صنف من الخيل فى مقاطعة كامرغ Camergue متولد من ازدواج الخيل الاندلسية بخيول تلك المقاطعة

ومما يظنه الناس من بقايا عادات العرب نوع الرقص الذى يطلع عليه الانسان فى جنوبى فرنسة وهو يختلف باختلاف الأماكن ، فمنه زفن يقع فى الليالى يرقص فيه

الاسكندرية الى طنجة ، فكانت اذا وقعت واقعة ذات بال أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج الى برج حتى يبلغ ذلك الاسكندرية ، فى الليلة الواحدة .

ولما سرت من مالقة الى الجزيرة الخضراء سنة ١٩٣٠ التى ذهبت فيها إلى الاندلس اجتازت بنا السيارة هذه المسافة فى ست ساعات ، فكنت كلما قطعت مسافة ٣٠٠ أو ٥٠٠ متر حاذيت برجا مخروطى الشكل شاهقا فى الفضاء ، وعلمت أن هذه الأبراج كلها عربية

(١) القطران : عرفه العرب بأنه دهن يخرج من شجر الابهل والارز ، وهو يلفظ بالفتح وبالكسر . ونحن فى سورية نلفظه بالفتح (قطران) ويظهر أن العرب الذين نزلوا سواحل بروفانس كانوا يلفظونه بالكسر (قطران) ولذلك قال الفرنسيس Quitran

الشاب بين فتاتين ، وفى أثناء رقصه يقدم فاكهة تارة الى هذه وطوراً الى تلك . ومنه ما يقف فيه الراقصون خطا ، بازاء الراقصات خطا ، ثم يشتبك الخطان أحدهما بالآخر والشخص الذى يكون على رأس كل من الخطين يعمل اشارات يقتدى بها الآخرون وهناك رقص عسكرى يرقص فيه اثنان كل منهما متقلد سيفا يحاول أن يصيب به الآخر أشبه بالأقران فى ساحة القتال اذا أرادوا أن يهاجموا أويدافعوا

أما وجود أناس فى فرنسة نقدر أن نحكم عليهم حكماً باتا بأنهم من أصل عربى فغير محقق. قيل لنا ان قوماً يسكنون على ضفاف نهر الصاوون، بين ماصون وليون، لاسيما على الضفة الشمالية انهم من بقايا شرذمة من العسكر العربى انقطعت عن مجموع الجيش فى أيام شارل مارتل وقالوا ان لهؤلاء عادات خاصة وألفاظا خاصة قد تكون باقية من اللغة العربية ولكن شيئا من هذا لم يتحقق ، لاسيا أن تلك الألفاظ هى فى الحقيقة مشتقة من اللاتينية ، أو باقية من الافرنسى القديم وأن البلاد الواقعة بقرب ماصون لم ينزل بها عرب بل كانت ملجأ لمن فروا من وجه العرب وكذلك قيل ان جماعة من سكان البلاد المجاورة لجبال البيرانه ، يقال لهم كاغوت ، هم من أصل عربى . ولكن لم يثبت شيء من هذا، بل الارجح أن هذا الجيل من الناس هو من جملة الأجيال الغريبة المنتشرة فى بريطانية واوفرنيه باسم كاكو وكابوت وما أشبه ذلك

ثم انه كما لايخفى فى زمن الملك هنرى الرابع هاجر من اسبانية الى فرنسة عدد كبير ، نحو من مائة وخمسين ألف نسمة من مسلمى الأندلس ، فراراً من تضييق فليب الثالث ملك إسبانية الذى منع أن يجتمع فى جزيرة الأندلس دينان ، وأجبر بقية المسلمين فيها على التنصر بالنار والسيف . ولما وجد أن الكثيرين منهم لا يزالون مسلمين باطنا ، وأن لهم علاقات بالدولة العثمانية التى كانت فى ذلك العصر ذات صولة عظيمة ، أجمع أخيرا على طردهم من بلاده، فجاءوا الى فرنسة ولكنهم لم يكونوا فى فرنسة الا عابرى سبيل ، لأنهم أبحروا من سواحل فرنسة الى افريقية والبلاد العثمانية ومن بقى منهم

حى فرنسة تنصر واندمج فى مجموع الأمة كما أشار الى ذلك شينيه Chenier فى كتابه المباحث التاريخية عن المغاربة (١)

أما تأثير الأدب العربى فى آداب لغات الامم الساكنة فى جنوبى أوربة ، فقد

(١) عند مااشتد التضييق الى الدرجة القصوى على بقايا مسلمى الأندلس، تحريقاً بالنار ، وتبليصاً من المال ، واستعباداً للذكور والاناث ، وتعذيباً بمختلف الأشكال ، بحجة أنهم وان كانوا قد تنصروا ظاهراً فلا يبرحون مسلمين باطناً أرسل هؤلاء سراً يستغيثون بالدولة العثمانية . وذهب منهم خلسة من الأندلس وفد أدرك مدينة بلغراد ، حيث كان الصدر الأعظم على رأس العساكر العثمانية الزاحفة يومئذ الى تلك الأقطار ، فبث الوفد الى الصدر الأعظم كل مايعانيه المسلمون من العذاب تحت حكم الاسبانيول ، وأنهم مع ذلك لايسمحون لهم بالخروج من البلاد ، وأن منهم مئة وخمسين ألفاً خرجوا إلى فرنسة ، وهم يلتمسون من الدولة العثمانية أن تتوسط لدى ملك فرنسة وملك اسبانية فى أمر السماح لبقايا المسلمين المذكورين بالرحيل إلى بلاد الاسلام. فعرض الصدر الأعظم ماسمعه من الوفد الأندلسى على السلطان أحمد خان الأول رحمه الله وفى الحال لبى السلطان العثمانى نداءهم ، وكتب الى ملك فرنسة هنرى الرابع يرغب اليه فى تسفير المسلمين الذين التجأوا إلى مملكته على مراكب تبعث بها الدولة العثمانية فتحملهم إلى بلاد الاسلام ، أو على مراكب افرنسية تتعهد الدولة العثمانية بدفع كرائها.

وكان هنرى الرابع قد سمح بدخول هؤلاء المسلمين الى فرنسة على شريطة أن يقبلوا المذهب الكاثوليكى ، فلما جاءه هذا الكتاب من السلطان أحمد وكان يهمه عدم اغضابه ، أجاب طلبه وأمر بتسفير المسلمين المذكورين الى افريقية وغيرها من بلاد الاسلام ، فخرج منهم فئات لحقوا بالمغرب ، وآخرون بالجزائر وتونس ، وآخرون وصلوا الى مصر والشام ، ومنهم من قصد الى القسطنطينية .وقد بقيت منهم فئة قليلة فى فرنسة انتهى الأمر بأن سلالتها صارت الى النصرانية واندمجت فى الفرنسيس . أما الذين كانوا لايزالون فى اسبانية ، فبقى «فليب الثالث» يمنع خروجهم منها ، إلى أن بلغه الخبر عما فعله هنرى الرابع من النزول على ارادة السلطان العثمانى ، فحسب لتدخل الدولة العثمانية حساباً كبيراً ، وأمر فجمع عظماء مملكته ، وتشاوروا فى قضية بقايا المسلمين فى تلك المملكة ، فأشار بعضهم بمنع خروجهم مهما وقع وعول الجمهور ومنهم الملك على اخراجهم جميعاً ، تخلصاً من غوائل بقائهم فى اسبانية ، اذ قد ثبت للدولة الاسبانية أنه مع وجود هذه العلاقات السرية بين المسلمين الأندلسيين وبين الدولة العثمانية لم يأت أحد منهم برغم تنصرهم فى ظاهر الأمر ، ليخبر الحكومة الاسبانيولية بشىء من تلك الحركات . فاستدلوا من هذا على أن هؤلاء لا يزالون مسلمين ، وان أظهروا التنصر،وأنه يكون من الحزم اجلاؤهم بأجمعهم عن اسبانية حتى لاتتعرض هذه المملكة بسببهم لحرب مع الدولة العثمانية لاتعلم عاقبتها . فأخرجوهم جميعاً على مراكب الحكومة

قيل فيه انه وقع فى لغة الاوك Oc التى كان يتكلم بها أهالى جنوبى فرنسة وكتلونية ، اذ هناك أقام العرب طويلا . وقد دخل فى اللغة الافرنسية كلمات كثيرة من العربية لامراء فيها وهذا الاختلاط فى اللغات لم يقع بخاصة أيام وجود العرب بفرنسة ، بل قد وقع أكثره بعد جلائهم عنها ، لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين العرب والفرنسيس فى يوم من الايام . وبالاجمال فتأثير العرب فى فرنسة كان أقل مما يتوهم الناس ، وان ما أجروه فيها من العيث والتدمير ليتضاءل فى جانب ما خربه النورمانديون والمجار ، بل نقدر أن نقول انه بقيت للعرب مكانة عظيمة فى نفوس الناس ، حتى أصبحت لفظة سرازين ولفظة رومانى كأنهما واحدة ، وحتى تعود العامة أن ينسبوا إلى السرازين أى العرب كل ما يرونه كبارا أو جبارا .

ومن الغريب أنه لم يبق من غارات النورمنديين والمجار الا تذكارات فى بطون التواريخ ، والحال أن تذكار غزو العرب لفرنسة لا يزال فى جميع الأذهان كأنه حديث العهد . وقد وقعت غزوات العرب قبل غزوات النورمنديين والمجار ، واستمر وجودهم فى البلاد الى مابعد جلاء المجار واندماج النورمنديين فى مجموع الأمة ، الا أن غزوات العرب الأولى كان فيها من العظمة والأبهة مالا يمكن أن يقرأه الانسان الا وتعروه الدهشة والحيرة . وكان العرب يمتازون عن النورمنديين والمجار بكونهم أمة بقيت

الاسبانية ، وكانوا نحواً من ستمائة ألف نسمة ، فذهب أكثرهم الى المغرب ، وانبثوا فى الريف ، وعمروا تطوان والرباط وسلا وجانباً من فاس . وذهب كثيرون فسكنوا تلمسان والجزائر وتونس ، ووصل آخرون الى الشرق . وكان ذلك فى سنة ١٦١٢ مسيحية

وقد استوفينا تاريخ هذا الجلاء الأخير لمسلمى الأندلس فى الطبعة الجديدة من « حاضر العالم الاسلامى » واعتمدنا فى كثير من المعلومات التى كانت مجهولة عند الجمهور على كتاب ابن عبدالرفيع الاندلسى الذى روى عنه ابن جندار صاحب تاريخ رباط الفتح فمن شاء عن هذه المسألة بحثاً شافياً للغليل فليراجع تاريخ رباط الفتح أو حاضر العالم الاسلامى الطبعة الجديدة . ولكننا سنخصص بهذا الموضوع ان شاء الله جزءا بتمامه من أجزاء هذا الكتاب ، فيه جميع تاريخ مسلمى الأندلس الذين أجبروا على التنصر بعد سقوط مملكة غرناطة ولبثوا مسلمين فى الباطن أكثر من مائة سنة ، وكان الاسبان يقولون لهم « الموريسك » وقد أجمع المنصفون على أنه لم تعذب فى الدنيا أمة ماعذبه الموريسك هؤلاء ، حتى انفك عقالهم وخرجوا من اسبانية .

مدة طويلة تسير على رأس المدنية العامة ، وأنهم بعد جلائهم عن فرنسة لم تزل تحت الرعـدة من احتمال غاراتهم . ثم ان الحزوب العظيمة التى تولوا كبرها ، سواء فى الأندلس أو فى افريقية أو فى آسية فى وجه الصليبيين ، قد أضافت إلى اسمهم لمعانا جديداً فوق اللمعان الذى كان من قبل. وكل هذا لم يكن كافياً فى تفسير مكانة العرب المكينة فى الصدور لولا قصص الفرسان والفروسية التى كان يتغنى بها أهل فرنسة وجوارها ، خلفا عن سلف . فقد كانت هذه القصص تـكاد تكون الأسمار الوحيـدة للأمراء والنبلاء ، بل الأسمار الوحيدة لعامة الشعب . وانما كان يعجب بتلك القصص وهاتيك الأخبار من سير الأبطال كل من كان يدعى نفساً عالية وحساً نجيباً . وقد تضاءل كل تاريخ بجانبها وهزل كل أدب ما عداها . وكان أكثرها شـعراً ولهذا الشعر رواة اختصوا به ، يذهبون من بلدة إلى بلدة ومن قرية إلى قرية ، فينشدونها الجماهير التى تترنح لها أعطافهم . وكان لا يحتفل بعيـد ولا بموسم إلا اندفع أولئك الرواة فى انشاد تلك القصائد عن سير أبطال الوطن . وكانت أكثر هذه السير تدور على حروب المسلمين ، وعلى ما جالده صناديد الفرنسيس فى دفع غاراتهم . ولما كان فى هذه القصص وتلك القصائد من المبالغة ما هو جدير بكل القصاص الذين يترنمون بوقائع الأبطال ، كانت الواقعة الواحدة تتجسم وتنمو وتصبح أضعاف ما هى تجسيما لفضل أولئك الذين تولوا كبر تلك الوقائع ، حـتى صار فى تاريخ كل مدينة وكل بلدة من فرنسة وايطالية أمير عربى أو بطل عربى يبارزه أمير افرنسى أو بطل افرنسى وبعد أن يشتد البراز ويطول العراك وتظهر فيه خوارق الاقدار ، ينتهى بالبداهة بتغلب البطل الافرنسى على البطل العربى

وبالجملة فقد كان العرب لذلك العهد ، هم الأمثـلة العليا والاقيسة البعيدة ، فى الشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الاخلاق والعفو عند المقدرة وقرى الضيف تشهد بذلك وقائع ونوادر كثيرة ، منها مارواه بعض مؤرخى الاسبانيول من أنه فى سنة ٨٩٠ أراد ملك اشتورية ، اذفونش الـكبير ، أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مسلمى قرطبة ، حرصاً على تهذيبه ، اذ لم يجد فى المسيحيين إذ

ذلك كفؤا لهذه المهمة .

ومن الغريب أنه فى قصة من قصص الفروسية المتعلقة بشارلمان الكبير يروون أنه فى صغره ذهب واقتبس من أنوار العرب ، وأنه من تأثير ذلك تمكن من إدارة تلك السلطنة العظيمة التى جدد بها مجد العالم الغربى . وقد بقيت هذه الأقاصيص هى المعول عليها فى الأندية والمجامع ، وهى الفكاهة المستطرفة فى المواسم والمحافل الى عهد غير بعيد . ولم يدخل التمحيص التاريخى عندنا الا منذ مائة وخمسين سنة ، اذ أخذ الناس ينبذون ما هو من عمل الخيال الى ما هو من لباب الوقائع الراهنة .

وختام القول أنه لو نشر موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبى عامر ، ورأوا ما هى عليه الحالة فى زماننا هذا ، لوجدوا اختلافاً كثيراً فى بيئتى المسيحيين والمسلمين ، عما كانتا عليه فى الأعصر السالفة . ولكن مما لا شك فيه أنهم بعد الوهلة الأولى كانوا يبتهجون بالمكانة العليا التى جعلها القصاص والزجالون من آبائنا لاعمالهم الكبيرة ، وكانت نفوسهم المشغوفة بمعالى الامور تقابل بمزيد الاكبار ذلك الشعور النبيل الذى كان يختلج عند من نسميهم البرابرة من آبائنا والذى لايزال يتلاشى يوماً فيوماً .

انتهى كتاب رينو ببعض اختصار وتصرف

كتاب غارة العرب على سويسرة

فى أواسط القرن العاشر

تأليف

الدكتور فرديناند كلر

Der einfall der Sarazenenen in die Schweiz
um die mitte des X Jahremderts
Von dr Ferdinand Keller
mittheilungen der antiquarischen
Gesellsehaft in Zurich

وهو كتاب بالالمانية ، نشرته شركة « الآثار العتيقة » فى زوريخ ، فى سنة ١٨٥٦ وقد أطلعنا عليه العلامة الأستاذ « البروفسور هس » مدرس التاريخ والألسن الشرقية فى جامعة زوريخ من سويسرة . وذلك فى سنة ١٩١٩ وهو أول كتاب اطلعنا عليه فى هذا الموضوع ، فلخصناه يومئذ ، ونشرنا خلاصته فى مجلة المنار لصاحبها الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا . ثم اننا رأينا نقل هذا الكتاب برمته الى العربية فى كتابنا هذا ، ولم نختصر منه الا فى المظان التى ليس فيها طائل

قال فرديناند كلر فى كتابه :

قال ليوبراند (Liupran) : انه بحسب ارادة الله التى لا يدرك سرها ، قد جرى فى سنة ٨٩١ انه جاء عشرون عربياً فى مركب صغير من سواحل اسبانية ، قذف بهم الريح بالرغم منهم نحو خليج القديس تروبز St Tropez فى بروفانس Provence . فنزلوا الى البر هناك ، على عادة لصوص البحر ، وكان نزولهم فى جوف الليل فتسللوا الى قرية « تروبز » وفتكوا بأهلها المسيحيين ، وملكوا الناحية . ثم اتخذوا معقلا الجبل المسمى موروس Maurus ليكونوا فى حرز حريز من عادية

الأمم المجاورة . وكان ذلك الجبل مغطى بالأشجار الشائكة التى كانوا يحتمون بأشواكها وألفافها ، ولم يجعلوا فيها سوى شعب واحد لأنفسهم يمرون فيه . وهذا المكان يسمى فرا كسينيتوم Fraxinétum (١) يحده البحر من جهة ومن جهة أخرى غابة مؤتشبة مشتبكة الأغصان ، من نشب فيها نفذت فيه اشواك أحد من الحراب فلا يقدر أن يتقدم ولا أن يعود . فأمنوا فى هذا المكان المنيع وصار لهم سربا وصاروا يجولون فى الجهات المجاورة بدون وجل ، واثقين بمكمنهم هذا . ثم أنفذوا رسولا الى اسبانية لأجل أن يندب الناس من قومهم ، ليلتحقوا بهم ، فمدح الرسول المكان وأطمع الناس فيه ، وقال ان أهالى تلك البلاد لا يخشى بأسهم وليسوا بجمرة قوية فلم يلبث الا قليلا حتى رجع ومعه مائة رجل من العرب ، جاءوا ليتحققوا ما ذكره لهم الرسول عن هذا الموقع وطيب نجعته

وقد أسعف غارة العرب هذه ما كان بين أهل بلاد بروفانس ، من الشقاق البعيد ، وقيام بعضهم ضد بعض ، فكان بعضهم لأجل أن يستأصل البعض الآخر يستنجد هؤلاء العرب العفارية المكارين فكان من اختلاف أهالى تلك البلاد ومن توالى النجدات الى العرب من اسبانية ، أن أصبح هؤلاء آمنين فى سربهم ، وشرعوا يجولون ويسلبون ويقتلون كيفما شاءوا ، وكيفما لاح لهم الصيد ، واجتاحوا تلك البلاد الخصيبة اجتياحاً تاماً وأصابوا فيها مغانم كثيرة

هذه هى الرواية الحرفية لمؤرخ معاصر (٢) عن نزول المسلمين فى سواحل بروفانس وعن طبيعة جبل « فراكسيناتوم » وكيفية تحصينهم له ، بحيث بقى مدة سنين طوال مركزاً لقوتهم فى هذا الجانب من أوربة وصيصية يمتنعون بها ويبعثون منها شراذم كثيرة أو قليلة ، الى الجنوب ، والى الشرق من جبال الألب البحرية . وما عتموا

(١) وفى الحاشية مذكور أنه يقال له أيضا : Garde - Frainet فى خليج سان تروبز

(٢) ذكر المؤرخ فى الحاشية اسم هذا المؤرخ وهو Antapold وأشار الى أن هذه الرواية جاءت فى صفحة ٢٧٥ من كتابه الذى ترجمه البارون فون دراوستن زاكين Von der Osten Sacken

أن صارت لهم شوكة يتحدث النـاس بها ، برعب الناس منهم ، وباعتمادهم على أنفسهم . وكانت لهم غزوات بعيدة المغار ، لأجـل الغنائم ، فاذا لم يجدوا أمامهم من يقرع النبع بالنبع نهبوا تلك الاديار الغنية والمدن المحصنة والمعاقل التى كان يسكنها أشراف البلاد ، وتركوها قاعا صفصفا كأن لم تغن بالامس

والذى يظهر جلياً من روايات مؤرخى ذلك العصر أن هذه الغارة لم تـكن ذات مغزى سياسى كغيرها من الغارات ، ولا كان لهاغرض راجع الى توسيع ممالك الدولة الاسلامية الاندلسية . ولم يكن مقصد هذه العصابة اخضاع أهالى هاتيك البـلدان لسلطانها . وذلك لان عددها لم يكن كافيا لتحقيق دعوى كهذه . وقصارى ما كانت ترمى اليه أن تحوز الذهب والـكنوز التى تعثر عليها ، وتعود بها الى معقلها فى جبل فراكسيناتوم ، وأنها اذا وجدت طالع الحرب قد خانها تشحنها فى السفن الراسية فى خليج فركسيناتوم وتطير بهـا بجناح الريح قافلة الى اسبانية . وكذلك يظهر أن خليفة اسبانية لم يكن ذا علاقة بهذه العصابة التى تطوحت فى ذلك الفج السحيق ولا أتاها أدنى مدد من جهته (١)

وأما السؤال عن الوقت الذى اجتاز فيه المسلمون جبال الالب ، وتوغلوا فى أرض ايطالية ، فانه لايجد جواباً مستندا على معلومات دقيقة ويجب أن يكون هذا الحادث قد وقع على كل حال فى أوائل القرن العاشر . فقد دلنا محرر المذكرات اليومية لدير «نوفاليز» Novalese الذى على مقربة من «سوزا» Susa بحذاء جبل «سنيس» Senis على أن غارة المسلمين كانت فى نواحى سنة ٩٠٦ . فمنذ تلك السنة كانوا فى «بروفانس» و«بورغوند» Burgund و «شيمله» Cimella حول «نيسه» nizza

---

(١) على أن رينو ينقل ان أوتون امبراطور المانية كان أرسل وفداً الى الخليفة عبد الرحمن الناصر فى قرطبة من جمـلة مطالبه كف عادية العـرب الذين نزلوا فى فراكسينيت وتقـدموا الى جبال الالب . وقد تقدم ذلك فى ترجمة تاريخ رينو

يجولون ويقتلون ويحرقون . ومن المحقق أنهم فى هذه السنة كانوا يتوقلون فى جبل سنيس وكانوا قد فتحوا الباب نحو بلاد سافواى وسويسرة · وفى أسفل هذا الجبل كان دير نوفاليزه الذى كان من أعظم الأديار وأغناها · فلما سمع الرهبان بلصوصية هؤلاء القوم وبقسوتهم ، وكانوا يعرفون جيداً ما وراءهم حزموا ما فى الدير من الأشياء الثمينة ومن جملتها خزانة الكتب النفيسة وذهبوا بها الى تورين لتكون بمأمن . فما كادوا يفارقون الدير حتى جاء المسلمون وا كتسحوا كل شىء وأحرقوا الكنيسة والبناء كله ·وكان راهبان طاعنان فى السن قد بقيا فى الدير لأجل حراسته فقبضوا عليهما وأهانوهما (١)

وفى ذلك العهد أصبحت البلاد الواقعة بين نهرى « بو » Po و « الرون » مجالا للغارات والعيث، فالبييمون وبروفانس وبلاد «دوفينى» Dauphiné و «مونتفرات» Montferrat وبلاد «تارنتيزة» Tarentaise كانت كل سنة عرضة للدمار والنار ·وقد حدث مدونو الوقائع اليومية فى ذلك العصر عن حوادث ترعد لها الفرائص، مما فعله هؤلاء العرب ورووا كيف كانوا يهجمون على التجار والزوار عابرى السبيل،ويسلبونهم مامعهم واذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم يقتلونهم (٢)· وكان أكابر القوم لاسيما الرؤساء الروحيون الذين يؤمون رومة واقعين تحت الخطر الشديد من غارات العرب ، بسبب مايحملون

---

(١) هذه الرواية جاءت فى كتاب رينو كما تقدم

(٢) لانريد أن ننفي عن هذه الفئة من مغيرة العرب حب النهب والكسب ولكننا نؤكد أن أكثر هذه الروايات هى من وضع أولئك المؤرخين المتعصبين الذين كان جلهم أو كلهم رهباناً وقسيسين . وناهيك بعداوة الدين وحسبك دليلا على ذلك أن هذه الفئة من رجال الكنيسة هى التى بقيت مدة قرون فى أوربة تؤكد لشعوبها الجاهلة أن المسلمين وثنيون وأنهم يعبدون محمداً وأن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) تماثيل من ذهب وفضة وما أشبه ذلك من الخرافات التى كانت تلك الشعوب تصدقها وتنقلها فى كتبها فكيف نقدر بعد هذا أن نتلقى بدون احتياط روايات المؤرخين الكنسيين عن وقائع عصائب العرب ؟

من الذخائر وما يستصحبون من الأعـلاق النفيسة . وأما فى القرى فلم يكونوا يقتصرون فى النهب على الخيل والمواشى ، بل كانوا ينهبون كل ماله قيمة ، ويقبضون على الرجال والنساء والأطفال ويبيعونهم فى سوق الرقيـق . وكانوا اذا رأوا مقاومة من بعض البلاد وطاح منهم أناس فى المعركة ، انتقموا لأنفسهم باحراق هاتيك المدن حتى يصيروها رماداً . وكانت تنقطع العلاقات والمواصلات أحيانا بين البلاد بسبب غارات العرب وكان أهالى الأماكن التى يهاجمها المسلمون يفرون ويلجأون الى الجبال والغابات، وربما قاوموا العرب وربما كانت لهم الغلبة عليهم ، الا أنهم لم يكونوا يقومون عليهم بصورة نفير عام ولا كان ينتدب لهم يومئذ أدلاء مستبسلون. وأشنع شىء كان هو عدم الوئام بين أهالى البلاد ، بسبب عداوة الأمراء بعضهم لبعض ، واستنجادهم فى حروبهم الداخلية بهؤلاء الأعداء. وكان من الطبيعى أن يوجه العرب كل همتهم الى الاستيلاء على الطرق العامة ، وبنوع خاص على معابر جبال الألب، لأنهم كانوا يرون فى ذلك أحسن طريقة للـكسب والسلب ، فكانت المتاجر والبضائع تقع هناك تحت أيديهم على طرف الثمام وكان المسافرون الأغنياء يأخذون معهم فى أسفارهم كل ما يلزم لهم ، فـكان فى ذلك مطمع عظيم للمسلمين . وكانوا فى تلك الطرق الجبليـة يتمكنون من استقبال السابلين بالسهام والحجارة ، ومن القائهم فى الأودية والمهاوى بحيث انهم بعدد غير كبير كانوا يقدرون على مالا تقدر عليه الجيوش الـكبيرة

وروى «فلودوارد» Flodoard فى تعليقاته السنوية أن المسلمين سنة ٩٢١ أتوا على قافلة من حجاج الانـكليز كانت ذاهبة الى رومة ، فلقوها فى بعض أودية الألب ، واستأصلوها . وبعد ذلك بسنتين لقوا قافلة انـكليزية أخرى وفتكوا بها . ثم انهم فى سنة ٩٢٩ لقوا قافلة حجاج أخرى أيضاً ، فاضطر هؤلاء الى الرجوع قبـل أن يقعوا فى أيديهم . ولما كان غير ممكن تعيين أماكن هذه الوقائع فلا نقدر أن نحكم فى أى محل حصلت ، أفى ضمن حدود ايطالية الى جهة سويسرة ، أم فى حدود فرنسة ؟

واذا فكرنا أنه كان من عادة المسافرين الانكليز الذين يقصدون رومة أن يجتازوا من معبر سان برنار[1] لزم أن نرجح كون الوقائع المذكورة جرت في ضمن حدود ايطالية . ولقد اطلعنا على تاريخ يثبت أن كنوت «Knnut» ملك انكلترة والدانمرك الذى كان يلقب بالكبير كان قد طلب من رودولف« Rudolf » الثالث ملك برغوند Burgond أن يأمر بالتسهيلات اللازمة سواء من جهة تأمين الطرق أو من جهة الاعفاء من الرسوم للقسوسّ والتجار والحجاج الذين من ممالكه يؤمون رومة[2]

فى أي حقبة من القرن العاشر تمكن العرب من معبر سان برنار الذى كان يسمى حينئذ بجبل جوفيس«Mont Jovis» وفى أية سنة بسطوا سيادتهم على تلك البقعة ؟

هذا شيء لا نقدر أن نحدده . نعم توجد كتابات ، من ذلك الوقت ، متعلقة بهذه الحوادث ، الا أنها لا تحتوى على تواريخ يمكن الاعتماد عليها . والذى يظهر من كلام رينو[3] أنه يميل للقول بأن هذه الحوادث جرت فى سنة ٩٣٩ لكننا سنرى فيما يأتى أنها جرت قبل هذا التاريخ[4]. ومن المحقق أن العرب نزلوا سنة ٩٤٠ من جبال سان برنار العالية الى وادى الرون الخصيب ، حيث كان مبنياً دير اغاوونوم «Agaunum» العظيم ، المؤسس على اسم سان « موريتيوس Mauritius » وأصحابه ، والذى كان فيه ذخائر كثيرة من الذهب والفضة وأصناف الجواهر ، المهداة اليه من الملوك

---

(١) St - Bernard وهو من أشهر معابر جبال الالب

(٢) ذكر المؤرخ فى الحاشية نص الكتابة اللاتينية التى يستفاد منها أن الملك كنوت الكبير طلب اجراء هذه التسهيلات بحق قصاد رومة من رعاياه . ونقل هذا النص من الصفحة ١٦٤ من تاريخ أصل الغويلفيين وهم شعب ألمانى كان جاراً للسكسونيين

(٣) هو المستشرق الافرنسى رينو Reinaud الذي ترجمنا كتابه

(٤) يذكر المؤرخ كيلر كتاب رينو الذى لخصناه وهو « غارة العرب على فرنسة ومن فرنسة على سافواى والبيامون وسويسرة» المطبوع بباريز سنة ١٨٣٦ وكتاباً آخر عظيم القيمة على مملكة البورغوند تأليف فون غينغينس Von Gingins .

الكارلوفنجيين والبورغونيين ، وكانت محفوظة ضمن حيطانه . ففي السنة المذكورة هجم العرب على هذا الدير ونهبوه وأحرقوه وتركوه رماداً . ولم يمض الا قليل حتى جاءالقديس «أولريك» Ulrich أسقف « أوغسبورغ » Augsburg في أثناء سفرته الى برغوند ، وزار هذا المكان لأجل نقل عظام الشهداء التي أذن له كونراد ملك بورغوند في دفنهافي أوغسبورغ . ولم يكن باقيا هناك سوى خادم واحد يحرس البناء الذي صار طعمة للنار (١)

ومما جاء في تاريخ « فلودوارد » أنه في سنة ٩٤٠ جاءت قافلة مؤلفة من حجاج انكليز وغاليين ، كانوا قاصدين رومة ، فبعد أن فقدت بعض رجالها رجعت من حيث أتت لأن العرب كانوا قد استولوا على القرية والدير المذكور

وقد ذكر مؤرخو الفرنسيس كتابا محفوظا موجها من راهب من دير سان « موريس » St-Maurice اسمه رودولف الى ملك فرنسة لويس الرابع المسمى « أوترمير » Outremer يقول له فيه : كم ألقى الله من سلام على ملوك فرنسة من « كلوفيس » و « داغوبرت » الى كارل الكبير (٢) لكونهم اعتنوا بهذا المكان وقدسوه . وهو يلتمس منه أن ينفق على هذا المكان لأجل تجديد بناء الدير وترميم قبور القديسين الذين دفنوا فيه

وفي ذلك الوقت كانت العصابة من دعار العرب الذين جعلوا مساكنهم في جبال

(١) نقل المؤرخ كيلر هذا عن كتاب غرهاردى Gerhardi المسمى «حياة القديس اولريك» وهذا هو اسم «اولريك» او «اولريخ» باللاتيني Vita S. Oudalrici . كذلك استشهد كيلر بتاريخ مؤرخ آخر اسمه «فلودوارد»

(٢) الفرنسيس يقولون له كلوفيس والالمان كلودفيغ وأما كارل الكبير فهو الذي يقول له الفرنسيس شارلمان Charlemagne

الألب المعروفة بالالب البونينية Pôninische قد بدأت تشن الغارات على بحيرة جنيف وبلاد «فاد[1]» كما ذكر المؤرخون المعاصرون. ويظهر أنها كانت استولت على معابر جبال الالب الشرقية . فاذا كان ينقصنا تواريخ مضبوطة عن دخول العرب الى جبال الألب الغربية ، وجوسهم الاودية التي تتخللها ، فان عندنا قاعدة متينة لتاريخ وجودهم في شرق سويسرة ، بما هو محفوظ من الوثائق التاريخية في سجلات «كور Chur» الاسقفية. فان فلودوارد يذكر من جملة وقائع سنة ٩٣٦ : « أن العرب شنوا الغارة على سويسرة الالمانيـة وقتلوا كثيراً من الحجاج الذين كانوا قافلين من رومة »

ومما لا ينقدح فيه أدنى عارض من شك أن جانباً من سويسرة الألمانية وهو القسم الذي من «كور» الى وادى « الرين » كان المسلمون قد اكتسحوه. وليس هذا القسم سوى جبال الألب الراتية Ratische العليا فان ثبت هذا الرأى فقد ترتب عليه اما أن تكون غارة العرب على مقاطعة «فاليس Wallis» قبل سنة ٩٣٩ أو أن يكون احتلالهم لجبال الألب الراتية سبق احتلالهم لجبال الالب البونينية . وليس من المحقق ماذهب اليه فلودوارد من أن احتلال العرب لمعابر الالب سـنة ٩٣٦ أو سنة ٩٣٣ يعنى به احتلالهم جبال الالب الراتية ، وانما المحقق كون « كور » ونواحيها قد اجتاحها العرب قبل سنة ٩٤٠ وانه ليـكون ذا بال أن نتمكن من معرفة الطريق التى سلـكها العرب عندما تبطنوا أحشاء هذه البلاد . هل جاءوا من البيامون منقسمين شطرين ، شطر منهم اتبع جبال الالب الشرقيـة ، والشطر الآخر اتبع جبال الالب الغربيـة من سويسرة ؟ الجواب: ليس بمستحيل أن يكونوا قصدوا ناحية « راتين » وبلغوها برغم قلة عددهم ، معتمدين على بسالتهم والرعب الذى وقع فى قلوب النـاس منهم ،

---

(١) الألمان يقولون Waadt والفرنسيس يقولون Vaud وهى البلاد التى قاعدتها لوزان

ففتحوا طريقا لأنفسهم على ضفاف بحيرات لانغن « Langen » وكومر « Comer » وعرفوا مسالك الألب [1]. ان تاريخ ايطالية العليا لايذكر هذه الحوادث ولكن قد افترضنا أن العرب تقدموا من مارتيناخ « Martinach » خارجاً عن مجرى نهر الرون وتتبعوا ناحيسة فوركا « Furka » والألب العليا اللتين يفصل بينهما وادى أورزين « Urseren » وساروا على الطرق القديمة المؤدية الى منابع الرين وأبواب معبر الألب الراتية . وهذا الافتراض لايستند على رواية مكتوبة وليس فيما وجد فى دير ديسنتيس « Dissentis » الواقع أمام وادي الرين ما يؤيد مرور أتباع محمد من هناك . إلا أن المؤرخين لا يزالون يعتقدون أن العرب كما عاثوا بنواحى « كور » ونهبوا ديرها قد اجتاحوا أيضاً دير « ديسنتيس »

وأما السند الذى ثبت به حضور العرب فى وادى الرين فهو أن هرمان أمير سويسرة الألمانية قد التمس من أوتو الكبير فى المجلس الذى عقده الامبراطور فى كويد لنبورغ Quedlinburg فى شهر ابريل سنة ٩٤٠ أن يهب فالتو « Walto » أسقف كور تعويضاً عما لحقه من اجتياح العرب لديره ، وأن الامبراطور قد أجاب رجاءه فمهد إلى الاسقف المذكور بادارة كنيستين احداها كنيسة « بلودنس » Pludenz فى وادى « دروس » Drusthale والثانيـة كنيسة سان مارتين فى وادى شامزر Schamserthale على شرط أن ريع الأولى يعود الى أساقفة كور وأن ريع الثانية يعود الى دير الراهبات فى « كازيس »

وظاهر أن العيث الذى عاثه العرب قد كان طويل الأمد ، وأنه وقع منذ سنة ٩٣٩

---

(١) نقل كيلر فى الحاشية عبارة عن الأب « سيراسه » من رهبان دير « جورا » ura وهى هذه: مما يستجلب النظر أنه فى المقاطعات المجاورة لمدينة بازل وفى نواحينا نجد بقايا الأسماء العربية مجاورة للطرق الرومانية وما ذاك الا لأن العرب تعقبوا هذه الطرق التى لم يكن غيرها فى البلاد منذ سقوط السلطنة الرومانية اه

وأن احتلالهم للالب الراتية كان فى زمن احتلالهم للالب البونينية ، وأن هذا الحادث تقدم احراق العرب لدير سان موريس الذى يذهب رينو الى أنه وقع عند عبور العرب من سان برنار

ولكن فى قولنا انهم عاثوا واكتسحوا تلك البلاد ، لا نعنى أنهم أقاموا بها مستقرين فى مكان ، بل كانوا يكمنون فى الجبال وينقضون من مكامنهم لدى الفرصة فلم تكن لهم قدم ثابتة فى محل . وكانت حياتهم حياة عصابة تنتجع فى كل يوم جبلا متى لاحت أمامها بارقة أمل فى الكسب أقدمت ، والا أحجمت . فكان مطمح نظرهم كله قطع الطرق على التجار وعلى الحجاج الذين كانوا يقصدون رومة ومعهم الأموال والذخائر . ومما لا شك فيه أنهم كانوا قد احتلوا بعض قرى صغيرة ، واتخذوها لهم مركزاً ، وكانت لهم أنزال يلجأون اليها وأبراج يضعون فيها مغانمهم . وأكثر ما كانوا يهجمون على القوافل فى الأودية العميقة وفى المضايق التى لا يمكن فيها الدفاع . وكانوا متى أعوزهم القوت صالوا على الاماكن غير الحصينة وعلى الأديار المملوءة بالأعلاق الكنسية

وبقيت حالتهم على ما وصفناه مدة مديدة ، الا أنه بعد دخولهم الى البلاد باثنتى عشرة سنة طرأ حادث فجائى وافق مصلحتهم ، ومكنهم من معابر جبال الالب ، فازدادت بهم جرأتهم وتضاعف طمعهم

وهو أن « هوغو » Hugo كونت « بروفانس » كان فى سنة ٩٢٦ قد أحرز تاج مملكة « لومبارديا » Lombardie ودخل فى حرب عوان مع صهره « البريكوس » Albericus بطريق رومة . فاهتبل العرب من هذه الحرب الغرة ، واستفادوا من غياب الامير المذكور عن بلاده ، فتمكنوا من سلسلة جبال الألب ، سواء من الشمال أو من الغرب ، ونهبوا البلدان التى بحذائها . ولما وصل صريخ رعايا الكونت هوغو مما لقوه من عيث العرب ، صحت عزيمته على مصالحة صهره والرجوع الى ايطالية

العليا ، ثم على مهاجمة المسلمين فى معقلهم الأول « فرا كسينيتوم » . ولاجل أن يستوثق من الانتصار سعى فى استمداد سلطنة القسطنطينية ، لتنجده بمقدار من النار الاغريقية يحرق بها سفن العرب الراسية فى ميناء فرا كسينيتوم ، ويقطع عن هؤلاء كل مدد من البحر . وكان فى نيته مهاجمة العدو من جهة البر بينما يكون أسطول القسطنطينية ممسكا عليهم البحر . فبعد أن اتفق هوغو مع امبراطور القسطنطينية وقبل شروطه جاءت السفن البيزنطية الى مرسى « سان تروبيز » بينما كان الجيش البرى يزحف من جهة « بافيا » Pavia فلم يكد الأسطول البيزنطى يصل الى المرسى حتى أحرق سفن العرب كلها . وتقدم الملك هوغو من جانب البر فضيق عليهم الخناق حتى انهزموا معتصمين بجبل « موروس » وكاد يستأصلهم ويأخذهم جميعاً أسرى ، لولا أن حدث حادث غير منتظر وذلك أن « برنغار » Berengar كونت « ايفريا » Ivrea حفيد الامبراطور «برنغار» المتوفى سنة ٩٢٦ ووارثه كان قد أخذ يسعى سراً للحصول على تاج مملكة لومبارديا . فبلغ هوغو خبر هذه المؤامرة فعزم أن يقبض على المتآمرين وأن يقتلهم أو يسمل أعينهم . ولكن برنغار كان على حذر شديد فانسل من لومبارديا بغتة والتجأ الى هرمان أمير الشفاب Schuvaben وسار اليه عن طريق سان برنار . فتلقاه الأمير هرمان براً وترحيباً، وقدمه للامبراطور أوتو وهذا أكرمه وخلع عليه . فما كان أسرع هوغو عندما عرف بالقضية الى ارسال الهدايا من الذهب والفضة الى أوتو

وكان هوغو قد خلص ممالكه من العرب ، وخضد شوكتهم ، وتحول فكره الى جهة الامبراطور وأوجس خيفة أن يحشد هذا عليه وينزع منه تاج لومبارديا . فعدل هوغو مع العرب عن العداوة الى المسالمة ، وبعث اليهم فى جبل مورو يعرض عليهم السلم على شرط أن يجوسوا خلال ديار برنغار ويمنعوه بجميع الوسائل من أن يجتاز جبال الالب بجيشه [1] فاشترط العرب حينئذ على هوغو أن

(١) نقل كيلر عن المؤرخ ليود براند نص روايته باللاتينية ومعناها ان هوغو عقد مع المسلمين معاهدة يبيحهم فيها جميع معابر جبال الالب حتى يمنعوا برنغار من المرور بجيوشه الى ايطالية

يعترف لهم بحق احتلالهم معابر الالب الراتية والبونينية ، كما أن هوغو اشترط على العرب أن يخلوا المدن والقرى التابعة له . ولكن لم يكن هذا الشرط الاخير مصرحا به فى المعاهدة . فالمسلمون قاموا بأحكام المعاهدة حق القيام واحتلوا جميع معابر الالب المذكورة ،يستدل على ذلك من كون برنغار عاد الى ايطالية مع جند قليل من أصحابه عن طريق جبال التيرول Tyrol

فأما العرب فقد تلقوا هذا العقد ، مع الملك هوغو ، بفرح عظيم ، وأصبحوا يرون أنفسهم السادة الشرعيين لهذه المعابر ، وصاروا يأخذون رسوماً من السابلين . ومن لم يؤد الرسم أخذوه أسيرا ثم اضطر أن يفك رقبته بمبلغ عظيم من الذهب(١) . وتقدم العرب من سان برنار وجاسوا فى بلاد « فاتلاند(٢) » الى « أفانشس » Avanchez ونيوشاتل Niochatel فى جبال « جورا » Jura وكانوا حيث مروا يعيثون وينهبون . ولقد كانت غاراتهم فى شمالى الألب الراتية من « كور(٣) » الى بحيرة « كونستانس(٤) » فى وادى الرين هائلة جدا ، فقد وجد فى خزانة كتب دير « كور » كتابة تفيد أن الامبراطور أوتو الكبير عندما مر فى ٢٤ فبراير سنة ٩٥٣ بقصر « ارنشتاين » Ehrenstein ترجاه الأسقف « هارتبرت » مطران « كور » فى تعويضهم من الرزايا التى ألحقها بهم العرب ، فأقطعهم أوقافا فى « الالزاس » وأخرى فى« كونيغسكهايم »Konigsheim وكنيسة «موخنهايم» Mauchenheim وما يتبعها

---

(١) نقل كيلر هنا نص رواية فلودوارد باللاتينية وهى التى يقول فيها ان العرب كانوا يأخذون الرسوم من القوافل القاصدة الى رومة فاذا أدت الرسم خلوا سبيلها

(٢) هى مقاطعة «فو» Vaud الحاضرة التى قاعدتها لوزان

(٣) تقدم ذكرها وهى التى فيها الدير الشهير Chur

(٤) الالمان يقولون لبحيرة كونستانس بحيرة «بودن» Boden See.

وقد وجدت كتابة ثالثة فى «دورنبورغ» Dornburg تاريخها ٢٨ دسمبر سنة ٩٥٥ مآلها أن الامبراطور « أوتو » كان منصرفا من ايطالية فشاهد بعينه آثار عيث العرب وبناء على التماس أخيه رئيس أساقفة « برونو » أنعم على دير كور بتلك التعويضات. وقيل ان جزالة هـذا العطاء الذى أعطاه الامبراطور كان من قبيل نذر نذره لأجل عودته موفقا من ايطالية على طريق الألب ، فانه أنعم على الأسقف بالدار التى كانت تخصه فى « زيزرس » وأمر باعفاء سفن الأساقفة فى بحيرة « فالنزى » من المكوس . وقد أتبع ذلك أعطيات أخرى ، مثل اعطائه اياهم كنيسة « ننتسينغن » فى وادى «دروس» مع العقارات التابعة لها، وانعامه بجباية الأملاك التى كانت تخصه فى كور، وبمكوسها التى كان يؤديها سابلة الجبال من الالمان . وأخيراً أعطاهم فى سنة ٩٥٨ كنائس عدة مثل « سان لورنز » و « سان هيلاريوس » و « سان مرتينوس » وكنيسة « كاربوفوروس » ومنحهم حق ضرب السكة . وكذلك أعطى دير « ديسنتيس » فى سنة ٩٦٥ الدار التى كانت له فى « فافيكون » على بحيرة زوريخ ، وأقطع فيكتور رئيس رهبان كور سنة ٩٦٧ قطائع فى « فينشغاو » و « انغادين Engadin »

وفى ذلك الوقت أوصل العرب غاراتهم الى «زارغانس Sargans » و« توغنبورغ Togenburg » وابنسيل « Appenzell » وصالوا على أهالى تلك الجبال ، فقتلوا الرجال ونهبوا المواشى وأحرقوا المساكن . وقد روى الراهب « ايكهارد [1] » الذى حرر تاريخ دير « سانت غالن » ما يلى .

« كان العرب يعدون جدا مغارهم فى جبال الألب لا سيما فى زمان « فالتو » ويفتكون بأهلها بجرأة غريبة ، حتى انهم فى ذات يوم رشقوا بالنبال من أعالى جبل واقع شرقى الدير جماعة كانوا قائمين بطواف دينى يتقدمهم الصليب مرفوعاً . ولكن

(١) Eckehard مؤرخ معروف

« فالتو [١] » كان شديد البأس فأمر قومه بأن يتعقبوا العرب الى مكامنهم ، وسلحهم بالحراب والمناجل والفؤوس . وفى الليلة الثانية كبسهم بياتا ، فقتل منهم وأسر بعضهم [٢] وفر الباقون . ولم يقدروا أن يدركوهم لأنهم كانوا أقدر على التوغل ، وأبصر بالتوقل فى الجبال . أما الذين وقعوا أسرى فسيقوا الى الدير فى الأغلال ، وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يأكلوا ويشربوا ، وما زالوا حتى هلكوا جوعا . وقال « اكهارد » ان الرزيئة التى رزىء بها الدير من غيث العرب كانت من الجسامة بحيث يستلزم وصفها كتابا [٣]

ولا يقدر أحد أن يعلم بالتمام كم كانت مدة اقامة العرب بشرقى سويسرة ، فان الأوراق والوثائق التى وجدت فى دير « كور » ودير « سان غالن » ودير فافرس « Pfafers » لم يوجد فيها ما يحدد هذه المدة ، ولا يظهر أن رحيلهم من هناك تأخر عن العقد السادس من القرن العاشر

وفى سنة ٩٥٤ نفسها ، وهى التى وصل فيها العرب الى سان غالن ، وقع الحادث المهم الذى هو هزيمة العرب والمجار معاً . فقد تمكن كونراد ملك بورغوند أو البرجان ، ببسالته الشخصية وبخدعة حربية دبرها ، من استئصال طائفة مهمة من هؤلاء العرب [٤] وتطهير أودية بلاده منهم . إلا أنه برغم هذه الهزيمة كان العرب لا يزالون مستولين على معابر الألب الغربية

وليس بمحقق وجود عرب الألب الغربية فى هذه الواقعة ، فان « اكهارد » الرابع ، راهب دير سان غالن الذي روى خبر هزيمة العرب فى هذه الواقعة يقول :

---

(١) Walto كان رئيساً للدير فى سنة ٩٥٤

(٢) سبقت هذه الرواية فى كتاب رينو

(٣) وقد أيد كيلر هذه الرواية فى الحاشية برواية أخرى لمؤرخ اسمه فون اركس Von Arx كتب تاريخ مقاطعة «سان غالن» وقد نقلها من ٢٢٦ من الجزء الأول من كتابه

(٤) تقدمت هذه الرواية ايضا فى كتاب رينو

ان العرب كانوا متمكنين جيداً فى قلب الجنوب من أوربة حتى انهم لم يكونوا يحدثون أنفسهم بامكان خروجهم منها . وكانوا يتزوجون ، بحسب قوله ، من بنات أهل البلاد ، ويسكنون أودية خصيبة ، ويؤدون للملك ضرائب . وعلى كل حال فما لا شك فيه أن قسما من العرب الذين كانوا يصلون هذه الحروب قد أقاموا فى الآخر وأوطنوا ، ونووا أن يؤسسوا لأنفسهم مستعمرة ويتعاطوا الفلاحة والزراعة . ولكنه غير ممكن تعيين المكان الذى نووا أن يستعمروه ، هل هو فى « فاله » أو فى « سافواى » أم فى غيرها ، فان المؤرخين لم يعينوه . وفى سنة ٩٥٤ التى اشتهرت بغارة العرب من جهة ، وغارة المجار من جهة أخرى على سويسرة وقعت حادثة فرار الملكة برتا « Bertha » مع عمها المطران « أولريك » أسقف « أوغسبورغ » والتجائهما الى البرج الذى كانت بنته هى فى « نوشاتل » والمظنون أن هذا الحادث كان مبدأ لعمران مقاطعة « فو (١) »

ولم ترد قصة العرب هذه فى التواريخ العالمية فقط بل جاءت فى سيرة بعض القديسين . وبالاجمال قد كانت اشتدت وطأتهم ، وعم الرعب منهم ، الى أن أصبح الجميع فى حنق شديد عليهم . ومما زاد حنق الناس عليهم أنهم كانوا تعرضوا لرجل من أكبر رجال عصره ، وهو القديس مايولوس « Majolus » راهب دير كلونى « Cluny » قبضوا عليه وهو عائد من « بافيا » الى بورغوند ، وذلك سنة ٩٧٢ وقد روى هذه القصة خلفه فى رئاسة دير كلونى كما يأتى :

عبر القديس مايولوس ورفاقه فى ٢٢ يوليو سنة ٩٧٣ قنن جبال الألب ، ووصلوا الى قرية واقعة الى الشمال من معبرسان برنار على ضفة نهر درانس « Drance » كان يقال لها لذلك العهد « بونس أورزاريي Pons Ursarii » وتسمى اليوم « أورزيير (٢) »

(١) لوزان وتوابعها

(٢) ان المستشرق رينو يذهب الى أن القديس مايولوس سار من البيامون على طريق جبل جنيف ووادى الدوفينى وانه قد جرت معه هذه الحادثة فى أعالى وادى «دراك» بقرب قرية «بون دوزيير» وان العرب الذين سطوا عليه كانوا من المتوطنين بين «غاب» و «امبرون» وأما المؤرخ كيلر فانه يخطىء رينو فى هذا الرأى ويقول انه وهم فى ظنه وقوع حادثة القديس مايوليوس فى

وقدكان انضم اليه عدد من الحجاج من أقطار مختلفة أملا بأن يكونوا بمعيته فى مأمن . فلما وصلت هذه القافلة الى هذه القرية ومرت هناك من معبر ضيق ، انقضت عليها عصابة من العرب فأوقعت بها ، ولم يكن من سبيل فى ذلك المكان للدفاع ، فأركنت الى الفرار لا تلوى على شيء ، فتأثرها العرب وقبضوا على من أدركوه منها وأوثقوه بالقيود . وكان أحد العرب يحاول طعن أحد خدمة القديس بمزراقه اذ تقدم القديس واتقى الطعنة بكفه ، فنفذت الطعنة منها ، وكانت جراحة شديدة بقى أثرها فى يده طول حياته . وأما الخادم ففرناجيا . ثم جردت هـذه العصابة العربية الحجاج من كل ما معهم ، وساقتهم الى كهف من الصخر حبستهم فيه ، ولم تستثن من الحبس القديس مايولوس . فلحظ العرب رجلا جالساً على حجر لا يلوح على وجهه علامة الاهتمام بالخلاص ، وبينما كانوا يهينونه كان هو مهتما بدعوتهم الى الديانة المسيحية ، فازداد بذلك غضبهم منه ، فقيدوا رجليه بالحديد ، وأدخلوه الكهف مع الآخرين . وفى الليلة التالية رأى مايولوس رؤيا أنه سيخلص من أيدى العرب ، بواسطة الرسل الحواريين ، فقد رأى أسقف رومة بالأثواب الحبرية وفى يده المبخرة . ثم رأى رؤيا ثانية أيدت أمله فى أنه سيحتفل هو ورفاقه بعيد صعود السيدة مريم . ولما أصبح الصباح وجاء وقت الطعام عرض العرب عليه أن يطعم من طعامهم ، وكانوا يأكلون لحماً وخبزاً يابساً ، فأجابهم مايوليوس أنه ليس بآكل من هذا الطعام الذى لم يألفه فحينئذ عجنوا له بسرعة وخبزوا خبزا نظيفا طريا ، وقدموه له فتناوله منهم وأكل الخبز بعد أن بارك عليه بحسب عادته وعادت اليه قوته . وكان أحد المسلمين قد أراد قطع عصا من شجرة واحتاج الى أن يتسلق عليها ، فوضع رجله على التوراة التى كان القديس يحملها دائماً معه فى أسفاره ، فأخذ القديس يتنفس الصعداء . ولحظ ذلك المسلمون فوبخوا أخاهم على عمله هذا ، وقالوا له لا يليق أن تفعل هذا بكتاب يتضمن كلام الأنبياء . وذلك أن المسلمين يعظمون الأنبياء ويقولون ان ما قاله الأنبياء عن عيسى قد

الوقت الذى ذكره ، فهى متأخرة عن الوقت الذى ظنه رينو لأنها وقعت سنة ٩٧٣ ورينو يحسب انها وقعت فى العقد الخامس من القرن العاشر

تم بشخص محمد (صلى الله عليه وسلم)

ثم ان العصابة العربية دخلت مع القديس فى قضية فدائه وفداء بقية الأسرى ، لا سيما بعد أن رأوا منه ما استوجب حرمتهم له . وقد سألوه أهو من ذوى اليسار ، أم معدم ؟ فأجابهم بأنه لا يملك شيئاً ولكن للدير أصحاب يقدرون أن يفكوا الأسرى بأموالهم . فأرسل مايولوس ، بالاتفاق مع العرب ، راهباً كان معه ، وأصحبه بكتاب الى دير « كلونى » يقول فيه : « إلى السادة والاخوان فى دير كلونى ، من مايولوس المسكين المقيد بالحديد ، انى محاط بالهلاك من كل ناحية فأسرعوا بانقاذى وانقاذ رفاقى وبارسال المال اللازم للفداء » فلما قرىء هذا الكتاب فى مجتمع الرهبان ، وكانوا يحبونه جميعاً ويحترمونه احتراما زائداً، بلغ منهم الحزن مبلغه وسارعوا الى جمع المال لساعتهم ، ولم يضنوا بشىء ولا ادخروا منفساً حتى أنهم بذلوا الأشياء الضرورية فضلا عن الكمالية وعن الذخائر والاعلاق التى كانت عندهم . وفى اليوم المعين كان أحد الرهبان المبجلين فى قرية « أورزيير » ومعه جميع المال المطلوب . فتخلص مايولوس هو ومن معه ، وتمتعوا بفرح الاحتفال بعيد صعود مريم الى السماء كما كان رأى القديس فى المنام

ومما يهم الاطلاع عليه هو أن العرب تقاضوا فى فداء القديس مايوليوس الف دينار فضة ، ولم يتقاضوا على الآخرين الا ديناراً واحداً عن كل رقبة

ثم انه من هذه الحالة تتجلى القوة التى تمكن بها العرب فى ذلك الوقت من الاستيلاء على جميع معابر الألب . ومن الغريب أنهم لم يكونوا يتقاضون مكوساً على البضائع التى تحمل على هذه الطرق كما كانوا يتقاضونها فى الأزمنة الأولى . ولم يطلبوا فى البداية شيئاً منها من مايولوس نفسه ، وذلك حتى يطمعوه فى التقدم فيقطع أعالى الجبال ويصير فى الجهة الأخرى ، فحينئذ ينقضون عليه ويسلبونه على حين يتعذر عليه الفرار . وهكذا حصل

وكان الملك هوغو قد اشترط عليهم أن لا يتعرضوا للحجاج ولا يأخذوا منهم شيئا ، فرعوا ذلك العهد إلا أنه لما مات هوغو رأوا أنهم أصبحوا غير مقيدين بعهد

وقد قال « رينو » ان حادثة مايولوس كان لهـا صدى عظيم فى كل الأقطار ، وارتفع الصراخ من كل الجهات لأخذ الثأر ، وفى ذلك الوقت كان فى جوار سيسترون « Sisteron » رجل نبيل يقال له «بونو» أو «بوفو» (Bobo أو Beuoo) مشهور بالحمية والنجدة ، عظيم الهم فى تحرير وطنه ، فاستنهض الناس المعروفين بالحمية على دينهم ووطنهم ، وقرروا بناء قلعة مناوحة لحصن العرب ، ليتمكنوا من استئصالهم . فبوبو هذا الذى أصبح فيا بعد معدودا من القديسين هو الذى بدأ بتخليص نواحى سيسترون من العرب وأخرجهم من جميع بلاد « دوفينه » Dauphiné ثم انهم أخرجوا من « بروفانس » Provence لأن غيليوم أحد أكناد [١] بروفانس هاجمهم برجال أشداء من صناديد تلك البلاد ومن رجال دوفينه السفلى وامارة نيقة [٢] وذلك فى قلعتهم فرا كسينيتوم المشهورة ، فبعد دفاع شديد استولى الافرنج على القلعة وفر بعض حماتها العرب الى الغاب الذى بقربها وطلب آخرون النجاة فى الجبال وانتهى الأمر بأن فريقا منهم هلك وفريقا تنصر ، فاستحياهم الافرنج واختلطوا بالأهلين

ولما كانت فرا كسينيتوم مستودعا لجميع كنوز العرب وذخائرهم ، سواء الذين منهم كانوا فى فرنسة أو عليا ايطالية أو سويسرة ، فقد أصابها الغالبون وتقاسموها فيا بينهم.

(١) جمع كند وهو ترجمة Conte فى اصطلاح العرب . وكان كتاب العرب يجمعون كند على أكناد

(٢) nice بالافرنسية و nizza بالالمانية والايطالية

آثار كتابة

فى كنيسة القديس بطرس مونتجو[1]

من أهم الآثار التى تركها العرب فى بلادنا الكتابة التى فى كنيسة القديس بطرس مونتجو[2] فى « فاله » Valais فقد كان هذا الوادى مجالا لغاراتهم ومركزاً لهم فى أثناء مقامهم بجبال الألب . وهذه الكتابة هى دليل واضح على أن تذكارهم المخيف لم يكن امحى من قلوب الأهالى حتى من بعد مائتى سنة من جلائهم فانها قد كتبت فى العقد الثالث أو الرابع من القرن الحادي عشر ، أى زمان بناء الكنيسة التى شيدها هوغو أسقف جنيف . وهو الذى كان ولدا طبيعيا للملك البورغونى رودولف الثالث ، وتولى كرسى الاسقفية نحواً من تسع عشرة سنة[3] ودفن فى كنيسة لوزان الكاتدرائية بجانب أبيه . ومما يؤسف له أن هذه الكتابة كانت قد ذهبت فى أثناء ترميم هذه الكنيسة سنة ١٧٣٩ وجعل الحجر الذى كانت منقوشة عليه من جملة عتبات الباب . ولقد طمست الآن هذه الكتابة حتى لم يبق منها سوى حرف هاء h وحرف ف f وصليب صغير . ولقد ورد نص هذه الكتابة على روايات مختلفة فى بعض الكلمات لكنها متفقة فى المعنى[4] وهى لاتينية معناها :

---

(١) Saint - Pierre montjoux

(٢) قد خلط رينو بين كنيسةالقديس بطرس مونتجو وكنيسة القديس بطرس التى بين مارتينى وسيون

(٣) من سنه ١٠١٩ الى سنة ١٠٣٨

(٤) اورد كيلر الروايات وعزا كل رواية الى صاحبها مما لم نجد حاجة لذكره

« ان عصابة اسماعيلية [١] انتشرت فى وادي الرون وألقت الرعب فى البلاد بالنار والحديد ورفعت الهلال فى أودية الألب البنينية [٢] »

وفى أسفل الكتابة تاريخ بناء الكنيسة حسبما تقدم

---

(١) الافرنج فى القرون الوسطى كانوا يسمون العرب بابناء اسماعيل وقد تقدم لنا ان المجار كانوا يسمون المسلمين الذين كانوا فى بلادهم بالاسماعيلية

(٢) الالب سلسلة جبال تبدأ عند خليج جنوة وتنتهى جنوبى الدانوب . وهى تنقسم الى ثلاثة أقسام : الالب الغربيةوهى الليغورية الممتدة من سواحل البحر المتوسط الى مضيق «تاند» والبحرية الممتدة من تاند الى جبل «فيزو» والساحلية الممتدة من جبل فيزو الى جبل «سنيس» والفرائية الممتدة من جبل سنيس الى الجبل الأبيض

والالب الوسطى ، وهى الجبال الهلفتية ، أى السويسريةوالبنينية ، الممتدة من الجبل الأبيض الى جبل السمبلون، والليبونتية الممتدةمن السمبلون الى بحيرة كوم ، والراتية الممتدة من بحيرة كوم الى بلاد النمسةوالالب الشرقية ،وهى الجبال الالغافية والبافاريةوالستيرية فى النمسة والكادورية والكارنية واليولية بين النمسة وايطالية،والدينارية فى دالماسية

واعلى قنة فى الالب قنة الجبل الأبيض علوها ٤٨١٠ أمتار ، وهى أعلى قنة فى اوربة ، وبعدها تأتى قنن روز وسرفين وبلفو وفيزو وجنيف وسبملون وسان غوتار الخ . ويمرون من فرنسة الى ايطالية من تاند والارجنتيير وجبل سنيس وسان برنار الصغير الخ . ويمرون من سويسرة الى ايطالية من سان برنار الكبير وسمبلون وسان غوتاروسان برناردينو والبولا وبرنينا الخ . وقد اخترقت الالب خمسة خطوط حديدية من ليون الى تورينو ، ومن لوزان الى ميلانو من طريق نفق السبملون ، ومن بازل الى ميلانو عن طريق نفق سان غوتار ، ومن بازل الى اينسبورغ عن طريق نفق آرلبرغ ، ومن اينسبورغ الى فينا عن طريق بريكسن وبوتزن وترنت

أسماء عربية فى البلاد

كان علماء الآثار قد بحثوا عن أسماء بلاد « فاله » ووجدوا ألفاظا كثيرة لم يعلموا لها أصلا فى اللغات الغالبة على هذا الشطر من أوربة . ولما كانت هذه البلاد واقعة فى معابر « الفاله » الى « البيامون » حيث مر العرب فى القرن الحادى عشر فقد ترجح أن هذه الأسماء عربية الاصل ونحن الآن موردون عدة أسماء لا شك فى كونها عربية

« الماجل » فى وادى زاس [(1)]

هذا المكان هو قرية صغيرة فى الجنوب من أعالى وادى زاس الذى يمتد منه طريقان الى البيامون ، أحدهما يمر فى وادى « فوركا » ويسمى معبر « انترونا » والآخر هو معبر « مورو » نسبة الى جبل مورو . وكلا الطريقين معروف منذ سنة ١٤٤٠ بكونه من أقدم المعابر ، فأحدهما كانت تمر منه المواشى والحيوانات الموقرة بأموال التجار ، والآخر كان يمر منه البريد الطليانى قبل تمهيد طريق السمبلون [(2)] .

ولقد ثبت أن معاهدة الملك هوغو مع العرب لم تضمن لهؤلاء احتلال معبر سان برنار فقط بل حق الاستيلاء على جميع المعابر لمنع مرور الجيوش . فمن البديهى أن يكون العرب قد استولوا على وادى زاس ملتقى هذين الطريقين وجعلوا هناك برجاً فيه خفراء ، ومنه يأتى اسم « الماجل » بالتشديد محرفا عن « محل [(3)] »

---

(١) Almagell فى الوادى المسمى Saasthale

(٢) Sinplon وهو الذى فيه النفق الشهير اليوم بين سويسرة وايطالية

(٣) هذا خطأ من صاحب الكتاب الذى لايعرف العربية فالماجل ليس محرفا عن محل وانما الماجل هو الماء فى أصل الجبل أو فى الوادى أو مستنقع الماء، وهو معروف كثيراً وكانوا فى مكة المكرمة يستعملون هذا اللفظ لبركة الماء . ذكر ذلك أبو الوليد محمد الازرقى صاحب كتاب « أخبار مكة » واخبر عن ماجل عند حائط خرمان وماجلين أحدهما بالمعلاة . وقال صاحب القاموس : الماجل موضع بمكة يجتمع فيه ماء يتحلب اليه . وفى حديث أبى واقد : كنا نتماقل فى ماجل أو صهريج ، قاله ابن الأثير الماجل هو الماء الكثير المجتمع وقيل هو معرب . والتماقل التغاوص فى الماء

« على العين [1] » فى وادى زاس

فى القسم الأعلى من وادى زاس مثلجة يقول لها أهالى تلك الجهات « مثلجة على العين » اذ منها تخرج ساقية من سواقى نهر « فيسب » Visp الذى هو وادى زاس فتسمية ذلك المكان « على العين » هى فى غاية المطابقة

« العين » فى وادى زاس

ان الجبل الألبى الشرقى الذى هو منبع نهر « فيسب » كان يسميه العرب أيضاً « ألب العين »

« مشابل » فى وادى زاس

ان أسماء القسم الغربى من وادى زاس لم تكن معروفة المعانى ، الا أن الأستاذ « هيتزيغ [2] » يذهب إلى أن « مشابل » Mischabel جاءت من الأشبال أى الأسود ، ويشرح ذلك بقوله ان هنالك عدة قنن صغيرة تعلوها قنة كبيرة هى بينها أشبه بلبؤة بين أشبالها وانه لا يبعد مثل هذا التخيل عن أمم الجنوب . ولأجل تأييد هذا الرأى يستشهد بكون القمم التى الى الشرق من السمبلون تسمى بجبل الأسد [3]

وانه يوجد أسماء أخرى يظهر عليها الأصل العربى لكنها محرفة تحريفاً يصعب معه الاهتداء الى حقيقة أصلها ، فلذلك تركناها واكتفينا منها بجبل « مورو [4] »

(١) Alalain

(٢) Hitzig وهو من كبار المستشرقين كان يقطن زوريخ

(٣) المشابل : اما ان تكون جمع مشبل بمعنى اللبوة أم الاشبال ، او أن يكون أصلها المشابيل جمع مشبول وهو المكان الذى فيه الأسود

(٤) moro معناه مغربى وهو اسم يجده الانسان كثيرا فى جنوبى اوربة حيث أقام العرب

فأول ما يعرف بجبل «مورو» الجبل الذى الى الجنوب من حصن «فرا كسينيت» والثانى الجبل الذى فيه معبر « مورو » الذى يؤدى من حصن العرب هذا إلى « ماكونياغا » macugnga فى البيامون

ويوجد أيضا قمة يقال لها « قمة المورو [1] » الى الجنوب من « بانيو » فى وادى « انزه [2] » ثم قمة أخرى بهذا الاسم بين « انترونا » ووادى « انزه » الى الشمال من « بريبنونة » Prebenone

وكذلك الى الشرق من معبرسان برنار قمة اسمها جبل مورو

فانغلهارد Engelhard المؤرخ يرى فى كثرة هذه الأسماء بالجهة الايطالية من جبال الألب ان العرب كانوا فيها قديما

اسوار وطرق وكهوف

وغير ذلك

ان العرب كما هو معروف هم أهل اتقان لصنعة البناء ، ولا سيما بناء الأبراج ، وطالما أثروا فى هذا الباب آثارا باهرة . فمن الغريب أن لا يكونوا تركوا عند معابر الألب شيئاً من المعاقل والحصون . ولكن من المحتمل أن يكونوا أقاموا بالأبراج التى كانت قبل مجيئهم قائمة عند مضايق الجبال باقية من القرنين الثامن والتاسع ، فلم تكن بهم حاجة الى بناء حصون جديدة . وعلى كل حال ينبغى أن تكون الحوادث التى جاءت بعد خروجهم من البلاد قد أنست الاهالى ذكراهم بالمرة

وأما فى سويسرة فليس الأمر كذلك ، ولا سيما فى مقاطعة لوزان ، فانك تجد « برج العرب La tour Des Sarrazins فوق « شيزاس » عند « فيفاى [3] »

---

(١) وفى الأصل Pizzo del moro

(٢) وفى الأصل الألمانى Anzathale ومعناه «وادىانزه» ويجوز ان تكون «وادى عنزة»

(٣) Vevey وهى بلدة من انزه بلاد سويسرة على شاطىء بحيرة ليمان بين لوزان ومونترو

ودهليز العرب وغار العرب بقرب « لوسنس » Lucens

وفى « فيفلسبورغ » Viflisburg يوجد حائط يقال له حائط العرب [1] جاء ذكره فى تاريخ سويسرة لمولر Muller فى الجزء الاول صفحة ٢٥١

وان كثيراً من الاسماء المضافة الى « سارازين » المراد بهم العرب توجد فى مدينة « بازل [2] » ونواحيها حسبما ذكر الأب « سيراسة » Serasset فى تاريخه « المباحث التاريخية والأثرية والجغرافية عن ابرشية بازل » فى الجزء الثانى صفحة ١٤٩ فهو يقول :

« ويؤكدون أن هذه المصائب الفتاكة ، بعد أن أحرقت دير سان موريس تقدمت نحو بحيرة جنيف وزحفت الى « الجورا » Jura ولم يقل لنا التاريخ شيئا عن توغل العرب فى بلاد « روراسيا » Rauracie ولكن ان كانت الكتب قد سكتت فقد قامت الأخبار المنعنة المتواترة مقامها . وان كثيراً من أماكن بلادنا باضافتها الى أسماء عربية ، تشعر بوقوع هذه الغارة المخيفة . فعلى نصف مرحلة من « دفلية » Develier على الجبل،والى الشمال الغربى منه،يوجد على مقربة من الطريق السلطانى الرومانى فسحة صغيرة بين صخرتين ، يقال لها غار « السارازين » وأهالى هذه النواحى يروون بالتواتر ، نقلا عن آبائهم ، أن هذا المحل كان قد احتله « السارازين » أى العرب ، وانهم كانوا يذهبون ويوردون جمالهم عند « السورن » Sorne بقرب « كورتيتيل » Courtetelle فهذا هو الاسم الذى يطلقه الأهالى على ذلك الطريق الرومانى . وعلى أحد صخور الغار محفور عدد ٢٣ بالارقام العربية . ولما كان لا يعرف من نقش هذا الرقم فى الصخر ، وكان قديما جدا ، فيترجح أنه قد نقشه العرب عند ما كان لهم محرس فى ذلك المحل

(١) فى الأصل Sarazins

(٢) مدينة بازل Basel والافرنسيس يقولون « بال » وهى من أشهر مدن سويسرة واقعة على حدود المانيا . وفى هذه المدينة أسرة يقال لها الى اليوم أسرة « سارازين » ومنهم اناس فى جنيف ومن هؤلاء الكولونل سرازين الذى هو من أمراء الجيش السويسرى

وبقرب من « روسميزون » Rossemaison بحذاء جبل « شايبوت » Cheibut توجد آثار طريق يقال له طريق السارازين.(١)

(١) ذكر كيلر فى الحاشية نقلا عن « ادوارد كليرك » مؤرخ بلاد « فرانش كونته » من فرنسة فى الجزء الأول الصفحة الثالثة من كتابه ان الأسماء العربية فى «فرانش كونته » كثيرة جدا قال فعندنا خمسة كهوف منسوبة الى السارازين وجسران منسوبان الى السارازين ، وثلاثة قصور وطريقان وقناة ومطحنة وواد صغير وجندلان من كبار الجنادل ومسلفة حديد ، وكلها منسوبة الى السارازين أى العرب . ويوجد أيضا حائط يقال له حائط السارازين ومحل يقال له مخيم السارازين وقرية يقال لها «ساراز » والجملة ٢٠ اسما

وكثرة هذه الأسماء المنسوبة الى العرب معهودة فى بلاد « بريس » Bresse ومقاطعة ليون ، فمن مدينة ليون الى آخر حدودنا الجنوبية تجد مذاود ومسالف منسوبة اليهم ، وتجد اماكن مثل ساحل السارازين، ومثل سارازينه وغيرها انتهى كلام كليرك .

أما بلاد فرانش كونته فهى من مقاطعات فرنسة ، وكانت داخلة فيها بلاد «جورا» من سويسرة

المسكوكات

من قديم الزمان يوجد فى سويسرة مسكوكات عربية من الفضة ، غير قليلة ، تستجلب النظر . ولقد تمكن العلماء باللغة العربية من اثبات مكان ضربها وزمانه ، ولكن لم يكن عليهم من السهل الجواب على كيفية وجود هذه المسكوكات تحت الأرض نظير ماوجد من المسكوكات الباقية من الدور الرومانى . فقبل ان ندخل فى بحث تاريخ هذه المسكوكات يجب أن نذكر الأماكن التى عثر عليها فيها وكيفية العثور عليها

فأول تنقيب جرى بشكل علمى وأدى الى نتيجة كان سنة ١٨٣٠ وذلك أنه وجد على مائة خطوة من قرية «شتيكبون» Steckbon على الطريق العام ثلاثون قطعة من الفضة ، لم يعرف احد فى البداية ماهى . وقد اشترى اكثرها الماجور « شيغ » Schiegg وبعضها دخل فى حيازة البرنس لويس نابوليون [1] ثم اهداه البرنس بواسطة الاستاذ « اوكن» Oken الى مجموعة العاديات فى زوريخ . وبعد هذا اهدى الاستاذ « كيرن» Kern والاب «ران» Rahn من شتيكبورن جملة من هذه القطع الى المجموعة المذكورة . وقد كان أول من شرح تاريخ هذه القطع ، من علماء المسكوكات ، الاستاذ « فراين » Fraehn من أعضاء اكادمية بترسبورغ ، فقال : ان هذه الدراهم هى من ضرب عمال الخلفاء على افريقية فى الربع الأخير من القرن الثامن . وكانوا يطلقون لفظة افريقية على البلاد التى تتركب اليوم من تونس وطرابلس . فاقدم هذه الدراهم مضروبة سنة ١٦٩ للهجرة وأحدثها سنة ١٨٢ أى أقدمها فى زمن الخليفة الهادى وأحدثها فى زمن هرون الرشيد الشهير . وكلها مضروبة

(١) اخو بونابارت وهو الذى صار ملكا على هولاندة

فى القيروان عاصمة افريقية فى زمان الأمراء عمال الخلفاء نصر [١] وهرثمة [٢] (ابن أعين) و يزيد [٣] . وان قطعة واحدة هى مضروبة فى زمان ادريس مؤسس الدولة الادريسية [٤] .

وهذه المسكوكات مغطاة بالكتابة ، كاسم الامير ، ومكان الضرب وتاريخه ، وبعض آيات من القرآن

وأكثر الكتابة هى بالخط الكوفى الذى يختلف عن الخط العربى الحاضر

وأما كيفية دخول هذه المسكوكات الاسلامية إلى سويسرة فيظن الأستاذ فرين أنه كان عن طريق فرنسة ، لأنها وجدت مع هذه الدراهم مسكوكات مضروبة باسم كارلوس الأصلع ملك فرنسة (٨٤٣ ـ ٨٧٧) وان النورمنديين قد أتوا بها إلى فرنسة فى أثناء غاراتهم عليها . وكان النورمانديون أتوا بها من شمالى افريقية ، فى أثناء غاراتهم على سواحل تلك البلاد . ولقد ظن ذلك بناء على أنه وجد من هذه المسكوكات

---

(١) نصر بن حبيب ولاه افريقية هرون الرشيد وكان فى الأصل على شرطة يزيد بن حاتم فى افريقية ومصر كانت ولاية نصر فى العشر الأخير من رمضان سنة ١٧٤ فحسنت سيرته وعدل فى احكامه

(٢) هرثمة بن اعين ولاه الرشيد افريقية سنة ١٧٩ في ربيع الآخر ، فسكن الناس ، وهزم الثوار وبنى سور طرابلس والقصر الكبير المعروف بالمنستير . قال الرقيق . لما راى هرثمة بن اعين مارأى من الخلاف فى افريقية وسوء طاعة أهلها طلب الاستعفاء فكتب اليه هرون بالقدوم عليه فرجع الى المشرق

(٣) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب كان يكنى أبا خالد ولاه أبو جعفر المنصور افريقية سنة ١٥٥ وكان من عظماء الرجال وفيه قال الشاعر

حلفت يميناً غير ذى مثنوية   يمين امرئ آلى وليس بآثم
لشتان ما بين اليزيدين فى الندى   يزيد سليم والأغر ابن حاتم

واستمرت ولايته ١٥ سنة و ٣ أشهر بحسب رواية ابن عذارى

(٤) دخول ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم الى المغرب كان سنة ١٧٠ وكان معاصروه من الامراء هشام بن عبد الرحمن الداخل فى الاندلس ويزيد بن حاتم فى افريقية

فى الروسية مما كان قدجاء به النورمنديون أيضاً . إلا أنه بعد أن تحقق كون العرب أقاموا زمانا طويلا فى نفس سويسرة لا يبقى محل لنسبة جلب المسكوكات الى النورمانديين

وقد وجدت دفينة أخرى من المسكوكات العربية فى « مودون » لكنهم لم يعرضوها على علماء المسكوكات إلا منذ سنة . ولقد اعتنى بهذه المسألة المسيو « سوره » Soret من جنيف ومن أعضاء الأكادمية الذين لهم مباحث جليلة عن مسكوكات سويسرة

فاحدى هذه القطع مضروبة فى افريقية أيام العباسيين سنة ١٧٠ هجرية (٧٨٦ - ٧٨٧ للمسيح) والثانية عليهااسم اسماعيل بن أحمد فى أيام الخليفة المعتضد ، ومكان ضربها الشاش ، وزمان ضربها سنة ٢٨٣ للهجرة (٨٩٦) والثالثة مضروبة فى بغداد سنة ٣٦١ (٩٧٤)

وقد ترجم الأستاذ « سوره » كتابات الدراهم ، فأحدها مكتوب عليه من احدى الجهتين لا اله الا الله وحده لا شريك له : عضد الدولة أبو على بويه . وعلى الدائر باسم الله ضرب هذا الدرهم فى مدينة السلام سنة أربع وستين وثلثمائة. ومن الجهة الأخرى لله المجد . محمد رسول الله . الطائع لله . الملك العادل عضد الدولة أبو شجاع

ورأى المسيو « سوره » يوافق رأى الأستاذ « فرين » بشأن المسكوكات العربية التى وجدت فى شتكبورن ، وهو أنها دخلت سويسرة بواسطة النورمانديين . أما التى وجدت فى مودون فانه يراها دخلت بواسطة العرب الذين أقاموا بسويسرة .

ومن جملة الافتراضات أن تكون هذه المسكوكات قد وصلت إلى سويسرة بطريقة سلمية ، أى كثمن بضائع ، أو أن تكون وصلت الى أيدى السويسريين فى أيام الحرب الصليبية من جملة ما غنمه الافرنج من المسلمين . ولا نميل الى قبول هذين الافتراضين كما نميل الى رأى « سوره » من كون دفينة مودون هى مما تركه العرب الذين شنوا الغارة على سويسرة

الملابس العربية

ان في خزانة كنيسة « كور » من بقايا القرون الوسطى أشياء نفيسة الى الغاية، يندر وجود مثلها في البداعة ، فمنها حلة من الحرير يلبسها القسيس في القداس ، تختلف عن بقية الملابس الكنسية وهي مطرزة بآيات قرآنية مكتوبة بالاحرف العربية. ولا نعلم شيئاً عن كيفية حيازة الكنيسة لهذه الحلل ، ولكن يترجح انها كانت في أيام وجود العرب في سويسرة. وكما ان رينو يقول ان في كنائس فرنسة كثيراً من الحلل الدمقسية والآنية الثمينة والأقداح البلورية التي جاءت في زمان وجود العرب بفرنسة ، فلا يبعد أن يكون مافي كنيسة كور من هذه الملابس الكهنوتية قد جاء في زمان وجودهم بسويسرة

واننا مضطرون للاعتراف بأن العرب كانوا في أيام ازدهار الخلافة في اسبانية ، أعلى كعباً في الصناعات والعلوم من الأوربيين ، وأن الثياب التي كانوا ينسجونها للزينة كانت من أفخر مايوجد . ولقد اتفقت الكلمة على كون الصنائع العربية اليدوية ، من الحلي والآنية الفضية والأسلحة ، هي من الاشياء التي يتنافس الناس بها . إلا أننا نقول ان الشيء الذي فاق العرب به الجميع هو صنعة النسيج التي كان أكثر ازدهارها في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر . وكان الخلفاء يهدون منها أمراء أوربة وملوكها ، فانهم كانوا يتحفونهم بنفائس الأسلحة والآنية . وأفخر ما كانت تشتمل عليه هداياهم هو الثياب المطرزة المنسوجة بأنواع التصاوير المزركشة بالذهب والفضه مما كانت تخرجه معامل المسلمين . وكان من اصطلاح العرب في النساجة أن يجعلوا خطوطا عرض الواحد منها سبعة سنتيمترات ، وينسجوا عليها حروف الكتابة التي يريدونها من جهة ، والتصاوير من جهة أخرى . ولم تكن هذه الكتابات وهذه التصاوير من صنع الايدي ، بل كانت من عمل المعامل والانوال . وكانت مادة النسيج من الخز وخيوط الفضة مصنوعة بالتطريق ، وكانت تدور بخيطان الفضة بنود

من الحرير الأصفر ، بحيث لا تزال الفضة تلمع فى أثناء النسيج ، وتنعكس عليها ألوان الأطلس الأصفر فيخال الرائى تلك الفضة ذهباً .

وقد ذكر ابن خلدون الكاتب العربى المشهور أن أمراء العرب وملوكها كانت تخلع على من تريد تشريفه أو تكريمه خلعاً من هذا النوع ، وكان المعمل الذى يخرج هذه المنسوجات يسمى بالطراز . وقد نقل المستشرق الشهير « دساسى » عبارة ابن خلدون فى المجلد الثانى صفحة ٧٨٢ من كتابه « المنتخبات العربية » Chrestomatie Arabe كما أنه فى صفحة ٣٠٥ من هذا الكتاب ذكر ما يأتى :

« اننا نعرف منسوجات كثيرة من صنع العرب ، هى من النوع الذى يسميه ابن خلدون بالطراز . وأول ما أذكره الطيلسان الذى كان يرتديه قياصرة المانيا عند تتويجهم ، فقد كان هذا الطيلسان يشتمل على كتابة عربية منسوجة من خيطان الذهب ، كان قد ترجمها وشرحها المرحوم المسيو «تيخسن» Tychsen وظهر أن هذا الطيلسان صنع فى بلرم (١) سنة ٥٢٨ للهجرة (١١٣٣ للمسيح) ولا شك فى أن ذلك كان فى زمن رجار (٢) لأنه لا يوجد فى تلك الكتابة شىء يتعلق بالديانة الاسلامية » ثم ذكر دساسى أسماء كتب ألمانية تتكلم عن هذا الطيلسان . ثم قال :

« وأذكر قطعة ثانية من هذا النوع من الحرير والذهب محفوظة فى ذخائر كنيسة نوتردام فى باريز . وهى من أنفس النسيج وعليها ألقاب الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى المتوفى سنة ٤١١ (١٠٢٠) ثم أذكر قطعة ثالثة من هذا النوع وجدت فى

(١) Palerme عاصمة جزيرة صقلية

(٢) Roger والمراد به رجار الثانى فان الكونت رجار الأول النورماندى جاء الى ايطالية سنة ١٠٥٢ وبعد أن فتح قالابرة غزا صقلية ولم يزل يجاهد العرب الى أن استصفى هذه الجزيرة سنة ١٠٩٠ بعد حروب بينه وبين العرب استمرت ٢٨ سنة وكان العرب قد ملكوا صقلية مدة ٢٠٠ سنة ثم مات رجار سنة ١١٠١ وخلفه ابنه رجار الثانى فتوج ملكاً فى بلرم سنة ١١٣٠ باسم ملك الصقليتين لانه كان فتح قالابرة ونابولى وغيرها وكان ملكاً عظيما ومات سنة ١١٥٤

أحد قبور دير « سان جرمان دى براى » St - Germain - Des - Près وفيها كلمتان عربيتان مكررتان كثيراً . وقد ذكر هذه التحف المسيو « فيلمين » Villemin فى كتابه عن الآثار المجهولة الى الآن والتى تنبغى معرفتها خدمة لتاريخ الصناعة . وتكلم أيضاً عن هذه القطعة المسيو « دمارست » Demarest فى رسالة مطبوعة سنة ١٨٠٦ ومما يلحق بهذا الباب ما وجد فى قبر الامبراطور فريدريك الثانى (١) المتوفى فى ١٣ دسمبر سنة ١٢٥٠ فقد عثروا على قميص على أكامه كتابة عربية . وذكر ذلك فى كتاب ايطاليانى مطبوع سنة ١٨١٤ فى نابولى يتضمن كلاماً على قبور بلرم . ولقد نشر المسيو « دمور » Demurr فى أحد تآليفه صورة سجادة ، عليها كتابة عربية ، منسوجة بمصر فى زمان المستعلى بالله أى بين سنة ١٠٩٤ وسنة ١١٠١ وهى محفوظة فى خزانة الفاتيكان فى رومة » انتهى كلام دساسى .

(١) امبراطور المانيا الشهير، حفيد الامبراطور فريدريك بربروس الذى اغتسل فى نهر طرسوس، ومات وهو ذاهب لمحاربة المسلمين فى الصليبية الثالثة . وكان الامبراطور فريدريك الثانى امبراطوراً على المانيا وملكاً على صقلية . وكانت ولادته سنة ١١٩٤ ومات أبوه هنرى السادس ، وهو ابن ثلاث سنوات ، فكفله البابا اينوشنسيوس الثالث الى أن بلغ رشده ولكن البابا غريغوريوس التاسع كان عدوا له لانه كان يرى فيه عدوا للبابوية ولاستقلال الأمة الايطالية . وكان يثقل على الطليان أن يكون فريدريك امبراطوراً على المانيا وملكاً على الصقليتين فى وقت واحد ، فلأجل أن يستجلب اليه ميل النصرانية قام بالحرب الصليبية السادسة سنه ١٢٢٨ واسترجع من المسلمين القدس صلحاً ، ورجع الى ايطالية ، وهزم « جان بريان » الذى كان شن الغارة على نابولى . ثم عاد الى المانيا بعد غيبة ١٥ سنة لقتال ابنه هنرى الذى كان قد خرج عن طاعته . ثم تألب عليه امراء ايطالية فزحف اليهم وهزمهم فأعلن البابا غريغوريوس حرمه، ثم جدد البابا اينوشنسيوس الرابع هذا الحرم، وأعلن اسقاطه من جميع ممالكه ، وذلك سنة ١٢٤٥ فثارت به الناس من كل ناحية ، وطمع غيليوم ملك هولاندة وغيره فى تاج امبراطورية المانيا ، وقاتله الطليان من الجهة الاخرى وهزموه ، وانتشر عليه الامر واشتد به الغم ، الى أن مات فى « فلورنتينو » سنة ١٢٥٠ وكان أرقى ملوك عصره ، متكلما بالالمانية والايطالية واللاتينية واليونانية والعربية . وله مؤلف فى العربية باحث فى عدة من المسائل الفلسفية . وله رسائل باللاتينى وقصائد بالايطاليانى وكانت له علاقات كثيرة مع المسلمين : وكان عنده جيش منهم كثير العدد

وعاد كيلر الى ذكر القطعة التى وجدت فى دير « كور » بسويسرة ، فقال : ان عليها كتابة بالعربية « أطال الله لنا أهله » وقال : ان الأستاذ « هيتزيغ » قد ترجمها واذا بالترجمة هى دعاء للمدعو له باطالة حياة رجال ثقته وقومه · وهو تفسير غريب . والمرجح أن هذا الأستاذ تصحفت عليه كلمة « أجله » فقرأها « أهله » لا سيما أن الكتابة هى بالأحرف الكوفية . ولا بد أن تكون العبارة « أطال الله أجله » لأن « أطال الله أهله » ليس لها معنى . انتهى كلام كار ببعض اختصار

الخاتمة

القصص على آثار العرب فى وادى فاليه من سويسرة

قد تقدم فى هذا الكتاب بحسب الروايات المتفق عليها والتى يعدها المؤرخون من الحقائق التاريخية أن العرب أغاروا على هذا الوادى واستولوا على معبر سان برنار الكبير ، وتغلغلوا فى عدة من شعاب الوادى ، وأقاموا بها ، وكانت لهم وقائع مع الأهلين ومن جملتها احراقهم دير القديس موريس . ومنذ جئنا إلى سويسرة ، وألقينا فيها عصا التسيار ، علمنا فى أثناء الحديث مع علماء البلاد ، ولا سيما الذين يعنون بالآثار التاريخية ، أنه يوجد فى ذلك الوادى قرى أصل أهلها من العرب أو فيها أناس من سلائل العرب اندمجوا مع سائر الأهالى ، وانهم يعرفون من سحنائهم أنهم عرب . فلما أجمعنا نشر هذا الكتاب ، وفيه كل ما تعلق بموضوع اقامة العرب بفرنسة وسويسرة وايطالية ، رأينا حريا بنا ، زيادة فى التثبت ونصحاً بالبحث ، أن نتوجه بنفسنا الى هاتيك القرى التى يقال ان أهلها من أصل عربى ، وننقب ما استطعنا عن هذه المسألة بمشافهة أهل الديار ومراجعة ما يمكن العثور عليه من الآثار . وكان طبيبنا فى لوزان الدكتور جاك رو [1] قد أشار علينا بزيارة دير سان موريس الذى فيه خزانة كتب قيمة ومخطوطات متناهية فى العتق ، وكتب كتاب توصية لرئيس الدير حتى يضع بين أيدينا من الكتب والمخطوطات ما يوافق موضوعنا ، كما أن صديقنا المحامى الدكتور فريدريش من جنيف ، وهو من المتخصصين فى العلوم التاريخية والأثرية ، قد ذكر أنه من جملة تلك القرى قرية اسمها ايزيرابل Iserables وقرية أخرى اسمها فريتوريس Freytorreus وقال : ان القرية الأولى فى مكان حصين ، محاط بالأوعار ، مما يستدل منه على أن العرب لجأوا الى ذلك المكان واعتصموا به .

---

(١) Dr Jacques Roux طبيب وجراح شهير بلوزان

ففى ٢٩ يونيو من هـذه السنة قصدت الى سان موريس وهى تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية ساعتين وربع ساعة ، وذهبت الى الدير الذى تنتسب اليه القصبة، وهو دير عريق فى القدم بناه سيجسموند أمير بورغونية فى سنة ٥١٥ للمسيح ، ولا يزال معموراً من ذلك الوقت . فعند ما دخلت الى الدير ناولتهم الكتاب الذى معى من صديقهم الدكتور جاك رو ، فاستدعوا لى الراهب المتولى حفظ المكتبة واسمه طونولى Tonoli فجاء وجلس الى ، وتجاذبنا أطراف البحث الذى جئت الى هناك من أجله ، فقال لى انه لا يعهد فى خزانة كتب الدير مخطوطات فيها شيء يتعلق بغارة العرب على وادى فاله ، وانه يمكن الاطلاع على هذه المسألة فى الكتاب الذى يقال له Monumanta Germanica Historica أى مجموع التاريخ الجرمانى. ثم قال لى :الا أنه من المتواتر عند الجميع أن العرب مروا من هنا وأحرقوا هذا الدير . ثم أشار على بالذهاب الى بلدة مارتيني Martigni وهى على الخط الحديدى تبعد نحواً من نصف ساعة عن سان موريس الى الجنوب ، وتقع بعد سان موريس بثلاث محاط ، وأن هناك رجلا محامياً يقال له كوكو Coquoz يقدر أن يدلنى على القرى التى يقال ان من أهلها من هو منحدر من دم عربى ، ويقفنى على معلومات قد يهمنى الاطلاع عليها . وكذلك فى مدينة سيون Sion قاعدة مقاطعة فاليه رجل يقال له الأب ليومابر ، متخصص فى الأمور التاريخية ، وله كتاب عن تاريخ مقاطعة فاليه ، فهو أيضاً من الأشخاص الذين قد أجد ضالتى عندهم .

وعلى هذا فقد ذهبت الى مارتيني وبحثت عن المسيو كوكو ، وحدثته بالمقصود من زيارتى له ، فدلنى على رجل يقال له فيليب فاركه Farquet يقيم بدائرة تخص دير سان برنار ، وهو معدود من العلماء ، فذهبت واجتمعت بهذا الرجل ، فقال لى انه لا يعلم شيئاً من جهة تاريخ العرب فى وادى فاليه غير ما هو شائع على ألسن الجميع ، ولكنه أشار الى ساحة وراء كنيسة مارتيني وقال لى ونحن ننظر من النافذة : ان هذه الساحة التى أمامنا يقال لها ساحة السرازين Place des Sarrazins ومن هنا يعلم أن العرب سكنوا فى مدينة مارتيني هذه ، وهو أمر معقول جداً ، لأنه قد ثبت

فى التاريخ كونهم استولوا على معبر سان برنار المشهور . ومن المعلوم أن مارتينيي هى البلدة التى يصعد منها الناس الى جبل سان برنار الذي فيه الدير القديم ، وكل يوم تسير السيارات بالمسافرين بين سان برنار ومارتينيي .

وكنت علمت من هؤلاء الأشخاص الذين تحادثت معهم فى هذا الموضوع أن قرية ازرابل هى التى يرجح أن فيها من بقايا العرب ، وأنه يوجد أيضاً قرية أخرى تابعة لمدينة سيون يقال لها ايفولين Evolene هى من هذا القبيل . فسرت بالقطار الى سيون ، واجتمعت بالقسيس الذى يقال له ماير وهو قيم خزانة الكتب التى فى مدرسة سيون ، فلم أجد هذا الرجل معتقداً بصحة هذه الروايات . وهو يظن أن العرب مروا ببلاد فاليه غزاة ، عابرى سبيل ، وما عدوا أن أحرقوا دير سان موريس ولا أعلم هل هو معتقد ذلك فعلا ، أم يحاول انكار وجود آثار للعرب فى تلك الديار فقد وجدته من القسيسين المتعصبين فى الكثلكة الى الغاية ولم أجد فى كلامه ماينقض شيئاً من الروايات التى أطبق عليها المؤرخون من كون العرب أوطنوا وادى فاليه وأقاموا بها حقبة وبقيت لهم فيها أعقاب . وهو نفسه أشار على بمراجعة كتاب بالألمانى لمؤلف يقال له فيشر Fischer لكنه يقول انه غير واثق برواياته .

فتركت القسيس وركبت سيارة وسرت الى قرية ايفولان ، والمسافة من سيون اليها نحو من ٢٥ كيلو متراً ، وهى فى الجبال ليس وراءها عمران ، ومنها الى حدود ايطالية بضع ساعات لا غير . فلما وصلت الى القرية وجدتها قرية صغيرة ليس فيها أكثر من مئة بيت ، أهلها فلاحون ، يعيش أكثرهم من الحرث ومن قطع الأخشاب ، لكثرة الحراج التى حولهم . فسألت عن شيخ القرية أو عمدتها ، كما يقال فى مصر ، فدلونى على بيت حقير ، دخلت اليه فوجدت الرجل ، وحادثته فى الموضوع فقال لى انه يسمع بهذه الروايات كسائر الناس ، وانه ليس عندهم وثائق خطية على شىء من هذا . ثم أشار على بمقابلة القسيس مرشد أهل القرية فسألت عن القسيس فلم أجده . ثم ملت الى فندق صغير فى تلك القرية ، يقصد اليه السياح الذين يحبون العزلة فى الجبال ، فوجدت صاحب الفندق رجلا على أثارة من علم ،

وهو من أهل سيون ، فقال لى : ان الجميع يسممون أن أهالى هذه القرية أو بعضهم على الأقل هم من أصل عربى ، وانه فى الوادى الآخر الذى وراء وادى ايفولن والذى يقال له انيفيه Anniviers قرى يقال أيضاً ان فيها من بقايا العرب الذين أغاروا على وادى فاليه . وسألت هذا الرجل هل يعلم فى ايفولين عائلة تعلم نفسها منحدرة من أصل عربى ، فأجابنى : أما هكذا فلا أعلم وغاية ما هناك أنهم يقولون بوجود الدم العربى فى هذه القرية ، وأن فى سحنة بعض أهلها ما يدل على كونهم ليسوا من أصل سويسرى .

فغادرت قرية ايفولين ، ورجعت الى سيون ، ومنها ركبت القطار وجئت الى محطة ريد Rid التى منها يمكن الذهاب الى قرية ازارابل ، فنزلت فى ريد ، وسألت : هل يوجد طريق معبد الى ازارابل ؟ فقالوا : لا ، ولا سبيل الى الذهاب الا على ظهر دابة أو سيراً على الأقدام . ولما كان وجود مطية يأخذ وقتاً ، وكان من عادتى بحسب اشارة الطبيب أن أمشى كل يوم لا أقل من ساعتين ، لأجل الرياضة الجسدية ، اخترت أن أذهب الى ازارابل ماشياً . ولكنها كانت مرحلة شاقة لأن الطريق الى ازارابل انما هو تصعيد مستمر فى عقبة كؤود ، يأخذ اجتيازها ساعتين ونصف ساعة فيصل الانسان الى تلك القرية التى يجدها فى أوعر محل من ذلك الجبل ، لولا ذلك الطريق الذي ينفذ اليها لا يكاد الماعز يجد اليها متسلقا ولا متعلقاً . ولاشك أن العرب ان كانت بقيت منهم بقايا ولاذت بالجبال ، طالبة النجاة من أيدى أهل البلاد ، لم يكونوا ليجدوا للامتناع خيرا من ذلك المحل . والقرية فى سفح جبل قائم ، تشرف على واد عميق الغور ، والغابات تحف بهسا . فلما وصلت اليها سألت عن شيخها ، ويقال له كازيمير تافر Tavre فسألته عما يعلم من قضية انتساب هذه القرية الى العرب فقال لى : ان العرب كانوا شنوا الغارة على وادى فاليه ، وأحرقوا دير سان موريس ، وانتشروا فى هذه الأرض ثم انقرضوا كما جاء فى التواريخ ، وان كانت لهم أعقاب فى هذه البلاد فليس ذلك خاصاً بقرية ازارابل ، فربما كانت بقايا العرب فى عدة قرى .

فسألته هل يعلم عائلات تعلم نفسها من أصل عربي ، فقال لي لا ، فسألته : هل يوجد عندهم أوراق عتيقة تدل على صحة تلك الروايات ؟ فأجابني ان عندهم في خزانة البلدية أوراقا مكتوبة باللاتينية ترجع الى سنة ١٢٠٠ مسيحية فما بعدها ، وان هذه الأوراق كلها صكوك بيع وشراء يراجعونها عند وقوع الخلاف على حدود الأراضي ، وليس فيها شيء عائد الى التاريخ . فتركته وجئت الى ساحة القرية ، فوجدت شبان القرية كلهم مجتمعين في مقهى صغير يشربون فيه المرطبات ، فسألت عن سبب هذا الاجتماع فقيل لي : ان لشبان القرية جمعية قد جعلت لنفسها علما خاصاً ، وان ذلك اليوم هو يوم الاحتفال بالعلم . فكان لي اجتماعهم هذا فرصة لأجل التفرس في هيئاتهم وسحنهم فرأيت فيهم سحنا لا تفترق عن غيرها من خلقة أهل سويسرة ، ورأيت أشخاصاً تغلب عليهم السمرة الشديدة ، ولا تشبه خلقة الآخرين . وأما من جهة لغتهم فانهم يتكلمون الافرنسية ولغة أخرى عامية مشتقة من اللاتينية ، وهذه اللهجة العامية غالبة على جميع قرى ذلك الوادي من أوله الى آخره . ولا يتكلم الأهالي فيما بينهم الا بها . وقد تختلف لهجة ناحية عن ناحية . ولم يتسع لي الوقت أن أبحث في عاميتهم هذه ، ولا سيما في لهجة أهالي ازارابل وايفولين ، لأعلم هل هناك ألفاظ عربية أم لا فان بحثاً كهذا ليأخذ وقتاً طويلا لم أكن أملكه . فتركت ازارابل مكتفياً بما رأيته وسمعته ، وعلمت أن تاريخ العرب في ذلك الوادي لا يمكن أن يؤخذ الا من بطون الكتب ، وماعدا ذلك فهو روايات شائعة متواترة لاشك في أن لها أصلا ولكن هذا الأصل قد اختفى بكرور الأيام

ثم ان أحد أصحابي ممن يعنون بتاريخ سويسرة نبهني الى مطالعة القاموس التاريخي السويسري المسمى Dictionnaire historique et biographique de la Suisse اذ فيه تحت لفظة « سرازين » فصل يتعلق بمقام العرب في سويسرة وجبال الألب ، فذهبت الى خزانة كتب الجامعة في جنيف ، وطالعت الفصل المذكور ، ولخصت منه مايلي : في القرن التاسع للمسيح استغاث البابا بالسويسريين والفريزوزينين ، لوقاية

رومة من غارات العرب . وفى سنة ٨٨٨ جاء عرب من اسبانية واحتلوا فركسيناتوم (مقاطعة الفار فى فرنسة) وأغاروا من هناك على الشمال والغرب . وسنة ٩٠٦ اجتازوا جبال الألب الغربية واكتسحوا دير نوفاليز بقرب سوز Suze وفى سنة ٩١٣ كانوا فى آكى Acque فى بيامونت . وفى سنة ٩٢١ وصلوا الى جبل سان برنار الكبير ، حسبما روى فليودار دورنز Fléodard de Reims وهنالك رموا بالحجارة قافلة انكليزية كانت ذاهبة الى رومة . وفى سنة ٩٣٦ قطع العرب جبال الألب الريتية Alpes Rhétiennes واكتسحوا أسقفية كوار Coire فاضطر الملك أوتون الأول أن يعوض أسقف كوار مما رزأه به العرب . ومن الوقائع التى لاشك فيها أن العرب نزلوا من جبل سان برنار ، ونهبوا دير سان موريس فى وادى فاليه ، وذلك سنة ٩٤٠ كما روى ذلك أولريك مطران أوغسبورغ . ولا تمكن معرفة ما اذا كانت ثمة علاقة بين حوادث سان برنار وحوادث كوار . وفى سنة ٩٤١ كان هوغ ملك ايطالية فى حرب الماركيز بيرانجه الايفرى Berenger D'ivrée والملكة برته صاحبة برغونية التى كان طلقها ، فاستمال هوغ العرب واستخدمهم وألقى اليهم بحراسة معابر الألب . ففر بيرانجه من وجههم والتجأ الى الدوق هرمان الشوابى Hermamnn de Soiab وبلغ من قوة العرب أنهم جعلوا رسوماً على المارة الذين كانوا يقطعون جبال الألب ، قاصدين رومة ، ويقال انهم تقدموا من هنالك حتى بلغوا مقاطعة فو Void التى قاعدتها لوزان ومقاطعة جوره ، التابعة لنيو شاتال ، واستطالوا على دير سان غال Saint Gall وكانت توجد كتابة فى كنيسة القديس بطرس فى بورغ Bourg محفورة بين سنة ١٠١٩ و ١٠٣٨ يستدل منها على الغارات العربية الى جهة الغرب .

وأما غاراتهم الى جهة الشمال الشرقى فالروايات عنها لم تحقق بصورة قطعية . وكذلك لم يتحقق كونهم تديروا جبال الألب ، بصورة ثابتة ، وانما تحقق على وجه ليس فيه مراء أن الملك أوتون مر بكوار سنة ٩٥٢ ومعه زوجته « ادليدة »

فوجد الدير قد نهبه العرب فعوض الدير مما فقده . وذلك سنة ٩٥٥ وأما فى جنوبى الألب فقد طال مقام العرب ، ولكن لا نظن صحيحاً أنهم استعمروا وادى ساز Saas سنة ٩٤٠ الى سنة ٩٦٠ وكذلك مايقال من احتلالهم بونترازينه Pontresina وأما ما يقال من كون بعض أسماء وادى ساز هى عربية مثل « على العين » Allalin والعين Ein والماجل Almagel ومشابل Mischabel وبالفرين Balfrin وموتتومورو Monto Moro فلم يثبت كون هذه الألفاظ عربية . وفى ٢٣ يوليو سنة ٩٧٣ قبض العرب على الراهب ميول ورفاقه ، فثار الناس من أجل هذه الفعلة ، واجتمع غليوم كونت آرل ، وهاردوين أمير تورينو وربالد كونت بروفانس ، وزحفوا الى العرب من كل جهة واستولوا على فركسينة وانقرض العرب من هناك

وهذا الفصل من قاموس سويسرة التاريخى عليه امضاء H. Dübi وهو مأخوذ من بضعة عشر تأليفا بالانكليزية والافرنسية ، وأكثرها بالألمانية ، وفى رأس هذه التآليف كتاب كلر Keller الذى ترجمناه وأردفنا به كتاب رينو المستشرق الافرنسى

بقى علينا أن نلاحظ على هذا الفصل ارتياب كاتبه فى عروبة الألفاظ التى ذكرها فنحن نخالفه فى هذا الرأى ، ونوافق على رأى كلر ، وهو أن هذه الألفاظ عربية لا ريب فيها وأنه يستحيل أن توجد ثلاثة ألفاظ كهذه مشابهة للالفاظ العربية تصادفاً . وذلك مثل « على العين » و « العين » و « الماجل » فان هذه كلمات عربية صريحة ، وشكل التلفظ بها بحسب رسم حروفها باللغة الافرنسية يدل على كونها عربية مغربية ، لأن اخواننا المغاربة والأندلسيين يميلون الى الكسر فى تلفظ الحرف الأول من لفظ عين وما فى ضربها من الألفاظ كزيت وجيش وزيد وغيرها ، بخلافنا نحن المشارقة فاننا نلفظ كل هذه الألفاظ بفتح أولها . وأما الماجل فقد تقدم أنه حوض الماء ، وأن هذه اللفظة كانت تستعمل فى مكة لحياض الماء التى فيها . وأما مشابل فيجوز أن تكون من أصل عربى بمعنى مكان الأسود ، أو كما قيل من أن هناك جبالا شبهوها بلبوة تجر أشبالها كما أنه يجوز أن يكون أصلها لفظة أوربية

تشابهت اتفاقا مع اللفظة العربية . أما الألفاظ الثلاثة الأولى فلا يمكن أن يكون وجودها مجرد اتفاق ، لا سيما أنها أسماء لأماكن فيها مياه . وأما بالفرين فقد تكون محرفة عن أصل عربي ويكون أصلها بالفرين تصغير فرن . ويجوز أن تكون لفظة افرنجية . وأما « مونتومورو » فهو ظاهر ومعناه جبل المغاربة أو العرب . وبالاختصار فرأى كاتب هذا البحث من جهة هذه الألفاظ هو فى غير محله .

فهذا ما اخترنا نقله وجمعه من أخبار غارات العرب على فرنسة وايطالية وسويسرة ممحصاً ممخوضاً معولا فيه على أوثق المصادر والله تعالى من وراء العلم هو المبدىء المعيد والأول والآخر .

فتح المسلمين لمالطة

قد كان أصل المحور الذى دارت عليه مباحث هذا الكتاب هو غزوات العرب فى شمالى جبال البيرانة من فرنسة وايطالية وسويسرة . ولكن الحديث شجون والتاريخ انما هو حديث عن حوادث يثير بعضها بعضاً . وقلما تجد منها حادثة الا وهى متعلقة بسابقة لها ، ولذلك لم يمكن حصر الكتاب ضمن الحدود التى ذكرناها ، بل تمدى الى موضوع غزو العرب لجزائر البحر الرومى مثل كورسيكة وسردانية وصقلية والأرض الكبيرة المقابلة لها التى يقال لها كالابرة . وتناول البحث أيضاً جزيرة اقريطش التى يقال لها اليوم كريد . فأما جزر الباليار فهذه تابعة للاندلس قديما وحديثا . ولذلك أبقينا الكلام عليها الى الكتاب الذى ننوى وضعه على الأندلس ، وقد هيأنا كثيراً من مواده . وانما بقيت جزيرة فى البحر المتوسط ، فاتنا ذكر فتح المسلمين لها ، مع كونها ذات ذكر شهير فى التاريخ أكبر كثيراً من جرمها الجغرافى الا وهى جزيرة مالطة ، فأحببنا أن نذكر عنها خلاصة تاريخية فى هذا الكتاب . فنقول :

يوجد أرخبيل يقال له الأرخبيل المالطى مؤلف من جزيرة مالطة وأخواتها غوزو Gozo وكومينو Comino وكومينوتو Cominotto وفلفولا Filfola وصخور أخرى تحاذيها ، جاء فى الانسيكلوبيدية الاسلامية المحررة بالافرنسية أن هذه الجزر كانت فى الأعصر القديمة مأهولة بطائفة من طوائف البحر المتوسط ، لها آثار تدل عليها ، محفوظة فى مكان من مالطة يقال له « الحجر القائم » Hagiar kaim وأول ماعرف التاريخ عنها هو أن الفينيقيين استعمروها قبل القرن العاشر قبل المسيح ، واتخذوها قاعدة لسفنهم التجارية . قالت الانسيكلوبيدية : ولم يتحقق كون اسم مالطة مشتقاً من الفينيقية وانما تحقق كون جزيرة غوزو أو غولوز Gailos معنى اسمها « سفينة تجارية مستديرة الشكل » وقد استولى القرطاجنيون على مالطة فى القرن السابع قبل

المسيح، وبقوا فيها أربعة أو خمسة قرون ، ثم استولى عليها الرومانيون سنة ٢١٨ قبل الميلاد وبقيت نحواً من عشرة قرون فى أيدى الرومانيين واليونانيين . وفى القرن الأول للمسيح تنصر أهل مالطة عن يد القديس بولس . ولما سقطت السلطنة الرومانية الغربية استولى عليها البيزنطيون ، وكانت لهم مركزاً ضروريا بعداستيلائهم على شمالى افريقية .

وقد استولى المسلمون على مالطة سنة ٢٥٦ للهجرة وفق ٨٦٩ و٨٧٠ مسيحية . ولكن هذا الاستيلاء هو الاستيلاء الثابت ، لأن ابن الأثير يخبرنا أنه فى سنة ٢٢١ أرسل ابراهيم بن الأغلب أسطولا لغزو الجزائر ، والأرجح أن مراده بالجزائر هو الأرخبيل الذى من جملته مالطة . وقد كانت غزوات المسلمين لمالطة وصقلية فى القرن الثامن للمسيح ، وربما كانت مالطة دخلت فى حوزة المسلمين قبل سنة ٨٠٠ وكان مقام المسلمين بمالطة أطول وأثبت من مقامهم بصقلية ، بدليل كون لغة مالطة عربية

وقد اختلف العلماء فى أصل اللهجة المالطية ، فزعم بعضهم أنها من أصل فينيق . وذهب آخرون الى أنها لهجة عربية ، وهذا رأى الجمهور . فاللغة المالطية عربية تشابه فى كثير من الألفاظ لهجات العرب الشرقيين ، وفى كثير منها العرب المغاربة وتكثر فى لغة مالطة الامالة ، كما يكثر أيضاً قلب الألف ياء ، فيقولون « يينا » بدلا من أنا ، ويقلبون القاف همزة ، ويستعملون أحياناً نون الجمع المتكلم قبل المفرد ، فيقولون مثلا : انا نقول له بدلا من نحن نقول له . وهذا على نسق أهل المغرب وتختلف اللهجات فى نفس مالطة بين المدينة والقرى ، وبين مالطة وغوزو ، ولا توجد الخاء والغين فى مدينة مالطة المسماة « فاليت » وانما توجد فى جزيرة غوزو . ولم يتم البحث حتى الآن عن اللهجات المالطية حتى يعرف ما هو راجع منها الى العربية الشرقية وما هو راجع الى العربية الغربية . وقد أثرت الثقافة اللاتينية الايطالية فى اللغة المالطية ، ودخلت ألفاظ كثيرة منها فى لغة مالطة . ولم يكن للمالطيين حروف يكتبون بها الى أن قام فى القرن الثامن عشر رجل يقال له « آجيوس سلدانيس » فاعتنى بالبحث عن لغة بلده . ومن ذاك الوقت أخذوا يكتبون لغتهم ، واستعملوا

الحروف العربية . ثم نهضت عصبة من المالطيين اسمها « عقدة تالكتيبة تالطى » أى أى عصبة الكتاب المالطية ونشرت كتاباً فى نحو اللغة المالطية سمته « تعريف الكتبة المالطية » وذلك فى سنة ١٩٢٤ وجاء فى مقدمة هذا الكتاب ذكر أنواع الكتابة المالطية . ثم ان هذه العصبة نشرت مجلة اسمها المالطى فى سنة ١٩٢٥ وكان غرضها الاصلى احياء اللغة المالطية العربية أو ما تعبر عنه بالمالطى الصافى

ومنذ سنة ١٨٥٠ أخذت مسألة اللغة المالطية شكلا سياسياً . وذلك لأن الانكليز أحبوا أن يعززوا اللغة المالطية العربية ، لعدم رغبتهم فى نشر اللغة الايطالية التى هى لغة الطبقة المثقفة ولغة رجال الكنيسة فى مالطة . ومن شاء الاطلاع على آداب اللهجة المالطية فليراجع كتب بوناللى L , Bonelli وشتومة H.Stumme

وقد ترك المسلمون فى مالطة ، عدا أسماء البلاد واللغة العربية ، قطعاً من المسكوكات وعددا كبيراً من الآثار الكتابية لا سيما كتابات القبور . وأشهر هذه الكتابة المسماة « ميمونة » تاريخها يوافق سنة ١١٧٣ مسيحية . وقد نشرت منذ قرن تام ، وبحث فيها المستشرقون مثل ايطالينسكى Italenski ولنسى Lance وآمارى Amari وغيرهم . وقد وجدوا كتابة أيضاً فى جزيرة غوزو ، وهى محفوظة فى متحف مالطة ثم انه وجدت كتابات نحو العشرين فى أثناء الحفريات التى وقعت بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٥ فى محل يقال له رباطو Rabato بقرب نوتابيل Notabile وهى محفوظة فى متحف مربع رومانا Romana على مقربة من مكان الحفريات

هذا وقد خرجت مالطة من أيدى المسلمين سنة ١٠٩٠ مسيحية ، فان النورمنديين استردوها بعد استردادهم لصقلية . ولكن كان المسلمون مأذوناً لهم فى الاقامة بهذه الجزيرة الى سنة ١٢٤٩ ثم ان مالطة من سنة ١٥٣٠ الى سنة ١٧٩٨ صارت مركزاً لفرسان ماريوحنا أورشليم الذين طردهم الترك من رودس سنة ١٥٢٣ فانتقلوا الى مالطة وأنشأوا أسطولا عظيما ، كانوا يلاقون به أساطيل المسلمين ، الترك أو الافريقيين ، وكان يؤتى بألوف من أسارى المسلمين الى مالطة . ولهذا قصد الأتراك

الاستيلاء على مالطة سنة ١٥٦٥ ولكنهم لم يتمكنوا منها . وحاولوا ذلك مرة أخرى فى أيام السلطان محمد الرابع . وفى المكتبة العمومية فى مالطة وفى متحفها بعض كتابات عربية متعلقة بفن الملاحة . انتهى ما ذكرته الانسيكلوبيدية الاسلامية عن مالطة ، نقلناه باختصار

ولما كان العلامة الرحلة اللغوى المشهور احمد فارس الشدياق ، صاحب الجوائب قد أقام بمالطة أربع عشرة سنة وكتب عليها كتاباً سماه « الواسطة فى معرفة أحوال مالطة » فقد أردنا أن نأخذ من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بغرضنا من جغرافية مالطة وتاريخها وذكر فتح المسلمين لها ، فنقول :

قال احمد فارس : ان تخطيط مالطة هو فى ٢٢ درجة وأربع وأربعين دقيقة من الطول ، وفى ٢٥ درجة و٥٤ دقيقة من العرض . أما موقعها فى الكرة فان بعض الجغرافيين ألحقوه بافريقية ، بالنظر الى المكان ، وبعضهم ألحقه بجزائر ايطالية بالنظر الى عادات أهل مالطة وأحوالهم ودياناتهم . فأما عرض مالطة فاثنا عشر ميلا ، وطولها عشرون ، ودورتها ستون وقاعدتها الآن هى المدينة المسماة فالتة « La Valette » فأما فى الأعصر السالفة فكانت نوتابيلى ، ويقال لها الآن المدينة ، وموقعها فى وسط الجزيرة فى أرفع موضع منها . وكانت الجزيرة منقسمة بها الى شطرين : أحدهما يمتد جهة الشرق ، والآخر جهة الغرب . والذى بنى فالته كان أحد أمراء الافرنج وسماها باسمه ، وذلك سنة ١٥٧٦ وهى على ربوة بقرب البحر يقال لها شبراس . قلت : زعم بعض المالطيين أن أصل هذه الكلمة « شبر الرأس » وبعضهم أنها « جبل راس » وعندى أنها شعب الراس . قال فى الصحاح : شعب الراس شأنه الذى يضم قبائله اه . وهو كناية عن أصل الشىء ومجتمعه . كما أن قبائل الراس مرجعها الى الشعب ، ويحتمل أنها سميت بشيب الراس لأن أهل مالطة كانوا يناصبون المسلمين الحرب وكل فريق ملاق من فريقه ما يشيب الرأس اه

قلت : تأييداً لما استشهد به احمد فارس أقول : جاء فى لسان العرب « والشعب

شعب الراس وهو شأنه الذى يضم قبائله . وفى الرأس أربع قبائل ، وأنشد .

فان اودى معاوية بن صخر فبشر شعب رأسك بانصداع اه

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الفرنساوى بوليه أن قاعدة مالطة سميت باسم الأمير لافاليت رئيس طريقة الفرسان ، ولد فى سنة ١٤٩٤ ومات سنة ١٥٦٨ وكان شهيراً بالبأس . وأول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج « سانت المو » ثم قوى عليهم وأخرجهم منها اه . قلت : ان هذه الرواية تخالف ماجاء فى الانسيكلوبيدية الاسلامية من كون مالطة خرجت من أيدى المسلمين سنة ١٠٩٠ اذ ينبغى من هذه الرواية أنه كان فيها مسلمون فى أواسط القرن السادس عشر للمسيح ، وانه كانت فى أيديهم حصون وأبراج ، ولولا ذلك ما قيل ان الأمير لافاليت أخرجهم منها

وأما اسم مالطة فجاء فى كتاب احمد فارس أن اليونانيين سموها مليته ، واشتهر ذلك سنة ٨٢٨ قبل الميلاد . ومعنى ميليته أو ميليسه فى لغة اليونان النحل فحرف المسلمون ذلك وقالوا مالطة . قال : وزعم قوم أنها سميت باسم ميليته ابنة دوريس ، وهو مشتق من ميليت فى السريانية ، وهو اسم إله . ولا يبعد أن يكون ذلك فى اللغة الفينيقية أيضاً . قال : وممن ذكر مالطة من الشعراء الأقدمين اوميروس واوفيديوس ويفهم من كلام الأول أن القبيلة التي يقال لها « الفيا كونس » هم أول من استوطنوا هذه الجزيرة وكانوا ذوى قوة وبأس . ثم خلفهم الفينيقيون ، وهم من جهات صور وصيدا ، وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد ، فلبثوا فيها نحو أربعمائة وخمسين سنة ، حتى تغلب عليهم الاغريقيون ثم سلموها للقرطجنيين ، وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ، ثم جاء من بعدهم الرومانيون سنة ٢٨٣ من التاريخ المذكور . وأعظم ما حدث فى أيامهم قدوم ماربولس ، وانكسار السفينة به وبمن كان معه ، وذلك سنة ٥٨ للميلاد ، فى موضع يقال له الآن خليج ماربولس . ومنذ ذلك الوقت تنصر أهل الجزيرة . ثم بعد الرومانيين استولت قبيلة « الفندلس » ثم « القوث » ثم « البليساريون » وألحقوها

بحكومة البلاد الشرقية وبقيت كذلك الى سنة ٧٨٠ فأخذوه فى هضم الرعية ، فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلمين اه . ملخصاً

قلت : يريد بالقوث أمة القوط الذين كانوا غلبوا على اسبانية ، وبالفاندالس الأمة التى كانت أيضاً غلبت على اسبانية وافريقية . وأما البليساريون فهم قوم بليسار Belisaire وكان من قواد الامبراطور يوستنيانوس صاحب بيزنطية ، ولد سنة ٤٩٠ وفى سنة ٥٣٣ غزا الفندلس فى افريقية ، واستولى على قرطاجنة . ثم غزا أيضاً القوط عند ما كانوا فى ايطالية واستولى على صقلية ونابولى ورومة . ولعله فى هذه الغزاة استولى على مالطة. ثم قال أحمد فارس :

ذكر فى كتاب الجمع والبيان فى أخبار القيروان أن مالطة فتحت فى أيام أبى الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، توفى سنة احدى وستين ومائتين ، وانما لقب بالغرانيق لأنه كان مشغوفا بالصيد . روى انه بنى قصراً فى السهلين ، لصيد الغرانيق أنفق فيه ثلاثين ألف دينار ، فكنى بهذه الكنية . فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف (أى المؤلف الذى نقل عنه أحمد فارس) : وسلموا الجزيرة للمسلمين . اه . يريد أحمد فارس أن يقول ان المسلمين أخذوها فتحا

ثم نقل صاحب « الواسطة فى معرفة أحوال مالطة » عن ذلك المؤلف بقية حوادث مالطة ، فقال : ثم قام الأمير زوجر النورماندى بعدها بمائتى سنة ، واسترد الجزيرة وألحقها بصقلية ، فبقيت كذلك نحو سبعين سنة . ولما تزوج القيصر هنرى السادس قيصر جرمانية ولية عهد صقلية دخلت مالطة فى حكومته وذلك سنة ١٢٦٦ وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنة . وفى أثناء ذلك ولى اخو لويس ملك فرنسا حكم صقلية ومالطة معاً ، وبعد سنتين تغلب عليه الأمير بطرس الأراغونى ، ثم آل أمرها الى الملك كرلوس ملك صقلية فولى عليها الفرسان من نظام ماريوحنا برضى الأهلين واتفاق دول أوربا . ثم لما نبغ نابليون واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على أن يرخص للاهلين فى التصرف بحقوقهم ، الا أن الفرنسيس لم يلبثوا ان هتكوا بعض السنن القديمة ،

وانتهكوا حرمة الكنائس ، فتحزب عليهم المالطيون تحزباً لم يخل من سفك دم كثير منهم وتلف أموالهم، الى أن أتت الانكليز فسلموها لهم ، وكان ذلك سنة ١٨٠٠

قلت (أى قال أحمد فارس) : لما دخلها نابليون وجد فيها ألفاومائتى مدفع ومائتى ألف رطل من البارود وأربعين ألف بندقية وعدة بوارج و٤٥٠٠ أسير من المسلمين فأطلقهم . وذلك سنة ١٧٩٨ .

ثم رجع الشدياق الى النقل عن المؤلف الذى نقل عنه فقال : ان أخذ المسلمين لمالطة كان من باب المصادقة أولى منه من المغالبة ، وعاملوا الأهلين أولا بالرفق والمياسرة ، وقرروا سننهم وأحكامهم ، وامتزجوا بهم للغاية ، حتى كأن الجيلين واحد ، كما يتبين من بقاء لغتهم فيهم .

قال : أما لغة مالطة فذهب بعضهم الى أنها عربية فاسدة ، وذهب آخرون الى أنها فينيقية لأن اليونانيين بعد أن فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين بل ظلوا فيها آمنين محافظين على لغتهم ، وما برحت مستقلة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها وانها لم تتغير فى مدة القرطاجنيين لأن لغة هؤلاء كانت أيضاً فينيقية . ومع أن دأب الرومانيين كان حمل الناس على التخلق بأخلاقهم والسلوك بسنتهم أينما ملكوا فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم . والدليل على ذلك أن الرومانيين الذين كانوا مع ماربولس سموا المالطيين بربرا ولم يكن يطلق هذا الاسم الا على من جهل اللاتينية واليونانية .

قال : ثم بقيت فى دولة المسلمين أيضاً ولم تتغير وانما دخل فيها بعض ألفاظ أجنبية . ويؤيد كونها فينيقية مشابهة بعض ألفاظ منها للعربية ، نحو بير وصيد ، فانهما فى الفينيقية بر وصد وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد فى كلتا اللغتين . والحاصل أن مأخذ اللغة المالطية من الفينيقية أرجح من أن يكون من العربية وان كانت قريبة من هذه أيضا . اه

قال أحمد فارس : قلت : دليله هذا أوهى من بيت العنكبوت فان البير والصيد ينطق بهما فى لغتهم كما فى لغتنا سواء ما عدا موافقتهما فى تصريف الأفعال والأسماء وفى الضمائر وغير ذلك من أساليب الكلام . ومن الغريب أن المؤلف لا يعرف

الفينيقية ولا العربية ولا المالطيه ، وان كانت لغته ، ويتعرض للحكم والاستدلال . فكيف يحكم على الشيء وهو يجهله وكيف يقول : ان لغة المسلمين بقيت فى أهل مالطة لشدة الالتحام الذى كان بين الفريقين ثم يقول الآن انها فينيقية لمجرد وجود كلمتين فيها ؟ وانما حمله على هذا بغضه وبغض أهل بلاده للعرب وتبرئة أنفسهم أنهم ليسوا منهم بل من الفينيقيين اه

قلت : لغة مالطة عربية لا شبهة فيها . وانما ثبتت العربية فى مالطة برغم انقراضها من صقلية وسردانية والأندلس وجنوبى فرنسة وجميع البلدان التى احتلها العرب من أوربة ، لكون أصل لغة تلك الجزائر والبلدان لاتينياً ، فلما تقلص ظل العرب عنها رجعت اليها لغتها الأصلية وانقرض العربى منها بالكلية . فأما مالطة فلغتها الأصلية لم تكن لاتينية بل كانت الفينيقية وهى أخت العربية ، فلما جاءتهم العربية بعد فتح الاسلام لمالطة كانت كأنها نزلت فى وطنها وثبتت فيها ثبوتا لم يزلزله خروج المسلمين من مالطة كما ذهبت العربية من البلدان الأخرى التى أهلها الأصليون لاتينيون ولغاتها الأصلية لاتينية

ثم قال أحمد فارس : والظاهر أن المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من أهل العلم والتمدن ، كالذين كانوا فى صقلية وغيرها ، فانى لم أجد قط فيما قرأت من كتب الأدب والتواريخ قال المالطى . والسيوطى رحمه الله لم يغادر فى كتاب الانساب الذى سماه « لب اللباب » أحداً من أهل العلم إلا ذكره ما خلا المنسوب إلى مالطة اه

قلت : أتذكر أنى قرأت فى بعض كتب التراجم ، من مؤلفات أهل الأندلس ، اسماء رجال منسوبين الى مالطة . وفى معجم ياقوت يذكر نقلا عن السلفى : سمعت أبا العباس أحمد بن طالوت البلنسى بالثغر يقول : سمعت أبا القاسم بن رمضان المالطى بها يقول : كان القائد يحيى صاحب مالطة قد صنع له أحد المهندسين صورة تعرف بها أوقات النهار الصنج ، فقلت لعبد الله بن السمطى المالطى أجز هذا المصراع :

جارية ترمى الصنج فقال : بها النفوس تبتهج

كأن من أحكمها الى السماء قد عرج
فطالع الأفلاك عن سر البروج والدرج

وأما قول ياقوت انها بلدة بالأندلس فليس بمانع من كونه يريد بهـا هذه الجزيرة المسماة مالطة الواقعة فى بحر الروم ، فقد جاء فى تاج العروس : ومالطة كصاحبة ووقع فى التـكملة مضبوطا بفتح اللام والمشهور على الألسنة سكونها بلدة بالأندلس كما نقله الصاغانى وهى مدينة عظيمة فى جزيرة من بحر الروم ، شديدة الضرر على المسلمين فى البحر ، يعظمها النصارى تعظيما بالغاً وبها وكلاء عظمائهم من كل الجهات. ولقد حكى لى من أسر بها عن زخارفها ومتانة حصونها وتشييد أبراجها وما بها من عدة الحرب ما يقضى بالعجب ، جعلها الله دار اسلام بحرمة النبى عليه الصلاة والسلام. فأنت ترى ان كتاب العرب كانوا يجعلون مالطة من الأندلس كما كانوا يجعلون ميورقة ومينورقة وسردانية وغيرها

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الذى اعتمد عليه كلاماً عن جزيرة « كوتزو » من أخوات مالطة فقال: ان اسمها جزيرة غورش وانها بالافرنجية كوتسو وان هذه اللفظة يونانية ومعناها مركب مســتدير وهى كأنها ذيل انقطع من مالطة وطولها اثنا عشر ميلا فى عرض ستة ، وأهلها نحو خمسة عشر ألفا ، وجملة قراها ست ، ومدينتها تسمى الربط (كأنه محرف عن الربض) وفيها آثار قلعـة قديمة . وبقول الجزيرة وفاكهتها طيبة جداً ، وكذا عسلها . وزعم بعضهم أن مالطة وغورش وكمونة كانت فى الأصل جزيرة واحدة وحدث من الزلازل ما فرقها . اه

وأردف أحمد فارس رحمه الله هذا الـكلام بقوله : رأيت جزيرة غورش غير مرة . أما اسمها فأظنه محرفا عن لفظة الهودج ، سماها به المسلمون لشدة شبهها به ، كما سموا الجزيرتين الاخريين كمونة وفلفلة لصغرها . الا أن أهلها ينطقون بهـا بالغين المعجمة لا بالمهملة كما ينطق بها أهل مالطة .

ثم ذكر أحمد فارس أن أهل مالطة رغما من كون لغتهم فرعاً عن العربية فليس منهم من يحسن قراءتها والتكلم بها ، وان هناك دار كتب موقوفة فيها ثلاثة وثلاثون ألف

سفر ، وليس فيها من الـكتب العربية ما تحته طائل . ثم ذكر أن فى لغتهم امالة كثيرة فهم يقولون للتفاح تفيح وللرمان رمين وللبطيخ بتيح بالحـاء المهملة وللخيار حيار بالحاء المهملة أيضاً وللاجاص لنجاص وللدلاع دليـع وللخبز حبس وللخوخ حوح بالحائين المهملتين ، ويقولون بس بمعنى حسب ، ولـكن يبدلون سينها زايا ويكسرون أولها .

ثم قال : انه لا ينكر أن كثيراً من الـكلام العربى الذى بقى فى مالطة مستعمل بطريقة المجاز امابذكراللازم وارادة الملزوم واما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلا « وحلت » للوقوع فى الأمر الصعب وأصله الوقوع فى الوحل خاصة ، ونحو « الطلاب » للمتكفف وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب . ونحو « معلوب » للنحيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالباً ، وفتيت أى قليل وهو من فتت الشىء اذا كسرته وصغرت جرمه . قال : وان أهل غورش ينطقون بالأحرف الحلقية على حقها الا أنهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون مكِسور ومفـتِوح ويضمون ماقبل الألف نحو ُقاعد وهلم جرا ، ويقولون منكم وعليـكم بكسر الـكاف وهى لغة ربيعة وقوم من كلب كما فى المزهر ويسمى الوكم .

وذكر من اصطلاحاتهم انهم يعبرون عن الدخول فى الفعل بلفظة « سائر » وهى نظيرقول أهل الشام ومصر « رايح » فاذا قال المالطى : أنا ساير نسافر فهى كقول الشامى أو المصرى : أنا رايح أسافر .

قلت : يظهر أن ساير هذه كانت مستعملة فى المغرب وقد نحتوها فبقى منها سين مفتوحة ، فيقولون عن شخص مثلا هو فى حال الأكل سيأكل . وأحيانا يقلبونها تاء فيقولون تيأكل ، ويقولون فى المغرب فى مثل هذه الحالة كيأكل . وأظن الـكاف هنا منحوتة من « كائن » وذلك كما ينحت أهل الشام لفظة « عمال » فبدلا من أن يقول هو عمال يأكل تجـده يقول « عميا كل » وفى بعض جهات من شمالى لبنان يقلبون الميم نونا فيقولون « عنيا كل » .

ثم ذكر أحمـد فارس اصطلاح أهل مالطة على ادخال لفظة « تا » بين المضاف

والمضاف اليه ، فيقولون مثلا « الرجل تالبيت » وذهب أحمد فارس الى أنها منجوتة من متاع ، قال : فان أهل المغرب يدخلونها كثيراً فى الاضافة ويبتدئون بالميم ساكنة على عادتهم من الابتداء بالساكن وتقصير اللفظ . ومما يؤيد هذا التوجيه أن المالطيين لا ينطقون بالعين اذا وقعت فى آخر الكلمة فيقولون مثلا تلا وقلا فى طلع وقلع ، قال أحمد فارس : وقلب العين ألفا أو همزة هو من أساليب العرب ، كما فى تفصى وتفصع ، وأقنى وأقنع ، والشمى والشمع ، وتكأكأ وتكعكع ، وزقاء الديك وزقاعه ، وزأزأ وزعزع ، وبدأ وبدع ، والخباء والخباع وغيرها ، حتى انهم قلبوها متوسطة كما فى تأرض وتعرض ، ودأم الحائط ودعمه ، انتهى .

قلنا : ان الهمزة والعين من مخرج واحد فلا عجب أن تأتى ألفاظ بالهمزة وبالعين ومعناها واحد .

ثم قال أحمد فارس : انهم فى مالطة يجعلون الهاء حاء ، وأنشد من شعر المالطيين :

المحبوب تا قلبى سافر ليلى ونهارى نبكيح
جعلنلو بدموعى البحر وبالتنهيدات تا قلبى الريح

أى ليلى ونهارى نبكيه . وابدال الهاء حاء لغة من لغات العرب ، قالوا المليه والمليح ، والمده والمدح ، وتاه وتاح ، الى آخره .

قال : ومما بقى عندهم من فصيح العربية قولهم دارنادية . وحقها دارندية ولكنها أفصح من قول أهل مصر والشام دارناطية . ويقولون للداية قابلة ، ويقولون للرهان مخاطرة ، وللعلية غرفة . ويقولون عن لى بمعنى بدالى ، وتجالدوا وهو أفصح من تعاركوا ، وزفن أى رقص ، وبوقال وهى أفصح من قول أهل الشام شربة أو نعارة . ومن فصيح كلامهم يمارى أى لا يقنع بالحق ، ويشرق بالماء ، ويستقصى ، وفرصاد للتوت ، وسفود ، وأهل الشام يقولون سيخ وشيش . ويقولون تقزّر أي تباعد من الأدناس ، وعسلوج للقضيب ، وجلوز للبندق الذى يؤكل .

قال : ولكن هذه الألفاظ كلها مستعملة فى الغرب وبهذا يترجح أن أصل المالطيين من المغاربة . ولكنه فى محل آخر قال : انه لا شك فى كون اللغة المالطية

عربية ولكنى لست أدرى أصل هذا الفرع أشامى هو أم مغربى ، فان فيها عبارات من كلتا الجهتين والغالب عليها الثانية ، غير أن الألفاظ الدينية من الأولى فيقولون مثلا القداس والقديس والتقربن والأسقف مما لا يفهمه أهل المغرب اه .

قلت : ان فى المالطية ألفاظا واصطلاحات شامية ، وقد ورد هذا الرأى فى الانسيكلوبيدية الافرنسية ، ولكن الألفاظ المغربية هى بدون شك أكثر .

وذكر أحمد فارس من أوزان كلام مالطة فاعلة للمصدر، فيقولون عملته بالواقفة أو بالقاعدة ، والمصدر على هذا الوزن معروف فى العربية قال تعالى ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ أى من بقاء ، وقال تعالى ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أى كذب . ثم قال : ان بقاء العربية فى مالطة ولو محرفة مع عدم تقييدها فى الكتب دليل على مالها من القوة والتمكن عند من تصل اليهم من الأجيال ، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون أهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهيأ لهم وبقوا محافظين على ما عندهم خلفا بعد خلف ، وهؤلاء الانكليز يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات وما تهيأ لهم أن يعمموها عند المالطيين . ويقال ان الذى تحصل عند أهل مالطة من العربية مما هو مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة

بحث دقيق جليل

عن مغازى العرب فى اوربة وجزائر البحر المتوسط

بقلم

الأستاذ الأفضل السيد عبد العزيز الثعالبي رئيس الحزب الوطنى فى تونس

كان بلغنا أن لدى الأستاذ الأجل الأفضل السيد عبد العزيز الثعالبى ، وثائق ومعلومات لا توجد عند غيره ، فى موضوع فتوحات العرب فى جنوبى أوربة ، فاقترحنا عليه كتابة شيء فى هذ الموضوع نجعله كالقلادة فى جيد تأليفنا هذا ، فتفضل علينا حفظه الله ونفع به الاسلام بالخلاصة التالية :

ان أول واضع لخطة الفتوحات الاسلامية فى أوربة هو الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه . فانه حين ندب أخاه من الرضاع ، عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، لفتح بلاد شمالى افريقية ، ووافته البشائر بفوز جيوشه على جيوش جيجير والى سبيطلة من قبل البيزنطيين ، ندب القائدين البحريين الجليلين عبد الله بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين ، وكانا على الأسطول ، فأمرهما بالمسير الى الأندلس وكتب لهما وصية سياسية فى ذلك . تلك الوصية الخالدة التى يقول فيها : ان القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس ، وانكم ان فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية فى الأجر . وقد اتخذ ولاة شمالى افريقية وقواد أجنادها هذه الوصية نبراساً لسياستهم الاسلامية التى يسيرون عليها

وأول أمير شرع فى اعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصية الأمير حسان

ابن النعمان ، شيخ وزراء الدولة الأموية ، بعد أن دان له شمالى افريقية بالطاعة فقد أنشأ بفناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة ، وجلب لها الصناع من قبط مصر ، وسار على منهاجه فى ذلك مولاه طارق بن زياد بعد أن ولى المغرب ، فجاز بجيوشه أرض العدوة ، وناجز الأندلسيين سنة ٩٢ ثم تلاهما فى ذلك اسماعيل بن أبى المهاجر الذى تقلد امارة شمالى افريقية فى عهد عمر بن عبد العزيز فأغزى أساطيله جنوبى أوربة سنة ١٠٥ وكانت قيادتها لعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، ولم يعد إلا بعد أن أثخن فى ايطالية ؛ وهذه الغزوة تعتبر كبشير لانقاذ الايطاليين من حكم البيزنطيين الطغاة .

وفى ولاية عبيد الله بن الحبحاب لافريقية جهز أسطولا كبيراً جعل امارته لقائد جيوشه الموفق حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة الفهرى ، فغزاها سنة ١٢٣ ونكل فيها بالبيزنطيين أشد تنكيل ، ولو لم تحصل ثورة البربر ضد الحكم العربى بسبب تخميس أعشارهم لتملك شطوط ايطاليا وطهرها من حكم البيزنطيين كما فعل ذلك من قبل حسان ابن النعمان فى شمالى افريقية .

وفى سنة ٢٠٧ ، بعد استقرار الدولة الأغلبية جهز زيادة الله الأكبر أسطولا بامارة قائده محمد بن عبد الله التميمى لمنازلة سردينية ، ثم أعاد عليها الكرة سنة ٢١٢ ، وكانت امارة الأسطول والجيوش فى هذه المرة لقاضى القضاة الامام أسد بن الفرات ، فملك مازرة وحاصر سركوسة ، وحول أسوارها أدركت الامام الشهادة رضى الله عنه سنة ٢١٣ فتولى القيادة العامة صاحب أسطول الأندلس القائد اصبغ المعروف بفرغلوسن . وبعد أن استقرت الأمور فى البلاد المفتوحة قلد زيادة الله امارة ايطالية لابن أخيه ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب ، وما زال موالياً للجهاد حتى فتح بليرم ونابولى .

وفى ولاية أبى عقال الأغلب بن ابراهيم استؤنفت حرب التحرير فى ايطالية سنة ٢٢٤ وتم فتح صقلية .

وفى ولاية الأمير محمد الأول تقدمت الفتوحات فى شطوط ايطالية واستمرت

من سنة ٢٣٣ الى سنة ٢٤٠ ففتحت باتية وقطانية وبشيرة ·

وفى ولاية الأمير أبى ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ندب والى صقلية العباس ابن الفضل لغزو قصر الحديد ومدينة شلقودة وجهز الأسطول وأمر عليه أخاه وسيره لفتح جزيرة اقريطش فكان له واقعة مهولة فى البحر الرومى مع أسطول بيزنطية

وفى عهد أبى الغرانيق محمد الثانى بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد خفاجة الولاية على ايطاليا وأخرجه سنة ٢٥١ لفتح جنوة ففتحها وتقدم إلى جبال الألب واستمر فاتحا الى نهاية سنة ٢٥٢ وفى سنة ٢٥٣ سيرت بيزنطية أسطولا ضخما ، لمحاربة المسلمين فى شطوط أوربة الجنوبية ومنع جحافلهم من التقدم فى فرنسة ، فواقعهم خفاجة على شواطىء جنوة وسركوسة وألحق بهم خسارة عظيمة .

وفى سنة ٢٥٥ غزا الأسطول الأغلبى جزيرة مالطة واستولى عليها وألحقها بشمالى افريقية .

وفى عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد الحسن بن رباح ولاية جنوبى أوربة ونهده الى الغزو فيما يليها ؛ فتقدم الى مرسيلية وفتح البروفنص فاستنجدت فرنسة بالدولة البيزنطية فسيرت لها أسطولا مؤلفا من ١٤٠ مركبا ، فتلقاه الأسطول الافريقى فى عرض البحر الرومى فدارت بينهما معركة مهولة كان الفوز فيها للبيزنطيين بعد أن تحطمت شوانيهم والتجأت بقايا الأسطول الافريقى إلى بليرم · لكن الجيوش الاسلامية كانت تتوغل فى فرنسا واستمرت على ذلك من سنة ٢٦٦ إلى سنة ٢٧٢ فملكت بعض شواطىء الرون واحتلت كولونيا . غير أن عين البيزنطيين لم تنم عن هذه الفواجع ، فأعادوا كرة حملتهم البحرية وحاولوا فى هذه المرة قطع خطوط الاتصال بين جنوبى أوربة وشمالى افريقية ، فاحتل أسطولهم مدينة سبرية فقاومهم المسلمون مقاومة عنيفة منعتهم من التقدم ·

وفى سنة ٢٧٥ جهزت افريقية أسطولا عظيما لتعقب أسطول البيزنطيين وشل حركتهم عن التقدم فى الشطوط ، ولم يلبث أن اشتبك بالعدو وضربه الضربة الحاسمة ومكن سيادة المسلمين فى ايطاليا وجانب من فرنسا .

واستمر نجم الاسلام صاعدا فى أوربا بعد هذه الوقعة العظيمة وأمراء الأغالبة لا ينفكون عن تعزيز المسلمين فى ولايتهم الأوربية ومراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كل سعى فى الانتكاث حتى دان من كان فى حوزتهم من النصارى بالاسلام وتذوقوا حلاوة تحريره اياهم من ظلم الأمراء الاقطاعيين ، وطغيان الكنيسة الكاثوليكية واستمر ذلك الى أن ظهرت النبعة الآثمة نبعة الدعوة العبيدية فى قبيلة كتامة البربرية من المغرب الأوسط ، وقدر لها أن تجتاح الدولة الأغلبية فتعطل الفتح فى أوربا وانقلبت جيوش افريقية مغيرة على العالم الاسلامى لتقويض دولة بعد أخرى وهدم الخلافة العباسية القائمة فى المشرق وبسبب ذلك تحولت السياسة الاسلامية تجاه أوربا من الهجوم والتوثب الى الدفاع والتسليم .

ولم يجن أحد على الاسلام ماجناه عليه هؤلاء العبيديون أو الفاطميون واليك البيان :

لما تغلب عبيد الله المهدى على افريقية وزال عنها حكم بنى الأغلب كرهت الولايات الاسلامية فى أوربا أن تقدم طاعتها للمتغلبين ، فأجمع أصحاب الشأن فيها على اعلان الاستقلال حتى يمتنع نقل الجيش من أوربا الى افريقية ، فبايعوا بالامارة القائد أحمد ابن زيادة الله بن قرهب ؛ وبمجرد انعقاد هذه البيعة كتب الأمير الى المقتدر بالله الخليفة العباسى بالطاعة ، فأنفذ اليه المقتدر بالتقليد والخلع والالوية وطوق من الذهب ولما بلغ ذلك عبيد الله المهدى أخذ يسعى فى بث الدسائس والفتن بين المسلمين فى أوربا ، وما زال بهم حتى اختلت الامور على ابن قرهب فخلع سنة ٣٠٣ وقتل بعد أن وصل الى المهدية ؛ وعقب ذلك اجتمع أولو الحل والعقد من المسلمين فى دار الامارة ببليرم فكتبوا الى المهدى ، وذلك بعد أن بلغهم أنه جهز جيشاً لغزو المشرق

بقيادة الطاغية البربرى القائد حباسة بن يوسف يلتمسون منه تعيين الولاة والقضاة وأن يبقى لهم الجيش يدرأون به الاخطار أمام الاعداء الى غير ذلك من الشروط التى تضمن لهم الاستقلال الداخلى ولا تجعل بلادهم عرضة للغارة والفتوق ، فأبى أن يجيبهم الى هذه الطلبات العادلة ، وأخرج اليهم الجيوش والاساطيل وعين عليهم سعيد بن المضيف فحاصرهم شهورا ، وكانت البلاد ممتنعة عنه فتنحى عنها وأرجل جنود كتامة فى أرباض الشواطىء المفتوحة للنهب والسلب ، ففعلوا الافاعيل التى أفزعت النساء والذرية ؛ حتى إذا رأى المسلمون أنه لا طاقة لهم بهذا الفزع نزعوا إلى طلب الأمان فأمنهم بلا قيد ولا شرط . وعلى أثر ذلك احتل البلاد وهدم أسوار المدن وجرد حاميتها من السلاح والخيل وفرض المغارم الكثيرة ، ونصب سالم بن أبى راشد أميراً عليها وعززه بجيش من كتامة فكان دأبهم الاخفاش فى الظلم وسلب الأموال ، فانقبضت النفوس وخارت الهمم عن التوسع حتى طمع فيهم رعاياهم الايطاليون والفرنسيون

وفى عهد أبى القاسم بن عبيدالله المهدى عين لولاية أوربا خليل بن اسحاق الطاغية ؛ فقضى فى الحكم أربعة أعوام ارتكب فيها من الجور والفساد مالم يسمع بمثله ، وجعل المسلمين يفرون أفواجاً أفواجاً إلى البلاد النصرانية ويتنصرون . ويحدثنا عنه المؤرخون أنه لما عاد سنة ٣٢٩ إلى شمالى افريقية كان يفتخر بمظالمه ، فقد حضر مجلساً من وجوه الدولة العبيدية فى قصر الامارة وكانوا يتباحثون فى شئون الدولة ، فقال : إنى قتلت فى إمارتى ألف ألف نسمة ، فرد عليه أبوعبد الله المؤدب ، وكان من عقلاء الرجال فى الدولة الشيعية : « لك يا أبا العباس فى قتل نفس واحدة مايكفيك »

وفى أيام الأمير تميم الملقب بالمعز لدين الله وجه القائد جوهرا فى الغزوة الثانية على مصر سنة ٣٥٧ بعد وفاة صاحبها كافور الأخشيدى فاستولى عليها وبنى له مدينة

القاهرة . وفى سنة ٣٦١ رحل المعز إلى المشرق واتخذ القاهرة عاصمة لملكه واستخلف على افريقية أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى مؤسس الدولة الصنهاجية ؛ فكان همه ضبط البلاد وتكوين الشعور بالوحدة البربرية ، فشعرت الأمم النصرانية المتاخمة للمسلمين فى أوربا بسريان هذا الضعف والانحلال فى قوة التماسك بالوحدة الاسلامية ، فأخذوا يواثبون المسلمين فى كل مكان ، وما زالوا يجمعون ويؤلبون عليهم الى أن وافتهم سنة ٣٧٢ ، فحشدوا قواهم لمناجزة المسلمين فى فرنسة . ولما بلغ ذلك أبا الفتوح أمر عامله على جنوبى أوربا أن ينهد لقتالها فتحرك اليهم فى جيوش كثيفة ودارت بينهم معارك ارتدت فيها النصرانية على الأعقاب وفاز فيها المسلمون فوزاً عظيما . فما كان من الملك روجار النرماندى قائد هذه الحملات الصليبية الأولى إلا أن استنفر الأمم النصرانية لمحاربة الاسلام فى أوربا وافريقية

وكان النرمنديون نزلوا من شمال فرنسة إلى جنوبها ثم شرعوا يتعقبونهم ويناجزونهم فى إيطاليا ويفتكون منهم المدن ، مدينة إثر مدينة ، حتى ملكوا جميع البلاد الاسلامية فى جنوب أوربا . ومما ساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية أواخر حكم المعز بن باديس إثر الزحفة الهلالية التى سيرها اليهم العبيديون سنة ٤٥٢ من مصر لتقويض معالم شمالى افريقية

ولم تقف أطماع النرمنديين على ازالة الحكم الاسلامى من أوربا ، بل جنحوا الى التغلب على المسلمين فى مواطنهم الآمنة بافريقية ، فهجموا فى سنة ٤٧٦ على المهدية دار المملكة الصنهاجية بأسطول مؤلف من ٣٠٠ مركب عليه ٣٠ ألف مقاتل ، وكانت المدينة مفتوحة غير محصنة فتغلبوا عليها وعلى زويلة ، وأحدثوا فيها مقتلة ذريعة ، وحرقوا وخربوا المعالم المشهورة وأخيرا صالحهم تميم بن المعز بن باديس على مائة الف دينار وما انتهبوه من الاموال وسبوه من النساء والذرارى .

ولما انتقل الحكم الى الامير حسن بن على بن تميم بن المعز بن باديس سنة ٥١٦

أراد غسل العار الذى لحق الدولة من فعل النرمنديين ورد مافقدته من الأقطار الواسعة فى أوربا ، فندب لذلك حليفه الأمير على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى صاحب العدوتين أن ينهد لقتال النرمنديين ؛ فأغزى أسطوله شطوط أوربا الجنوبية ، وكان بقيادة أبي عبدالله ميمون ، فأثخن فيهاقتلا وسبيا ورد أمم النصرانية على أعقابها بعد أن هلك من الطرفين عدد لايحصى . ولم تخمد هذه الكارثة همم النرمانديين وتقعد بهم عن استئناف حملتهم على المهدية ، فأعادوا الكرة عليها فى أساطيلهم أواخر جمادى الأولى سنة ٥١٧ فتلقاهم آساد العرين فى كل مكان وتخطفتهم السيوف حتى أبيدوا عن آخرهم ، وغنم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأموالهم ، فكانت وقعة عظيمة أنعشت أرواح المسلمين بعد طول الخمود ؛ ولكن الصليبيين لم يكفوا عن متابعة الغارة فأعادوا الكرة على المهدية سنة ٥٤٣ فاحتلوها بعد وقائع مهولة وخرج منها السلطان حسن بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بجملته وحاشيته الى جزائر بنى مزغناى (الجزائر) وجعل الصليبيون المهدية قاعدة لحركتهم الحربية فى شمالى افريقية وشن الغارة منها على ما يليها من الشطوط التى استولوا عليها ، وقد مكثوا بها الى أن أجلاهم عنها أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على فى المحرم سنة ٥٥٥ ولولا نجدته لكانت بلادنا اليوم بلاداً نصرانية من غير شبهة . انتهى

كتابات عربية

على القبور الاسلامية فى مالطة

بعد ان اتممنا كتابنا المتضمن غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ومن جملتها جزيرة مالطة اطلعنا على رسالة للمستشرق الايطالى (ايطورى روسي) Ettore Rossi الذى يعد من اعلم المستشرقين باحوال مالطة ان لم يكن اعلمهم وهو الذى حرر الفصل المختص بمالطة فى الانسيكلوبيدية الاسلامية واجتمعنا مع الاستاذ المشار اليه فى رومة فى هذه الايام الاخيرة وتباحثنا فى تاريخ مالطة وكثير مما يتعلق بشؤونها وهو الذى قدم لنا رسالته هذه باللغة الايطالية فاحببنا ان ننقل ما جاء فيها من الكتابات العربية التى وجدت على القبور الاسلامية فى مالطة والتى جمعها ايطورى روسى وصورها بالفوتوغرافية ونشر صورها فى الرسالة المذكورة فنحن آثرنا نقلها كما وجدناها فى رسالته اتماما للفائدة

ومما جاء فى صدر هذه الرسالة ان نزول العرب فى مالطة وقع بحسب الرواية المشهورة فى سنة ٢٥٦ للهجرة وانه من المعلوم ان ابا الاغلب ابراهيم غزا جزيرة صقلية سنة ٢٢١ للهجرة اى ٨٣٥ ـ ٨٣٦ للمسيح واستولى عليها فغير معقول ان يكون استولى على صقلية وترك مالطة وهى اقرب الى افريقية من صقلية فلابد ان يكون استيلاء المسلمين على مالطة وقع قبل سنة ٢٢٦ للهجرة وفق ٨٦٩ ـ ٨٧٠ للمسيح

اما تاريخ استخلاص مالطة من ايدى المسلمين فيذكرون انه وقع بين سنة ٩٩٢ للمسيح وسنة ١٠٢٥ وذلك بالغارة البيزانطية . ولكن مما لا شك فيه ان المسلمين بعد ان استرجع المسيحيون مالطة بقوا يسكنون الجزيرة نحوا من مئتى سنة اى الى سنة ١٢٢٤ بل الى سنة ١٢٤٩ بحسب رواية العلامة آمارى Amari مؤرخ صقلية

وهذه هى نصوص الكتابات التى وجدت فى المقابر الاسلامية فى مالطة ننقلها كما وجدناها فى الرسالة المذكورة :

بسم الله الرحمن | الرحيم وصلى الله | على النبي محمد وعلى | آله وسلم تسليما لله | العزة والبقا وعلى خلقــه كتب الفنا ولـكم فى رسول الله اسوة حسنة هذا قبر | ميمونة بنت حسان بن على الهذلى عرف ابن السوسى | توفيت رحمــة الله عليها يوم الخميس السادس عشر | من شهر شعبان السكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة | وهى تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له

انظر بعينيك هل فى الارض من باقى　　أو دافع الموت أوللموت من ر | اقى
الموت اخرجنى قصرا فيا اسفى　　لم ينجنى منه أبوابى واغلا | قى
وصرت رهنا بما قدمت من عمل　　محصا على وما خلفته باقى
يامن رأى القبر انى قد بليت به　　والترب غـبر أجفانى و | آماقى
فى | مضجعى | ومقامى فى البلا | عبر　　وفى | نشورى | اذاما جئت خلاقى
| اخى فجد | وتب | .

بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحـد الله الصمد لم يـلد ولم يولد ولم (. . .
توفى . . . يوم الأربعا ودخل قبره يوم الخميس من العشر الاو (. . .
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ادعو ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المع (. . .
. . .) محمد وآله وسلم تسليما ان ربكم الله
. . .) م ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات
بأمره الا له (؟)
(بسم الله الرحمن الرحيم وصـلى الله على سيـ)ـدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما فاز
(كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركـ)ـم يوم القيامة فمن زخرج عن النار وأدخل الجنة فقد
وما الحيات الدنيا الا متاع الغرور هاذا قبرالشيخ المرحو (م . . .)
توفى رحمه الله فى العشر الأول من صفر عام ثمانية وسبعيـ(ن . . .)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر محمد... توفى يوم الثلاثة فى ذى الحجة بسنة ثلاث و . . .

(. . .) الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون (. . .)

(. . .) العلى العظيم لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت (. . .)

(. . . لقـ)ـد جاكم رسول من أنفسكم رؤوف فان تولوا لا اله ألا هو عـ(ـليه . . .)

(...) من شعبان سنة ستة واربعين وخمسائة رحمة الله ورضوانه وصلى الله على محمد (...)

(... أجـ) وركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحيات (...)

(...) فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر (...)

كل نفس (...)

سلام على أهل (القبور ...)

... عند | ه الا باذنه يعلم ما بين (...)

... لمعطى محمد

قف بالقبور ...

بسم الله الر(حمن ...)

هذا قبر (...)

(... زحـ)ـرج عن النار و (...)

(... ا) لا متاع الغرور

(٢٠ +لوحة)

... الرحيـ)م هذا قبر أمة الله بنت أبو القاسم ابن عرو (ة)

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

... الله ...

وانما تو(فون أجوركم ...)

بسم الله الرحمن (الرحيم)

... (ا) براهيم الصمطى

بسم الله الرحمن الرحيم

... والحـ ...

توفى يوم الخميس الثامن من ... سنة ...

... وخمسمائة

بسم الله الرحمن الرحيم (...

... لله الله (...

بسم الله الر (حمن الرحيم ..)

... النار وادخل الجنة ...

عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم

لا اله

الا الله

محمد ر

سول الله

بسم الله الرحمن الرحيم الله لا اله الا هو الحى القيو(م ...)

أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه الا (...)

(...) الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور

(...) شربة ولم يأ كلوا من كل رطب ويابس

(... صلى الله ..) محمد وآله وسلم تسليما ان ... (...)

(...) ... الا له ... (...)

(... أجور) كم يوم القيامة فمن زحرج عن النار و (...)

(... و) لا نوم له ماق السموات وما فى الأرض (...)

سلام على أهل القبور الدوارس كأنهم لم يجلسوا فى المجالس

ولم يشربوا من بارد الماء شربة ولم يأ كلوا مابين رطب ويابس

هذا قبر ؟

... عبد

العزيز ...

ورحم الله من

دعا له بالرحمة

(تم والحمد لله فى البدإ والنهاية)

ص

٨٥ { التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول تأليف الشيخ منصور على ناصف
مجلد بالقماش فى خمسة مجلدات وهذا الثمن مدة الاشتراك فقط }

١٠ أقضية الرسول صلى الله عليه وسلم للقرطبى

١٥ تاريخ التشريع الاسلامى لمحمد بك الخضرى

٢٠ محاضرات الدولة العباسية « «

٣ غوث العباد ببيان الرشاد تأليف الشيخ مصطفى أبى سيف الحمامى

٥ دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك الى الامام أحمد فى الرد على ابن تيمية

٨٠ شرح البهجة لشيخ الاسلام زكريا الانصارى فى خمسة أجزاء

٤ مبادئ اللغة للخطيب الاسكافى

١٠ ألفية السيوطى فى علم الحديث مع شرح واف لفضيلة الاستاذ احمد محمد شاكر

٢ ألفية السيوطى فى النحو للامام جلال الدين السيوطى

٥ الحكمة البالغة ديوان خطب منبرية للمخضوب

١٨ لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى مجلد بالقماش

٢٢ قاموس آيات القرآن الكريم مجلد بالقماش خير مرشد للآيات

٧ { بهجة الحاوى وبهامشه التيسير فى نظم متن التحرير .والتدريب فى نظم غاية
التقريب للعمريطى مجزع }

أحسن القصص

٥ مختصر قصص الأنبياء

٨ مختصر أولى العزم من الرسل : نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد عليهم الصلاة والسلام

٨ مختصر سير الخلفاء الراشدين

تحت الطبع

مختصر سير أئمة الدين وبعض الصالحين

مختصر سير أمهات المؤمنين وبعض شهيرات النساء المسلمات

فهرست الكتاب

الصفحة

الصفحة

